الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة باتنة1

كلية العلوم الإسلامية | نيابة العمادة لما بعد التدرج والبحث العلمي

قسم اللغة والحضارة الاسلامية | والعلاقات الخارجية

الآثار الحضارية للصراعات العسكرية في الأندلس إبان عصر ملوك الطوائف (ق5هـ/11م)

أطروحة مكملة مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه الطور الثالث في العلوم الاسلامية

تخصص: اللغة والحضارة الاسلامية

إعداد الطالب:

الصالح بليل

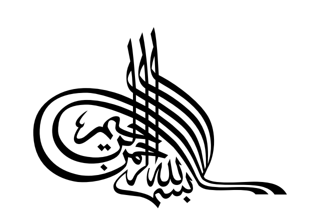
إشراف الأستاذ الدكتور:

جمال بن دعاس

<u>لجنة المناقشة</u>

الاسم واللقب	الدرجة العليمية	الجامعة الأصلية	الصفة
رضا شعبان	أستاذ	جامعة باتنة1	رئيسا
جمال بن دعاس	أستاذ	جامعة باتنة1	مقررا
علي عشي	أستاذ محاضر (أ)	جامعة باتنة1	عضوا
عبد الحميد بعيطيش	أستاذ محاضر (أ)	جامعة باتنة1	عضوا
كمال بن مارس	أستاذ	جامعة قالمة	عضوا
رابح أولاد ضياف	أستاذ محاضر (أ)	جامعة قالمة	عضوا

السنة الجامعية 1439 / 1440هـ - 2019/2018



﴿ ...وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ (46) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ (47)...﴾

الأنفال : 47-48

إهداء

إلى من كانا بعد الله سببا في وجودي أبواي الكريمين ألبسهما

الله تاج الوقار

إلى التي ما فتأت تعفيني من التزامات الأسرة وتحفزني وتدفعني

لألحق في سماء العلم والمعرفة.....زوجتي متعها الله بالصحة والعافية

إلى ثمرات فؤادي عبد الباري وسلسبيل وضياء الدين

إلى كل المثابرين المقتحمين لغياهب التاريخ

أهدي هذا العمل

شكر وعرفان

الشكر لله أولا الذي منحني القوة والصبر اللازمين لإنجاز هذا البحث

ثم الشكر للأستاذ الدكتور جمال بن دعاس الذي تكرم- رغم انشغالاته الكثيرة - بالإشراف على هذا البحث وأحاطه بالتوجيهات والملاحظات اللازمة حتى أبصر النور

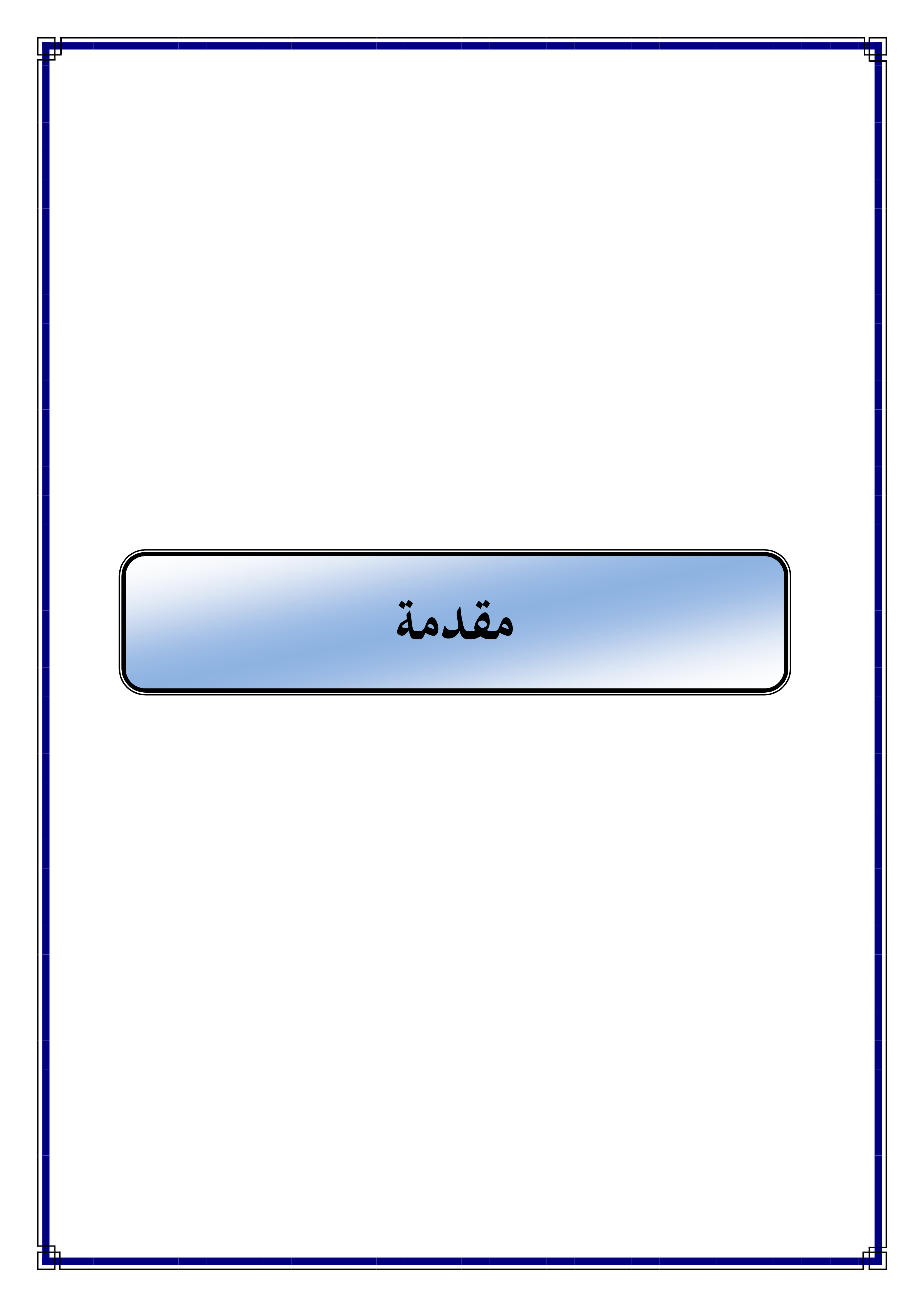
الشكر موصول إلى أعضاء لجنة المناقشة الذين أتشرف بالجلوس بين أيديهم للاستفادة من علمهم وخبرتهم ونصائحهم وتوجيهاتهم القيمة أشكرهم على قبولهم مناقشة هذا العمل المتواضع

كما أشكر الدكتور لخضر بولطيف الذي كنت أستنجد به من حين لآخر لحل بعض الإشكالات التاريخية

و لا يفوتني أن أشكر كل من ساعدني من قريب أو من بعيد

المختصرات

مج	مجلـــد
ع	عدد
ق	قسم
ج	جزء
هـ	هجري
م	ميلادي
ط	طبعة
د.ط	دون طبعة
د.ت	دون تاريخ
د.م	دون مكان النشر
د.ن	دون ناشر
"..."	اقتباس مباشر
(...)	كلام مبتور
كلم	كيلومتر
ت	توفي
مل	ملحق



مقدمة

تعتبر الصراعات العسكرية مظهرا من مظاهر التدافع بين بني الإنسان منذ وجدو على هذه الارض تحركها وتتحكم فيها دوافع شخصية وأخرى يمليها المحيط الخارجي، وقد طبعت هذه الصراعات فترات معينة من تاريخ البشر ومنها الفترة التي تعرف تاريخيا بعصر ملوك الطوائف بالأندلس الإسلامية والتي يتفق المؤرخون بأنها شهدت أكثر الصراعات العسكرية عنفا ودموية واتسمت بالفوضى والاضطراب.

إن الصراعات العسكرية التي عصفت بالأندلس في هذه الفترة لم تكن وليدة الصدفة ولم تأت من فراغ بل هي تنيجة طبيعية لتصرفات غير محسوبة صدرت من أشخاص لا يفقهون في أمور السياسة والحكم شيئا نقضوا بنيان الخلافة إلى غير رجعة، وأخص بالذكر هنا عبد الرحمن بن أبي عامر (شنجول) ومحمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي.

لقد ولدت دويلات الطوائف مع بداية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وفي معركة **قنتيش**[1] تحديدا وبلغ عددها حسب بعض المؤرخين ستين دويلة[2]، وعمَّر بعضها حتى بداية القرن السادس الهجري لذلك اعتبر القرن الخامس كله عصر ملوك الطوائف على غرار عدد من المؤرخين[3].

إن الصراع الذي يعالجه هذا البحث هو الصراع العسكري أي الذي استعمل فيه الجيش بكامل معداته الحربية المتاحة آنذاك أداة للتغلب على الخصم، وإخضاعه، وحسم المشاكل العالقة بين طرفين أو أكثر، فأطراف الصراع في الأندلس في عصر الطوائف من ملوك الدويلات الإسلامية أو من ملوك النصارى كانت تحشد العساكر لشن الغارات على جاراتها واقتطاع أجزاء منها وقد وصل الأمر إلى حد عقد تحالفات بين اخلاط عرقية غير متجانسة أحيانا لتحقيق مصالح تبدوا في الظاهر أنها مشتركة، فتحالف العرب مع البربر، كما تحالفوا مع النصارى ضد إخوانهم وكذلك فعل البربر والصقالبة.

لا يقتصر هذا البحث على الحروب التي اندلعت بين الإخوة الأعداء بل يشمل تلك التي كانت بينهم وبين النصارى أيضا في شبه الجزيرة الأيبيرية، وكانت أداتها الجيش النظامي المدجج بالسلاح، والمرتزق التي يتصيد الجوائز، وإذا كان العقلاء يتفقون بأن الحروب والصراعات العسكرية تزرع الدَّمار والخراب في

[1]- قنتيش موضع يقع في الشمال الشرقي للقليعة غير بعيد من ملتقى وادي أرملاط بالوادي الكبير. ينظر ابن بشكوال: الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم،حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2010، مج1، ص 51؛ بشأن تواريخ استقلال الأقاليم ينظر محمد نايف العمايرة:التاريخ السياسي لمدينة بلنسية، رسالة دكتوراه في التاريخ غير منشورة ، الجامعة الأردنية، 1995، ص 18، 39.

[2]- محمود مكي:تاريخ الأندلس السياسي (62-897هـ/711-1492م) دراسة شاملة، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1999،ج1، ص 99.

[3]- ممن يرى بأن عصر الطوائف يبدأ من هذه اللحظة حسين مؤنس وكمال السيد أبو مصطفى ينظر ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985، ج2، ص6؛ كمال السيد أبو مصطفى: دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، (د.ط)، 1997، ص 68.

الأماكن التي تكون مسرحا لها، وتصيب الحياة بالشلل في جميع مناحيها المختلفة السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعلمية، فإنّها تكون في الكثير من الأحيان سببا في انتعاش الكثير من المجالات الحضارية، وتدفع بعجلة الحضارة إلى الأمام، وعلى رأي الحكماء ربَّ منحة في طي محنة.

من هنا جاء هذا الموضوع لبحث الصراعات المسلحة التي دارت رحاها في شبه الجزيرة الأيبيرية وما خلفته من آثار متنوعة سلبية وإيجابية بعنوان: **الآثار الحضارية للصراعات العسكرية في الأندلس إبان عصر ملوك الطوائف (5هـ/11م)** لتتبع هذه الآثار على الجوانب الحضارية المختلفة في المصادر والمراجع التي كتبت عن هذه المرحلة.

إشكالية البحث:

ما مدى تأثر الجوانب الحضارية في أندلس ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري بالصراعات العسكرية التي دارت رحاها هناك وما طبيعة هذه الآثار وتجلياتها؟ .

وتندرج تحت هذه الإشكالية جملة من الأسئلة الفرعية منها :

- كيف أثَّرت الصراعات العسكرية على الحياة السياسية والاقتصادية لدويلات الطوائف ؟
- ما مدى تأثير هذه الفوضى على البنية الاجتماعية بمختلف أبعادها؟
- هل دفعت الصراعات العسكرية بالحياة العلمية والمعرفية إلى الأمام أم كبحت حركتها؟
- ما مدى مساهمتها في تخلف الأندلس أو ارتقائه على صعيد الآداب الفنون؟

وقد جاءت هذه الدراسة للإجابة على هذه التساؤلات.

أهمية الموضوع:

تكمن أهمية هذا الموضوع في كونه يركز على مرحلة حرجة من تاريخ الأندلس اتسمت بالفوضى والاضطراب والنزاعات المسلحة التي تركت آثارا واضحة للعيان وبدرجات متفاوتة في كل ميدان من ميادين الحياة ، ولا شك بأن تتبع هذه الآثار في مظانها والوقوف عليها والإلمام بها سيجلي لنا من جهة حجم التحولات التي أحدثتها هذه النزاعات في بنية المجتمع الأندلسي في هذه الفترة وسيرسم لنا من جهة أخرى صورة واضحة المعالم لهذه الحقبة التاريخية العصيبة.

أسباب اختيار الموضوع:

أولا: الأسباب الذاتية:

– شغفي بالتاريخ الأندلسي منذ مرحلة الماستر، فبعد قرائتي لمجموعة من مصادره وجدت في نفسي الرغبة للإطلاع على المزيد من أخباره.

– أثرت الفوضى وأعمال العنف التي طبعت الأندلس في القرن الخامس الهجري في نفسي فوجدتُني مشدودا نحو هذه الفترة أقلب صفحات المصادر والمراجع للإلمام بتفاصيلها الدقيقة.

ثانيا: الأسباب الموضوعية:

– لا تزال بعض المساحات من تاريخ الأندلس لم تنل حقها من البحث والتمحيص من قبل المؤرخين والباحثين ومنها الفترة محل الدراسة لا سيما في شقها المتعلق بالصراعات العسكرية وآثارها على الجوانب الحضارية.

أهداف البحث:

يسعى هذا البحث لتحقيق جملة من الأهداف منها:

– سد الفراغ المعرفي الملحوظ في الدراسات التي تناولت عصر ملوك الطوائف، إذ لم أجد اهتماما بالآثار الحضارية للصراعات المسلحة في هذه الفترة.

–الكشف عن حجم التحولات التي أحدثتها الصراعات العسكرية في الجوانب الحضارية بالأندلس سواء تلك التي نشبت بين ملوك الطوائف أو التي وقعت بينهم وبين ملوك النصارى.

–معرفة اتجاه مُؤشر الحضارة في هذه الفترة المضطربة.

–إثراء المكتبة التاريخية العربية والإسلامية.

منهج البحث:

– وظفت المنهج التاريخي الاستردادي الذي يسترجع الماضي إلى زمن الباحث ويجعله حاضرا ماثلا أمامه إلى جانب الاعتماد على المنهج الاستقرائي من أجل استقراء وتتبع الآثار التي خلفتها الصراعات العسكرية بالأندلس في عصر ملوك الطوائف على مختلف الأصعدة والمستويات مع توظيف آلية التحليل لتحليل ما يحتاج إلى ذلك من الأخبار.

-لم أقم بالترجمة لبعض الأعلام وإنما قمت بالإحالة عليها لسهولة الإطلاع عليها في مظانّها .

الدراسات السابقة: في حدود اطلاعي لا توجد دراسة سابقة تناولت الآثار الحضارية للصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف ، فكل البحوث التي تناولت هذه الحقبة التاريخية ركزت على بعض الجوانب الحضارية فيها كالجانب الثقافي أو الاجتماعي أو العلمي أو السياسي وأحيانا تدرس هذه الجوانب في مملكة بعينها.

ومن تناول هذه المجالات بالدراسة:

- يوسف أحمد حواله: بنوا عباد في اشبيلية دراسة سياسية وحضارية، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، السعودية، 1980.حيث درس هذه المملكة من جانبين الجانب السياسي والجانب الحضاري أما الجانب الأول فقد تتبع فيه الدولة العبادية من الظهور إلى الأفول وما تميزت بها كل مرحلة من مراحلها التاريخية وعلاقة ملوكها بالنصارى في الشمال أما الجانب الحضاري فقد تتبع فيه الإنجازات الحضارية في ميادين الحكم والاقتصاد والاجتماع والعلم والعمران وكان الباحث من حين إلى آخر يشير على عجل للصراعات العسكرية لكنه لا يقف عند آثارها وهذا ما اضطلعت به في بحثي، وما يقال عن هذه الرسالة يقال عن غيرها من الرسائل التي تناولت ممالك الطوائف بالدراسة إما سياسيا او حضاريا.

-لخميسي بولعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية في عصر ملوك الطوائف، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، قسم التاريخ والآثار، جامعة باتنة، 2006.ركز صاحب هذه الدراسة على جانبين من جوانب حياة الأندلسيين وهما الجانب الاجتماعي والجانب الثقافي، ففي الجانب الأول عمل على تقديم صورة للحياة اليومية للأندلسيين في عصر الطوائف من خلال إبراز مظاهرها التي تمظهرت بها، أما الجانب الثقافي فوجدت بأنه يقصد به الحياة العلمية والفكرية للانسان الأندلسي في هذه المرحلة، ولكنه لم يشر إلى آثار الصرعات العسكرية على المجالين فعملت على رصد مدى تأثر هذين الجانبين بالصراعات العسكرية التي طبعت هذه المرحلة.

-سعد عبد الله البشري : الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس وهي رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي غير منشورة بجامعة أم القرى نوقشت سنة 1986. وهذه الرسالة اهتمت بدراسة جانب واحد من الجوانب الحضارية بالأندلس في عصر الطوائف وهو الجانب العلمي حيث عمل الباحث على تتبع الإنتاج العلمي والفكري للأندلسيين في هذه المرحلة وتحديد أهم العوامل والأسباب التي ساعدت على ازدهاره مع بيان مظاهر ذلك الازدهار وقد بينت طبيعة العلاقة بين الصراعات العسكرية والحياة العلمية في هذا القرن.

-رابح رمضان: النشاط التجاري بالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين 10-11م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي الوسيط غير منشورة، جامعة وهران، قسم التاريخ وعلم الآثار، 2007-2008. حيث تحدث فيها عن العوامل المختلفة المؤثرة في النشاط التجاري في هذين القرنين ومظاهر الحركة التجارية وآلياتها وأهم السلع والمنتجات التجارية وقد درس ذلك على مستويين الخاجي والداخلي، وقد حاول معرفة مدى تأثر حركة هذا النشاط بالصراعات العسكرية إيجابا وسلبا لأنه أهملها.

- وردة العابد: القيادة العسكرية في الثغرين الأدنى والأعلى بالأندلس في القرن الخامس الهجري حتى الربع الأول من القرن السادس الهجري(ق11-12م)، رسالة ماجستير غير منشورة في التاريخ الوسيط، تخصص تاريخ وحضارة بلاد الأندلس، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008.فهذه الدراسة اختصت بالدراسة دويلتين من دويلات الطوائف وهما سرقسطة وطليطلة المجاورتين للممالك النصرانية في الشمال حيث عمل الباحث على إبراز دور القيادة العسكرية في حماية هذين الثغرين من الاختراق النصراني أو عدم حمايتهما، ومدى فعالية الأسلحة المستخدمة في ذلك ومدى نجاح القادة العسكرين في إدارة الصراعات سيما مع النصارى وكيف كانت نتائج الحروب بين الطرفين، ولكن لم تتطرق بشكل واضح لآثار هذه المواجهات على الجوانب الحضارية في أندلس عصر الطوائف وهذا ما قمت بمعالجته.

وهناك دراسات اجتماعية حول هذه الفترة تناولت عنصرا معينا في المجتمع كالمرأة والرقيق واليهود والنصارى والبربر والصقالبة وغيرها.

خطة البحث:

وقصد معالجة إشكالية هذا البحث والإجابة على التساؤلات المطروحة قسمت البحث إلى مبحث تمهيدي وثلاثة فصول وخاتمة.

المبحث التمهيدي وفيه مطلبين خصصت المطلب الأول منه للمفاهيم حيث عالجت أربعة مفاهيم تشكل المعالم الكبرى للعنوان وهي على التوالي الآثار والحضارة والصراع والعسكر، حيث قمت بتتبع المعاني والدلالات اللغوية لهذه الألفاظ في بطون المعاجم اللغوية المعروفة ثم بعد ذلك أوردت التعريفات الإصطلاحية التي عرّف بها كل مصطلح وقد وجدت نفسي مجبرا على تتبع سيرة المصطلح ميلادا ونشأة وتطورا من أجل بيان التغيرات التي طرأت عليه خلال مسيرته، ولما كانت هذه الألفاظ في العنوان قد أضيف بعضها إلى بعض فأضيفت الآثار إلى الحضارة وأضيف الصراع إلى العسكر عملت بعد الفراغ من تعريفها منفصلة إلى الجمع بينها وكان المعنى يتغير عند الجمع فكانت تشكل وتتبلور معان جديدة.

وجعلت المطلب الثاني من الفصل التمهيدي للتأطير التاريخي، فأوردت ما يشبه النبذة التاريخية للأندلس الإسلامية منذ دخول المسلمين إليها حتى عصر الطوائف، فتحدثت عن جغرافيتها، وأصل تسميتها بالأندلس، وكيف كانت شبه الجزيرة الأيبيرية قبل دخول المسلمين إليها، ثم تحدثت عن أوضاع الأندلس قبيل عصر الطوائف، وماذا نعني بممالك الطوائف، وما هي المراحل التي مرت بها من الميلاد حتى الأفول.

أما الفصل الأول فقد خصصته لبيان الآثار السياسية والاقتصادية للصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف، وقد اقتضى الترتيب البدء بالآثار السياسية، فقمت برصدها على الصعيدين الداخلي والخارجي لدويلات الطوائف، فعلى الصعيد الداخلي بينت مدى مساهمة الصراعات العسكرية في إيجاد الكيانات الجديدة وتفتيت الكل إلى أجزاء لا يربطها ببعضها رابط، ومدى تحكمها في شكل هذه الدويلات وفي أنظمة الحكم التي تحكمها وفي العلاقة بين الرجال الذين يديرون دفة الحكم فيها، وعلى الصعيد الخارجي حاولت أن أجلي تأثير هذه الصراعات على حركة الجهاد الإسلامي وحروب الاسترداد المسيحية وسياسة الأحلاف التي طبعت هذه المرحلة من تاريخ الأندلس.

وخصصت المبحث الثاني من هذا الفصل لبيان الآثار الاقتصادية لهذه الصراعات، فتتبعتها على مستوى موارد الدويلات ومصارفها، وعلى مستوى السياسة النقدية، كما عملت على إبراز آثارها على البنية التحتية، وعلى قطاعات الإنتاج الثلاثة الزراعة والصناعة، والتجارة.

وفي الفصل الثاني تتبعت الآثار الاجتماعية والثقافية لهذه الصراعات، في مبحثين، ففي المبحث الأول بحثت آثار هذه الصراعات على الحياة الاجتماعية، فبينت دورها الصراعات في التقسيم الطبقي لمجتمع الطوائف ومفردات ذلك التقسيم، كما وضحت علاقة هذه الصراعات بمظاهر البؤس التي خيمت على الشعب الاندلسي برمته كالفقر والمجاعات والانتهاكات المختلفة، ثم انتقلت إلى بيان مدى مساهمة هذه الصراعات في استنزاف الخزان البشري للأندلس كون البشر هم وقود الحروب.

وخصصت المبحث الثاني لرصد هذه الآثار في الحياة الأسرية والصحية فبينت علاقتها بالتمزق والتشرذم الذي طال الأسر الأندلسية في هذه الفترة، وكذا تحكمها في حركة الهجرة الداخلية والخارجية للأفراد، ومدى مساهمتها في ارتقاء أو انحطاط أخلاق الحكام والمحكومين على السواء، ولم أغفل عن دراسة آثارها على الحياة الصحية، فتتبعت ذلك على مستويين على مستوى الأمراض والأدوية، وعلى مستوى الأطباء والصيادلة.

وفي الفصل الثالث بحثت الآثار الثقافية لهذه الصراعات، فتتبعت آثارها في الحياة العقلية على مستوى الأديان والمذاهب وعلى مستوى التيارات والأفكار وعلى مستوى التفاعل بين مكونات الشعب

الأندلسي، كما بينت آثار هذه الصراعات على العلوم وحركة التأليف والترجمة،كما لم أنس تتبع هذه الآثار على الحياة التربوية والتعليمية، فتتبعتها على مستوى المدارس والمدرسين وعلى مستوى المناهج التعليمية، وآخيرا رصدت آثار هذه الصراعات على الحياة الأدبية، والفنية، فتتبعتها في اللغات والشعر والنثر، وفي الفنون السماعية وفنون الزخرفة والتشكيل.

صعوبات البحث:

يعتبر غياب الدراسات التي تهتم بالآثار الحضارية للصراعات العسكرية في الأندلس أهم عائق يعترض طريق هذا البحث كما أنَّ كثرة عدد دويلات الطوائف جعل الإلمام بكل ما كتب حولها أمرا شاقا، وزاد من تعقيد الأمور اعتماد المؤرخين الذين عاصروا المرحلة في تأريخهم لدويلات الطوائف على المنهج الحولي الذي حال دون تسلسل المادة التاريخية المتعلقة بكل مملكة وهذا يشتت الذهن ويجعل الإلمام بأخبار كل مملكة أمرا عسيرا ناهيك عن عائق المدة الزمنية التي خصصت لإنجاز البحث فقد كانت قصيرة جدا، وآخر هذه العوائق هي اللغة الإسبانية، فالكثير من البحوث حول الأندلس أنجزت بها.

وقد اقتضى إنجاز هذه الرسالة الرجوع إلى عدد كبير من المصادر التاريخية والجغرافية والأدبية وكتب التراجم العامة وكتب الرجال والطبقات وكتب الفقه والحسبة الأندلسية وغير الأندلسية، كما اعتمدت على عدد ليس باليسير من المراجع والدراسات الحديثة التي لها علاقة بالبحث بشكل من الأشكال أذكر هنا أهمها وأرجئ الباقي إلى قائمة المصادر والمراجع.

دراسة وتحليل لأهم مصادر ومراجع البحث:

مصادر متنوعة:

كتب الأدب:

-الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة لمؤلفه أبي الحسن علي بن بسام الشنتريني (ت 542هـ/1147م): وهي موسوعة أدبية بالدرجة الأولى تاريخية في المقام الثاني أراد صاحبها التعريف فيها بالإنتاج الأدبي لأدباء القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بالأندلس، فأورد لُمعًا من أشعارهم ونثرهم، وقد قسمه إلى أربعة أقسام فجعل القسم الأول منه لأهل قرطبة وما يصاقبها من بلاد متوسطة الأندلس ضمَّنه أخبار وأسماء أربع وثلاثين من الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء، وجعل القسم الثاني لأهل الجانب الغربي من الأندلس، وأهل اشبيلية، وما اتصل بها من بلاد الساحل الرومي ذكر فيه أخبار وأسماء ست وأربعين من الرؤساء، وأعيان الكتاب، والشعراء، وخص بالقسم الثالث أهل الجانب

الشرقي من الأندلس والثغر الأعلى من الرؤساء وأعيان الكتاب والشعراء وعددهم ثلاث وثلاثون، أما القسم الرابع فقد جعله لمن طرأ على الأندلس من الأدباء والشعراء، والكتاب وعددهم اثنان وثلاثون.

إلا أن هذا الكتاب لم يخل من التاريخ فقد أورد فيه صاحبه أخبارا عن الأحداث والوقائع التي حدثت في هذه الفترة وخاصة تلك التي نقلها عن كتاب المتين للمؤرخ الفذ ابن حيان والتي تؤرخ لعصر الطوائف من خلال مشاهدات باشرها ابن حيان بنفسه، وقد تتبعت نصوص ابن حيان في جميع أقسام الذخيرة، فوجدته يقدم من خلالها صورة حيّة لما حدث في هذا العصر، وقد مكنني كذلك هذا المصدر الذي ألفه صاحبه في العقد الأخير من القرن الخامس الهجري(493هـ/1100م) من تتبع حركة الشعراء والكتاب في هذا العصر، وكيف أدى ذلك إلى خلق مراكز إشعاع أدبي، إلى جانب الوقوف على الصراعات العسكرية والتعرف على آثارها المختلفة.

كما أن صاحب الكتاب قد ترجم ولو بإيجاز في بعض الأحيان لكثير من الشخصيات التي عاشت في القرن الخامس الهجري ، فقدم لنا معلومات قيمة قد لا نجدها في مصادر أخرى، وقد أعانتني هذه التراجم على تتبع أخبار هذه الشخصيات فأفدت منها في معرفة مراحل تعلمهم، والعلوم التي نبغوا فيها، والمذاهب التي ذهبوها، وآثارهم التي تركوها.

- **قلائد العقيان في محاسن الأعيان للفتح بن خاقان** (ت 529هـ) المقتول بمراكش بأمر من علي بن يوسف بن تاشفين ، جمع فيه أروع ما نظم ونثر أدباء الأندلس في القرن الخامس الهجري والربع الأول من القرن السادس، وقد دفعه إلى ذلك إهمال الناس للأدب وإقبالهم على غيره من العلوم،، وقد أهدى ابن خاقان كتابه هذا إلى ابراهيم بن يوسف بن تاشفين لأنه راع للأدب ومهتم به ، وقد قسمه إلى أربعة أقسام: فجعل القسم الاول في محاسن الرؤساء وأبنائهم، والقسم الثاني في غرر حلية الوزراء وفقر الكتاب والبلغاء، والثالث في لمع أعيان القضاة، ولمح أعلام العلماء والسراة، والرابع في بدائع نبهاء الادباء وروائع فحول الشعراء، ويعتبر الكتاب مصدرا نفيسا إذ أنّ ما قيده فيه المؤلف عن هذه الشخصيات من أخبار إما سمعها منهم مباشرة أو ممن لازمهم، لذلك انطوت على أعلى درجات الصدقية، فأتاحت لي هذه الترجمات معرفة كل ما يتعلق بحياة هذه الشخصيات التي أثرت في أحداث هذا القرن، بل تولت صناعة الكثير منها،ناهيك عن مساهمتهم في النهضة الأدبية من خلال أشعارهم ورسائلهم النثرية التي أوردها الفتح، وقد اتاحت لي هذه الأشعار والرسائل فرصة تتبع بعض الأحداث التاريخية التي لها صلة بالبحث والتي ضمنها الشعر اء أشعارهم أو كتب بها الأدباء إلى جهة ما، وبعض الأحداث أوردها الفتح بنفسه، فحوى كتابه بذلك لمعا من التاريخ، فهو كالذخيرة كتاب أدب في المقام الأول وتراجم في المقام الثاني وتاريخ في المقام الثالث.

– **مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس** لابن خاقان وهو تذييل للقلائد استدرك فيه الأدباء والشعراء الذين لم يذكرهم في القلائد مع تكرار بعض الأسماء، ويحوي الكتاب أخبار الربع الأخير من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وهذا ما يهمنا منه لأنه ضمّنه أحداث الربع الأول من القرن الذي يليه ونحن غير معنيين بها، وفائدته للبحث كفائدة القلائد.

– **نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب**:لأحمد بن محمد المقري التلمساني وقد اعتبره البعض موسوعة عامة عن الأندلس تاريخها، وآدابها، وجغرافيتها، مع احتوائه على تراجم لعدد كبير من الشخصيات الأندلسية السياسية والعلمية البارزة، ويقع المؤلف في ثماني مجلدات، وبسبب احتوائه على عدد لا بأس به من الرسائل والأشعار فقد إرتآى الكثير من الباحثين إدراجه ضمن المصادر الأدبية، وقد فعلت الشيء نفسه هنا للسبب نفسه، وهو أقدم كتاب أندلسي ظهر للنور وعرفته المطبعة العربية، طبع لأول مرة سنة 1279م بمطبعة بولاق، وقد مكنني من تتبع أسماء المدن في الأندلس وما تعلق بها من أخبار، وقدم معلومات وافية عنها، لا سيما ما يتعلق بالمهن والحرف والصناعات، وأماكن تمركزها، وحالة التجارة في الكثير منها، كما أعانني على التعرف على أعلام القرن الخامس الهجري وقدم تفاصيل وافية عن حياتهم لا سيما في المجلدين الثاني والثالث منه،كما تضمن الكتاب معلومات تاريخية خادمة للفترة محل البحث، كأخبار الفتنة البربرية وما لحق العمران من الخراب بسببها، وهجرة الناس منها بسبب ذلك، ومقتل الكثير من العلماء فيها، وخبر استيلاء المعتمد بن عباد على قرطبة، وقد نقل المقري ذلك عمن سبقه من المؤرخين.

كتب التاريخ العام:

–**كتاب التبيان** للأمير عبد الله بن بلقين آخر أمراء بني زيري في عصر ملوك الطوائف (حكم ما بين 465-483هـ/1072-1092م) وهذا الكتاب في الأصل مذكرات كتبها صاحبها في المنفى بمدينة أغمات المغربية بعد خلع ابن تاشفين له، ويعتبر هذا الكتاب مصدرا تاريخيا مهما لأنه يؤرخ لغرناطة في القرن الخامس الهجري من مبدئها إلى منتهاها، ويقدم عنها معلومات وافية ودقيقة لاسيما في المرحلة التي تولى فيها الكاتب الحكم إذ تولى بنفسه صناعة الجزء الأخير من تاريخ هذه الدويلة، فمعاصرته للمرحلة وقربه من حكام غرناطة الذين سبقوه يجعله مطلعا على كل صغيرة وكبيرة،كما قدم معلومات عن أحداث وممالك تقاطعت أخبارها مع غرناطة، وقد استفدت منه في تتبع أخبار غرناطة على جميع الأصعدة.

–**تاريخ الأندلس** وهو قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء للمؤرخ التونسي أبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري الذي عاش أواخر القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي، ولا تعرف سنة وفاته على وجه التحديد، وتحتوي هذه القطعة تاريخا مختصرا للأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى أوائل عصر

الموحدين وتحديدا حتى بداية عهد الخليفة الموحدي أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن الذي حكم من سنة 558-580 هـ، ورغم عدم ذكر ابن الكردبوس للمصادر التي استقى منها معلوماته التاريخية حول الأندلس إلا أن المعلومات التي قدمها اتسمت بالعمق والدقة، وبعضها جديد لا تتوفر عليه المصادر التاريخية المعروفة، وقد قام بتحقيق هذا الجزء المؤرخ أحمد مختار العبادي، وقد تتبعت فيه أخبار الفونسوا وتكالبه على دويلات الطوائف بعد توليه الحكم، كما اطلعت فيه على حالة الوهن الشديد لملوك الطوائف وخضوعهم التام لألفونسوا، وأخبار الفوضى التي عمت الأندلس في هذه الفترة، وفساد حال الرئيس والمرؤوس، وخبر الخروج الجماعي لسكان طليطلة إلى عمل ابن هود هربا من ابتزاز القادر بن ذي النون، وخبر الإنحلال الذي أصاب أخلاق ملوك الطوائف،كما مكنني من تتبع الحركة العلمية بالأندلس خلال هذه الفترة، أما كتاب الاكتفاء وهو الكتاب الأم لابن الكردبوس فقد أخذت منه أخبار الضرائب التي يقدمها ملوك لألفونسوا حتى لا يقوم بغزو أراضيهم، وأخبار تنافس هؤلاء الملوك في استرضائه بالهدايا النفيسة.

-**البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب**:لأبي العباس أحمد بن محمد بن عذاري المراكشي(ت بعد 712هـ/1314م) الجزئين الثاني والثالث من الطبعة الحديثة التي حققها وضبط نصها وعلق عليها بشار عواد معروف ومحمود بشار معروف، ويعد هذا المصدر من المصادر المهمة والنفيسة كونه يحتوي على أخبار عن عصر الطوائف منقولة من مصادر مفقودة لمؤرخين عاشوا المرحلة أو كان عصرهم قريبا جدا منها، ككتاب المتين لابن حيان، وكتاب العبر لابن أبي الفياض (ت 459هـ)، وكتب الرقيق القيرواني والوراق وغيرهم، فانفراده ببعض الأخبار رفعه إلى مصاف المصادر الأولية، وقد أخذت منه أخبار الفتنة التي عصفت بقرطبة في مستهل المائة الخامسة للهجرة ، ووقفت على أسبابها وملابساتها، كما مكنني من تتبع أخبار دويلات الطوائف في جميع المجالات الاقتصادية والسياسية والعلمية، والاجتماعية وغيرها، فأخذت منه أخبار غزو النورمان لبربشتر عام 456هـ، وأخبار تغلب المقتدر بن هود على دانية، وتغلب المعتضد بن عباد على الدويلات البربرية الجنوبية ومرسية، وتوسع باديس بن حبوس على حساب مالقة وضمها، وأخبار يوسف بن النغريلة في غرناطة، والفتن التي عصفت بحكم الحموديين، وغيرها فلا يكاد يخلوا عنوان في هذا البحث من معلومات هذا المصدر فقد رافقني من بداية البحث إلى نهايته.

-**أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الاسلام وما يتعلق بذلك من الكلام** لأبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي الأندلسي المشهور بلسان الذين ابن الخطيب المتوفي سنة 776هـ/1374م، وهو الكتاب الأخير الذي ألفه ابن الخطيب قبيل وفاته في مدينة فاس المغربية بمناسبة تعيين السلطان أبي زيان محمد السعيد بن عبد العزيز المريني سلطانا على المغرب(774-776هـ/1372-1374م)، وكان ما يزال طفلا لم يبلغ الحلم ، فأراد ابن الخطيب في هذا الكتاب أن

يثبت لهذا الحدث نظائر كثيرة في التاريخ الإسلامي، وأن هذا التصرف لا يتناقض مع الدين، ولكنه لم يقتصر في كتابه على هذه الحالات بل تناول الخلفاء والسلاطين المسلمين في فترات التاريخ المختلفة، وينقسم هذا الكتاب إلى ثلاثة أجزاء كبيرة، فالجزء الأول يتناول تاريخ المشرق الإسلامي، أما الجزء الثاني فهو تاريخ عام للأندلس من الفتح العربي الإسلامي حتى عصر المؤلف، بينما خصص الجزء الثالث لتاريخ افريقية والمغرب، وقد حقق الأجزاء الثلاثة سيد كسروي، وقد قدم المؤلف أخبارا مختصرة حينا ومطولة أحيانا أخرى عن ممالك الطوائف لكنه مع إيجازه لبعض الأخبار إلا أنه قدم معلومات وافية ومركزّة، فأعانني ذلك عن تتبع أخبار تلك الممالك والإفادة منها في مختلف عناوين بحثي، فأخذت منه أخبار تقسيم الأندلس إلى دويلات، وحرب المقتدر بن هود لعلي بن مجاهد العامري، وخبر غلق الأبواب في وجه القاسم بن حمود بإشبيلية، وخبر غيره من الحموديين، واستيلاء الأراذل على زمام الأمور بدول الطوائف، وغيرها من الأخبار التي كان الجزء الثاني من هذا الكتاب مصدرا لها.

كتب الجغرافيا:

-**نصوص عن الأندلس**:وهو جزء من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار لأحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي المتوفي سنة 478هـ/1087م فهو من الجغرافيين الذين عاشوا في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وعاصر أحداثها، وقد أعانني هذا المصدر على معرفة تواريخ انفصال المدن الأندلسية عن الخلافة الأموية، ومن تغلب عليها من أمراء الطوائف، وقد حاول العذري إستيعاب الأخبار المتعلقة بكل مدينة في كتابه ،لذلك وجدت فيه أخبارا عن العمران، وأخرى عن الفنون السماعية، إلى جانب الأخبار التي تتحدث عن الصنائع والمهن والحرف.

-كتاب **المسالك والممالك** لأبي عبيد البكري(ت478هـ/1094م) ويعتبر من أهم الكتب الجغرافية إن لم نقل أهمها على الإطلاق، وقد اطلعت فيه على ما تعرض له عمران قرطبة والقرى المجاورة من تخريب ودمار بسبب الصراعات العسكرية،كما أخذت منه خبر غزو النصارى لمدينة بربشتر سنة 456هـ، واسترقاق أهلها وسبي نسائها، واسترجاع المقتدر ابن هود لها في العام الموالي، والتصرف في النصارى على النحو الذي تصرفوا به في المسلمين وأخبار عن جغرافية الأندلس وأصل تسميتها.

-**الروض المعطار في خبر الأقطار**:لمحمد بن عبد المنعم الحميري (ت بعد 866هـ/بعد 1475م) كتاب يقدم معلومات جغرافية مهمة ، وقد استعنت به للتعريف بالمدن والحصون الأندلسية في عصر الطوائف.

كتب التراجم:

-**جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس** لأبي عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله الحميدي المتوفي سنة 488هـ/1097م، وموضوعه ظاهر من عنوانه، فقد ترجم فيه صاحبه لجم غفير من علماء الأندلس،وفقهائها، ومحدثيها، وشعرائها،الأندلسيين والطارئين عليه منذ الفتح الإسلامي حتى عصره، وقد مكنني هذا المصدر من التعرف على التفاصيل الدقيقة من حياة علماء القرن الخامس الهجري، فعرفت العلوم التي تخصصوا فيها، ومجالس الدرس التي دَرَسُوا أو درَّسوا فيها، وتحركاتهم داخل الأندلس أو خارجه بفعل الصراعات العسكرية، ومدى انخراطهم في الحركة العلمية ومساهمتهم في دفع عجلة الحضارة إلى الأمام، وكيف كانت نهايتهم.

-**بغية الملتمس في تاريخ رجال أهل الأندلس** للضبي(ت599هـ/1208م) ترجم فيه صاحبه لرواة الحديث، وأهل الفقه والأدب، وذوي النباهة والشعر ومن له ذكر، من أهل الأندلس ومن الطارئين عليها من أهل العلم والفضل والسياسة والحرب منذ افتتاح الأندلس إلى عصر المؤلف، وقد اعتمد في تأليف كتابه هذا على جذوة الحميدي، وتاريخ علماء الأندلس لابن الفرضي، ومطمح ابن خاقان، ويقع هذا الكتاب في جزئين، وقد أفادني هو الآخر في تتبع أسماء العلماء، وتخصصاتهم العلمية، ورحلاتهم، لمعرفة مدى انخراطهم في الصراعات العسكرية أو تأثرهم بها، ومدى انخراطهم في عملية التدريس، ومساهمتهم في حلق مراكز إشعاع حضاري بالأندلس.

-**الحلة السيراء لابن الأبار(ت 658هـ/1261م)** الجزء الثاني الذي ترجم فيه لعدد من الشخصيات المهمة التي عاشت في القرن الخامس الهجري مع ذكر نبذ من أخبارهم وأخبار بلدانهم أحيانا، وقد أعانني ذلك على تتبع سنوات استقلال الملوك منهم بالأقاليم، وعلاقة كل واحد منهم برعيته، وحظه من العلم والأدب ومدى مساهمته أو عدم مساهمته في الحركة العلمية والأدبية، وعلاقته بمجالس اللهو والغناء، وكيف كانت أخلاقه، وهل تورط في الصراعات التي نشبت بين ملوك الطوائف أو مع ملوك النصارى وإذا كان ذلك قد حدث فمن هم أعداؤه، و هل قادته حروبه للتوسع على حساب جيرانه أم لا وكيف كانت نهايته أو نهاية دولته، كما تتبعت أخبار الوزراء والحجاب والعمال على الأقاليم بنحو ما تتبعت أخبار الملوك.

-**عيون الأنباء في طبقات الأطباء**:لأبي العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي الخزرجي المعروف بابن أبي أصيبعة (ت688هـ/1270م) ترجم فيه لجم غفير من المشتغلين بالطب منذ ظهوره حتى اللحظة التي دون فيها كتابه هذا،ي حوي هذا الكتاب على أزيد من أربعمائة ترجمة، قسمه إلى خمسة عشر بابا، ذكر فيها الأطباء من جميع الأمم، فبدأها باليونانيين، وختمها بأطباء الشام في عصره، كما يذكر العلوم الأخرى التي برع فيها هؤلاء الأطباء، فأفادني هذا المصدر في التعرف على أطباء القرن الخامس

الهجري الحادي عشر الميلادي، وطبيعة الأمراض التي كانوا يعالجونها،و مستوى الطب في هذه المرحلة، كما مكنني من الإطلاع على التخصصات العلمية الأخرى غير الطب التي كانت شائعة ومشهورة آنذاك، فاستطعت من خلال هذا الكتاب تحديد اتجاه مؤشر العلوم ومنها الطب في هذه المرحلة.

كتب الحسبة:

-ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب: وقد استعنت بالرسالة الأولى المنسوبة لمحمد بن أحمد بن عبدون التجيبي(ق5هـ/11م)، وأخذت منها الأخبار التي تتعلق بانتشار بعض الظواهر اللاأخلاقية في المجتمع الأندلسي في عصر الطوائف، وأخص بالذكر اجتماع المنحرفين بمقبرة إشبيلية لشرب الخمور وممارسة الفاحشة.

كتب النوازل الفقهية:

-المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوى أهل افريقية والأندلس والمغرب لأبي العباس أحمد بن يحي الونشريسي المتوفى سنة 914هـ/1523م جمع فيه صاحبه اجتهادات فقهاء القيروان وبجاية وتلمسان وقرطبة وغرناطة وسبتة وفاس ومراكش وغيرها من عواصم الغرب الإسلامي طوال ثمانية قرون، وقد نقلت منه الحوار الذي دار بين الغبريني والونشريسي حول الجمود الذي أصاب المذهب المالكي بالمغرب الإسلامي في القرن الخامس الهجري، وخبر الفاقة التي أصابت أهل المرية حتى حبس أثرياؤهم بساتينهم على أقاربهم.

أما المراجع التي استفدت منها فيأتي في مقدمتها كتاب: **دولة الإسلام في الأندلس** الجزء المخصص منه لدول الطوائف منذ قيامها حتى الفتح المرابطي لمحمد عبد الله عنان، وقد استفدت منه في جميع مراحل البحث حيث ألفيته مرجعا شاملا تحدث عن جميع مراحل هذا العصر، كما تحدث عن جميع جوانبه السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية.

-كتاب **العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصري بني أمية وملوك الطوائف** لمؤلفه رجب محمد عبد الحليم الذي مكنني من الإطلاع على طبيعة العلاقات التي كانت تربط دويلات الطوائف ببعضها، وكذا العلاقة بينها وبين الممالك النصرانية في الشمال، ومدى تأثير الصراعات العسكرية عليها، كما مكنني من تتبع حركة الاسترداد المسيحي في شبه الجزيرة الأيبيرية.

-التجارة والتجار في الاندلس لمؤلفه أوليفيا ريمي كونستيبل فقد اطلعت من خلاله على الضرائب التي كان ملوك الطوائف يدفعونها لألفونسوا السادس، وأخبار الطرق التجارية البرية بين مملكة سرقسطة ومملكة نافار النصرانية، وخبر تأثير احتلال الفونسوا السادس للغابات المتاخمة لمملكته على تجارة الخشب وصناعة

السفن في بعض دويلات الطوائف، وخبر انتعاش التجارة الخارجية البحرية في المرية ومالقة في القرن الخامس الهجري، وإجمالا مكنني هذا المرجع من تتبع حركة التجارة والأسواق في القرن الخامس الهجري لتحديد مدى تأثرها بالصراعات العسكرية.

-كتاب **جوانب من الواقع الاندلسي** لمؤلفه أمحمد بن عبود مكنني من الإطلاع على التركيب الطبقي للمجتمع الأندلسي في عصر الطوائف، وتحديد المستوى المعيشي لكل طائفة، وخبر تواطؤ الفقهاء مع الحكام ضد شعوبهم لتبرير أفعالهم، وإضفاء نوع من الشرعية على حكمهم، وأنهم لم يكونوا على شاكلة واحدة، كما اطلعت من خلاله على مظاهر التفاعل بين المسلمين واليهود، كما وجدت فيه كلاما عن عملية الترجمة خلال هذه الفترة، وأخبارا قيمة عن المدارس والمدرسين، وأخرى عن استصفاء ملوك النصارى لأموال ملوك الطوائف من خلال الضرائب.

-كتاب:النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف لعبد السلام الجعماطي المغربي، تتبعت من خلاله حركة الأشخاص والبضائع في المسالك والطرقات بالأندلس خلال فترة الطوائف، ومدى تأثرها بالصراعات العسكرية الحاصلة هناك حيث أمدني بالكثير من المعلومات التي تتعلق بذلك.

أما كتاب **دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة** لصاحبه الطاهر أحمد مكي فقد مكنني من تتبع الأغراض الشعرية التي ازدهرت في عصر الطوائف، وقد كان للصراعات العسكرية الأثر المباشر في شيوعها وانتشارها، من الفخر إلى الحنين إلى الرثاء،كما أنه يقدم معلومات تاريخية هامة خدمت عدة عناوين في هذه الرسالة.

إلى جانب بعض الدراسات، والمقالات باللغة الفرنسية والانجليزية.هذه هي أهم المصادر والمراجع التي اعتمدت عليها في إنجاز هذا البحث المتواضع، وهناك مصادر ومراجع أخرى كثيرة أوردتها في الثبت المخصص لها في آخر هذا البحث.

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

مبحث تمهيدي: ضبط مفاهيمي وتأطير تاريخي

المطلب الأول: ضبط المفاهيم.

الفرع الأول: مفهوم الآثار الحضارية

الفرع الثاني: مفهوم الصراع العسكري

المطلب الثاني: التأطير التاريخي

الفرع الأول: الأندلس في العصر الإسلامي

الفرع الثاني: ملوك الطوائف في الأندلس

المطلب الأول: ضبط المفاهيم.

يعالج هذا المبحث المفاهيم الكبرى والأساسية التي تشكل عنوان البحث، والتي تمثل أبوبه التي نلج من خلالها إلى صلب الدراسة.

الفرع الأول: مفهوم الآثار الحضارية

إن المنهج السليم لتحديد دلالات أي مفهوم برأي أحد الباحثين[1] هو الرجوع إلى جذوره في لغته وتتبع دلالاته في مصادرها الأساسية ومحاولة تجريد هذه الدلالات ثم إعادة دمجها في الواقع المعاصر بعد خلعها من ظلال الزمان والمكان واختلاف الخبرات والوقائع.

فالألفاظ العربية إذا أردنا الوقوف على دلالاتها الدقيقة فلا بد من البحث عن جذر كل كلمة في المصادر المعتمدة والأصيلة للغة العربية، ولا يجب أن نبحث عنها في المصادر البعيدة عنها لأنها حينئذ ستبتعد بنا عن المعاني الصحيحة، فإذا وقفنا على معانيها في معاجم اللغة العربية الأصلية حاولنا الارتقاء بتلك الدلالات وتطويرها لتتناغم مع روح العصر، وهذا ما حاولت فعله بالضبط فقد رجعت إلى المصادر الأصلية للغة العربية وبحثت عن دلالات الألفاظ محل الدراسة.

أولا: مفهوم الآثار

1: لغة: الآثار جمع مفرده أثر قال الخليل بن أحمد الفراهيدي: الأثر بقية ما ترى من كل شيء وما لا يرى بعد ما يبقى علقة ، وأثر السيف: ضربته، وذهبت في إثر فلان أي : استقفيته ، وأَثَر الحديث : أن يأثره قوم عن قوم أي : يُحدث به في آثارهم أي: بعدهم[2].

وقال الفيروزآبادي: الأَثَر محركة : بقيَّة الشيء ، جمع آثار وأُثُور ، وخرج في إثره أثره :بعده . وائتثره وتأثره: تبع أثره . وأثَّر فيه تأثيرا : ترك فيه أثرا . والآثار: الأعلام. والأثر: فرند السيف . وبالضم أثر الجراح يبقى بعد البرء، وسمة في باطن خف البعير يقتفى بها أثره[3].

---

[1]- نصر محمد عاف: الحضارة والثقافة والمدنية – دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1994، ص 57.

[2]- كتاب العين، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003 ، ج1، باب الهمز، ص 56.

[3]- الفيروز آبادي مجد الدين محمد بن يعقوب: القاموس المحيط، راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي- زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ط208، حرف الألف، ص 37.

وفي المصباح المنير أثر الدار: بقيتها والجمع آثار مثل سبب وأسباب . وأثرت فيه تأثيرا جعلت فيه أثرا وعلامة فتأثر أي قبل وانفعل[1].

وفي لسان العرب الأثر: بقية الشيء والجمع آثار وأثور . وخرجت في إِثْره وأثَره أي : بعده، والأثر بالتحريك: ما بقي من رسم الشيء ، والتأثير إبقاء الأثر في الشيء ، وأثَّر في الشيء: ترك فيه أثرا، والآثار: الأعلام[2].

وفي معجم التعريفات الأثر: له ثلاث معان: الأول بمعنى النتيجة وهو الحاصل من الشيء ، والثاني: بمعنى العلامة ، والثالث: بمعنى الجزء، والآثار: هي اللوازم المعللة بالشيء[3].

وقال في تهذيب اللغة أثر: وقال الله عز وجل: ﴿...أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ...﴾[4] ، روى سلمة عن الفراء قال: قرأها الفراء " أو أثارة".

وقرأ بعضهم " أو أثرة" خفيفة.

وقد ذكر عن بعض القراء " أو أثرة"

قال الفراء : والمعنى في " أثارة" أو " أثرة" بقية من علم[5]

وأثر الشيء حصول ما يدل على وجوده[6] يقال أثَرَ وأثَّر والجمع الآثار قال تعالى:﴿...فَانْظُرْ إِلَى آثَارِ رَحْمَتِ اللَّهِ...﴾[7]

ومن هذا يقال للطريق المستدل به على من تقدم آثار نحو قوله تعالى: ﴿...فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ...﴾[8]

وبناء على ما جاء في هذه التعريفات نستنتج بأن "الأثر" هو ما يبقى من كل شيء فيكون علامة عليه ونتيجة له.

---

[1]- الفيومي أحمد بن محمد بن علي: المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، ط1987، ص 2.

[2]- ابن منظور جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم: لسان العرب، دار صادر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1300هـ، ج1، ص 25.

[3]- الجرجاني علي بن محمد السيد الشريف: معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ط1، 2012، ص 11.

[4]- سورة الأحقاف: الآية 4

[5]- الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد: تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، ج15، ص 119.

[6]- عبد المنعم محمود عبد الرحمن: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة، القاهرة، ط1999، ج1 ، ص 57.

[7]- سورة الروم : الآية 50.

[8]- سورة الصافات:الآية 70.

2: **اصطلاحا**: يختلف تعريف الآثار في شقه الاصطلاحي من تخصص معرفي إلى آخر.

أ–عند المحدثين: يطلح على أمرين:

- مرادف للحديث فهو: " ما أضيف إلى النبي (ﷺ) من قول أو فعل أو تقرير او صفة"
- مغاير للحديث فهو: " ما أضيف إلى الصحابة والتابعين من أقوال أو أفعال"، وعند فقهاء خراسان (الأثر) مغاير للحديث لكن المراد به الموقوف فقط دون المقطوع[1].

ب– عند الفقهاء والأصوليين: يطلقون الأثر – بمعنى البقية– على بقية النجاسة ونحوها ....ويطلقونة بمعنى ما يترتب على الشيء وهو المسمى بالحكم عندهم كما إذا أضيف الأثر إلى الشيء فيقال: أثر العقد وأثر الفسخ وأثر النكاح وغير ذلك[2]

ج–عند فقهاء القانون: يوظفون مصطلح الأثر الرجعي وهو:" رجوع الأثر المترتب على تحقق الشرط إلى الماضي"[3].

د–عرفت بعض الموسوعات الآثار بأنها: " البقايا المادية التي خلفتها الأمم السابقة من مبان وقطع فنية وفخار وتحف وعظام"[4].

نرى بأن المعنى اللغوي حاضر في هذه التعريفات الاصطلاحية وهو البقية من كل شيء سواء كان مرئيا كالبقايا المادية أو معنويا غير مرئي كالكلام.

ثانيا: مفهوم الحضارة

1:**لغة**: الجذر الثلاثي لكلمة حضارة هو حضر قال الفراهيدي حضر: الحضر خلاف البدو، والحاضرة خلاف البادية لأن أهل الحاضرة حضروا الأمصار والديار[5].

وجاء في المعجم الوسيط الحضارة : الإقامة في الحضر . قال القطامي:

ومن تكن الحضارة أعجبته فأي رجـــال بادية ترانـــا

[1]- سيد عبد المجيد الغوري: معجم المصطلحات الحديثية، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ط1، 2007، ص 56؛ عبد المنعم محمود عبد الرحمن : المرجع السابق،ج1 ، ص 57.

[2]- مجموعة من المؤلفين: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط2، 1983، ج1، ص 249.

[3]- محمد رواس قلعه جي – حامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1988، ص 28.

[4]- مجموعة من المؤلفين: معجم مصطلحات العلوم الشرعية، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 2017، ص 40.

[5]– الفراهيدي: المصدر السابق، ج1، ص 327؛ لسان العرب، ج9، ص 906.

وضد البداوة ، وهي مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني . ومظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر[1].

أما نصر محمد عارف فله رأي آخر في المعنى المعجمي للفظ حضر، فهو يرى بأن أول معنى ودلالة تقابلك عند البحث عنه في المعاجم هو " شهد"[2] من الشهادة أي الحضور الذي هو ضد المغيب وليس الحضر الذي يقابل البداوة، ومع ذلك يركز أغلب الباحثين على المعنى الثاني دون الأول مع أن الأول هو الأصل وينتصر لرأيه بما جاء في الآيات القرآنية ففي ثلاث آيات في مواضيع مختلفة جاءت لفظة حضر بمعنى واحد هو الشهود والحضور وهي: ﴿ ... إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ...﴾[3]، ﴿... وَإِذَا حَضَرَ الْقِسْمَةَ أُولُو الْقُرْبَى...﴾[4]، ﴿... فَمَنْ شَهِدَ مِنْكُمُ الشَّهْرَ فَلْيَصُمْهُ...﴾[5].

ويعتبر أن الشهادة في القرآن الكريم لها أربع دلالات متكاملة فيما بينها تتّحد لتؤدي معنى الحضارة أو الشهادة في الفهم الإسلامي فكل دلالة من هذه الدلالات الأربع تمثل جزء من بناء مفهوم الحضارة[6].

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة تشير كلمة حضارة إلى ثلاثة أمور:

أ- مصدر حضر. ب- تمدن عكس البداوة وهي مرحلة سابقة من مراحل التطور الإنساني. ج- مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر[7].

يحيل لفظ حضر وحضارة في المعاجم اللغوية على المعاني التالية: الإقامة في الحضر، والشهود، والحضور الذي هو عكس الغياب، كما يطلق على مرحلة سامية من مراحل التطور الإنساني وعلى مظاهر الرقي العلمي والفني والأدبي والاجتماعي في الحضر ، والمعنى الأخير هو المقصود في الدراسة إذ سيتم رصد آثار الصراعات العسكرية التي مست الجوانب المتطورة والراقية في الحضارة الأندلسية ونعني بذلك المجالات العلمية والفنية والأدبية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والذي يحقق الشهود الحضاري وعدم الغياب.

---

[1]- مجمع اللغة العربية: المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004، ص 181.

[2]- ينظر مادة حضر في القاموس المحيط، ص 373.

[3]- سورة البقرة : الآية 180.

[4]- سورة النساء :الآية 8

[5]- سورة البقرة:الآية 185.

[6]- ينظر التفصيل للمعنى المعجمي للفظ حضر مع الدلالات الأربع المكونة لمفهوم الحضارة نصر محمد عارف: المرجع السابق، ص ص 57-58.

[7]- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008، ج1، ص 413.

2: **اصطلاحا**: عرفت الحضارة بتعريفات اختلفت اختلاف المدراس التي ينتمي إليها المعرفون لها، والزاوية التي نظروا منها.

أ-عرفها ابن خلدون بقوله: "والحضارة كما علمت هي التفنن في الترف واستجادة أحواله والكلف بالصنائع التي تؤنق من أصنافه وسائر فنونه من الصنائع المهيئة للمطابخ أو الملابس أو المباني أو الفرش أو الآنية ولسائر أحوال المنزل وللتأنق في كل واحدة من هذه صنائع كثيرة لا يحتاج إليها عند البداوة وعدم التأنق فيها..."[1]. وهي عنده كذلك التوسع في هذه الاحوال حتى الوصول إلى مستوى من التقدم ليس بعده إلا الانحدار[2].

فهي برأيه الأحوال الزائدة على الأحوال البدائية، فكل ما زاد عند ابن خلدون على الضروري من أسباب المعاش يعتبر تحضرا قليلا كان أم كثيرا، وكلما توسعت أحوال الناس إزدادو حضارة، وهذا التوسع يكون في جميع مناحي الحياة، وهو التوسع الذي ليس يعده إلا الانحدار والسقوط.

ب-تعريف ويل ديورنت :عرفها بأنها: " نظام اجتماعي يعين الإنسان على الزيادة من إنتاجه الثقافي وإنما تتألف من عناصر أربعة : الموارد الاقتصادية، والنظم السياسية، والتقاليد الخلقية، ومتابعة العلوم والفنون، وهي تبدأ حيث ينتهي الاضطراب والقلق، لأنه إذا ما أمن الإنسان من الخوف، تحررت في نفسه دوافع التطلع وعوامل الإبداع والإنشاء، وبعدئذ لا تنفك الحوافز الطبيعية تستنهظه للمضي في طريقه إلى فهم الحياة وإزهارها"[3]، وحسب رأيي المتواضع فإنها تحدث في مراحل الاستقرار كما تنشأ كذلك في مراحل القلق، وبخصوص المكونات فقد لا تحضر كلها.

ج-عند الأنثروبولوجيين: "الحضارة هي كل شكل من التنظيم للحياة البشرية"[4]

د-تعريف مالك بن نبي للحضارة: قدم مالك خمس تعريفات للحضارة باعتبارات مختلفة ومن زوايا متعددة، من تعريف بالجوهر إلى تعريف بالمبدأ الذي تتأسس في ضوئه إلى تعريف بالعناصر المركبة لها، إلى تعريف باعتبار وظيفتها وآخر هذه التعريفات التعريف باعتبار علاقتها وحدتها أو علاقتها بمنتجاتها، وهو بتعريفه لها من هذه الجوانب الخمسة يحاول إيضاحها وبيان حقيقتها[5]، إلا أن الدارسين

---

[1]- ابن خلدون عبد الرحمن: المقدمة، ضبط المتن ووضع الحواشي والفهارس، خليل شحاده، مراجعة سهيل زكار، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2001، ج1، ص، 461، 465.

[2]- مؤنس حسين: الحضارة – دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدا، الكويت، ط2، 1978، ص 335.

[3]- ويل وإيرل ديورانت: قصة الحضارة، تقديم محي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1988، ج1، مج1، ص 3.

[4]- مالك بن نبي: القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق سورية، ط6، 2007، ص 35.

[5]- للإطلاع على المزيد حول هذه التعريفات ينظر عبد الله بن حمد العويسي: مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص ص388 - 390.

لأفكار مالك بن نبي يعتمدون تعريفه لها باعتبار وظيفتها فهي بهذا الاعتبار: "جملة العوامل المعنوية والمادية التي تتيح لمجتمع ما أن يوفر لكل عضو فيه جميع الضمانات الاجتماعية لتطوره"[1].

فعلى هذا الأساس الحضارة عند مالك تؤدي وظيفة اجتماعية تتمثل في تحقيق الضمانات لذلك المجتمع في أمور معاشه، وتعريف الحضارة بهذا الاعتبار دون الاعتبارات الأخرى كمن يصف شيئا من زاوية دون الزوايا الباقية، وقد تعقب العويسي تعريف مالك للحضارة ومنهجه في تناول هذه المشكلة وبين مواطن القصور فيها، فهو بذلك يقترح موجزا.

هـ-**تعريف العويسي**: " ثمرة موقف الإنسان من الوحي"[2]، و يكون إما تطبيق الوحي وإنشاء الحضارة الربانية، أو الإخلال به فيلتبس الحق بالباطل أو إقصائه فتنشأ الحضارة الشيطانية.

و-وتحدث نصر محمد عارف عن الحضارة الأوروبية باعتبارها النموذج الأكثر تطورا في العصر الراهن فقال: " هي خلاصة تطور نمط حياة الأوروبي بكل أبعاده : الشخصية، والاجتماعية، والسلوكية والاعتقادية، والاقتصادية ، والسياسية ، والمعمارية...الخ"[3]

التعريف المختار: بعد الاستئناس بهذه التعريفات للحضارة يسعنا ان نقول بأن الحضارة: هي أقصى ما وصل إليه الإنسان من التطور في مرحلة من مراحل التاريخ على جميع الأصعدة والمستويات.

ثالثا: مفهوم الآثار الحضارية

بالجمع بين معاني الآثار والحضارة في شقيهما اللغوي والاصطلاحي يتضح لنا بأن المقصود بالآثار الحضارية العلامات التي خلفتها الصراعات العسكرية في مختلف جوانب الحياة بالأندلس خلال عصر الطوائف فكان دليلا عليها بغض النظر عن طبيعتها.

الفرع الثاني: مفهوم الصراع العسكري

أولا: مفهوم الصراع

1:لغة: الجذر اللغوي للفظ الصراع هو الفعل الثلاثي**"صرع"** جاء في معجم مقاييس اللغة حول مادة صرع : الصاد والراء والعين أصل واحد يدل على سقوط شيء إلى الأرض عن مراس اثنين، ثم يحمل على

[1]- مالك بن نبي: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق سورية، ط7، 2006، ص 42.

[2]- العويسي: المرجع السابق، ص 396.

[3]- نصر محمد عارف: المرجع السابق، ص 40.

ذلك ويشتق منه من ذلك صرعت الرجل صرعا وصارعته مصارعة، ورجل صريع...حتى قال ومصارع الناس مساقطهم[1] .

وفي المعجم الوسيط صرعه صرعا ومصرعا طرحه على الأرض، وصارعه مصارعة وصراعا غالبه في المصارعة ، واصطرع القوم: تصارعوا ، وتصارع الرجلان: حاول كل منهما أن يصرع الآخر[2]. وفي كتاب العين صرع : صرعه صرعا أي طرحه بالأرض، والصراع معالجتهما أيهما يصرع صاحبه ، والصراعة مصدر الإصطراع بين القوم[3].

وفي معجم اللغة العربية المعاصرة صرع يصرع صرعا ومصرعا فهو صارع والمفعول مصروع وصريع. صرع الشخص: طرحه على الأرض صرع الملاكم خصمه، واصطرع الرجلان حاول كل منهما أن يصرع الآخر، وتصارع الرجلان : اصطرعا وحاول كل منهما ان يصرع الآخر "تصارعت الآراء" وتصارع الجيش مع الحكومة" ، وصراع [مفرد] : جمع صراعات (لغير المصدر) :أ-مصدر صارع، ب-خصومة ومنافسة، نزاع، مشادة ...صراع على السلطة ج-تضارب الأهداف مما يؤدي إلى الخلاف أو التصارع بين قوتين أو جماعتين[4] .

2:اصطلاحا:

لم يكن مفهوم الصراع كبعد فكري واجتماعي وانساني غريبا عن الدراسات الاجتماعية منذ التاريخ القديم بل كان محل اهتمام ومتابعة ودراسة من قبل المهتمين بعلم الاجتماع وهذا ما لا حظه دون مارتنديل صاحب كتاب" **طبيعة وانماط النظرية السوسيولوجية"** تحت عنوان: (**المصادر المفاهيمية لنظرية الصراع**)، فقد رصدها في الحضارة اليونانية عند (بوليبس)، وفي الصين القديمة عند (هان في تزو)، وفي الحضارة العربية الإسلامية عند (ابن خلدون) وغيرهم من الفلاسفة والمفكرين في مختلف فترات التاريخ الإنساني، ويؤكد بأن أفكار هؤلاء بخصوص مفهوم الصراع قد دخلت إلى المناقشات الغربية عن طريق جملوفيتش وحظيت باهتمام نظرية الصراع الاجتماعي[5].

لن أغوص في غياهب التاريخ البعيد كثيرا بل سأكتفي بتتبعر تطوره التاريخي داخل المنظومة الفكرية الإسلامية ثم المنظومة الفكرية الغربية لملاحظة أهم التغيرات التي طرات عليه.

---

[1]- ابن فارس أبو الحسين أحمد: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1979، ج3، ص 242.

[2]- مجمع اللغة العربية: المصدر السابق، ص ص 512-513.

[3]- الفراهيدي: المصدر السابق، ج2، ص 391.

[4]- أحمد مختار عمر: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008، ج1، ص ص 1288-1289.

[5]- محمد عبد الكريم الحوراني: النظرية المعاصرة في علم الاجتماع – التوازن التفاضلي صيغة توليفية بين الوظيفة والصراع، دار مجدلاوي للنشر والتوزيع، عمان ، الأردن، ط1، 2008، ص 86.

أ–في القرآن الكريم: لم يستعمل القرآن لفظ الصراع ولكنه استعمل لفظ التدافع[1] كقانون ومفهوم اجتماعي أصيل في موضعين اثنين، ففي سور البقرة[2] قال تعالى: ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الْأَرْضُ ...﴾ وفي سورة الحج[3] قال: ﴿...وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا...﴾ والذي يعني الدفع والدفع المضاد.

ب–الصراع عند ابن خلدون: يرى ابن خلدون بأن منصب الرئاسة تتصارع حوله العصبيات، ولا ينال إلا بالغلبة، فالعصبية الأقوى هي التي تستحوذ على هذا المنصب ثم لا يزال ينتقل في فروعها الأقوى فالأقوى[4].

ج–الصراع عند هيغل: يكون بين فكرتين متعارضتين أو قوتين متضادتين تتصارعات فتظهر بسبب هذا الصراع بين القوتين أو الفكرتين قوة ثالثة، ولم ينحصر التناقض في الأفكار بل هو ثابت في كل واقع وحقيقة، وهو المبدأ الاول لكل معرفة صحيحة عن الكون والقانون العام الذي يفسر به، فالكون عبارة عن مجموعة من التناقضات والأضداد وكل قضية فيه تعتبر إثباتا يحمل في طياته نفيها فيأتلف الإثبات والنفي في إثبات جديد، فالعالم حسب الرؤية الهيغلية هو سلسلة غير منتهية من صراع الأضداد[5].

ولو أردنا أن نلخص مفهوم هيغل للجدل في عبارة وجيزة فسنقول: كل بنية اجتماعية أو ظاهرة انسانية لها ضدها، وهذه الأضداد هي سبب الصراعات.

د–عند الماركسية: نقلت الجدل عند هيغل من صورته العقلية إلى الصورة المادية، فنزعت عنه ثوب المثالية وألبسته ثوب المادة، فبدلا من صراع الأفكار هناك صراع الطبقات الاجتماعية إذ أن الصراع في المجتمع بين الطبقة التي تحتكر الثروة ووسائل الإنتاج والطبقة الكادحة التي تعيش ظروفا مزرية، فالنظام الاقتصادي الذي تفرضه الأولى يجعل الطبقة الكادحة تعيش عوزا دائما وهذا ما يجعلها تنتفض

---

[1]- بشأن التدافع ينظر ابن منظور: المصدر السابق، مادة دفع، مج8، ص 87.

[2]- الآية 251.

[3]- الآية 40.

[4]- ابن خلدون: المصدر السابق، ص 165.

[5]- محمد باقر الصدر: فلسفتنا نقلا عن هيغل، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط12، 1982، ص 223، 224.

وتصارع لهدم هذا النظام وانتزاع وسائل الإنتاج من الطبقة المالكة لتصبح مشاعا وملكا للجميع فتتحقق العدالة الاجتماعية وينتهي الصراع[1].

هـ–تعريف دارون: أما دارون فقد تحدث عن نوع آخر من الصراع وهو صراع الحيوانات والنباتات من أجل البقاء على قيد الحياة، وفي هذا الصدد يذكر صراع كلبين في زمن المجاعة فيما بينهما من أجل الحصول على الطعام حتى لا يكونا عرضة للهلاك، وصراع نبات ضد الجفاف في صحراء قاحلة، وصراع الأشجار ضد الطفيليات التي تنموا فوقها حتى لا تتسبب في موتها، وهكذا الطيور وغيرها من الكائنات الحية تصارع فيما بينها أو مع الظروف المادية للحياة[2].

و–تعريف علماء النفس: على الصعيد النفسي للأشخاص يرى علماء النفس بأن الصراع: "عادة ما يشير إلى حالة من عدم الإرتياح أو الضغط النفسي الناتج عن التعارض أو عدم التوافق بين رغبتين أو حاجتين أو أكثر من رغبات الفرد أو حاجاته"[3].

ز–وجاء معجم مصطلحات علم الاجتماع عن الصراع ما نصه:" توجد الصراعات في صميم الحياة الاجتماعية، وتتميز بشدتها، ودرجة وعي الفاعلين الذين يشاركون فيها، وطبيعة وبنية رهاناته. من الممكن أن تصل هذه الصراعات إلى مستوى من العنف كبير أو صغير، وهي قد تقوم على توزيع الثروات، أو الوصول إلى السلطة، وترويج الأفكار أو تحويل القواعد ..."[4]

ح- أما المعجم الفلسفي فيعرف الصراع بأنه: " نزاع بين شخصين يحاول كل منهما أن يتغلب على الآخر بقوته المادية، كالصراع بين الأبطال الرياضيين، أو الصراع بين الدول في الحرب، ويطلق الصراع مجازا على النزاع بين قوتين معنويتين تحاول كل منهما أن تحل محل الأخرى، كالصراع بين رغبتين أو نزعتين أو مبدأين أو وسيلتين أو هدفين أو الصراع بين القوانين أو الصراع بين الحب والواجب أو

---

[1]- مجموعة من المؤلفين: الموسوعة الفلسفية، إشراف روزنتال يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط،1967، ص ص196، 273-274.

[2]-تشارلس دارون: أصل الأنواع، ترجمة مجدي محمود المليجي، تقديم سمير حنا صادق، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2004، ص ص 138-139.

[3]–the Encyclopedia Amiricana international Edition, Danbury Connecticut, Gerolier incorporated, 1992, p 537.

[4]- فريول جيل: معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة وتقديم أنسام محمد الأسعد، مراجعة وإشراف بسام بركة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 56.

الصراع بين الشعور واللاشعور في ظاهرة الكبت ...ويقال إن العقل يصارع نفسه إذا كان لا يسلم من التناقض عند نظره في بعض الموضوعات"[1].

ويعتبر تعريف المعجم الفلسفي للصراع تعريفا شاملا لأنه ذكر جميع أصناف الصراع المعروفة المادية منها والمعنوية، فما ذكر مفرقا في التعريفات السابقة أجمل هنا والذي يعنينا نحن من الأنواع المذكورة في التعريف هو الصراع بين الدول في الحرب.

ثانيا: مفهوم العسكر

1: لغة: إن البحث عن مدلول كلمة عسكر في المعاجم اللغوية قادني إلى ما يلي:

العسكري مصدر مشتق من الفعل الرباعي عسكر قال الأزهري: "قال أبو عبيدة عن الأصمعي: العسكرة: الشدة. قال طرفة:

ظل في عسكرة من حبها ونأت شحط مزار المدَّكَّر

وعسكر الرجل جماعة ماله وإبله وغنمه. وعسكر الليل إذا تراكمت ظلمه، وعساكر الهمّ: ما كرب بعضه بعضا وتتابع، وإذا كان الرجل قليل الماشية قيل: إنه لقليل العسكر، قال والعسكر: مجتمع الجيش[2].

قال ابن منظور: عسكر : العسكرة الشدة والجدب، والعسكر الجمع ، فارسي، قال ثعلب : يقال العسكر مقبل ومقبلون، وقال ابن الأعرابي: العسكر الكثير من كل شيء، يقال عسكر من رجال وخيل وكلاب وقال الأزهري : عسكر الرجل جماعة ماله ونعمه، حتى قال: وعسكر بالمكان : تجمع، والعسكر الجيش، وعسكر الرجل فهو معسكر والموضع معسكر[3].

وفي المعجم الوسيط عسكر القوم بالمكان: تجمعوا فيه ، ويقال عسكر الليل: تراكمت ظلمته.والشيء : جمعه.

العسكر: الجيش، ومجتمعه، والكثير من كل شيء، والعسكري: الجندي، المعسكر: مكان العسكر ونحوهم[4].

---

[1]- جميل صليبا: المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط 1982، ج1، ص725.

[2]- الأزهري: المصدر السابق، ج3، ص 303.

[3]- ابن منظور:المصدر السابق، ج4، ص ص 567-568.

[4]- مجمع اللغة العربية: المصدر السابق، ص601.

وفي المصباح المنير العسكر: الجيش قال ابن الجواليقي فارسي معرب وشهدت العسكرين أي عرفة ومنى لأنهما موضع جمع، وعسكرت الشيء: جمعته فهو معسكر، ومنه معسكر القوم على صيغة المفعول لموضع اجتماع العسكر[1].

وفي معجم اللغة الغربية المعاصرة عسكر بـ/عسكر على /عسكر في يعسكر عسكرة فهو معسكر، والمفعول معسكر به، وعسكر القوم بالمكان /عسكر القوم في المكان تجمعوا ونزلوا فيه، وعسكر [جمع] عساكر : جيش ، وعسكري [مفرد] ج عسكريون وعساكر : اسم منسوب إلى عسكر هجوم /مجلس عسكري-التحية العسكرية /القواعد العسكرية-كتيبة عسكرية....السيطرة العسكرية : هيمنة القوى العسكرية على سياسة او إدارة دولة ما[2]، فهذه الكلمات نسبت إلى عسكر على سبيل الإضافة وعلى هذا المنوال يمكننا أن نضيف كلمة صراع إلى عسكر فنقول صراع عسكري.

فالمصطلح ليس أصيلا وإنما هو دخيل دخل إلى العربية من الفارسية فصار معانيه بعدما عرّب تدور حول الكثير من كل شيء والشدة والجدب وما ركب بعضه فوق بعض وتراكم وتتابع، والعسكر الجيش ومجتمعه، وهذه المعاني كلها متوفرة في العسكر الذي نعرفه في هذا العصر.

2: **اصطلاحا**: بما أن الاصطلاح هو ما اصطلح عليه أهل فن من الفنون، فلا شك بأن لفظ العسكر في الحضارات المختلفة قد أخذ تسميات مختلفة تعكس نظرة المجتمع إلى هذه الفئة .

لذلك سيتم تتبع تاريخ هذا المصطلح عبر التاريخ لمعرفة ما إذا كان حاضرا في الحضارات المختلفة بهذا اللفظ أم بلفظ آخر.

أ-عند اليونان: عندما نعود إلى كتاب جمهورية أفلاطون أو المدينة الفاضلة كما تصورها أفلاطون، نجده يستعمل لفظ الجند وليس لفظ العسكر، رغم اتحاد اللفظين في المعنى، ففي معرض حديثه عن أسس قيام الدولة نجده يتصور بأن الدولة تقوم على ثلاثة أسس التخصص والطبقات الاجتماعية والتربية، وضمن الأساس الثاني (الطبقات الاجتماعية) تقع طبقة الجند، وهنا يقدم أفلاطون مفهومه للجند حسب التصور المستقر في ذهنه، فالجند عنده هو الطبقة الثانية من طبقات المجتمع التي تندرج تحت الأساس الثاني من

---

[1]- الفيومي: المصدر السابق، ص155.

[2]- أحمد مختار عمر: المرجع السابق، ج1، ص1499.

أسس بناء الدولة وظيفته الدفاع عن المدينة، وتشبه الطبقة التي ينتمي إليها القوة الغضبية في الإنسان التي مقرها القلب[1].

ب- عند الرومان: في العهد الجمهوري ظهرت طبقة جديدة ضمن طبقات المجتمع الروماني وهي طبقة الفرسان وتتوسط طبقتي مجلس الشيوخ وطبقة العامة، وقد أطلق هذا الإسم على ملاك الأراضي الذين تتراوح اعمارهم بين 18و45 سنة، ويخدمون في الجيش على صهوات جياد تمدهم بها الدولة ويؤلفون ثمانية عشر ميئا في جمعية الميئات[2].

ج-القرآن الكريم: لم يستعمل مصطلح العسكر هو الآخر وإنما استعمل مصطلح الجند بصيغ واشتقاقات مختلفة، لأن المصطلح دخيل على اللغة العربية وليس أصيلا وربما لأن لفظ العسكر يتضمن بعض المعاني السلبية كالجذب والشدة والتكديس كما رأينا في الجانب اللغوي.

د-في الفكر الغربي الحديث: بالعودة إلى كتاب الأمير لميكيافيلي نجده يستعمل مصطلحات الجيش، القوات المسلحة، النظام العسكري، التدريب العسكري، الشؤون العسكرية، فمصطلح العسكر في هذه الفترة قد دخل إلى المجال المعرفي الغربي، وجرى تداوله، ويقصد به الجيش الوطني الذي يكونه الأمير للدفاع عن وطنه[3].

نستخلص مما سبق بأن لفظ العسكر لم يكن معروف عند فلاسفة اليونان والرومان كما أنه ليس لفظا عربيا أصيلا بل دخل إليها من الفارسية فتم تعريبه، لذلك لا وجود له في القرآن الكريم، أما في أروبا فقد تم توظيف هذا المصطلح إلى جانب مصطلحات قريبة منه منذ القرن الرابع عشر الميلادي على يد ميكيافيلي وغيره من المفكرين الذين تحدثوا عن الشأن السياسي والحربي ومعناه الجيش أو الجند، وهو المعنى المعروف والمتداول في عصرنا.

ثالثا مفهوم الصراع العسكري

وبالجمع بين معنى الصراع ومعنى العسكري نجد بأن المقصود بالصراع العسكري هو النزاع بين قوتين فأكثر تختلفان في الرؤية أو في القيم التي تحيا لأجلها والذي يستعمل فيه الجيش بكامل معداته الحربية

1- أحمد الميناوي: جمهورية أفلاطون-المدينة الفاضلة كما تصورها فيلسوف الفلاسفة، دار الكتاب العربي، دمشق- القاهرة، ط1، 2010، ص 190.

2- علي مؤمن إدريس مؤمن: الحياة الاجتماعية الرومانية خلال العهد الجمهوري، رسالة ماجستير في التاريخ القديم غير منشورة، جامعة بنغازي، قسم التاريخ، 2012، ص 26.

3- نيكولو دي برناردو ميكيافيلي: كتاب الأمير، ترجمة أكرم مؤمن، مكتبة ابن سينا ، القاهرة، ط2004، ص 74، 75، 76، 78.

المتاحة أداة للتغلب على الخصم وإخضاعه وحسم المشاكل العالقة بين الطرفين أو الأطراف، ويكون الهدف من الصراع هو التخلص من أوضاع مزرية أو السيطرة على موارد محدودة أو غير ذلك، فأطراف الصراع في الأندلس في عصر الطوائف من ملوك الدويلات الإسلامية أو من ملوك النصارى كانت تحشد العساكر لشن الغارات على بعضها والهدف هو السيطرة والاستيلاء على الأرض بما فيه من موارد حيوية.

المطلب الثاني: التأطير التاريخي

يتناول هذا المطلب الموقع الجغرافي للأندلس وأصل التسمية كما يستعرض الأوضاع قبل الفتح الإسلامي للجزيرة الأيبيرية وقبيل عصر الطوائف ويلقي الضوء على المراحل التي مرَّ بها عصر ملوك الطوائف من الميلاد حتى الأفول.

الفرع الأول: الأندلس في العصر الإسلامي

أولا: الجغرافيا وأصل التسمية

1: الجغرافيا: من الضروري جدّا التعريف بالرقعة الجغرافية التي احتضنت الحقبة التاريخية محل الدراسة والبحث حتى لا يخيل للقارئ أنه يقرأ عن أحداث وقعت في كوكب آخر غير كوكبنا، ولا بد من معرفة متى سمّي الأندلس بهذا الاسم ومن أطلق عليه هذه التسمية.

يطلق لفظ الأندلس على اسبانيا والبرتغال الآن ومساحة الدولتين معا ستمائة ألف كيلومتر مربع تقريبا، وتعرف كذلك بشبه الجزيرة الأيبيرية ، يفصلها عن مدينة سبتة المغربية مضيق طوله 12,8كم صار يعرف بعد جواز الفاتح المسلم طارق بن زياد منه إلى الأندلس بمضيق جبل طارق[1]، إلا أن مساحة الفترة محل البحث والدراسة (عصر ملوك الطوائف) قد قدرت من قبل أحد الباحثين استنادا إلى رواية العـذري بـ 1672كلم طولا و446 عرضا[2].

تقع الأندلس في الجنوب الغربي من أوروبا على مثلث من الأرض رأسه في الشرق وقاعدته في الغرب وتتصل أراضي الأندلس بالأراضي الفرنسية في الشمال بواسطة سلسلة جبلية تعرف بجبال البرينيه (جبال البرتات) وباستثناء هذه الجهة فإن بلاد الأندلس يحيط بها الماء من جميع الجهات فالشمال عدا

---

[1]- راغب السرجاني : قصة الأندلس، مؤسسة إقرأ، القاهرة، ط1، 2010، ص 13؛ محمد عبده حتاملة: ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ط 1996، ص 18.

[2]- العذري أحمد بن عمر بن أنس: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، (د.ط)، (د.ت)، ص 121؛ الجعماطي عبد السلام: النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316-483هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 51.

جزء منه والغرب وجزء من الجنوب تطل على المحيط الأطلسي أما الشرق والجنوب عدا جزء منه فيطلان على البحر الأبيض المتوسط[1]، وهذا ما جعل العرب يطلقون عليها تجوّزا اسم (جزيرة الأندلس)، والمتمعن في خريطة الأندلس يراها كأنها مدبرة بوجهها عن أوروبا مقبلة على المغرب وهذا ما جعل المؤرخين المسلمين يعتبرونها امتدادا لإفريقيا وليس لأوروبا فضلا عن التشابه الكبير بينها وبين منطقتي طنجة وسبتة في الكثير من المعالم النباتية والحيوانية[2]، وتعتبر الأندلس من البلاد الجبلية ولكن تخترقها الكثير من الأودية والأنهار الكبيرة أشهرها نهر الإيبره وهو النهر الوحيد الذي يجري باتجاه الشرق ويصب في البحر الأبيض المتوسط، أما الأنهار الرئيسية الأخرى فتتجه غربا نحو المحيط الأطلسي أشهرها نهر تاجه ودويرة ووادي آنه والوادي الكبير وتوجد في الأندلس أما داخل الأندلس فتوجد هضبة كبيرة تحتل معظم أنحائها تسمى هضبة الميزيتا Meseta التي تعني السهل الواسع المرتفع.[3]

وتشير الدراسات الجيولوجية التي أجريت على أراضي الأندلس أن الجزيرة قد تصبح بسبب خلل بسيط في قشرة الأرض الصلبة يصحبه اضطراب في أعماق البحار أثرا بعد عين لأن البحر سيبتلعها عندئذ، فأغلب أراضيها لا ترتفع عن سطح البحر ومصبات الأنهار الكبيرة بما فيه الكفاية وهذا كاف لتغمرها مياه البحر عن طريق أوديتها الكبيرة، وقد أثبتت الدراسات وجود الأملاح في أعماق هذه الأودية ما يعني أن البحر لم يتراجع عنها إلا في العهود القريبة ، أما ساحل اسبانيا على شاطئ البحر المتوسط فهو مضرّس مشقق بسبب الزلازل البركانية المتكررة في هذا المكان ويرجح العلماء أن تكون هذه الهزات البركانية هي السبب في ميلاد جزر ميورقة ويابسة وكورسيكا وسردانية التي كانت في الأصل كتلة واحدة وفي ظهور مضيق جبل طارق ولولاها لبقيت الأندلس مشدودة بإفريقيا ولا يزال هذا الساحل قلقا حتى العقد الثامن من القرن التاسع عشر ميلادية تأثرت منه مدينتي مالقة وغرناطة[4].

وتضاريس الأندلس متنوعة ففي الشمال توجد الأرض السوداء الصلبة تصب بها الأمطار معظم العام والجبال الشاهقة وفي الوسط رمادية أو بنية تتخللها كتل من الشيست الأسود أما في الجنوب فالأرض رملية بها أشجار الزيتون، وفي الأندلس واحات خضراء وسط جبال موحشة كأنها قطع من الجنة بها غابات ملتفة وأنواع من الأشجار المثمرة أما على ضفاف الأنهار الكثيرة فتوجد الرياض والمروج والزهور وأشجار الصنوبر والسنديان.[5] يذكر البكري أن الأندلس " شامية في طيب هوائها يمانية في اعتدالها

---

[1]- عبد الرحمن علي الحجي:التاريخ الاندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم، دمشق-بيروت، ط2، 1981، ص 36.

[2]- شكيب أرسلان: الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المكتبة التجارية الكبرى، فاس، المغرب، ط1، 1936،ج1، ص ص 24-25؛ راغب السرجاني، المرجع السابق، ص ص 13-15.

[3]- محمد عبده حتامله: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة دراسة شاملة، مطابع الدستور التجارية، عمان، الأردن، (د.ط)، 2000، ص 49.

[4]- شكيب أرسلان: المرجع السابق ، ص ص 27-31.

[5]- حسين مؤنس:رحلة الأندلس حديث الفردوس الموعود، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 1985، ص ص 13-14.

واستوائها هندية في عطرها وذكائها أهوازية في عظيم جبايتها صينية في جواهر معادنها عدنية في منافع سواحلها وهي غنية بالأحجار والمعادن الثمينة"[1]، ولعل هذا التنوع والثراء في الموارد الطبيعية هو ما جعل الأندلس منذ القدم محلا للتنافس بين الغزاة فتعرضت عبر تاريخها الطويل للإستيطان من قبل عدد من الشعوب كالفينيقيين والقرطاجيين والرومان والوندال والقوط ثم المسلمون[2].

2:أصل التسمية: والأندلس هو الاسم العربي لشبه الجزيرة الأيبيرية أما المؤرخ الإغريقي **بوليبيوس** الذي كان في شبه الجزيرة نفسها خلال الثلث الأخير من القرن الثاني قبل الميلاد فيخبرنا بأن اسم ايبيريا أطلق على الجزء الواقع على البحر الابيض المتوسط فقط[3].

أما البكري[4]، فيذكر بأن بلاد الأندلس في القديم كانت تسمى إبارية نسبة إلى وادي أبره ثم سميت بعد ذلك باطقة نسبة إلى وادي بيطة وهو نهر قرطبة ثم سميت إشبانية على اسم رجل ملكها وقيل لأن الأشبان سكنوها وذكر غير ذلك من الأسماء التي سميت بها الأندلس في القديم[5]، أما الحميري فيرى بأن اشبانيا هو اسم الأندلس باللغة اليونانية[6]

ويرى ج. س. كولان بأن أصل هذا الاسم يشوبه الكثير من الغموض، ويستبعد الرواية العربية التي ترى بأن التسمية لها علاقة بأندلس بن طوبال بن يافث بن نوح عليه السلام ويرجح أن تكون بينه وبين اسم القبيلة الجرمانية " الفندال" صلة[7]، أما الحجي فيؤكد هذه العلاقة ويجزم بأن هذا الاسم مأخوذ من قبائل الوندال التي ترجع إلى أصل جرماني والتي قامت باحتلال شبه الجزيرة الإيبيرية حوالي القرن الثالث والرابع والخامس الميلادي فسميت البلاد المحتلة باسمها : فاندلسيا وتعني بلاد الوندال ثم نطقت بالعربية الأندلس وهو ما يرجحه كذلك شكيب أرسلان ويعتقد أن أهل افريقية بعد جواز الوندال إليهم والتعرف عليهم أطلقوا اسمهم على البلاد التي جاءوا منها وكان هؤلاء الوندال قد سكنوا الأندلس منذ زمن وجازوا إلى

---

[1]- أبو عبيد البكري: المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، (د.م)، (د.ط)، 1992، ص894، 896، 897،898.

[2]- حتاملة:الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص ص 49-51.

[3]- الطاهر أحمد مكي: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1987، ص 10.

[4]- المصدر السابق، ص 890.

[5]- البكري: المصدر نفسه، ص 890؛ حتاملة: ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص 108.

[6]- الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها إ ليفي بروفنصال، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1988، ص 1.

[7]- المقري: المقري أبو العباس أحمد بن محمد : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، مج1، ص 125؛ ج.س. كولان: الأندلس، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية ابراهيم خورشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني، بيروت- دار الكتاب المصري، القاهرة، ط1، 1980، ص 17.

افريقيا سنة 411 ق.م وهو بذلك يخالف قول المستشرق الفرنسي دوزي أن لفظ الأندلس كان يطلق في البداية على مقاطعة " بتيكه" ثم أطلقه العرب على كامل اسبانيا[1].

لكن الطاهر أحمد مكي يرى بأن معرفة أصل كلمة اسبانيا يتطلب منا البحث في لغة أقدم من اللغة اليونانية، ونقل عن الكاتب بوتشارت في كتابه " **الجغرافية المقدسة**" الذي صدر في مدريد عام1102هـ/ 1712م قوله بأن إسم اسبانيا مشتق من الكلمة الفينيقية " **سبان**" التي تعني بلاد الأرانب لأن شبه الجزيرة كان غنيا بهذا النوع من الحيوان ويعضد رأيه هذا بعملة قديمة تعود للإمبراطور أدريانوا (76-138م) تمثل اسبانيا في شكل أم جالسة بين قدميها أرانب وهو تفسير يرفضه الباحثون المعاصرون دون أن يقدموا له بديلا[2].

في حين أن محمود مكي يرى بأن الوندال الذين سكنوا المقاطعة الجنوبية باطقة قد هاجرت مجموعة منها بين سنتي 429م و435م إلى مقاطعة افريقية الرومانية (تونس وشرقي الجزائر) طمعا في خيراتها ولم يستطع الروم مدافعتهم فمكثوا في هذه الأراضي حتى فتح العرب هذه البلاد، وعندما علموا بأن الوندال قد قدموا إلى إفريقيا من شبه الجزيرة الإيبيرية أطلقوا عليها اسم فندالس محرفة قليلا[3].

وما دامت الدراسات التاريخية التي قد شهدت بأن شبه الجزيرة الأيبيرية وتحديدا المنطقة الجنوبية منها كما جاء في الموسوعة الإسلامية التي أنجزها في الجزء الأول منها في الصفحة 345 قد كانت في فترة من الفترات موطنا للوندال فالذي يغلب على ظني أن التسمية العربية " الأندلس" هي تصحيف لكلمة فندالس كما ذكر محمود مكي والتي تعني الشعب الذي عمر زمنا الجزء الأقرب إلى إفريقيا من الجزيرة الأيبيرية، ويصبح الظن يقينا عندما نعلم كما يقول شكيب أرسلان وعبد الرحمن علي الحجي بأن الأسبان كانوا ولا زالوا يطلقون اسم الأندلس على ولايات اسبانيا الجنوبية[4].

وتجدر الإشارة إلى أن الأندلس التي نتحدث عنها في عصر ملوك الطوائف لا تستغرق مساحتي اسبانيا والبرتغال كلها فيستثنى من هذه المساحة مملكة ليون وقشتالة وأراغون وبرشلونة في الشمال، فقد سيطرت مملكة ليون على شمال البرتغال حاليا فيما سيطرت كل من قشتالة وأراغون على المناطق الشمالية لإسبانيا مع اختلاف واضح في المساحة المسيطر عليها من قبل هذه الممالك النصرانية.

---

[1]- الحجي: المرجع السابق، ص 37؛ السرجاني: المرجع السابق، ص 15؛ شكيب أرسلان: المرجع السابق، ص 32، 35.

[2]- الطاهر أحمد مكي، المرجع السابق، ص 11.

[3]- محمود مكي: المرجع السابق، ص 57.

[4]- شكيب أرسلان: المرجع الساابق، ص 33؛ الحجي، المرجع السابق، ص27.

ثانيا: الأندلس قبيل الفتح الإسلامي

من المهم جدا أن نتعرف على أوضاع الأندلس قبيل الفتح الإسلامي لهذه الأراضي حتى يتسنى لنا معرفة حجم التحول الذي أحدثه المسلمون في هذه الديار بعد دخولهم إليها وطبيعته. ومن البديهي جدا أن حضارة ما لا تستسلم لحضارة أخرى إلا عندما تستنفذ الوقود الحضاري الذي بداخلها وهذا ما يجعلنا نعتقد بأن شبه الجزيرة الأيبيرية قبيل دخول المسلمين إليها قد وصلت إلى مرحلة الشيخوخة المصحوبة بكثير من الأمراض والعلل التي تحول دون مقاومتها لأي خطر خارجي مهما كان حجمه وقوته.

تخبرنا المصادر التاريخية بأن الجزيرة الأيبيرية قد وقعت تحت سيطرة القوط الغربيين منذ أواخر القرن الرابع الميلادي وأعلنو استقلالهم عن الإمبراطورية الرومانية حوالي 476م، وأعلن ملوكهم في هذا التاريخ أنهم لا يتبعون لأحد، وكان يوريك(466-484م) المؤسس الفعلي لدولة القوط الغربيين في اسبانيا قد لقب نفسه بالملك قبل هذا التاريخ بعشر سنوات، وقد كان لاعتناق القوط الغربيين للمذهب الأريوسي الأثر السيء في عدم استقرار هذه المنطقة، فالسكان الأصليون من الرومان الإسبان كانوا كاثوليكيين، وهذا ما جعل المنطقة على صفيح ساخن تسودها المؤامرات والحروب يوقد نارها القساوسة الذين يتبعون لسلطان روما وأسقفها الكبير، فقرر " ريكاردوا" التخلي عن المذهب الأريوسي وأعلن في مجمع طليطلة الديني سنة 587م اعتناقه للمذهب الكاثوليكي وتبعه على ذلك الأمراء وكبار أهل المملكة وصارت الكاثوليكية هي المذهب الرسمي لإسبانيا وتوطدت علاقتها بالبابوية وتهافت القساوسة الكاثوليك على اسبانيا[1]، وتسلط رجال الدين وأصبح لهم نفوذ كبير مكنهم من التدخل في تعيين الملوك وعزلهم وتسبب الاختلاف المذهبي بين السكان الأصليين وحكام القوط في معاداة اليهود والبشكنش للحكام[2].

وقد كانت الملكية القوطية انتخابية، فكبار المملكة وأمراؤها كانوا يجتمعون بعد وفاة ملكهم لاختيار ملك جديد من الحضور، وهذا ما جعل التنافس على الكرسي يحتدم بين الحاضرين وستعمل فيه كل الوسائل المشروعة وغير المشروعة للظفر بكرسي الملك، فكان تاريخ القوط في اسبانيا عدا بعض الفترات المستقرة سلسلة من الحروب والمؤامرات والاغتيالات[3]، وعند اعتلاء غيطشة العرش في نوفمبر سنة 700م كانت اسبانيا تعيش اضطرابا سياسيا رهيبا بسبب المؤامرات التي كان كبار القوط قد أشعلوا نارها، وقد تباينت آراء المؤرخين الإسبان حول الملك غيطشة فبعضهم اعتبره المسؤول الرئيس عن الفوضى التي عمت الأندلس ومهدت لدخول المسلمين إليه بينما دافع عنه البعض الآخر، وفند جميع التهم الموجهة له

[1]- حتاملة: ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص 185، 208.

[2]- محمد عبده حتاملة: مدخل لدراسة تاريخ الأندلس، مطبعة الجامعة الاردنية، عمان، الأردن، 2010، ص 19.

[3]- حسين مؤنس: فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، العصر الحديث للنشر والتوزيع- دار المناهل، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 22.

وحملوا مسؤولية الاضطرابات التي عصفت بإسبانيا قبل دخول المسلمين إليها لأعداء غيطشة من رجال الدين ومنافسيه على كرسي الحكم[1]، وتذكر البحوث والدراسات أن غيطشة قام بعد توليه الحكم بإعادة الاعتبار لليهود الذين تعرضوا للقمع والتهجير والاضطهاد على يد أبيه إلا أن حنقهم على والده جعلهم يفكرون جدّيًّا في الاستعانة بالعرب لتقويض حكمه إلى جانب عدد من الإجراءات التي أثارت غضب الإسبان وجعلته مكروها من قبلهم أهمها اعتلاءه للعرش دون انتخاب وتعيين ابنه الصبي أخيلا لحكم سبتمانيا وطركونة وجعله وليا للعهد[2].

لم يخطر ببال غيطشة بأن تلك التدابير والإجرات ستكون سببا في انتزاع الملك من أسرته بعد وفاته، فبعد موته مباشرة دخلت البلاد في الفوضى[3]، فاستقل بعض الناقمين ببعض الأقاليم ثم سارع النبلاء والقساوسة إلى اختيار حاكم من غير الأسرة الحاكمة فتم الاتفاق على دوق فرطبة لوذريق(Rodrigo) وهو من أشجع فرسانهم وقادتهم يومئذ فانقسمت البلاد بين مؤيد له ومتعاطف مع أسرة غيطشة وخاض المعارضون حربا ضد لوذريق إلا أنه تمكن من إخماد ثورتهم وصادر أموالهم[4]، كما قام بنفي الكثير منهم ولكن أبناء غيطشة راحوا يبحثون عن حليف جديد لإسقاط النظام القائم فأشعلوا مع البشكنش حربا في الشمال كما تحالفوا مع يوليان بارون موريتانيا وطنجة[5]، وتذكر المصادر التاريخية أن يوليان قَبل التحالف مع أبناء غيطشة رغبة في الانتقام من لوذريق لأنه قام باغتصاب ابنته فلوريندا التي كانت في قصره بطليطلة[6]، فأرسل إلى طارق بن زياد بطنجة يحرضه على الجواز إلى الأندلس ويعده بالمساعدة فأجابه طارق وجدَّ يوليان في مساعدة جيش المسلمين بالسفن فتمكن طارق من الجواز بجيشه، وفتحت بذلك صفحة جديدة من تاريخ المسلمين في هذه المنطقة[7]، وبجواز المسلمين إلى شبه الجزيرة الأيبيرية تنفس اليهود الذين عاشوا لقرون تحت القهر الصعداء عندما علموا بجواز المسلمين إلى الأندلس فكانوا يتتبعون أخبارهم ويعرضون

---

[1]- حتاملة: ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص ص 253-254.

[2] -Carmona, D Francisco Diaz: Historia de Espana, Barcelona, 1911, p112

[3]- مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1989، ص 15.

[4]- مجهول: نفسه، ص 16؛ حتاملة: ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص 255.

[5]- حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 54.

[6]- ابن الكردبوس أبو مروان عبد الملك التوزري: تاريخ الأندلس قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج13، (1965-1966)، ص ص 43-44.

[7]- ابن عبد الحكم: فتوح افرقية والأندلس، حققه وقدم له عبد الله أنيس الطباع ، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1964، ص ص 72-73.

خدماتهم على قائد الجيش الإسلامي فكانوا يدلُّون المسلمين على المسالك ونقاط الضعف في المدن لذلك منحوا بعد فتح المسلمين للأندلس حريات لم ينعموا بها في ظل حضارة من الحضارات[1].

وإجمالا نقول: لقد اتسمت الفترة التي تسبق الفتح الإسلامي للأندلس بعدم الاستقرار على جميع الأصعدة والمستويات.

فعلى الصعيد السياسي والأمني عاشت اسبانيا خلال حكم لوذريق لها اضطرابا دائما وفتنا متلاحقة[2] وتأييدا شعبيا محدودا انحصر في إقليم صغير من اسبانيا ما جعله يشن الحملات تلو الحملات لإخضاع الثائرين، بل إن اسبانيا لم تنعم بالطمأنينة منذ حكم القوط لها إلا في بعض الفترات المحدودة.

أما على الصعيد الاقتصادي فقد انتزع القوط الأراضي الزراعية من ملاكها ومن الفلاحين العاملين فيها بالأجر وأجبروا على العمل فيها كعبيد، كما أرهق لذريق كاهل السكان بالضرائب لتمويل حملاته العسكرية ضد المناوئين له.

على الصعيد الاجتماعي لم يغير القوط بعد سيطرتهم على اسبانيا الكثير من معالم المجتمع الذي صاغه الرومان قبلهم، فقد حافظت الطبقة الارستقراطية الرومانية على ثرائها وسيطرتها على الناس، وظلت الطبقة الوسطى من أحرار المدن والتجار والمزارعين الصغار تحت رحمة الأقوياء في وضع يتأرجح بين الحرية والرق، أما بقية الشعب فيشكل طبقة الرقيق التي تكدح لإسعاد الطبقة الغنية المسيطرة ، وقد تحالفت هذه الطبقة مع القوط للحفاظ على أملاكها والحصول على بعض الامتيازات واستقر جزء منهم في المزارع ومارسوا الزراعة أما الجزء الأكبر منهم، فقد بقي في المدن في معسكرات تعيش من الضرائب التي فرضوها على المزارعين الصغار والطبقة الضعيفة في المدن فزادت هذه الضرائب من معاناة الضعفاء وخلفت استياء كبيرا لديهم، أما القوط فلم تكن أعدادهم كبيره ولم يكن عندهم ميل إلى التجارة أو الزراعة فعاشوا حياة الغرباء.

أما طبقة رجال الدين فقدأخذ نفوذهم يتعاظم بعد تحول اسبانيا إلى الكاثوليكية، وصار تأثيرهم في دوائر صناعة القرار واضحة للعيان، إذ صاروا يتدخلون في تعيين وعزل بعض الملوك، وقد أكسبهم هذا الوضع الجديد الكثير من الامتيازات حيث ملكوا أراضي شاسعة، وتمتعوا بصلاحية تحصيل الضرائب من السكان، فتعاظمت ثرواتهم، هذا إلى جانب إدارتهم للشؤون الدينية[3].

---

[1]- محمد بحر عبد المجيد: اليهود في الأندلس، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1970، ص 20.

[2]- حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص 34.

[3]- حتاملة : ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص262.

ولم تسلم طبقة اليهود من الاضطهاد والتنكيل بسبب عقيدتها، إلى جانب مشاركاتهم في مؤامرات لقلب النظام الحاكم، وعقابا لهم أصدر المجمع الكنسي الطليطلي قرارات مجحفة في حقهم كان آخرها القرار الذي يقضي بمصادرة أموالهم وظل اليهود يعيشون الاضطهاد حتى دخل السلمون الأندلس[1].

أما عن طبيعة الحكم القوطي في اسبانيا فقد أقاموا حكومة عسكرية يدعمها الأشراف وملاك الأراضي من القوط والسكان الأصليين، ومع أن الملك كان له مجلس من النبلاء يساعده في إدارة شؤون البلاد إلا أن هذا المجلس ليس له أدنى تأثير لانفراد الملوك بالحكم واستيلائهم على جميع الصلاحيات ولم يكن الملك يصل إلى كرسي الحكم بالانتخاب بل بحد السيف باستثناء مجلس طليطلة الذي كان ديموقراطيا إلى حد بعيد، وقد كثرت الحروب بين الملوك والنبلاء وكان وقودها العبيد الناقمين على الحكام فلم يكن الملك أو النبلاء يخرجون إلى الحرب بل يركنون إلى الراحة ويخرجون لها العبيد حتى زاد عددهم في الجيوش على الأحرار.

ويرى حسين مؤنس بأن القوط كانوا أقل إنسانية ونظاما من طوائف المتبربرين التي استقرت في شبه الجزيرة الأيبيرية فقد جمعوا إلى مساوئ نظامهم مساوئ النظام الروماني الذي كان قبلهم، فعم الضرر وتأذى الفقراء والأغنياء، أما على صعيد الحريات الدينية فقد قام القوط باضطهاد المخالفين لهم في الدين كاليهود وأصحاب المذهب الآريوسي، وهذا ما جعل اليهود في زمن لوذريق يتربصون به الدوائر ويتمنون زوال حكمه[2].

إذن كانت اسبانيا قبل الفتح الإسلامي تعيش انحطاطا وترديا مس جميع الأصعدة والمستويات ولم تسلم من هذه الحالة الحياة الفكرية باستثناء علوم الدين وبعض الكتابات التاريخية والشعرية، وفي مجال الفن لم تكن لديهم حركة فنية تستحق الذكر ومعمارهم كان خشنا وبسيطا وبدائيا، أما الموسيقى فكانوا أصحاب ذوق موسيقي لا بأس به[3].

ثالثا: الأندلس الإسلامية قبيل عصر الطوائف

إن عصر ملوك الطوائف ما هو إلا مرحلة من المراحل المكونة لتاريخ الأمة الإسلامية بالأندلس ومن أجل فهمها جيدا لا بد من الرجوع قليلا إلى الوراء أي إلى سنة 399هـ/1008م وهي السنة التي تسبق اللحظة التي ولدت فيها دويلات الطوائف للإطلاع على الظروف والملابسات التي تمخضت عنها

---

[1]- محمد بحر عبد المجيد: المرجع السابق، ص 17.

[2]- حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص ص 37، 39.

[3]- حتاملة: ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، ص 265.

الفترة التي ينظر إليها على أنها من أسوإ المراحل التي مر بها الوجود الإسلامي بالأندلس إن لم نقل أسوأها على الإطلاق، وقد سبقت الإشارة أن دويلات الطوائف قد ولدت سنة 400هـ/1009م.

يطلق الكثير من المؤرخين الذين أرخوا للفترة التي أفرزت عصر ملوك الطوائف اسم فتنة الأندلس أو الفتنة البربرية[1]، فيما يرى البعض الآخر منهم أن الأولى أن تسمى بفتنة محمد بن هشام بن عبد الجبار[2]، وحسب رأيي المتواضع فإن البربر رقم مهم ضمن معادلة تشكلت من عناصر مختلفة عربية وبربرية وصقلبية وعامرية تفاعلت هذه العناصر بشكل سلبي فكانت نتيجة ذلك التفاعل فتنة عصفت بالأندلس في هذه المرحلة، غير أن المؤرخين جميعا يتفقون بأن الشخص الذي فتح باب الفتنة على مصراعيه هو عبد الرحمن (شنجول) الابن الثاني للمنصور بن أبي عامر، فعل ذلك عندما أخرج للناس كتابا كان قد أرغم هشاما المؤيد على كتابته وإذاعته في الناس وكان محتوى الكتاب أن هشاما قد اختاره لخلافته بعد موته وجعله وليا لعهده فخلف هذا التصرف استياء كبيرا لدى الأسرة الأموية في الأندلس واعتبروه انقلابا على الحكم الأموي واغتصابا لحقهم في الملك، ثم إنه أساء معاملة الناس لا سيما رجال المملكة وذوي الهيئات منهم حيث أمرهم بنزع قلانسهم التي هي تيجانهم كما أغار على الرعية وصادر أموالهم فكرهه الجميع[3].

لقد انتظر الأمويون هذه اللحظة بفارغ الصبر فمنذ زمن المنصور بن أبي عامر والأمويون يملكون ولا يحكمون وقد صار الظرف مواتيا للتخلص من العامريين واسترجاع صلاحيات الخليفة كاملة لا سيما والكل متذمّر من شنجول وناقم عليه وقد تولى كبْر هذا الانقلاب محمد بن هشام بن عبد الجبار الذي تلقب لاحقا بالمهدي[4]، حيث انتهز فرصة خروج شنجول سنة 399هـ/1009م في جيش له لردع كونت قشتالة الذي كان قد أغار على مدنه الحدودية فوثب على كرسي الحكم وأرغم هشاما المؤيد على التنازل له عن

---

[1]- ممن يسميها بذلك ابن حيان القرطبي. ينظر المقري أبو العباس أحمد بن محمد: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، مج1، ص427؛ ابن الخطيب لسان الدين : الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1973، مج2، ص 93.

[2]- قال بذلك ابن عذاري المراكشي: البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف- محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2013، مج2، ص 352؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس، دار المعارف، القاهرة، ط2، 1985، ج2، ص5، 30.

[3]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 323، 329؛ ج4، ص 191؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ج2، ق2، ص 85؛ ابن خلدون عبد الرحمن: تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2000، ج4، ص ص 190-191؛ زبيب نجيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب والأندلس، تقديم أحمد بن سودة، دار الأمير، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ج2، ص 219؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 426.

[4]- هو محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر لدين الله كنيته أبو الوليد، لقبه المهدي أمه أم ولد، أبيض اللون، أشقر، سبط الشعر، أشهل تام القامه، أعين، حسن الجسم، وكان خفيفا، شديد البطش، وهو رأس الفتنة بالأندلس، وسبب النفاق لوثوبه على ملك هشام المؤيد،... مولده سنة 366هـ، وقتل يوم منى سنة 400هـ. ينظر مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، دراسة وتحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمي، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 237.

الخلافة، وشكل جيشا من العوام والغوغاء والمجرمين واللصوص الذين أخرجهم من سجن العامرية[1]، فأمعنوا في القتل والتخريب وتولى خلخلة الأمور في ظرف وجيز عشرة رجال من جند المهدي فحامين وجزارين وزبّالين، ومهدت له الذلفى أم عبد الملك الطريق لأنها كانت تعتقد بأن شنجول هو من سمم عبد الملك وقتله[2]، وتلقّب بالمهدي ولم يستطع شنجول أن يفعل شيئا إزاء ما حدث بل تفرق عنه جنده من البربر وتسللوا إلى قرطبة معلنين ولاءهم للمهدي، فوقع في يد جنود المهدي وقتلوه في العام نفسه (399هـ/1009م) وانتهت بمقتله الدولة العامرية[3].

وقد بالغ المهدي في الانتقام من العامريين إدراكا لثأره منهم لأن المظفر عبد الملك بن أبي عامر كان قد قبض على أبيه هشام وسجنه بتهمة ممالأة وزيره عيسى بن سعيد القطاع على الخروج عليه فلم يطلق سراحه حتى مات في محبسه كما هدم ديارهم، ونهب أموالهم التي قدرت بأربع وخمسين بيتا مملوءة ذهبا وفضة[4]، وإمعانا منه في محو آثارهم سلط العوام على مدينه الزاهرة فخرّبوها ونهبوا نفائسها وجعلوها أثرا بعد عين، أما هشام المؤيد فقد حبسه المهدي زمنا في القصر ثم نقله إلى منزل من منازل قرطبة وحبسه فيه، واستغل وفاة رجل يهودي أو نصراني في المدينة شديد الشبه بالمؤيد- وقيل بل قتله عمدا- فأعلن في الناس وفاته وأبرزه للفقهاء والوزراء فشهدوا بذاك[5]، ثم قام المهدي بعد ذلك بعدد من الإجراءات في اعتقادي هي التي قلبت المنطقة رأسا على عقب وقذفت بها في أتون الصراعات وولّدت من رحمها ممالك الطوائف حيث نكّل بالبربر ونفى عددا من الصقالبة وهما عنصران مهمان اعتمد عليهما المنصور بن أبي عامر في بناء دولته، وقام بحل الجيش الذي قضى المنصور بن أبي عامر سنوات في بنائه وإعداده وصرف من أجله أموالا باهظة، فسرح ما يقرب من سبعة آلاف جندي وأحالهم على البطالة الدائمة فأصبحوا لا عمل لهم سوى السلب والنهب[6]، ولم يسلم من أعمال التنكيل زعماء البيوتات العربية وعلى رأسهم ولي عهده سليمان بن هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، وقد أثار هذا التصرف حفيظة بعض الأمويين كهشام والد سليمان فتحالف مع البربر لخلع المهدي ولكنهم فشلوا في ذلك فقام المهدي بإعدامهم، وحرَّض العوام

[1]- ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ق2، ص ص91، 103؛ عمر ابراهيم توفيق: صورة المجتمع الأندلسي في القرن 5هـ سياسيا واجتماعيا وثقافيا، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011، ص 18؛ أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص 254.

[2]- ابن الخطيب:المصدر السابق، ج2 ، ق2، ص 103.

[3]- ابن الخطيب: المصدر نفسه، ج2، ق2، ص 62؛ المقري:المصدر السابق، مج1، ص 590 وما بعدها.

[4]- مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، ص 237؛ ابن الأبار:المصدر السابق، ص 5؛ ابن عذاري المراكشي: المصدر السابق، مج2، ص 320.

[5]- مجهول: تاريخ الأندلس، ص 238؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ق2، ص104، 105، 106؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 19.

[6]- المقري:المصدر السابق، مج1، ص 427؛ رينهارت دوزي: المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1995، ج2، ص 169؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 19.

على البربر فأجرموا في حقهم وهذا ما حملهم على الهروب إلى قلعة رباح ولحق بهم سليمان بن الحكم بن سليمان الأموي فبايعوه هناك وقرروا الاستعانة بجيش سانشوا غارسيا ملك قشتالة لخلع المهدي فتم لهم ذلك في معركة طاحنة، ففر المهدي إلى طليطلة ودخل المستعين[1] قرطبة فجلس على كرسي الحكم في ربيع الأول من سنة 400هـ/1010م[2].

غير أن الثغور لم تزل على طاعتها للمهدي وهذا ما جعل الفتى واضح والي المهدي على مدينة سالم يطلب من ريموند كونت برشلونة إمداده بالجيش للزحف على سليمان المستعين في قرطبة على أن يتنازل له واضح عن مدينة سالم ويمنحه أموالا طائلة فقبل ريموند والتقى الجيشان في موضع قريب من قرطبة يسمى عقبة البقر[3]هزم خلالها المستعين وعاد المهدي إلى الحكم من جديد في شوال سنة 400هـ/1010م، لكن البربر نظموا صفوفهم من جديد واشتبكوا مع جيش المهدي في وادي آره فهزموه في ذي القعدة من نفس العام وتحصن المهدي في قرطبة فتفرق عنه جيشه وتحامل عليه الفتيان العامريون فقتلوه لأنهم يعتبرونه المتسبب الرئيس في فتنة قرطبة وأخرجوا هشاما المؤيد ونصبوه خليفة مرة أخرى لكن سليمان رفض الاعتراف به وزحف بالبربر إلى مدينة الزهراء فخربوها ومكثوا بها زمنا يغيرون منها على قرطبة سنة 401هـ/1011م[4].

وقد حاول المؤيد في هذه الفترة مصالحة البربر فرفضوا ذلك فخرج أهل قرطبة لقتالهم واشتبك الفريقان في معركة فاصلة سنة 403هـ1012م انتهت بهزيمة القرطبيين واستيلاء المستعين مرة أخرى على الحكم فيها وانتهى خبر المؤيد هنا، فلا تعرف نهايته على وجه الدقة، فمن قائل أن محمدا بن المستعين بالله قتله دون إذن والده، إلى قائل بأنه بأنه فر إلى وجهة لم تعلم، أما ابن خلدون فيرى أن البربر قد قتلوه بعد اقتحامهم لقرطبة واستيلائهم عليها[5].

---

[1]- هو سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر،كنيته أبو أيوب، لقبه المستعين بالله، أمه أم ولد رومية اسمها ظبية، قدمته البرابرة عند مقتل عمه هشام بن سليمان بن الناصر القائم على المهدي محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر...دخل سليمان قرطبة، وبويع له بالخلافة للنصف من شهر ربيع الأول وتسمى بالظافر بحول الله مضافا ذلك إلى لقب المستعين بالله، ثار عليه علي بن حمود العلوي الإدريسي فقتله بيده لثمان بقين من المحرم سنة سبع وأربعمائة وقتل معه أباه حكم بن سليمان وأخاه عبد الرحمن ينظر ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، ص 5، 7؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 363.

[2]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 102؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 193.

[3]- الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق بشار عواد معروف- محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008، ص 38؛ عبد القادر بوباية: البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن القرن الخامس الهجري (11م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2011، ص 410.

[4]- ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 194.

[5]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 115؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 194.

واستطاع البربر بعد جلوس المستعين مرة أخرى على كرسي الحكم بقرطبة السيطرة على جميع السلطات في القصر فقرر سليمان إبعادهم عنها بطريقة ذكية حيث أقطع كل قبيلة من هذه القبائل منطقة من مناطق المثلث الجنوبي[1].

وبعد عامين من تولي المستعين حكم قرطبة عبر إليه واليه على مدينة سبتة علي بن حمود في جيش له انظم إليه جيش من صنهاجة غرناطة وجيش خيران الصقلبي بالمرية يحمل كتابا في يده يزعم أن هشاما المؤيد كتبه له ولاه بموجبه ولاية العهد وأنه جاء مطالبا بدمه، فزحف إليه المستعين بقواته وحدثت بينهما معركة انتهت بمقتل المستعين ودخول علي بن حمود قرطبة سنة 406هـ/1016م[2].

فالذي يظهر لي بعد الاطلاع على هذه الأحداث أن الفتنة التي عصفت بقرطبة لا يستقيم أن تسمى " فتنة البربر" لأن المتسبب الرئيس فيها وموقد نارها ومشعل شرارتها الأولى شخصان هما: عبد الرحمن بن أبي عامر المدعو شنجول عندما أرغم هشام المؤيد أن يكتب له كتابا بولاية العهد والشخص الثاني هو محمد بن هشام بن عبد الجبار المتلقب بالمهدي عندما ثار على هشام المؤيد وخلعه بسبب الكتاب الذي كتبه لشنجول، وقد تمكن المهدي من قتل هذا الأخير وإزاحته من طريقه وهذا ما صرح به ابن الأبار عندما تحدث عن فتنة قرطبة إذ يقول" وأول من أرث نارها وأورث شنارها محمد بن هشام بن عبد الجبار المهدي"[3]، وقال عنه مؤلف مجهول:" هو رأس الفتنة بالأندلس وسبب النفاق لوثوبه على ملك هشام المؤيد"[4] أما البربر فهم طرف في النزاع كغيرهم من الأطراف الأخرى حاولوا في البداية الإنضمام إلى الداعمين للمهدي لكنه رفضهم بسبب وقوفهم إلى جانب محمد بن أبي عامر عندما تسلط على هشام المؤيد وقاد الدولة بدله فقام العوام بمباركة من المهدي بإهانة البربر في قرطبة فنهبوا ديارهم وسفكوا دماءهم وانتهكوا أعراضهم وهذا ما جعلهم يشعرون بالظلم ويثورون ضد المهدي وسكان قرطبة.

ولو نظرنا إلى الأسباب البعيدة التي أنتجت هذه الفترة لعلمنا بأن الديكتاتورية التي حكم بها المنصور بن أبي عامر الأندلس ومصادرته الحكم من هشام المؤيد هي التي مهدت لسقوط الخلافة فيما بعد[5].

---

[1]- محمد عبد الله عنان: دولة الاسلام في الأندلس عصر الطوائف منذ قيامها حتى العصر المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997، ص 123.

[2]- محمود مكي: المرجع السابق، ج1، ص98.

[3]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 30.

[4]- تاريخ الأندلس، ص 237.

[5]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تقديم محمد المنوني، مطبعة النور، تطوان، المغرب، (د.ط)، 1987، ص 55.

الفرع الثاني: ممالك الطوائف في الأندلس

ممالك الطوائف تسمية تطلق على الدويلات التي ظهرت بعد انهيار الخلافة الأموية بالأندلس وتفكك وحدتها السياسة حيث قسمت المنطقة إلى اثنتين وعشرين[1] دويلة، ويرى محمود مكي بأن الأندلس عقب الفتنة قد قسمت إلى ستين دويلة[2] وفي هذا المطلب سنتتبع المراحل التي مرت بها هذه الدويلات بدءا بالميلاد وبداية الظهور على مسرح الأحداث مرورا بمرحلة القوة والذروة وانتهاء بمرحلة الاضمحلال والتلاشي والانصراف من الساحة التاريخية.

أولا: التكوين والظهور: بداية لا بد من الاعتراف بتباين التواريخ التي ظهرت فيها دويلات الطوائف، فظهورها لم يكن دفعة واحدة بل تم في تواريخ مختلفة، وقد تحكَّم في هذا الظهور المتفاوت الظروف والملابسات التي كانت تعيشها كل منطقة، لكن الإستقلال بالأقاليم كما أشرنا سابقا بدأ منذ مطلع القرن الخامس الهجري وهذا ما يشير إليه ابن حيان في حديثه عن إسماعيل ابن ذي النون عندما استقل بإقليم اقليش وقلعة كونكة[3] زمن سليمان المستعين أي سنة 400هـ/ 1010م حيث يقول: " فكان أول الثوار لمفارقة الجماعة وفرطهم في نقض الطاعة...وهو كان فرط الملوك في إيثار الفرقة فاقتدى به من بعده وأموا في الخلاف نهجه"[4]، فلم يسبقه إلى الانفصال أحد، وقد اقتدى به غيره بعد ذلك في الاستقلال بالأقاليم كما هو واضح من كلام ابن حيان.

ورغم تباين آراء المؤرخين حول التاريخ الذي بدأ فيه عصر الطوائف وترجيح الكثير منهم لسنة 422هـ/1031م إلا أنَّ هذه التواريخ في حقيقة الأمر غير دقيقة لأن بعض الأقاليم استقل بها المتغلبون عليها قبل هذا التاريخ لاقتناعهم بتعذُّر قيام سلطة مركزية مرة أخرى بعد الفوضى التي حلت بقرطبة لذلك شرعوا في الاستقلال بأقاليمهم على النحو التالي:

1: مملكة بني ذي النون: أسس نواتها الأولى في **"أقليش"**[5] الذي يعتبر معقل بني ذي النون عبد الرحمن بن ذي النون زمن سليمان المستعين أي سنة 400هـ/1010م الذي فر إليها فور سقوط الدولة العامرية،

---

[1]- السرجاني: المرجع السابق، ص 322.

[2]- المرجع السابق، ص99.

[3]- كونكة: مدينة بالأندلس من أعمال شنتبرية. ينظر الحموي: معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1977، م4، ص 415.

[4]- ابن بسام الشنتريني: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1997، ق4، م1، ص143.

[5]- مدينة لها حصن في ثغر الأندلس وهي قاعدة كورة شنتبرية وهي محدثة بناها الفتح بن موسى بن ذي النون ...ينظر الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984، ص ص51-52.

فاجتمع إليه بنوا عمه وأقره سليمان عليها[1]، وفي الفترة نفسها انتزى اسماعيل بن ذي النون على كونكه فور وفاة واضح العامري، فكان اسماعيل أول المستقلين بهذا الإقليم لذلك وصمه ابن حيان بأنه " أول الثوار لمفارقة الجماعة"[2]، ومع ذلك يمكن اعتبار اللحظة التي التحق فيها عبد الرحمن بحصن اقليش هي لحظة الولادة لمملكة بني ذي النون وقد نسبتها إلى مؤسسيها ولم أنسبها إلى طليطلة كما يفعل الكثير من المؤرخين لأنها لم تضم إلى أملاكهم إلا سنة 427هـ/1036م بطلب من أهلها[3].

2: **مملكة دانية**: استقل بها مجاهد العامري غداة مقتل محمد بن هشام بن عبد الجبار الملتقب بالمهدي فقد كان بقرطبة يرقب الأحداث هناك ثم انصرف على رأس جماعة من أتباعه إلى دانية سنة 400هـ/ 24 يوليو 1010م وفي هذا التاريخ تمكن من إرساء نواة مملكة دانية ثم أتبعها جزر البليار الثلاثة في تواريخ لاحقة[4].

3:**مملكة السهلة**: حسب ابن حيان فإن هذا المنطقة قد حكمها بنو رزين منذ زمن طويل فخلال الفتنة القرطبية كانت بيد هذيل بن خلف بن لب بن رزين المعروف بالأصلع استقل بها في هذه المدة أي سنة 400هـ/1010م بعد مقتل المهدي مباشرة وترأس قومه بها، فقبل منه سليمان المستعين ذلك وأقره عليها لعجزه عنه ثم صارت في عقبه بعد وفاته[5].

4:**مملكة بلنسية**:كان يحكمها عند سقوط الدولة العامرية مجاهد العامري فانتزى عليها كل من مبارك ومظفر العامريين سنة 401هـ/1010م وأعلنا الثورة على مجاهد وأجبراه على مغادرتها إلى دانية، وقد حكماها حتى سنة 408هـ/1017م[6].

---

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 96؛ ابراهيم بن عطية الله بن هلال السلمي: تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي دراسة تاريخية حضارية (92-478هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1424-1425هـ، ص 105.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص142- 143.

[3]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 176؛ القلقشندي أبو العباس أحمد:صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط1915، ج5، ص 252.

[4]- ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى المغربي: المغرب المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1119، ج2، ص 466؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 411؛ عصام سالم سيسالم، جزر الأندلس المنسية- التاريخ الإسلامي لجزر البليار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1984، ص 139.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج 1، ص ص 109-110؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص427؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 429.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 14-15؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 414؛كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي (95-495هـ/ 714-1102م)، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، مركز الإسكندرية للكتاب، (د.ط)، (د.ت)، ص ص 88-89؛ محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 36.

5:مملكة غرناطة: بعد استيلاء المستعين بالله على الحكم في قرطبة للمرة الثانية سنة 403هـ/1012م طالبه البربر ببلاد يتخذون فيها دويلات يأمنون فيها من غوائل الزمن فقد قتلوا أيام محمد بن عبد الجبار وانتهكت أعراضهم وهذا ما جعلهم يتوجسون خيفة من القرطبين ويطلبون وطنا خاصا بهم، وقد اختار لهم زاوي بن زيري البيرة وجيان سنة 403هـ/1012م[1]، بينما تخبرنا بعض المصدر بأن سكان البيرة لم يستطيعوا حماية أنفسهم فطلبوا من زاوي بن زيري الإقامة بينهم لحمايتهم على أن يؤمن الألبيريون لهم السكنى والأموال فقبل زاوي ونزل بالبربر بينهم ثم رآى زاوي بن زيري أن ينتقل بالسكان إلى مكان حصين فاختار المكان الذي بنيت فيه غرناطة لاحقا فخربت البيرة وبنيت غرناطة بأنقاضها[2]، وبذلك تكونت مملكة غرناطة وبرزت إلى الوجود.

6: مملكة قرمونة: كلف المنصور بن أبي عامر إسحاق البرزالي البربري بإدارة هذا الإقليم في أيامه فاستقر بها مع قبيلته وبعد انهيار الدولة العامرية وسيطرة المستعين بالله على قرطبة ومن الفتنة جدد له المستعين العقد عليها أيام الفتنة ثم استقل بها محمد بن عبد الله بن البرزالي سنة 404هـ/1013م وسار في أهلها سيرة حسنة فبايعه سكان استجه وأشونة والمدور وغيرها من الأقاليم القريبة منه[3]، وتذكر المصادر التاريخية أنَّ المستعين بالله بعد اعتلائه لعرش قرطبة خاف على كرسيه منهم فأبعدهم عنه بمنحهم أماكن يستقرون فيها وقد انحاز معظمهم إلى الجنوب[4] .

وتوالى الاستقلال بالأقاليم بعد هذا التاريخ فملك خيران الصقلبي المرية من أفلح الصقلبي سنة 405هـ/1014م وحذا منذر بن يحي التجيبي حذوه فاستقل بسرقسطة في العام نفسه، واستقل بنو حمود بمالقة وقرطبة سنة 407هـ/1016، وبنو الأفطس ببطليوس سنة413هـ/1022م. وملك بنو عباد اشبيلية سنة 414هـ/1023م، وبنو جهور قرطبة سنة 422هـ/1031م وهكذا[5]، ولعل انشقاق هذه الدويلات عن مركز الخلافة في هذه التواريخ المبكرة هو ما جعل بعض المؤرخين المعاصرين يجزمون بأن عصر الطوائف قد بدأ في مستهل القرن الخامس الهجري ومنهم المؤرخ المتخصص في الدراسات الأندلسية حسين مؤنس حيث يعتبر معركة **قنتيش** التي وقعت بين جيش المستعين بالله وجيش المهدي بتاريخ 11ربيع الأول سنة 400هـ/3 نوفمبر 1009م هي البداية الفعلية والحقيقية لعصر ملوك الطوائف لأن حكام الأقاليم

[1]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 209؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 488؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 206.

[2]- ابن بلقين عبد الله: المذكرات المسماة بكتاب التبيان، نشر وتحقيق ليفي بروفنصال، دار المعارف، مصر، ط1955، ص 19، 20، 21، 22؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 106.

[3]- ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 491؛ ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج7،ص 73؛ عنان: المرجع السابق، ص 149.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 380؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق1، ص ص 113-114.

[5]- تنظر هذه الأخبار ملخصة في قصيدة. ابن بسام : المصدر السابق، مج2، ص 942.

والنواحي برأيه شعروا بعد هذه الواقعة باستحالة عودة السلطة المركزية من جديد وخاصة بعد انقسام الجيش الأندلسي إلى قسمين رئيسيين متعاديين : البربرمن جهة، والأندلسيون من ناحية أخرى[1]، وأنا أميل إلى هذا الرأي للأسباب والمبررات نفسها التي طرحها مؤنس.

ثانيا:التوسع والتمدد: الإتساع لم يكن من نصيب كل الممالك بل لتلك التي كانت تملك مقومات التوسع من قائد وزعيم طموح محنَّك وجيش منظم قوي وأسلحة ومعدات حربية متطورة نسبيا أما مصير الكثير من الدويلات المجهرية كالإمارات الواقعة في المثلث الجنوبي للأندلس مثل شدونة ،أركش مورور، شنتمرية الغرب، شلب وغيرها، فقد قامت الدويلات الكبرى بابتلاعها، وأجبرتها على الذوبان فيها، فلم تعمر هذه الإمارات الصغيرة طويلا لذلك سأقوم بالتركيز على الممالك التي تمددت وتوسعت فعلا كاالعباديين، والذنونيين، وبني الأفطس، وبني زيري، وبني هود، وبعض الممالك الأخرى التي كان توسعها محدودا.

لقد اختلفت فترة التمدد والاتساع والذروة في الممالك التي مارست التوسع من مملكة إلى أخرى وهذا ما سأحاول بيانه في الفقرات التالية:

1: مملكة اشبيلية: بدأت محاولاتها الأولى في التوسع في عهد مؤسسها محمد بن إسماعيل بن عباد، فقد قام بالاستيلاء على قرمونة وعدد من المدن التابعة لها كإستجة وأشونة وغيرها غير أن التوسع الحقيقي لهذه المملكة قد تم في زمن المعتضد (433-461هـ/1041-1069م)، فقد قضى فترة حكمه كلها في محاربة جيرانه وانتزاع أراضيهم[2]، وتمكن خلال ثمان وعشرين سنة من حكمه من السيطرة على المثلث الجنوبي للأندلس التي قامت فيها دويلات بربرية، فاحتل جزيرة شلطيش وشنتمرية الغرب سنة 443هـ ولبلة وشلب سنة 445هـ/1053م والجزيرة الخضراء سنة 446هـ/1054م ورندة سنة 457هـ/1065م وأركش وشدونة ومورور سنة 1066/458 وقرمونة سنة 459هـ/1067م ، وبعد تولي المعتمد الحكم استمر في التوسع فضم قرطبة عام 461هـ/1079م، وجيان عام 466هـ/1074م ومرسية عام 471هـ/1078م، وهذا أقصى اتساع بلغته مملكة اشبيلية فصارت تمتد من شاطئ مرسية شرقا حتى المحيط الأطلسي غربا لكن هذا الاتساع كان مشوبا ببعض الضعف منذ سنة 455هـ/1063م ففيها عقد المعتضد الصلح مع فرناندوا الأول وقبل بدفع جزية سنوية له حتى يرجع عن غزو اشبيلية[3].

[1]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص6.

[2]- يوسف أحمد حوالة: بنو عباد في اشبيلية دراسة سياسية حضارية، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 1980، ص 111.

[3]- عنان: المرجع السابق، ص ص 40-48؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2012، ص ص 229-230.

2:مملكة بني ذي النون: أسس نواتها الأولى في **"أقليش"** عبد الرحمن بن ذي النون زمن سليمان المستعين أي سنة 400هـ ثم قام بضم شنترين ومدينة سالم وقرية ووادي الحجارة[1]، وبعد تولي إسماعيل الحكم قام بالاستيلاء على مدينة كونكه مباشرة بعد وفاة حاكمها واضح العامري[2]، ثم أخذ إسماعيل يبسط سيطرته على المناطق المجاورة له حتى بسط حكمه على كورة **"شنتبرية"** كلها وامتد ملكه إلى جنجاله من عمل مرسية، أما مدينة طليطلة فكانت خلال هذه المدة خارج أملاك بني ذي النون يحكمها محمد بن يعيش مع ثلة من الأعيان وفي سنة 427هـ/1036م دخلت تحت سلطان بني ذي النون[3] تمددت هذه المملكة وبلغت أقصى اتساع لها في عهد المأمون بن ذي النون الذي دام ثلاثا وثلاثين عاما إذ ملك ثلاثمائة مصر[4]، وصاحب هذا التوسع رخاء اقتصادي وأصبحت من أعظم دول الطوائف وأصبحت حدودها في أقصى اتساع لها من قورية وترجاله نحو الشمال الشرقي حتى قلعة أيوب وشنتمرية الشرق جنوب غربي مملكة بني هود في الثغر الأعلى ومن وراء نهر التاجه شمالا حتى حدود مملكة قرطبة عند مدينتي المعدن والمدور جنوبا[5]، غير أن الفترة الأخيرة من حكم المأمون شهدت التراجع والانكماش.

3: غرناطة: أما مملكة غرناطة فقد بدأت تتوسع على حساب غيرها في عهد حبوس بن ماكسن فأثناء حكمه(411-428هـ/1020-1037م) ضم مدينتي قبَّره وجيَّان وتمكن من إقامة ملك عظيم[6]، وفي عهد باديس بن حبوس ازداد توسع هذه المملكة فبعد هزيمته لزهير العامري استولى على القسم الغربي من أراضي مملكة المرية المتاخمة لمملكة غرناطة وكذا جزء من أراضي قرطبة الجنوبية كما قام باحتواء مالقة سنة 449هـ/1057م بعد خلع خليفتها محمد بن إدريس المستعلي[7]، وتعتبر الفترة التي حكم فيها باديس ابن حبوس غرناطة هي فترة الذروة وفيها بلغت أقصى اتساع[8]، ولم نعثر في كتب التاريخ على ما يفيد بأن هذه المملكة قد توسعت أكثر من هذا القدر عدا قيام باديس باسترجاع وادي آش من المعتصم بن صمادح بعد سنة 459هـ/1067م لكنه فقد بسطة إذ منحها للمأمون بن ذي النون مقابل إمداده بالجيش في حصار

---

[1]- مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، ص 259.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 142.

[3]- ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص206، 207؛ ابراهيم بن عطية الله السلمي: المرجع السابق، ص 97.

[4]- مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، ص 259.

[5]- عنان: المرجع السابق، ص 95.

[6]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 488؛ طويل مريم قاسم: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403-483هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص 105.

[7]- عنان: المرجع السابق، ص130، 131؛ مريم قاسم طويل: المرجع السابق، ص 125.

[8]- عنان، المرجع السابق، ص 63.

وادي آش وقد استعاد معه الحصون التي ملَّكها يوسف بن النغريلة للمعتصم[1]، وقد امتدت غرناطة في عصر الذرة من بسطة شرقا حتى استجة ورندة غربا ومن بياسة وجيان شمالا حتى البحر الأبيض جنوبا وفي هذه الفترة كانت غرناطة مسؤلة عن حماية الدول البربرية.

4: دانية: ويمكن اعتبار الفترة التي تولى فيها مجاهد العامري حكم دانية هي فترة التوسع لمملكة دانية فقد تمددت لتشمل الجزر الشرقية وسردانية وإن كانت فترة بقاء سردانية تحت حكمه قصيرة إلا أنه حافظ على الجزر الشرقية وشيد أسطولا عظيما شن باستمرار غارات على ثغور إمارة كتلونية وجنوب بلاد الإفرنجة وساحل إيطاليا الغربي وظلت جزر البيليار في عهده تقف كالطود الشامخ يدافع عن ساحل الأندلس الشرقي، وأصبح مجاهد شخصا مرعبا في مخيلة النصارى فظلوا يهابونه حتى بعد وفاته[2].

5:مملكة سرقسطة: لا حديث عن التوسع في سرقسطة في فترة حكم التجيبيين أي قبل 431هـ/1040م وهو التاريخ الذي اعتلى فيه سليمان بن هود عرش هذه المملكة، وفي زمنه بدأ التوسع فقد انتزع مدينة وادي الحجارة من المأمون بن ذي النون وضمَّها إلى مملكته سنة 439هـ/1047م، إلا أن هذا المشروع التوسعي قد خفت قليلا بعد تقسيم سليمان لمملكته على أولاده الخمسة ليبعث من جديد على يد المقتدر أحمد بن سليمان بن هود[3] حيث قام –بعد نجاحه في انتزاع الأقاليم التي منحت لإخوانه عدا إقليم يوسف– بانتزاع طرطوشة من نبيل الصقلبي سنة 452هـ/ 1060م[4]، كما تمكن من ضم أراض جديدة انتزعها من جيرانه من النصارى وأخرى من المسلمين، حيث استولى على دانية، وجزء من كورة طركونة، وأطراف من بنبلونة، واستعان بألفونسوا السادس للاستيلاء على بلنسية ولكنه لم يوفق[5]، ولكن هذا التوسع قد بدأ يتحول إلى تقلص بعد احتلال ملك أراغون شانجة لمنتشون سنة 481هـ/1088م.

6:بلنسية:بدأت تتوسع مملكة **بلنسية** أيام عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر(411-452هـ/ 1020-1060م) فضم هذا الأخير شاطبة عندما تنازل له عنها زهير العامري وقال" هو أحق بها من

---

[1]- ابن بلقين: المصدر السابق، ص ص 55-57؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص ص 768-769.

[2]- سيسالم عصام سالم: المرجع السابق، ص 153.

[3]– هو أبو جعفر أحمدبن سليمان بن هود عميد بني هود وعظيمهم ورئيسهم وكريمهم ذو الغزوات المشهورة والوقائع المذكورة من رجل كان يعاقب بين حث الكؤوس وقطف الرؤوس، وقد ملك مملكة دانية وأخرج منها إقبال الدولة بن مجاهد العامري.ابن سعيد المغربي: المرجع السابق، ج2، ص ص 436-437.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 459؛ القلقشندي: المصدر السابق، ص 256.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 459،461؛ رجب محمد عبد الحليم : العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص 342.

جميعنا"[1]، كما ضم المرية بعد مقتل زهير العامري سنة 429هـ/1038م، ولكنها خرجت من يده عند خروجه لمفاوضه مجاهد العامري وإقناعه بالرجوع عنها حيث انتزعها منه صهره معن بن صمادح[2]ضمَّ مرسية، حتى مات فاستقل بها أحمد بن طاهر القيسي، أما بلنسية فقد انتزعها المأمون بن ذي النون من صهره عام 457هـ/1065م.

ثالثا: الضعف والانهيار: يعتبر الانحسار نتيجة طبيعية للضعف، فالمملكة التي لا تستطيع الدفاع عن نفسها بمفردها ضعيفة وستلتهم شيئا فشيئا حتى تنتهي، وهذه المرحلة لم تكن واحدة عند دويلات الطوائف، فقد اختلفت نهاياتها اختلاف بداياتها.

1: قرطبة:ففي قرطبة بني جهور تبدأ هذه المرحلة من سنة 456هـ/1064م، وهو التاريخ الذي قرر فيه حاكمها أبو الوليد بن جهور التخلي عن تدبير شؤونها، ووزع السلطة فيها على ابنيه عبد الرحمن، وعبد الملك، وهذا الإجراء كما يقول محمود مكي هو أول مظاهر الاختلال، فقد تحول النظام الحاكم من ديموقراطي إلى وراثي[3].

ولكن البوادر الأولى لهذا التدهور في هذه المملكة قد بدأت عندما استشعر عبد الرحمن بأن أباه يميل إلى الأخ الأصغر عبد الملك، فوقع التنافس بينهما، وبدأ التحزّب، واستمالة الجند، فصار الأخوان قاب قوسين أو أدنى من الحرب لذلك تدخل أبوهما، وقسم السلطات بينهما[4]، وسرعان ما تغلب عبد الملك على أخيه وقام بسجنه في بيته، وفتح مناصب الدولة للأوغاد من أصحابه، وأهمل شؤون الحكم، فبدأ الشعب القرطبي ينصرف عنه، وزادت فرص انهيار النظام عندما قرر عبد الملك الاعتماد على المعتضد بن عباد في محاربته لبني ذي النون الذين كانوا يرغبون في ضمّ قرطبة إلى مملكتهم، وعندما زحف المأمون بقواته للاستيلاء على قرطبة استنجد عبد الملك هذه المرة بالمعتمد، فأرسل إليه المدد وأثناء تواجد قواته بقرطبة تم الاتصال بالناقمين على آل جهور، وتم الاتفاق على إزاحتهم وهذا ما حدث فعلا لسبع بقين من شوال سنة 461هـ/1079م[5].

---

[1]- العذري: المصدر السابق، ص 83؛ كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية، ص 102.

[2]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 184.

[3]- محمود مكي: المرجع السابق ، ص 102.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 207؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص481-482؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 144؛ عنان المرجع السابق، ص 26؛ السرجاني: المرجع السابق، ص 337.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 483، 484،485؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ق2، ص 145؛ مجهول: تاريخ الأندلس، ص 250.

2: مملكة بطليوس فقد بدأ الضعف يدب في أركانها بعد الهزائم المتلاحقة التي مني بها المظفر بن الأفطس على يد المعتضد بن عباد حيث قضى على جزء مهم من جنوده وقام بالاستيلاء على عدد من حصونه وصار ابن الأفطس عاجزا عن مدافعة ابن عباد سنة 442هـ/1050م واعتصم ببطليوس، وخلال هذه المدة كان يلتمس الحلول لمشكلته عند حلفائه فتنكر له الجميع[1]، ثم حذا فرناندوا الأول حذو ابن عباد في إضعاف بطليوس فشن هجوما كاسحا على مدنها الشمالية المتاخمة لمملكته سنة 449هـ/1057م حيث قام بالاستيلاء على بازو، ولاميجو وبعدها بأعوام شن حملة أخرى على مدينة شنترين فتفاوض معه أميرها المظفر بن الأفطس وأفضى الحوار بينها إلى رجوع فرناندوا عن شنترين مقابل جزية سنوية قدرت بخمسة آلاف دينار يدفعها المظفر له وكان المظفر قبل هذا التاريخ يرفض أداء الجزية له، ثم هاجم في مرحلة لاحقة سنة 456هـ/1064م مدينة قلمرية فحاصرها ثم قام باقتحامها بسبب خيانة واليها "راندة" الذي سلمها له دون مقامة تذكر[2]، وكان ذلك أعظم خطب نزل بالمسلمين يومئذ ، وقد زاد من فرص انهيار هذه المملكة قيام المظفر في أيامه الأخيرة بتقسيم مملكته بين ابنيه يحي (المنصور الثاني) وعمر (المتوكل)، فقد شب النزاع بينهما بعد وفاة أبيهما مباشرة ولم ينطفئ إلا بموت يحي فآل الأمر إلى المتوكل الذي كان برأي المؤرخين حاكما متخاذلا فاشلا ضعيفا وهذا ما شجع الفونسوا السادس على انتزاع مدينة "قورية" منه سنة 462هـ/1070م وهو أول معقل ينتزعه النصارى من المسلمين في نهر التاجه[3].

لقد دخلت بطليوس بعد هذه الحادثة مرحة الاحتضار واستشعر المتوكل في نفسه عدم القدرة على دفع النصارى وهذا ما جعله يستغيث بيوسف ابن تاشفين فجاءه الغوث[4]، ولكن بعد معركة الزلاقة تنكَّر للمرابطين ووضع يده في يد الفونسوا فكان ذلك سبب خلعه وقتله سنة 487هـ/ 1094م وبذلك انتهت مملكة بطليوس[5].

3: طليطلة وسرقسطة: أما طليطلة وسرقسطة فقد بدأ الضعف يدب في أوصالهما سنة 435هـ/1043م وهي السنة التي اشتد فيها النزاع بين المملكتين واستعان حاكم كل مملكة من هاتين المملكتين بملوك النصارى في الشمال لتدمير خصمه وإلحاق الضرر به، وهذا ما حدث بالفعل، فقد صالت

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 35؛ سحر السيد عبد العزيز سالم:تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، التاريخ السياسي، ج1، ص397، 399.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 469؛ عنان: المرجع السابق، ص ص 85-86؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2000، ص 231.

[3]- محمود مكي: المرج السابق، ص 106؛ السرجاني: المرجع السابق، ص 362.

[4]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 183؛ مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار – عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ص 33 وما بعدها؛ عنان: المرجع السابق، ص 91.

[5]- ابن بلقين: المصدر السابق، ص 174؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ق2، ص 183؛ محمود مكي، المرجع السابق، ص 107.

قوات النصارى في أرضيهما، فقتلت ودمرت، والناس مصابون بالخور والجبن فلم يجرأ على مقارعتهم أحد، حينها فهم النصارى أن هذه الدويلات في طريقها للزوال[1].

وقبل وفاة سليمان بن هود قسم مملكته على أبنائه الخمسة، فزادها هذا التقسيم ضعفا على ضعف،لأن القسيم يساوي الضعف، ثم اندلعت حرب بين الإخوة أشعل فتيلها أحمد الذي كان يسعى للسيطرة على أملاك إخوانه، فوهنت هذه المنطقة اكثر من ذي قبل، وبعد وفاة المقتدر قسمت مملكته بين ابنيه يوسف والمنذر واندلعت الحرب بينهما واستعان كل منهما بالنصارى، وتوالى الضعف في مملكة سرقسطة حتى بلغ الذروة في مأساة بربشتر، حيث تقاعس أحمد عن الدفاع عنها فاستباحها النصارى عام 456هـ/1064م، ليتم استرجاعها في العام الموالي بعد قدوم المجاهدين من كل صقع بالأندلس[2].

ومنذ 475هـ/1082م والحرب الأهلية تستنزف المملكة من الداخل إلى أن انتزى ملك أراغون شانجة راميراز على منتشون سنة 481هـ/1088م، وبعد وفاته سيطر ابنه على وشقة سنة 489هـ/ 1096م، وكان السيد الكمبيطو قد استولى على بلنسية سنة 487هـ/1094م ، وهكذا كانت مدن هذه المملكة تتهاوى الواحدة تلو الأخرى حتى فقدت بالكامل في بدايات القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي[3].

وقد أتاحت مشاركة القوى النصرانية في الحروب التي دارت بين المستعين بن هود والمأمون بن ذي النون على مدى ثلاث سنوات كاملة (435-438هـ/1043-1046م) للقادة المسيحيين فرصة الإطلاع على الأوضاع المتهالكة للفريقين ما شجعها على شنّ هجومات متتالية واقتطاع أجزاء من طليطلة واشتراط شروط مجحفة لإيقاف الغارات[4] أهم هذه الشروط أن تلتزم طليطلة بدفع جزية سنوية لفرناندوا وقد تم ذلك ابتداء من سنة 454هـ/1062، وكان قبولها بذلك بداية النهاية[5].

أما عن انهيار طليطلة فثمة أحداث عجلت بذلك أهمها على الإطلاق قيام القادر بن ذي نون بعد توليه الحكم سنة 467هـ/1074م بقتل ابن الحديدي العقل المدبر لدولة بني ذي النون وصمام أمانها سنة 468هـ/1075م لذلك يعتبر بعض المؤرخين موت المأمون بن ذي النون إيذان بأفول نجم بني ذي

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 498-499.

[2]- عنان: المرجع السابق، ص 272، 274، 275؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 244.

[3]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 169؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص ص 343-346.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 500-501.

[5]- عنان: المرجع السابق، ص101.

النون[1]، وحسب رأيي المتواضع فإن طليطلة قد دخلت مرحلة الاحتضار بعد هذه الحادثة مباشرة إذ بدأت المتاعب وفُقد الأمن وصارت لقمة سهلة لأعدائها، فأحمد بن هود أرهقها بالغارات وانتزع منها شنت برية، وأبو بكر بن عبد العزيز انتهز الفرصة واستقل ببلنسية، وحاصر النصارى مدينة"كونكة" فافتداها أهلها بالمال وحاربه ابن عباد وتأزمت الأوضاع فطلب القادر حماية الفونسوا وعونه ولم يكن ذلك ليحصل مجانا فقد رضي القادر أن يتنازل له عن عدد من القلاع منها شنتمرية وملينة[2] فضلا عن مبلغ كبير من المال جمعه قسرا من الرعية وهذا ما عجل باندلاع ثورة ضده أجبرته على النجاة بنفسه سنة 472هـ/1079م[3].

وقد تلا هذا الحدث أحداث أخرى عجلت بخروج طليطلة من يد المسلمين كغزو القادر لها بجيش النصارى وحكمها بالقوة سنة 474هـ/1081م، ومهاجمة الفونسوا لها وانتزاع مدينة "قورية"[4] منها عام 477هـ/1084م وأخيرا قام بمحاصرتها سنة 478هـ/1085م وأجبر أهلها على الاستسلام لتنتهي بذلك مملكة طليطلة، ويعتبر سقوط طليطلة بداية النهاية لدويلات الطوائف الأخرى فحكّامُها حملوا الهدايا وأقبلوا على الفونسوا السادس مهنئين له، وراغبين في الدخول تحت طاعته[5].

غير أن المتتبع لشؤون طليطلة يدرك بأن عام 473هـ/1080م هو عام الاحتضار لها، وهو العام الذي عاد فيه القادر بن ذي النون في جوار الفونسوا فمنذ ذلك الحين وطليطلة في قلب هذا الأخير حتى حاصرها، وقبل دخوله إليها ،جاءه نفر من أعيانها وحاولوا إقناعه بالرجوع عنها وعرضوا عليه أموالا طائلة، فأبى إلا دخولها وحينئذ هددوه بالتحالف مع بعض ملوك الطوائف لقتاله، فسخر منهم وأبرز لهم سفراء ملوك الطوائف جميعا، وإذا بهم لم يتخلف منهم أحد فقد جاءوا لاسترضائه، فعلم أعيان طليطلة أن سقوطها مسألة وقت لا غير، وبعد دخوله إليها أقسم ألا يدع دويلة من دويلات الطوائف[6].

4: اشبيلية: فقد بدأ الضعف يسري في كيانها منذ اللحظة التي قبل فيها المعتضد بن عباد بدفع جزية سنوية لألفونسوا السادس أسوة بالمأمون ابن ذي النون وصاحب بطليوس، وسبب قبوله بذلك هو قيام

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 155؛ ابن سعيد: المغرب، ج2، ص 13؛ ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ق2، ص 178؛ يوسف أشباخ : تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1996، ج1، ص 58.

[2]- Molina: حصن في مقاطعة كونكه شمالي شرق طليطلة يعرف بملينة أراغون وكان اسمها القديم Ecravica أركبيقة. ينظر ابن الكردبوس : تاريخ الأندلس، ص 80.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص 156-158؛ النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ج23، ص 259.

[4]- قورية: بالضم ثم السكون والراء مكسورة وياء خفيفة مدينة من نواحي ماردة بالأندلس كانت للمسلمين وهي النصف، بينها وبين سمُّورة مدينة الأفرنج.ينظر الحموي: المصدر السابق، ج4، ص 412.

[5]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص88؛ رجب محمد عبد الحليم : المرجع السابق، ص 287.

[6]- ابن بسام الشنتريني: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 165-166؛ محمد رجب عبد الحليم : المرجع السابق، ص 380.

الفونسوا بغزو أراضيه وإحداث خراب هائل فيها عام 455هـ/1063م[1]، ورغم تمادي اشبيلية بعد هذا التاريخ في التوسع على حساب جيرانها كقرطبة عام 461هـ/1079م وجيان عام 466هـ/1074م ومرسية عام 471هـ/1078م[2]، إلا أن علامات الضعف كانت بادية عليها، إذ كان الفونسوا في كل مرة ينظم حملة عسكرية ويتوغل داخل أراضيها لمطالبتها بدفع الجزية، فكانت اشبيلية ترضخ وتستجيب لطلبه، وهذه الاستجابة هي علامة ضعف لدى اشبيلية، ناهيك عن طلب اشبيلية من الفونسوا التعاون معها لاحتلال غرناطة، والتي فهم الفونسوا منها أن قوة اشبيلية لم تعد كافية لردع خصومها، وقد ازداد خطر سقوط اشبيلية في يد الفونسوا السادس بعد سقوط طليطلة فقد كانت قبل سقوطها بمثابة الدرع الذي يحميها من العدوان النصراني وقد زال ذلك الدرع فأصبحت اشبيلية وجها لوجه مع الفونسوا.

وقد بالغ الفونسوا في الضغط على المعتمد واستفزازه، كلما جاء رجاله لاستلام الجزية، من أجل إيجاد مبرر لغزوه ،حتى كانت المرة التي أرسل فيها وزيره اليهودي ابن شاليب سنة 478هـ/1085م حيث زعم أن النقود المقدمة له مزيفة وأنها إن لم تستبدل بنقود خالصة فسيقوم الفونسوا باحتلال اشبيلية، فغضب المعتمد وقام بصلب اليهودي وسجن من معه، وتسبب ذلك الخلاف في غزو الفونسوا لأراضي اشبيلية فصال فيها وجال حتى وصل إلى جزيرة طريف[3]، ووصوله إلى هذا المكان دليل على تمكن الضعف من كيان اشبيلية، وهذا ما جعل المعتمد يستنجد بالمرابطين، ولكن بعد زوال الخطر النصراني خاف المعتمد من زوال ملكه على يد ابن تاشفين فعاد الى مداخلة النصارى وكان ذلك سببا في أفول نجمه ونجم مملكته سنة 484هـ/1091م.

5: غرناطة: أما مملكة غرناطة فقد بدأ الضعف يتسلل إلى كيانها في الأيام الأخيرة من حكم باديس بن حبوس وقد كانت الغارات والحروب التي شنها المعتضد بن عباد لفترة لا بأس بها تستنزف قوة باديس شيئا فشيئا حتى بلغت مرحلة الإنهاك قبل وفاة باديس بزمن وجيز[4]، كما يدل على ضعف باديس في أيامه الأخيرة تطاول يوسف بن النغريلة على القرآن فكان ينظمه شعرا وموشحات وكثرة المكائد التي كان يدبرها للانقلاب على الحكم وباديس لا يحرك ساكنا، وقد حجبه يوسف عن الناس فصارا منهمكا بالشرب وكاد ابن النغريلة أن يسلمها إلى ابن صمادح بعدما تسلم منه أموالا ضخمة ودله على عورات غرناطة وملكه

---

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 272؛ صلاح خالص: اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها 414-461هـ، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ط) ، 1965، ص 13؛ R Mendeze Pidal : La Espana del Cid (Madrid,1947), p135, 140.

[2]- رجب محمد عبد الحليم : المرجع السابق، ص 384، 385،387.

[3]- مجهول: الحلل الموشية، ص ص 41-42؛ دوزي رينهارت:المسلمون في الأندلس، ج3، ص 126؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص ص 390-391؛ طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، شركة الإبداع الفكري، الكويت، ط1، 2005، ص 269.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 63.

عددا من حصونها وأفسد قلوب رجال باديس عليه[1]، وورث عبد الله عن جده باديس مملكة بدأت قواعدها في الانهيار ومساحتها في الانحسار فقد فقدت غرناطة مدينة جيَّان التي تعد من أهم قواعدها بعد عام واحد من تولي عبد الله الحكم فقد استولى عليها المعتمد بن عباد سنة 466هـ/ 1074م ولم يبق من هذه المملكة سوى العاصمة غرناطة وأرباضها، فعزم ابن عمار على احتلالها مع الفونسوا، وقد نجح في إقناعه بانتزاع أقاليم ومدن مهمة من عبد الله ودفع له مالا حتى يفعل فاقتطع الفونسوا عددا من الحصون والقلاع المهمة من عبد الله دون مقاومة تذكر[2]، وأمام هذه التهديدات الحقيقية لم يجد عبد الله بدا من أن يعقد حلفا مع الفونسوا لقاء جزية سنوية قدرها عشرون ألف دينار، وبموجب هذا الحلف تم إمداده بجيش غزا به أراضي ابن عباد وقام باسترداد مدينة قبَّره، وكانت أوضاع غرناطة غداة قبولها بدفع الجزية مزرية، فقواها قد خارت ولا قبل لها بمقارعة قوات النصارى، وهذا ما صرح به عبد الله في لقائه مع الفونسوا[3]، ناهيك عن تمرد الكثير من عمال غرناطة ورغبتهم في الإستقلال بالأقاليم التي يديرونها وهذا ما زاد من احتمالات سقوطها سريعا[4]، فكثر المناوئون له والثائرون المألّبون لابن تاشفين عليه، ولما جاز إلى الأندلس لخلع عبد الله تسابق عماله وقادته للقائه، وتقديم فروض الطاعة والولاء له حتى يبقيهم في مناصبهم، وتخلى الجميع عن ابن بلقين حتى العبيد والخدم بسبب تواصله مع الفونسوا السادس وبذل الجزية له وبنائه للحصون لمقاومة المرابطين فجرده من أملاكه كلها، ثم نفي إلى العدوة المغربية وانتهت بذلك مملكة غرناطة سنة483هـ/1090م[5].

6:مملكة دانية: أما مملكة **دانية والجزائر الشرقية** فيبدوا بأن بداية نهايتها كانت مع طرد السكان المسلمين من سردانية سنة 441هـ/1049م من قبل القوى البحرية المسيحية المتحالفة فقد بدأت مملكة دانية تفقد السيطرة على غرب المتوسط[6]، وبدأت قواتها البحرية تتضعضع خاصة بعد سيطرة أعراب بني هلال على قواعد بني زيري البحرية وتوقيعهم معاهدة السلام مع الجمهوريات البحرية الإيطالية والبابوية فتركت صقلية-وهي حصن السواحل الإسلامية غرب المتوسط- تدافع عن نفسها بنفسها وتتعرض

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص ص 767-768؛ ابن حزم:رسالة في الرد على ابن النغريلة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج3، ص 15.

[2]- ابن بلقين: المصدر السابق، ص 72، 75، 76.

[3]- ابن بلقين:نفسه، ص 75، 76؛ عنان، ص 63، 143.

[4]- تخلص عبد الله بن بلقين من الطامعين في ملكه ومنهم وزيره سماجه الصنهاجي وابني تاقنوت بغرناطه وجريشة وكباب ابن تميت بأرجذونة وأنتقيره وقمع ثورة ابن ميمون اليهودي بأليسَّانة وثورة وزيره مؤمَّل في لوشه والقائد نعمان في حصون غرناطة الغربية وأيوب بن مطروح بغرناطة. ينظر مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ص 172، 173، 174، 175، 176، 177.

[5]- ابن بلقين: المصدر السابق، ص ص 120-121؛ ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 105؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص ص213-214.

[6]- حسين مؤنس:المسلمون في البحر المتوسط، الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، 1993، ص ص 117-118.

للغارات التي دمرت أساطيلها[1]، فوجدت جزر البليار نفسها تقارع الأساطيل المسيحية وحدها ولتجنب الخطر الداهم قام علي بن مجاهد العامري بتوقيع معاهدة صداقة مع إمارة كتلونية ترتب عليها إشراف أسقف برشلونة مباشرة على الرعايا المسيحيين في دانية والجزائر الشرقية[2].

وزاد من فرص سقوط دانية اهتمام علي بتقوية مملكته اقتصاديا لا عسكريا ونشوب حروب بينه وبين صهره المقتدر بن هود انتهت بحصار المقتدر لدانية وانتزاعها من علي سنة 468هـ/1075م وبذلك انتهت مملكة دانية، أما جزر البليار فقد استقل بها عبد الله بن أغلب(المرتضى) الذي كان علي بن مجاهد قد جعله واليا عليها قبل هذا التار يخ[3]، وبعد وفاة المرتضى حكمها مبشر بن سليمان الذي أبلى بلاء حسنا في الإغارة على برشلونة، واستمر الحال على ذلك حتى غزاه حاكم برشلونة وأرغمه على الاستسلام، ولكن المرابطين وصلوا إليها وانتزعوها من النصارى.

وتقلبت أحوال الممالك الشرقية بين الاستقرار والاضطراب فغلب على بعضها الملوك المجاورون لها كطرطوشة التي تغلب عليها المقتدر بن هود والبعض الآخر غلب عليها النصارى حتى وقعت في يد المرابطين كبلنسية، فهذه الأخيرة كما تقدم معنا احتلها الكمبيطور بعد حصار دام عشرين شهرا استنزف كل طاقاتها فزرع الخراب والدمار في جنباتها وأركانها ونكَّل بشعبها حتى ضاقت عليهم منازلهم، ولم تفلح المحاولات المتكررة من المرابطين لاستنقاذها حتى تم ذلك سنة 495هـ/1102م [4]، غير أن بعض الممالك الشرقية قد بقيت حتى بعد دخول القرن السادس الهجري الثاني عشر الميلادي كمملكة بني هود في الثغر الأعلى التي وهنت في أيامها الأخيرة بسبب حروبها مع مملكة أراغون وتم اقتطاع مدينة وشقة منها سنة 489هـ/1096م[5]، وبقيت كذلك حتى أخذها المرابطون سنة 503هـ/1109م وتطيلة سنة 513هـ/1119م، وبقيت كذلك بعض الممالك الصغيرة في يد أصحابها ولم تنتقل إلى المرابطين إلا سنة 497هـ/1104م كسهلة بني رزين والبونت بني القاسم[6].

[1]- أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط(500-1100م)، تحقيق أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص 373.

[2]- سيسالم عصام سالم: المرجع السابق، ص 172.

[3]- ابن بسام:المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص 267-268؛ ابن الخطيب:المصدر السابق، ج2، ص 206؛ عنان: المرجع السابق، ص 208؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ص 401، رقم الترجمة 601 ؛ عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص77؛ سيسالم عصام سالم: المرجع السابق، ص 181.

[4]- كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، ص 191.

[5]- ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 209.

[6]- محمود مكي: المرجع السابق، ص ص 109-111.

7:الحموديون: أما حكم الحموديين في مالقة فقد انتهى بتغلب باديس بن حبوس عليها، وأخراج حاكمها محمد بن إدريس الملقب بالمستعلي سنة 449هـ/1057م منها، وكان المعتضد بن عباد قد انتزع الجزيرة الخضراء منهم قبل ذلك أي في سنة 446هـ/1054م[1].

8: قرمونة: أما مملكة قرمونة فقد بدأت ملامح أفولها في المرحلة التي شدد فيها المعتضد بن عباد الغارات على أراضيها وقد عجل التخريب المتكرر لمرافقها بانهيارها فتم ذلك سنة 459هـ/1067م حيث قام عزيز البرزالي الملقب بالمستظهر بتسليمها للمعتضد، غير أن رواية أخرى تذكر أن المستظهر تنازل عنها للمأمون بن ذي النون وأخذ مكانها حصن المدوَّر في عمق مملكة طليطلة[2].

وإجمالا نقول: اختلفت بداية مرحلة الضعف والإنهيار من مملكة إلى أخرى، فلم تكن واحدة، إلا أنه بإمكاننا اعتبار اللحظة التي بدأ فيها ملوك الطوائف يستعينون في قتال بعضهم لبعض بنصارى الشمال هي المؤشر على ذلك فالاستعانة دليل الضعف، وقد حصل ذلك مبكرا عند كثير منها.

---

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 131؛ محمود مكي: المرجع السابق، ص 110.

[2]- عنان: نفسه، ص 151.

الفصل الأول: الآثار السياسية والاقتصادية للصراع العسكري بالأندلس في عصر ملوك الطوائف

المبحث الأول: الآثار السياسية للصراع العسكري في عصر ملوك الطوائف

في هذا المبحث سيتم تتبع آثار الصراعات العسكرية على الحياة السياسية لدويلات الطوائف.

المطلب الأول: أثر الصراعات العسكرية على الأوضاع الداخلية للممالك الطائفية

الفرع الأول: الكيانات السياسية:

كان الأندلس قبل قيام الفتنة القرطبية كيانا سياسيا واحدا ثم أصبح بعد استقلال الشخصيات البارزة بالأقاليم كيانات أوصلها البعض كما أشرنا في فقرة سابقة إلى ستين كيانا[1].

يجمع المؤرخون على أن اضطهاد محمد بن هشام بن عبد الجبار للبربر من جهة وإبعاده للصقالبة عن قرطبة من جهة أخرى هو السبب في انتثار عقد الأمة وانصرافها عن قرطبة إلى مختلف الجهات والأقاليم لإنشاء كيانات مستقلة، فقد استغنى دفعة واحدة عن خدمات العبيد العامرية والطوائف البربرية حيث سرح سبعة آلاف جندي من البربر كان المنصور بن أبي عامر يعتمد عليهم وكوّن جندا خاصا به من العامة والسفلة والجهلة الذين لا يفقهون في أمور السياسة والحرب شيئا ثم سلطهم على الزاهرة التي كانت مقر إقامة العامريين فنهبوها وخربوا كل شيء فيها وقام بنفي جماعة من الصقالبة فاستولو على أطراف بلاد الأندلس من ذلك الحين، وفي وقت لاحق جهر المهدي وغيره من الأمويين ببغض البربر وتنقّصهم أمام الناس لكونهم من صنائع ابن أبي عامر ثم أمر ألا يركبوا ولا يتسلحوا ولم يسمح لهم بالدخول على المهدي فرجعوا من باب القصر وانتهب الناس دورهم[2]، ثم أغرى العوام بهم بعد فشلهم في الانقلاب عليه مع هشام بن سليمان بن الناصر لدين الله فأمعنوا في إيذائهم ونهب ممتلكاتهم ورصد المهدي جائزة لمن يأتيه برأس بربري فصاروا يقتلون كل من يشتبهون فيه أنه بربري أو عدوي وهذا ما جعلهم ينحازون إلى أرملاط من أحواز قرطبة فرارا من القتل فبايعوا المستعين بالله هناك ونظموا صفوفهم فلازالت الحرب قائمة بينهم حتى قتل المهدي، ثم توالى حصارهم لقرطبة في المدة التي تولى فيها بعض الصقالبة إدارتها بسبب تحالف واضح الصقلبي للمهدي وعداوته للبربر وخلال هذه المدة قتل الصقالبة قائدا بربريا بارزا يدعى حباسة وهو أخ زاوي بن زيري فاشتد حنق البربر على الصقالبة وتوعدوهم بالقتل الذريع وهذا ما حدث

---

[1]- محمود مكي: المرجع السابق، ص 99.

[2]-ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص333، 351، 352؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص ص 192-193؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 105، 106؛ الذهبي: شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان: سير أعلام النبلاء، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984، ج17، ص 128؛ دوزي: المسلمون في الأندلس، ج2، ص 170.

بعد اقتحام البربر للمدينة وعودة سليمان المستعين إلى الحكم مرة أخرى فقد ارتكبوا فيها مجازر مروعة وهذا ما جعل الصقالبة يفرون من قرطبة الى النواحي التي استقلوا بها لاحقا[1].

لقد أحدث الصراع العسكري الدامي بين القرطبيين والبربر والصقالبة قطيعة يعزُّ معها على الأطراف الثلاثة أن تستمر في العيش معا في مكان واحد وقد أدرك زاوي بن زيري زعيم الصنهاجيين ذلك لذلك طلب من المستعين بالله أن يأذن لهم بالرحيل إلى مكان آمن على أرض الأندلس يقيمون فيه دولة لهم، فأنزلهم بألبيرة ثم نزحوا منه إلى المكان الذي شيدوا فيه غرناطة[2]، ثم منح لسائر القبائل البربرية مناطق استقلوا بها وأسسوا فيها دويلات لا تتبع لأحد، وقد قصد المستعين بهذا التصرف أن يبعد البربر الذين استأثروا بالمناصب العليا في دولته عن قرطبة حتى يتمكن من ممارسة صلاحياته في الحكم دون ضغوط من زعماء البربر[3].

وحذا الصقالبة كما أسلفنا حذو البربر في ذلك غير أنهم لم يستشيروا المستعين هذه المرة في إنشاء دويلات خاصة بهم بل فروا من قرطبة خوفا على أنفسهم وعيالهم من أن ينتقم البربر منهم فاختاروا شرق الأندلس وأنشأوا فيه دويلاتهم[4]، فلا ينبغي أن يخفى على أحد دور الصراعات العسكرية التي إندلعت بقرطبة في مستهل القرن الخامس الهجري في إيجاد الكيانات الجديدة المسماة ممالك الطوائف.

إن المتأمل لهذه للكيانات السياسية في عصر الطوائف يدرك بأن الصراعات العسكرية التي عصفت بالأندلس خلال هذه الفترة هي التي كانت تحدد شكلها وترسم حدودها. لم تكن حدود دويلات الطوائف قارة ولا مرسَّمة بشكل نهائي،بل كانت تتمدد أحيانا وتتقلص أحيانا أخرى، ولو تتبعناها على الخريطة خلال فترة الطوائف لوجدنا بأن شكلها الهندسي يتغير من حين لآخر ويتخذ أشكالا مختلفة،والمتحكم في هذه التغيرات هي الصراعات العسكرية[5].

إن تواريخ ظهور هذه الدويلات على مسرح الأحداث وتواريخ اختفائها التي أشرنا إليها سابقا تمكننا من رسم حدودها التي كانت تتغير باستمرار.لقد ظهرت دولة بني عباد مثلا في اشبيلية ثم توسعت لتتصل من جهة الشرق إلى مرسية وغربا إلى شلب وجنوبا إلى الجزيرة الخضراء، لكن هذا التغير في شكل

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 353، 355، 368، 381؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 194؛ دوزي: المسلمون في الأندلس، ج2، ص ص 172-173، 184، 185، 190.

[2]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام،ج2، ق2، ص 209؛ مريم قاسم طويل: المرجع السابق، ص 92.

[3]- عبد القادر بوباية: المرجع السابق، ص 343.

[4]- ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ق2، ص 114.

[5]- لمعرفة الأشكال الهندسية التي كانت تتخذها هذه الكيانات السياسية طيلة القرن الخامس تنظر الخرائط المثبتة كملاحق في آخر هذا البحث.

الخريطة الخاصة بها لم يتم دفعة واحدة، بل تم على مراحل وفي تواريخ مختلفة، وهكذا الدويلات الأخرى التي كانت تتوسع على حساب غيرها أو يتوسع غيرها على حسابها يتغير شكلها نقصا أو زيادة.

ومهما يكن من أمر فإن السلاح كان الأداة الوحيدة لترسيم الحدود وتحديد الشكل الهندسي لدويلات الطوائف منذ اللحظة التي انهارت فيها الخلافة الأموية في الأندلس، وبالقوة العسكرية بسط المنتزون على الأقاليم سلطتهم على مناطق معينة في الأندلس وقسموا أراضيها تماما كما تقسم الكعكة، وهؤلاء المنتزون هم إما وزراء سابقون أوقضاة أو ولاة على الأقاليم زمن الخلافة الأموية، وقد ساعد على هذا الانفصال والاستقلال بالأقاليم وسرَّع من وتيرته كما ذكرنا سابقا اضطهاد المهدي للبربري والصقالبة وبعض البيوتات العربية، فيبدوا أن الكل كان يتربص بالكل وينتظر اللحظة المناسبة لإعلان الاستقلال[1].

لقد قسم الكل إلى أجزاء يمكن تسميتها بالدول القطرية التي تتكون من مدينة واحدة وبضع كيلومترات من الأراضي المحيطة بها، فألمرية مثلا على حد وصف ابن خاقان لم تزد مساحتها على شبر أي حيث ينتهي نظر الناظر، بل إن البعض أنشأ دولا مجهرية لم تعمر طويلا، وأعني بذلك الدويلات البربرية في الجنوب مثل ولبة، ولبلة، ومورور، وأركش، وألبونت في الشرق وغيرها[2].

وقد عبر علي بن حزم عن هذه الدويلات المتناهية في الصغر بقوله: " فضيحة لم يقع في العالم إلى يومنا مثلها أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في مثلها كلهم يتسمى بإمرة أمير المؤمنين ويخطب لهم بها في زمن واحد وهم : خلف الحصري بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم، ومحمد بن القاسم بن حمود بالجزيرة الخضراء، ومحمد بن إدريس بن علي بن حمود بمالقة، وإدريس بن يحي بن علي بن حمود بببشتر[3].

ويوضح المؤرخ الكبير ابن الخطيب الطريقة التي تم بها تقسيم الأندلس ونوع الأشخاص الذين قاموا بذلك وطبيعة الإجراءات التي أعقبت عملية التقسيم فيقول: " ذهب أهل الأندلس في الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثير من أهل الأقطار مع امتيازها بالمحل القريب والخطة المجاورة لعباد الصليب ليس لأحدهم في الخلافة إرث ولا في الإمارة سبب ولا في الفروسية نسب ولا في شروط الإمامة مكتسب فاقتطعوا الأقطار واقتسموا المدائن الكبار، وجبوا العمالات والأمصار، وجندوا الجنود، وقدموا القضاة ، وانتحلوا الألقاب، وكتبت عنهم الكتاب والأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودونت بأسمائهم الدواوين، وشهدت بوجوب حقهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسلت إليهم الفضلاء،

---

[1]- دوزي: المسلمون في الأندلس، ج2، ص ص169- 170.

[2]– عدنان صالح عبد الله العمودي:التعليم في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1431هـ، ص 24.

[3]- ابن حزم الأندلسي: نقط العروس في تواريخ الخلفاء، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2، ص ص 97-98.

وهم ما بين مجبوب وبربري مجلوب، ومجند غير محبوب، وغفل ليس في السراة بمحسوب ، ما منهم من يرضى أن يسمى ثائرا ولا لحرب الحق مغايرا ، وقصارى أحدهم أن يقول : أقيم على ما بيدي حتى يتعين من يستحق الخروج به إليه ، ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يقبل عليه ولألقى غير الدية، ولكنهم استوفوا في ذلك آجالا وأعمارا وخلفوا آثارا ...." [1] .

إن تسمية الكيانات السياسية التي حكمت الأندلس في هذه الفترة من عمر الدولة الإسلامية بدول الطوائف يكشف بوضوح لا يخالطه شك بأن هذه الكيانات قامت على أسس طائفية حيث انفردت كل طائفة من الطوائف التي وفدت إلى الأندلس إما من المشرق العربي أو من مغربه أو من أمكنة أخرى كالصقالبة الذين ينحدرون من أصول أوروبية برقعة جغرافية معينة تتفاوت في المساحة وعدد السكان.

إن أصدق وصف يمكن أن نصف به هذه المرحلة الحرجة من تاريخ الأندلس أن نقول إنها أشبه بعقد انقطع سلكه فتناثرت خرزاته فما كان مجتمعا قبل هذه الفترة صار متفرقا وما نظم في سلك واحد – أعني سلك الخلافة – صار بغير نظام وهنا أتحدث عن مركزية الحكم فهذه هي المرة الأولى التي تقسم فيها الأندلس منذ فتحها إلى دويلات على شاكلة دويلات المدينة في اليونان القديمة، أو الجمهوريات الإيطالية ولكن في ثياب شرقية كما سماها البعض[2]، وينفرد بحكمها المتغلب عليها وهو إما حاجب كعيسى بن محمد في إمارة شلب أو وزير كابن جهور وأبي عبد الرحمن محمد بن طاهر أو قاض كابن عباد ، وقد ساهمت هذا التجزئة للقطر الأندلسي بظهور الدولة القطرية على حساب الخلافة الواسعة وظهور نمط جديد من الحكم يمكن أن نطلق عليه نظام الأسر الحاكمة أو دول الإقطاع على اعتبار أن كل إمارة ينتقل الحكم فيها وراثيا من الأب إلى الابن إلى الأحفاد[3].

والجدير بالذكر أن الصراع العسكري الذي كانت تخوضه هذه الأسر كان لحماية إقطاعاتها أو توسعتها على حساب الأسر الأخرى، فالمعتضد بن عباد مثلا قضى مدة حكمه كلها في محاربة جيرانه من أمراء الطوائف، ومثله معن بن صمادح[4]، والمقتدر ابن هود شن حربا على علي ابن مجاهد أخرجه بها من دانية وضمَّها إلى إمارته[5]، وشن المعتمد بن عباد حربا على مرسية وقرطبة فتغلبهما وضمهما إلى مملكته وتوسع بنو زيري في غرناطة على حساب جيرانهم في مالقة وهكذا.

---

[1]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص ص 139-140.

[2]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 266.

[3]- محمد بشير العامري: مظاهر الإبداع الحضاري في التاريخ الأندلسي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2012، ص205؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 224.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص53؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 475.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 461؛ ابن الخطيب:المصدر السابق ،ج2، ص 206.

لقد كان الهدف من إنشاء هذه الكيانات هو تحقيق المصالح الخاصة للحكام، ولم يكن للكوارث التي تصيب الشعوب الإسلامية أي اعتبار، فلا مشكلة عندهم إذا تعرض المسلمون في جهة من جهات الأندلس للإبادة من قبل النصارى، لكن إذا تعطلت مصلحة من مصالح الحكام فتلك كارثة عظمى، ذلك لأن هؤلاء الحكام كانوا يعتبرون الأرض والشعب غنيمة لا أكثر، فقد دخل الوزير ابن المثنى في الفترة التي نكَّل فيها فرناندوا ملك ليون بسكان بطليوس على المأمون بن ذي النون، فوجده قد استشاط غضبا فظن أن ذلك بسب ما وقع للمسلمين في بطليوس ليتبين لاحقا أن سبب ذلك الغضب هو تقاعس البنَّاء عن إتمام عمله في قصر المأمون[1].

لقد تعلق حكام الطوائف بكراسيهم تعلقا شديدا، وهم مستعدون للتآمر مع أعدائهم من أجل حماية هذه الكراسي، وهذا ما فعله المعتمد بن عباد وغيره من ملوك الطوائف بعد دحر المرابطين لجيوش الفونسوا في بلنسية، فقد اتفقوا مع الفونسوا سرا على الإيقاع بهم شريطة أن يجعلهم عمالا له على أقاليمهم، يحكمون شعوبها ويجمعون الضرائب من سكانها[2].

إن السمة التي تشترك فيها هذه الكيانات هي اللاشرعية، لأنها جاءت إلى الحكم بقوة السلاح وتغلبت على أقليمها، ولم تكن تعكس إرادة الشعوب التي تحكمها لذلك يعتبر ابن حزم أصحابها محاربون لله ويسعون في الأرض فسادا[3]، فهي على حد تعبير ابن حزم دويلات عصابات تعتمد السلب والنهب والقتل لتحقيق أطماعها التي لا تنتهي.

وقد كان للتكوين العرقي للأندلس أثره البارز في إنشاء هذه الدويلات فقد تحلل المجتمع إلى عناصره المكونة له، فتأسست دويلات عربية وبربرية وصقلبية ومن موالي العرب، وإذا كان عدد هذه الكيانات السياسية قد بلغ ثلاثا وعشرين دويلة -بعض المؤرخين أوصلها إلى ستين دويلة[4]، فإن تعقبها جميعا من الصعوبة بمكان لأن التطورات السياسية السريعة في المنطقة جعلت بعض الإمارات تولد ثم تموت في ظرف وجيز ما جعل الحدود تتغير باستمرار لذلك لن أعدد هذه الدويلات وسأكتفي بما ذكر منها في الملطب التمهيدي أثناء الحديث عن مراحلها المختلفة.

من هذا المنطلق نستطيع القول بأن الصراع العسكري في هذه الفترة لم يكن بين دولة ودولة بقدر ما كان بين أسرة وأخرى بين أسرة بني عباد بإشبيلية وأسرة بني ذي النون في طليطلة و أسرة بين الأفطس في

1- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، م1، ص ص 147-148.

2- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 104.

3- ابن حزم: التخليص، ج3، ص 32، 173.

4- محمود مكي: المرجع السابق، ص 99.

بطليوس وهكذا.ويرى الكثير من المشتغلين بتاريخ الطوائف أن هذا العصر شهد تدهورا سياسيا فضيعا[1]، ومع ذلك لم يعدم الأندلس من الحكام من أحسن السيرة فيه وهذه العبارة قد ترددت كثيرا على ألسنة المؤرخين لعصر ملوك الطوائف.

ويؤكد هذا الطرح قيام كل متغلب بتعيين أفراد من أسرته في المناصب المهمة في دولته فقد قام حبوس بن ماكسن بعد جلوسه على كرسي الحكم بغرناطة بتقسيم الأعمال بين أقاربه وبني عمه وقيامه بمشاورتهم وإشراكهم في كل شاردة وواردة،كما عين المعتمد بن عباد أبناءه على عدد من الأقاليم[2].

يمكن تصنيف الكيانات الجديدة التي انبثقت من رحم الفوضى التي عصفت بعاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس في مستهل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إلى كيانات كبيرة نسبيا وكيانات صغيرة وصغيرة جدا، فالكيانات الكبيرة نسبيا هي اشبيلية بني عباد، وطليطلة بني ذي النون، وبطليوس بني الأفطس وغرناطة بني زيري وسرقسطة بني هود، أما الكيانات الصغيرة فمنها الدويلات التي أقامها الصقالبة في شرق الأندلس كدانية، ومرسية، وبلنسية، والمرية، وألبونت، التي كانت تحت حكم بني القاسم، وسهلة بني رزين، وقرمونة بني برزال، وشلب بني مُزين وغيرها أما الصغيرة جدا فيمكن أن نذكر منها طرطوشة، والإمارات البربرية في المثلث الجنوبي للأندلس كأركش، ومورور، شلطيش، وولبة، ولبلة ولو تتبعنا مساحة هذه الدويلات على الخارطة لوجدنا بأن مساحتها المتفاتة تفضي إلى هذا التقسيم لكن كما قلنا سابقا مساحة هذه الدول كانت تتغير باستمرار فتزيد أو تنقص أو تختفي تماما عندما تصبح جزءا من دويلة أخرى وقد بينا ذلك عندما تحدثنا عن توسع بعض دويلات الطوائف بما لا مزيد عليه.

الفرع الثاني : الوضع داخل دوائر الحكم:

لم تكن القصور التي يدير منها ملوك الطوائف دفة الحكم مجرد هياكل فارغة بل كانت تنبض بالحياة، ففيها الوزراء، والكتاب، والخدم من الأصناف المختلفة، وهو مقر إقامة أفراد العائلة الحاكمة، تحت هذا العنوان سنحاول معرفة ما إذا كان الحاكم يمارس صلاحياته في ظروف طبيعية أم أن هناك أخطارا كانت تتهدده وتقف في طريقه.

يرى الكثير من المؤرخين بأن تدبير المكائد من سمات بلاطات ملوك الطوائف البارزة، فلم يخل هذا العصر من الانقلاب على الحكام، ولما كان الانقلاب على الحاكم تكتنفه الكثير من المخاطر، فقد

[1]- رينهارت دوزي : ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل الكيلاني، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، القاهرة، ط1، 1933، ص7.

[2]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص26؛ أمحمد بن عبود:التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، تقديم وليم مونتغمري واط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، تطوان، (د.ط)، 1983، ص109؛ مريم قاسم طويل: المرجع السابق، ص 108.

عمل المنقلبون على تنفيذه بدقة عالية، فالقرطبيون عندما ضاقوا ذرعا بتصرفات علي بن حمود، وإساءاته المتكررة لهم دبروا مكيدة للتخلص منه فتواصلوا مع الفتيان الصقالبة الذين يقومون على خدمته، وأقنعوهم بشكل من الأشكال بقتله، فبينما كان علي يستحم في حمام القصر دخلوا عليه ومزقوا جسده بالخناجر[1] .

وفي العقد الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وتحديدا سنة 412هـ/1021م قام يحي بن علي بن حمود بالإنقلاب على عمه القاسم الذي تولى الحكم في قرطبة بعد علي ، فأجبره على الهروب إلى اشبيلية، وجلس مكانه في قرطبة[2].

وفي قرطبة كذلك اغتيل عبد الرحمن بن هشام(المستظهر) بعد أن أصبح ممقوتا من قبل الرعية، بسبب تصرفاته اللامسئولة، حيث قام بحبس عدد من الوزراء والأعيان بدعوى ميلهم إلى سليمان بن المرتضى، وصادر أموالهم، واستقبل البربر في قرطبة، فاتهم بالسعي إلى توطينهم فيها بعد طردهم منها، وقام بإطلاق سراح المجرمين من السجناء،فخلف ذلك استياء كبيرا لدى الأعيان والعامة، فاتفق الجميع على ضرورة التخلص منه، وتم ذلك دون تردد[3] .

وفي قرطبة دائما اضطلع باغتيال الوزير الحكم بن القزاز الحائك بعض الجنود الذين كانوا يرون في طريقة إدارته لشؤون الحكم تهديدا للدولة، فنصبوا له كمينا في المؤدية إلى القصر وقتلوه، وكان اغتيال هذا الوزير جزءا من خطة رسمها ابن عم هشام المعتد ويدعى أمية بن عبد العزيز العراقي للإطاحة بهشام وحكم قرطبة[4] .

وفي اشبيلية قام محمد بن إسماعيل بن عباد بإقناع سكانها بضرورة إغلاق أبواب المدينة في وجه القاسم بن حمود بعد عودته من قرطبة لحكم اشبيلية، ففعلوا رغم وجود أهله بها[5]. إن ما فعله ابن عباد مع القاسم مكيدة كان الهدف منها هو القضاء على حكم الحموديين لإشبيلية إلى غير رجعة وخطوة

---

[1]- ابن حيان أبو مروان: من نصوص كتاب المتين، جمع ودراسة وتحقيق ومقارنة عبد الله محمد جمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997، ص 40؛ ابن حزم الأندلسي: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2، ص 199؛ لويس سيكودي لوثينا: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، تحقيق عدنان محمد آل طعمة، دار مطبعة الشام، دمشق، ط1، 1992، ص 23.

[2]- لويس سيكو دي لوثينا: المرجع نفسه، ص ص24-25.

[3]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 489؛ ابن الأثير: الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، مج8، ص ص 102-103؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 449؛ حيدر عبد الرزاق جعفر العلي: الاغتيالات السياسية في الأندلس حتى نهاية دولة الموحدين، رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة البصرة، 2015، ص 72.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 525.

[5]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام،ج2، ق2، ص 127؛ أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص23.

في طريق استيلائه على الحكم، وقد تمكن من إجبار القاسم على التخلي عن الحكم والانصراف عن اشبيلية من خلال احتجاز ابنه محمد وأهله داخل اشبيلية وعدم إخلاء سبيلهم إلا بعد موافقته على شروطه واختياره حاكما لإشبيلية، فلم يجد القاسم بدا من الرضوخ لطلبه. لقد كاد ابن عباد للقاسم مثلما كاد لحليفه محمد بن زيري الذي وقف إلى جانبه بجيشه ووعده بأن يجعله حاكما على اشبيلية لكنه أخلف وعده بعد زوال خطر القاسم، وألب سكان اشبيلية عليه فطردوه وجيشه منها فغدر به كما غدر ابن زيري بالقاسم[1].

وفي مضمار التنافس على السلطة سعى يَدّير بن حُبَّاسة لصرف الناس عن باديس بن حبوس وزرع الفرقة بين صنهاجة فاستمال طائفة منهم لأن حبوس أيام حكمه كان يؤثره على أبنائه لنباهته وعلمه وحب الناس له، فكان ينتظر منه أن يوصي بالحكم من بعده له، فلما أقنعه الناس بجعل ذلك لباديس استشاط غضبا، ووالى أخاه بلقين، وجد في إبعاد أخيه عن الحكم به، ليتهيأ الأمر له، فكان يحرضه على قتله، واجتمعوا في بيت أبي ابراهيم اسماعيل بن النغريلة اليهودي لتقاسم الأدوار في هذه المؤامرة لكن اليهودي أفشلها بإطلاع باديس عليها[2].

وفي البلاط نفسه حاك وزراء باديس مؤامرة للتخلص من يوسف بن النغريلة، فأوغروا عليه صدر بُلقين ابن باديس، ونجحوا في إقناعه بقتله، لكن اليهودي كان أسرع من بلقين، فقد دس له سما في الشراب لفظ بسببه أنفاسه، فكان اليهودي أذكى من الوزراء الذين كانوا يعملون على إخماده[3].

وقد تكرر السيناريو نفسه مع تميم بن بلقين بن زيري حاكم مالقة، فقد أرسل بإرسال مبلغ 50 مثقال من الذهب إلى القاضي بن سهل كرشوة حتى يقوم بتشويه صورة أخيه عبد الله بن بلقين عند يوسف بن تاشفين، فرفض ابن سهل ذلك كونه يتعارض مع المبادئ التي يؤمن بها[4]، فهذا لون من ألوان الصراع حول السلطة استعمل فيه تميم وسيلة قذرة من أجل إزاحة أخيه عن السلطة، ولا شك بأن الأوضاع السائدة داخل البلاطات هي انعكاس للصراع الخارجي أعني الصراع المسلح، فإذا كان السلاح قد استعمل بهدف إرغام الخصوم على الاستسلام والتنازل عن الحكم، فالغاية نفسها هي الدافع وراء الدسائس والمكائد التي تحدث في البلاطات، وفي الحقيقة لم يحدث في دويلة من دويلات الطوائف ما

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 485.

[2]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص ص 26- 29،31 .

[3]- عبد الله بن بلقين: نفسه، ص 41؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 489؛ ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987،ج3، ص 13؛ خالد بن عبد الله الشريف: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1425-1426هـ، ص ص 53-54.

[4]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 116؛ أمحمد بن عبود:التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص 174.

حدث في غرناطة فمنذ نشأتها والمؤامرات تحاك بداخلها، ولا يضاهيها في ذلك سوى مالقة أثناء حكم الحموديين لها.

وفي سرقسطة أغتيل منذر بن يحي التجيبي على يد قائد من كبار القواد في جيشه من بني عمومته يدعى عبد الله بن حكم حيث أضمر الفتك به منذ زمن ولم يكن يحي يدري بذلك فدخل عليه يوما في مجلسه وهو منكبٌّ على كتاب يقرؤه، ولم يكن عنده يومئذ سوى بعض غلمانه من الصقالبة، فذبحه وافترق عنه غلمانه، كان ذلك سنة 430هـ/1039م، وزعم أنه إنما قتله لأنه رفض أن يصدق بأن هشام المؤيد على قيد الحياة، ورفض مبايعته عندما أشاع عنه ابن عباد ذلك[1].

وكان منذر التجيبي هذا قد مكر قبل ذلك بعبد الرحمن المرتضى بالله الأموي (ت 409هـ/1018م) عندما سار معه لقتال زاوي بن زيري بغرناطة، وكان الرجل متجها إلى قرطبة، لكنه أقنعه بالبدء بغرناطة رغبة في هلاكه، وبعث إلى زاوي ابن زيري سرا من يخبره بأنه سيجعله فريسة سهلة له، وسبب هذا الغدر أن منذرا طلب من المرتضى أن يخرج مبارك العامري من بلنسية للغزو معهم فرفض، وأخبره بأنه قد كلفه بجمع الأموال، فحرك ذلك أحقاده في نفسه وعزم على قتله، فتم له ذلك[2].

وكاد أحمد بن سليمان بن هود لإخوانه، فأخذ ما في أيديهم من الأقاليم التي منحهم إياها أبوه قبل وفاته، عدا الإقليم الذي كان بيد أخيه يوسف، فما كان منه إلا أن تواطأ مع بعض البشكنش لقتل أخيه يوسف، فطلب منه اللقاء في مكان لا يكون فيه معهم أحد لتسوية الخلافات التي كانت بينهما، فتم ذلك قرب حدود سرقسطة، لكن يوسف شم رائحة الغدر من أخيه فلبس درعا تحت ثيابه وأوصى لَمَّة من جنوده بمراقبتهما عن كثب، فما هي إلا لحظات وإذا بفارسين من عبيد أحمد يشهران رمحيهما ويهجمان على يوسف وآخر يمسك بعنان فرسه حتى لا يفر فقاما بطعن يوسف بضع طعنات في ذراعه، فأسرع إليه جنوده لإنقاذه وفرَّ المهاجمون، فنجا يوسف بذلك من مكيدة كادت أن تودي بحياته[3]، فالصراع العسكري على مناطق النفوذ، والرغبة في التوسع على حساب الآخرين جعلت من الدسائس والمؤامرات في بعض الأحيان الوسيلة المناسبة والفعالة لتحقيق الأهداف المنشودة بخسائر أقل.

ولما رحل زاوي ابن زيري إلى افريقية وتخلى عن حكم غرناطة عزم ابنه حلالي بن زاوي على الجلوس مكانه، فرسم خطة لاعتقال القاضي ابن زمنين ورجاله واستصفاء أموالهم، إلا أن خطته هذه باءت بالفشل عندما علم القاضي بمكيدته فسار إلى حبوس بن ماكسن الذي كان بحصن آش يترقب ركوب عمه

1- أبو مروان بن حيان: المصدر السابق، ص 52.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 456، 458.

3- ابن بسام: المصدر نفسه، ق3، مج1، ص ص 423-426.

إلى افريقية حتى يدخل إلى غرناطة ويجلس مكانه، وقد زين له القاضي ابن زمنين ذلك حتى يقطع الطريق أمام منافسه حلالي ففعل[1].

وتوالت الدسائس والمؤامرات في البلاط الحمودي بين أبناء البيت الواحد، فبعد نجاح الحسن بن يحي بن علي في إزاحة ابن عمه وصهره يحي بن إدريس عن كرسي الحكم بالقوة قرر التخلص منه فقتله بالسم، ولما علمت زوجته بأنه المتسبب في قتل أخيها قتلته بالطريقة نفسها أي سممته هو الآخر بعد شهر واحد من مقتل أخيها[2].

وفي المرية سعى أحمد بن عباس للإيقاع بزهير العامري فهو يرى أنه أحق بحكم المرية من العامري لذلك لم يدخر جهدا في إهلاكه، فبدأ بتشويه صورة باديس عند زهير، ثم أقنعه بعد ذلك بالخروج إليه وقتاله سنة 429هـ/1038م، ولم تفلح محاولات التهدئة التي بذلها بعض أكابر صنهاجة ولا تلك المناظرة التي حاول فيه باديس إقناع زهير بالعدول عن قرار الحرب، فكان هلاكه في هذا الصراع وهلك معه ابن عباس الطامح للحكم[3].

وفي اشبيلية بني عباد ضاق اسماعيل بن المعتضد ذرعا بالضغوطات التي يخضع لها من جهة أبيه -كان آخرها إرغامه على غزو قرطبة- ، فقرر مغادرته والانفصال عنه، فحمل في غيبة أبيه الذي كان في متنزهه من المال والمتاع ما يكفيه، ورحل مع أمه وحرمه متجها إلى الجزيرة الخضراء عازما على الاستيلاء عليها وانتزاعها من أبيه، فباءت محاولته هذه بالفشل، إذ رفض القائمون على حصون أبيه التعامل معه واستقباله، ونصحه أحدهم بالعودة إلى اشبيلية ففعل، إلا أن اسماعيل قرر مع عدد من انصاره مهاجمة أبيه في قصره عندما انتهى إلى علمه أنه قتل وزيره البزلياني ونفرا من الرجال الموالين له، ولم يفلح إسماعيل في التخلص من أبيه، فقد وقع في قبضته هو ورجاله فقام بقتلهم جميعا[4]، وفي المرية انقلب الوزير معن بن صمادح على صهره عبد العزيز بن أبي عامر عندما استخلفه على المرية وخرج لاستصلاح مجاهد العامري الذي جاء لغزوه، فاحتكر الحكم لنفسه ومنع صهره من الدخول إليها مرة أخرى[5].

وفي غرناطة كان يوسف بن النغريلة اليهودي يتهيأ لقلب نظام الحكم، فقام باتصالات حثيثة مع المعتصم بن صمادح في المرية، ووعده بأن يجلسه مكان باديس، وكان باديس قد أخلد إلى الراحة وجعل

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 459.

[2]- ابن حزم: ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2، ص 206؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 453؛ لويس سيكو دي لوثينا: المرجع السابق، ص ص 39-40.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 662.

[4]- ابن بسام: المصدر نفسه، ق3، مج1، ص 145، 147؛ ابن عذاري، المصدر السابق، مج2، ص 473.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 731.

مقاليد الدولة في يد ابن النغريلة، فشرع في إفساد قلوب الرعية عليه، وأبعد بالحيلة إلى الأقاليم وجهاء صنهاجة، وجعل يسلم الحصون لابن صمادح، فكادت أركان الدولة الصنهاجية أن تنهار لولا أنَّ نفرا منهم تنبه لما يدبره اليهودي فألبوا عليه الناس وحمل الجميع السلاح فاقتحموا عليه القصر وقتلوه، وعاد ابن صمادح إلى المرية يجر أذيال الخيبة[1].

وفي سنة 462هـ/1070م غدر المعتمد بن عباد بعبد الملك بن جهور، فقد طلب هذا الأخير من المعتمد أن يعينه بجيشه للتصدي ليحي بن ذي النون الذي زحف نحو قرطبة يريد احتواءها، فاستجاب المعتمد لطلب عبد الملك، وأرسل إليه جيشا رابط على تخوم قرطبة حتى رحلت جيوش ابن ذي النون، وبينما كان عبد الملك يتهيأ لشكر جنود ابن عباد وتوديعهم اقتحموا قرطبة وأخذوها منه فأضيفت إلى أملاك ابن عباد[2].

أما المأمون بن ذي النون، فبعد انتزاعه لقرطبة من يد عباد ابن المعتمد وقتله إياه من قبل ابن عكاشة، طمع هو الآخر في إقصاء ابن عكاشه وإبعاده عنها، فدسَّ له بعض المقربين منه سمًّا أرداه قتيلا، ولم ينعم ابن عكاشة بحكم قرطبة، فقد غزاه المعتمد وأخذ بثأر ابنه منه[3].

وفيما كان المأمون بن ذي النون يسعى لضم مناطق أخرى لدولته كان أخوه عبد الرحمن بن اسماعيل بن ذي النون يدل سليمان ابن هود والنصارى على نقاط الضعف في ثغوره، ويجدُّ في هدم أركان دولته، وإنما فعل عبد الرحمن ذلك بأخيه رغبة في انتزاع الحكم منه[4].

ونزل ابن عمار يوما وهو في طريقه إلى ريموند صاحب برشلونة ضيفا على أبي عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية وخلال إقامته عنده تبين له ضعف ابن طاهر فقرر الإنقلاب عليه وشرع في الإتصال بأعيان مرسية وسادتها يحرضهم على خلعه، ثم سار إلى برشلونة، فطلب من حاكمها أن يعينه على الاستيلاء على مرسية، ودفع له مقابل ذلك عشرة آلاف مثقال، ولكن محاولتهما باءت بالفشل، وعاود السير إليها بجيوش ابن عباد فدخلها بخيانة أهلها سنة 474هـ/1081م[5]، فانظر كيف غدر ابن عمار بالرجل الذي فتح له باب قصره واستضافه في عقر داره، ولم يسلم من الانقلاب والغدر أقرب الناس إلى

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 769؛ عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 42، 53، 54.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص610؛ محمود مقديش: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري- محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988، مج1، ص 426؛ محمد ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال إفريقية، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1986، ص 233.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 272.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 499.

[5]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص ص120- 121.

ابن عمار،فقد غدر بالمعتمد بن عباد وأعلن الانفصال بمرسية بعد استقراره بها، لكنه كان تصرفا قاده إلى حتفه، وإن كان البعض يعتقد بأن ابن عمار لم يكن ينو الانفصال عن المعتمد بل كان ذلك محض إشاعة روَّج لها أبو بكر بن زيدون للإيقاع به[1].

وفي بطليوس سنة 461هـ /1069م نجح الفونسوا السادس بعد وفاة المظفر بن الأفطس في زرع الفتنة بين ولديه يحي وعمر فتنازعا الملك وتحالفا ضد بعضهما مع عدوين من أعداء بطليوس التقليديين فتحالف يحي مع المأمون بن ذي النون وتحالف عمر مع المعتضد بن عباد، ودخلت بطليوس بسبب العداوة بين الأخوين في فتنة دمرت البلاد وقتلت العباد، ولولا وفاة يحي وانفراد عمر بالحكم لقسمت هذه المملكة[2]، فما يهمنا من هذا الكلام هو تلك الدسيسة التي دسها الفونسوا بين الأخوين بهدف إضعاف دولتهما ومن ثم ابتلاعهما.

ودبت نار الحسد في قلب حسن بن مجاهد العامري بعد تولي أخيه علي الحكم، فتآمر مع صهره المعتضد بن عباد على قتله، وأوكل هذه المهمة إلى غلام شجاع من غلمانه، لكن المحاولة باءت بالفشل وقتل الغلام[3].

وقد انتقلت حمى الدسائس من العائلات الحاكمة إلى الموظفين في البلاطات، فقد كان الخوف على المنصب من شخص مقتدر يبعث على تلفيق التهم له من أجل إبعاده أو قتله، وهذا ما فعله أبو الوليد بن زيدون مع عبد الله بن عبد البر حين خاف من مزاحمته له على منصبه فشكك لدى المعتضد في ولائه للدولة ما جعله يخاف على نفسه ويطلب الإذن بمغادرة اشبيلية[4]، وهذا ما حدث مع أبي المطرف ابن الدباغ بإشبيلية، فقرر مغادرتها إلى بطليوس ومنه إلى سرقسطة، ويفهم من رسائله الكثيرة التي كتبها إلى أصدقائه أنه كان محسودا مستهدفا بالأكاذيب الملفقة ضده[5].

ويمكن اعتبار ما حدث لعائلة أبي الوليد بن زيدون بقرطبة مكيدة دبرت له لإخراجه منها، فالرجل كان يعاني من وعكة صحية ومع ذلك أنفذه ابن عباد على رأس وفد من العلماء إلى اشبيلية لإخماد فتنة تسبب فيها يهودي بالسوق، وخلف ابن زيدون ابنه أبا بكر ليسد مسده، ولكن ابن عباد كلفه

[1]- ابن خاقان: قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1989، ج1، ق2، ص 269، 288؛ آنخل جونثالث بالنثيا: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، (د.ط)، 1955، ص ص 92-93.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج2، ص 650.

[3]- ابن عذاري : المصدر السابق، مج2، ص 413.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 125-126.

[5]- ابن خاقان: المصدر السابق، ج1، ق2، ص 314، 315، 316، 317.

باللحاق بأبيه في اشبيليه، فخلت بذلك منازلهم منهم، وفهم الناس يومئذ بأن مرتبة ابن زيدون عند المعتمد قد نزلت، واتضح بعد ذلك بأن إبعاده وابنه كان بسبب مكيدة دبرها له ابن مرتين وابن عمار للاستيلاء على صلاحياته عند المعتمد بن عباد ومات بإشبيلية بعد مدة يسيرة من حلوله بها[1].

وفي طليطلة دبر أعداء أبي بكر بن الحديدي خطة لقتله سنة 468هـ/1075م، فأقنعوا القادر بن ذي النون بأن سلطانه لا يكتمل إلا بالتخلص منه، وأقنعوه بأنه يسعى للانقلاب عليه،و كان المأمون قبل وفاته قد جعل أزمة الدولة في يده وأوصاه بالوقوف إلى جانب حفيده، وأوصى حفيده أن يشد على ابن الحديدي بكلتا يديه، وأن يستشيره في كل شيء، وتتهم المصادر التاريخية القاضي ابن المشاط بالضلوع في هذه المؤامرة التي انتهت باغتيال ابن الحديدي ربما لخلاف قديم بينهما[2].

وفي اشبيلية دبَّ الشقاق بين الوزيرين عبد الرحمن بن فاخر المعروف بابن الدباغ وابن عمار، فعمل هذا الأخير على تشويه سمعته رغبة في إبعاده، فلا زال خلفه حتى أقنع المعتمد بنفيه فنفاه عن اشبيلية، واختار اللحاق ببطليوس، ولكنه لم ينعم بالراحة فيها، فقد ضاق به وزيرها أبي عبد الله بن أيمن ذرعا، ودب الخلاف بينهما، فخرج الدباغ منها راجعا إلى سرقسطة[3].

وساءت العلاقة بين الوزيرين ابن عبدوس وابن زيدون، بسبب ولادة بنت المستكفي، فدبر ابن عبدوس مكيدة للانتقام من ابن زيدون الذي سخر منه في خطاب لاذع، وقد تمكن من إلصاق تهمة تبديد أموال الدولة به، فكان ذلك سببا في سجنه، وبعد استقراره بإشبيلية لم يتوان ابن مرتين وابن عمار عن حبك المؤامرات ضده[4]. لم تكن علاقة الموظفين الساميين ببعضهم أفضل من علاقة الحكام بمن حولهم فالكل كان يتربص بالكل ويسعى في الانقلاب عليه.

الفرع الثالث: أنظمة الحكم : سنرى ما إذا كانت الصراعات العسكرية قد حملت ملوك الطوائف على اختراع أنظمة معينة لسياسة شعوبهم وإدارة ممالكهم.

لا شك بأن الحاكم بعد وصوله إلى سدة الحكم يجب أن يختار نظاما سياسيا معيَّنا يسوس به شعبه سواء كان النظام المختار معهودا أم مخترعا لأن التاريخ أثبت أن الأمم والجماعات التي لم تنظو تحت حكم معين كانت عرضة للفوضى والقلاقل والاضطرابات، غير أن الحاكم الذي يحكم الشعب يفترض فيه أن يكون صمام أمان وعامل استقرار لشعبه فهل كان حكام عصر الطوائف كذلك؟

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1 ، ص ص 318-319.

[2]-ا بن بسام: المصدر نفسه، ق4، مج1، ص ص 151-155؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 13؛ السرجاني: المرجع السابق، ص 378.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 252-253.

[4]- بالنثيا:المرجع السابق، ص 82، 85.

بداية لا يجب أن يغيب عن علمنا بأن الحاكم يستمد شرعيته من اختيار الشعب له أو ما يعرف قديما بالمبايعة، وهذا ما لم يحدث في عصر الطوائف فالحكام الجدد هم في الحقيقة ثلة من المنتزين انتزوا بأقاليمهم معتمدين في ذلك على قوة السلاح، ما جعل أزمَّة الدولة كلها تجتمع في أيديهم، لذلك ينظر الرأي العام الأندلسي إلى دولهم على أنها كيانات غير شرعية، وهذا ما صرح به علنا بعض الفقهاء كابن حزم[1]، وقد شذَّ عن هذه القاعدة في حكم الأقاليم أبو الحزم جهور بن محمد الذي دُفع إلى حكم قرطبة دفعا فاخترع لسياسة الرعية نظاما شبيها بنظام الجمهورية عرف بنظام الجماعة أو حكومة الجماعة أو حكومة الأقلية الأرستقراطية حيث ألف مجلسا من الوزراء وأهل الرأي وجعل نفسه أمين هذه الجماعة فكان لا يبرم أمرا إلا بعد مشاورتهم، وقد مكَّنه هذا النظام من سياسة رعيته سياسة رشيدة فكانت دولته خالية من التعسف والظلم وسفك الدماء وبعد وفاته سار ابنه أبو الوليد وسار في البداية على نهجه، وفي سنة 456هـ/1064م انحرف عن هذا النهج وجعلها وراثية في ولديه عبد الملك وعبد الرحمن فحدث الظلم والتعسف وهتك الأستار وسفك الدماء[2]، أما أبو بكر بن طاهر حاكم مرسية فرغم اجتماع أزمة الحكم في يديه إلا أنه لم يتخذ لنفسه شيئا من مظاهر السلطان ولم يتخذ لقبا من الألقاب الملوكية وإنما كان يسمى بالرئيس وحسب وساس شعبه برفق مستعينا في ذلك بابنه أبي عبد الرحمن محمد، ولابن عباد قبل الاستئثار بالحكم نظام يشبه نظام قرطبة حيث اشترط على الإشبيليين حين عينوه لرئاسة اشبيلية أن يختار بنفسه هيئة استشارية تعينه على الحكم فلا يصدر قرارا إلا بعد الرجوع إليهم[3]، ثم صار بعد ذلك عسكريا وراثيا ومردُّ هذا الاختلاف في أنظمة الحكم إلى الظروف التي كانت تمر بها هذه الدويلات أعني بذلك الصراع العسكري الدائم فربما كان القادة يجتهدون في إيجاد نمط الحكم الذي يسمح للدولة بالصمود في وجه مشاريع التفكيك الداخلية والخارجية.

كما قام حكام الطوائف في هذه الفترة بتغييب الشرع حتى يتمكنوا من إسكات الأصوات التي تنادي بعودة الخلافة من جديد، فالحكام الجدد مستعدون لافناء شعوبهم من أجل بقاء كياناتهم، وكان مصير المعارضين القتل أو النفي، وقد وقع ذلك كثيرا في عصر الطوائف، ورسائل ابن شرف القيرواني على لسان المساجين تنطق بذلك[4].

[1]- ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 32، 173.

[2]- مكي محمود: المرجع السابق، ص 102؛ عنان: المرجع السابق، ص 22، 25، 26.

[3]- رينهارت دوزي: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ص8، 24، 25؛ عنان: المرجع السابق، ص 177.

[4]- أمحمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد الطوائف، ص 86؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1989، ص 169، 170.

لقد عاشت الشعوب المنضوية تحت هذه الدويلات قتلا ممنهجا على مدى قرن كامل واستحلالا للحرمات ونهبا للأموال واستباحة للدماء فالحكام كانوا يقتلون لأدنى شبهة، وهذا ما تخبرنا به كتابات المؤرخين، فالمعتضد بن عباد مثلا وصف بأنه كان يأخذ الناس بالظنة، وكان قاسيا على رعيته عنيفا متجاوزا للحدود مبالغ في المثلة، وكان أبوه محمد قد لجأ قبل ذلك بعد توليه للحكم مباشرة إلى تصفية معارضيه كآلية عملية لتوطيد أركان حكمه، فقتل وزيري أبيه وصديقي جده أبا عبد الله الزبيدي وعبد الله بن يريم[1].

بل إنه قام بتصفية ابنه إسماعيل ووزيره البزلياني ونكّل بمن خرج معه من الفرسان وقطع أطرافهم، ثم أعدمهم، وأعدم نفرا من حرمه ونسائه بل قتل كل من كانت له صلة به فكانت مأساة مروعة[2]، وقد وصفه عبد الله عنان بأنه رجل مستبد عنيف الأهواء وأنه يعتمد في تحقيق أطماعه التوسعية مبدأ " الغاية تبرر الوسيلة"[3]، ووصفه وزيره ابن زيدون في بيتين نظمهما بعد وفاته بأنه طاغية[4]، وعدّه ابن بسام قطب رحى الفتنة والجبار المتهور المتعسف[5]، وذكر البعض بأن المجد الذي وصل إليه إنّما أقامه على القسوة في أنكى صورها[6].

ومن فرط قسوته وحنقه على أعدائه أنه كان يحتفظ برؤوسهم، فنظفها وطيبها وجعل في أذن كل رأس رقعة تحمل اسم صاحبها، ثم جعلها في خزانة، فكانت تحمل إليه في ليالي أنسه ليتلذذ بالنظر إليها، وهذه الرؤوس غير تلك التي جعلها في حديقة قصره على هيئة ثمار على أغصان[7]، وقد وصفه صاحب كتاب تاريخ الأندلس بأنه كان: " ظلوما غشوما غادرا، سفاكا للدماء،جائرا لا دين له ولا عهد، وكان يقتل بالعبث والعذاب، وسواء عنده في ذلك البر والفاجر[8].

وقام باديس في غرناطة بإجراءات تشبه ما قام به المعتضد ضد مغارضيه، فعمد بسبب الأجواء المشحونة، وكثرة المتربصين به من أبناء عمومته إلى إخلاء ساحته من المناوئين له إما بالنفي أو الحبس أو

1- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 25؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 41؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 489.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 136-137.

3- عنان: المرجع السابق، ص 50، 52، 53.

4- عنان:المرجع نفسه، ص57: رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 276.

5- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 24.

6- محمد زكريا عناني: تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، قناة السويس، (د.ط)، 1999، ص 111.

7- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 27؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 50؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص ص 446-447؛ دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 116.

8- مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007، ص 261.

المصادرة حتى لا يجد ابنه بلقين من بعده صعوبة في تولي الحكم[1]، فأمعن في الإنتقام من أعدائه، وكان يقتل لأدنى شبهة ولا يقيل العثرة، وممن شملهم انتقام باديس غلمان ابنه بلقين، وجواريه، وبعض اتباعه الذين نجح يوسف بن النغريلة في الصاق تهمة القتل بهم، وقد وصفه ابن خاقان بأوصاف تدل على التعسف والقسوة، وكان ليوسف ابن النغريلة اليد الطولى في مصادرة باديس لأملاك الكثير من الغرناطيين أو شرائها بأبخس الأثمان[2]، ووصفته بعض الكتابات التاريخية بأنه كان سفاكا للدماء، وقد شكت إليه أمٌّ عقوق ابنها لها ليهدده فضرب عنقه بالسيف[3]، وتعسف مع العرب الذين يعيشون بين البربر بسبب غدر ابن عباد العربي بثلاثة من زعماء البربر وقتلهم في الحمام كما تقدم .

وقد أجرى دوزي مقارنة بين باديس بن حبوس، والمعتضد بن عباد في القسوة والاستهانة بالدماء والتنكيل بالخصوم، فبين مواطن الاتفاق والاختلاف بينهما، لكنه في نهاية المطاف يعتبرهما مستبدين جائرين مفسدين[4].

غير أنَّ إبْنًا آخر لباديس أعطاه جيان في حياته كان أشد قسوة على أعدائه من كل ملوك الطوائف، فقد كان إلى جانب إفراطه في قتل من يشتبه بمعارضته بالسيف، يسلط كلبته لبُّونة على المتسببين في القلاقل فتمزق أجسادهم وتأكل لحومهم[5].

وقد ابتكر أبوه حبوس طريقة في الحكم لم يسبق إليها فقد جعل على كل ناحية من نواحي مملكة غرناطة حاكما كفؤا لإدارة شؤونها، فكأنها فدراليات داخل الدولة، ومع ذلك كان يستشيرهم في كل صغيرة وكبيرة، ويعقد الإجتماعات معهم خارج قصره حتى لا تتغير نفوسهم عليه[6].

أما المقتدر بن هود فمن أجل الاستئثار بمملكة أبيه قام بمحاربة إخوانه، وألقى القبض على ثلاثة منهم، فنكل بهم وألقى بهم في السجن ثم سمّل أعينهم[7]، وأجبر مواطنيهم على الاعتراف بحكمه وتعسف معهم، وأخضعهم لحكمه بالقوة، وتلك ممارسات لا يقوم بها إلا حاكم مستبد.

---

[1]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 36.

[2]- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص ص 80-81؛ ابن الخطيب: أعمال لأعلام: ج2، ق2، ص 211؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 62.

[3]- محمد زكريا عناني: المرجع السابق، ص ص 122-123.

[4]- ينظر بشأن هذه المقارنة الفصل الخامس من كتاب دوزي ملوك الطوائف.

[5]- منتخبات عن كتاب البيان المغرب لابن عذاري المراكشي عن دولة الأمير عبد الله بن بلقين، الملحق1، مذكرات ابن بلقين، 205.

[6]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 26.

[7]- فطيمة عابد: الحياة الفكرية بسرقسطة البيضاء خلال عهد ملوك الطوائف، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، 2008-2009، ص 12، 13.

وقبل ذلك تولى علي ابن حمود حكم قرطبة واستوسق له الأمر مارس القهر على الرعية، وبالغ في إرهابهم ولم يسلم من ذلك حتى العسكر من البربر الذين كان ينسب إليهم، فقد حرض عليهم خصومهم حتى يتجرأ عليهم العوام[1]، ومع أن الهدف من هذا المسلك الذي سلكه مع الرعية هو إشاعة العدل إلا أنه قد وقع بسببه ظلم كثير، بل إنه في الفترة الأخيرة من حكمه بقرطبة قد نكل بالقرطبيين عندما آنس منهم الكراهية لدولته، وخاف عودة الأمويين إلى الحكم من جديد، فهدم منازلهم وانتزع السلاح منهم وامتنع عن إنصافهم وسلط عليهم شرار الناس وأذاقهم ألوانا من العذاب، حتى عجزوا عن الظهور في النهار فلا يخرجون لحوائجهم إلا ليلا[2].

أما ابنه يحي الذي كان بالعدوة المغربية فقد جاز إلى مالقة زمن خلافة عمه القاسم بقرطبة، وكان جوازه إلى الأندلس بهدف الإطاحة بعمه، والجلوس مكان أبيه المقتول بقرطبة، فقرر أن يملأ قلوب الناس خوفا وذعرا حتى يهابه خصومه وتنفتح الطريق أمامه إلى قرطبة فأضرم الأندلس سعيرا كما قال ابن حيان[3].

إن استعمال ابن حيان للفظ السعير في وصف الأعمال التي قام بها يحي للوصول إلى كرسي الحكم بقرطبة يوحي بأنه قد سلك مسلك العنف في التعامل مع السكان وقام بارتكاب الكثير من التجاوزات في حقهم وفي حق ممتلكاتهم وخرب كل ما تقع عليه عينه.

ووصف بعض المؤرخين محمد بن إدريس بن حمود المتلقب بالمهدي بأنه رجل فظ ، وسفاح سفاك للدماء عامل البربر بقسوة، ولم يسلم من قسوته رجاله الذين أوصلوه إلى كرسي الحكم[4].

وشدد مجاهد العامري على سكان الجزائر الشرقية بعد عودته مهزوما من سردانية، وتخلصه من الخليفة عبد الله المعيطي الذي انفرد بحكم دانية في غيابه، وعزم على قتله فقسا عليهم، وسطا بأكابرهم وأشرافهم خوفا على ملكه منهم، وأخذ منهم أغلى أموالهم "**الرمكة**" وهي أنفس خيولهم تتخذ للنسل لحاجته إليها في المعارك[5].

---

[1]- ابن حيان القرطبي: المصدر السابق، ص ص 38-39.

[2]- ابن حيان القرطبي: المصدر نفسه، ص ص 39-40.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 482.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 454؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 137؛ لويس سيكو دي لوثينا: المرجع السابق، ص 45.

[5]- أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص 258؛ عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص 125.

وفي إمارة رندة وهي معقل بن يفرن البربرية جلس باديس بن هلال بن أبي قرة مكان أبيه الذي كان معتقلا عند المعتضد بن عباد في اشبيلية، وكان رجلا فاجرا فسفك الدماء، ونهب الأموال، وهتك الأعراض، ولم ينج من سيفه حتى أقرب الناس إليه[1].

أما القادر بن ذي النون، فبعد دخوله إلى بلنسية تحت الحراب النصرانية سنة 478هـ/1085م طغى وتجبر وأصبح ديكتاتورا، فصادر أموال الأغنياء، وأرهق كاهل الفقراء بالضرائب، وسلط الجيش النصراني على السكان فأساءوا معاملتهم، ونشروا الفساد في أرجاء المدينة[2].

ولم يكن ذلك ديدن الحكام بل شاركهم فيه بعض الحجاب، فابن السقاء الذي رمى إليه أبو الوليد بن جهور بأزمة الحكم، وأطلق يده في الدولة يتصرف كما يشاء قد أثر المنصب الرفيع في طباعه وأخلاقه، فتغيرت معاملته للرعية، وقد وصفه ابن حيان بقوله:" فاستحال وتغير، وعتا واستكبر، وخان وغدر، فاستخف المظالم، واستهان الكبائر، ...واغترى بذوي الهيئات،...، فأذال صونهم، واحتقر الحقوق، ...وأغرى غاشيته من سفلة الناس وأوغادهم بهم، فأضرع خدودهم، وحط أقدارهم...ووسع أهل السلامة الدخول تحت التقية" وقال عنه أيضا:" ...دان له الناس عنوة..."[3]، فهذه العبارات وغيرها تدل على ان ابن السقاء قد استغل منصبه استغلالا قبيحا، فألحق الأذى بالرعية وظلم الناس، وأخذ حقوقهم، وهذا منتهى الاستبداد.

وفي دولة المعتصم بن صمادح قام بعض رجال الدولة بمصادرة بستان لأيتام، وألحقوها بقصر الصمادحية، دون علم المعتصم، غير أن القيّم على أموال هؤلاء الأيتام تمكن من استرجاعه بعد نجاحه في إخبار المعتصم بهذه المظلمة بطريقة ذكية[4]، فهذا التصرف يعكس تعسف كبار موظفي دويلات الطوائف في استعمال سلطاتهم، وجرأتهم على هضم حقوق المستضعفين.

ويبدوا بأن حكام عصر الطوائف –إلا قليلا منهم– قد آثروا الاستبداد والقسوة والسطوة بشعوبهم على الرفق والحكمة، فلا تكاد تقرأ عن حاكم إلا وجدت الكبر والاستبداد بين خصاله، فعبد الملك بن رزين صاحب السهلة نافس اسماعيل بن ذي النون في القسوة حتى فاقه، فقد كان غليظ العقاب

1- عنان: المرجع السابق، ص46.

2- محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 105.

3- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص 240-242، 243.

4- ماهر حمادة: المرجع السابق، ص ص 235-236؛ مريم قاسم طويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح(443-484هـ/1051-1091م)، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء- دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994، ص ص 57-58.

جبارا مستكبرا، وقد طالت قسوته أمّه فقد سطا بها لتهمة لحقتها فقتلها، ولا يقيل العثرة إلا نادرا، ولا يمنح للمذنب فرصة للتوبة من ذنبه[1].

وتولى الحكم في هذه الفترة حكام أهملوا شؤون رعيتهم وصحبوا السفهاء وشرار الخلق، وممن فعل ذلك عبد الملك بن جهور، فقد صحب الأراذل،وأهمل الأمور[2]، ومما ينبؤك بتعرض المسلمين في هذه الفترة لظلم حكامهم طلب الفقهاء من يوسف بن تاشفين بعد جوازه إلى الأندلس لمحاربة النصارى أن يرفع عنهم المكوس والظلامات التي يتعرضون لها فكلم يوسف بشأن ذلك ملوك الطوائف[3].

ولا شك بأن إرهاق جيوب الرعية بالمكوس هو نوع من أنواع الظلم الاجتماعي، فبسبب هذه المكوس ضاقت على الناس أرزاقهم وعجزوا عن ضمان لقمة العيش لهم ولأسرهم ناهيك، عن أنواع الظلم الأخرى التي تعبر عنها كلمة الظلامات التي وردت في كلام الفقهاء مع يوسف بن تاشفين، فالمجتمع الأندلسي كان يموج بأنواع من الظلم، وهذا ما جعل العلاقة بين الحكام والمحكومين تتأزم، وتصاب بالتشنج عدا تلك العلاقة المتوازنة التي كانت تربط أبا الحزم جهور بن محمد بن جهور بالرعية، فرغم إجماع أهل قرطبة على إسناد أمور الدولة إليه إلا أنه كان يعتبر نفسه واحدا من الرعية، فلم يجلس على كرسي الحكم يوما، ولم ينتقل إلى قصر الخلافة بل كان يدبر شؤون الحكم بمعية عدد من الأعيان وعقلاء قرطبة، ونجح إلى حد كبير في ترتيب الأمور وإرساء الأمن وتحقيق الرخاء[4].

وقد قدم لنا علي ابن حزم صورة واضحة عن الظلم الذي عاشه الأندلسيون تحت حكم ملوك الطوائف، فقد كان القمع والتنكيل مصير كل من يعبر عن استيائه من الظلم الذي يمارسه الحكام ضد شعوبهم أو يعترض على السياسات الفاشلة للحكام في مناطق حكمهم، ولا يتردد هؤلاء عن تنفيذ غارات على المناطق التي تأبى الدخول تحت طاعتهم أو تلك التي تريد الانفصال عنهم[5].

نستشف من كلام ابن حزم بأن الملوك في هذه الفترة الحرجة من تاريخ الأندلس قد تعاقدوا مع العسكر، وأنشأوا أنظمة قمعية شمولية ديكتاتورية لا صوت يعلوا فيها فوق صوت الحاكم، ولا مكان فيها لأبسط الحقوق السياسية فالمواطن لم يكن يحظى بأبسط حقوقه السياسية، وهذا ما يعيننا على تحديد

[1]- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص 158؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 111.

[2]- ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 144،ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص204؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 464.

[3]- ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 203؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 439.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص ص 602-603؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 432؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 204.

[5]- ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 175.

العلاقة بين الحاكم والمحكوم في هذه الفترة، فكل الدلائل تشير بأن العلاقة بين الطرفين كانت في أسوإ حالاتها، وعندما يكون الضيم وتتدهور العلاقة بين العناصر الأساسية المكونة للدولة، فذلك نذير شؤم ينذر بحدوث الاضطرابات وعدم الاستقرار.

وقد أحاط الحكام في هذه الفترة أنفسهم بسياج من العسكر لحماية كراسيهم وتنفيذ مخططاتهم التوسعية، ولكن هذه الحماية لم تكن مجانية بل يدفع الحكام لقاءها أموالا ضخمة للجند يعمل الجند نفسه على استخلاصها من الشعب، فالشعب إذن كان يعاني الاستبداد والقهر ولا شك بأن الظلم والاستبداد مؤذنان بخراب الدول وانهيارها، وهذا ما حدث لاحقا فإن هذه الدويلات لم تعمر طويلا لأنها كانت تختزن بداخلها عوامل فنائها، ويصف عبد الله عنان ملوك الطوائف بأوصاف الغلظة والقسوة فيذكر أنهم كانوا طغاة يسومون شعوبهم سوء العذاب وينكلون بهم[1].

وقد رفض بعضهم الإصغاء إلى النصائح التي تقدمها البقية النادرة من العلماء الربانيين الحريصين على مصالح الأمة الإسلامية بالأندلس، بل يقومون بإعدام من يقف في طريقهم، ويسدي لهم النصح كما فعل أحمد بن سليمان بن هود صاحب سرقسطة عندما وعظه فقيه صالح يسكن قرية من قرى إمارته، وعاتبه على قبوله بدفع الجزية للروم وصالحهم حتى يكفوا عن مهاجمة الثغر الأعلى، فقتله وكان هذا الفقيه قد أقبل على ابن هود بعد استنجاد الناس به وامتعاضهم من دفع الجزية له[2].

ورغم هذه الصورة القاتمة التي رسمها الكثير من المؤرخين للعلاقة بين ملوك الطوائف وشعوبهم إلا أنَّ أفرادًا منهم قد ساسو شعوبهم سياسة رشيدة ويمكن أن نذكر في هذا الإطار أبا الحزم بن جهور في قرطبة، وأبا بكر بن طاهر صاحب مرسية والمعتمد بن عباد الذي أحسن معاملة أهل قرطبة بعد انتزاعها من يد آل جهور[3]، وعلي بن مجاهد الذي كان مسالما مع شعبه وغيرهم من ملوك الطوائف الذين فضلوا الرفق على القسوة.

وإلى جانب الظلم الذي مورس على الرعية من قبل الحكام وأعوانهم هناك ظلم من نوع آخر تمثل في الغارات المتكررة التي يقوم بها بعض الحكام أو بعض الجماعات من حين لآخر على سكان الأرياف في الممالك المجاورة، فقد ذكر ابن حزم أن البربر قد نفذوا عددا من الغارات على أرباض قرطبة نهبت فيها المواشي وثمار الزيتون وكل شيء ذا قيمة عند السكا، وما قوله في الجزء الثالث من رسائله"ومشى

1- عنان: المرجع السابق، ص419.

2- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 462.

3- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندري، (د.ط)، 1997، ج1، ص 138.

في بلاد المتغلبين يقينا العرى الحالسة ظلم بظلم " إلا دليل على أن ممالك الطوائف كانت تعيش ظروفا سياسية متشابهة[1].

وقد وصفت بعض المصادر بعض ملوك هذه الفترة بأوصاف القسوة والجبروت والاستكبار، فذكر ابن حيان هذيل بن خلف بن لب بن رزين بأنه كان غليظ العقاب جبارا مستكبرا فظا، ومن فرط فظاظته أنه قتل أمَّه لمجرد تهمة اتهمت بها[2].

ويمكن اعتبار إرغام المعتضد ابنه اسماعيل على غزو قرطبة ونكول إسماعيل عن ذلك خوفا من أن يقع بين قوات باديس بن حبوس وقوات قرطبة وفراره مع وزيره البزلياني، وإلقاء القبض عليهما مع ثلة من غلمانه، وإعدام الجميع ضربا من ضروب الاستبداد الذي طبع هذه المرحلة بل بالغ في التنكيل بحرمه وبكل من له صلة به وثل بهم وأعفى أثر بعضهم[3].

وإن كان ثمة كلام يلخص لنا علاقة ملوك الطوائف بشعوبهم فهو كلام عبد الله عنان حيث قال " ولم يكن ملوك الطوائف في سياستهم الداخلية وإزاء شعوبهم أفضل موقفا، ولا أكرم تصرفا، فقد كانوا طغاة قساة على رعيتهم، يسومونهم الخسف ، ويثقلون كواهلهم بالفروض والمغارم لملء خزائنهم وتحقيق ترفهم وبذخهم، ولم يكن يردعهم في ذلك رادع لا من الدين ولا من الأخلاق..."[4].

ولما كانت أحوال ملوك الطوائف في التعسف وظلم العباد على شاكلة واحدة لم يتردد ابن حزم في نعتهم بأقبح النعوت حيث وصفهم بأنهم محاربون لله ورسوله مفسدون في الأرض من خلال شنهم للغارات على المسلمين ممن يقطنون في ملك المناوئين لهم ويقطعون الطرق والمسالك[5]، وهذه شهادة رجل عاش المرحلة وعاين الظلم الذي صدر من هؤلاء الحكام بل ذاق مرارته فهو المعارض الشرس الذي كان يرحل كلما نذل بدولة من دويلات الطوائف.

وقد كان الظلم الممارس من قبل ملوك الطوائف بحق شعوبهم سببا في مطالبة الفقهاء يوسف بن تاشفين بخلعهم[6]، إلا أن الحكام نجحوا عبر الاستبداد في إخماد الحركات المناهظة، وإسكتوا الأصوات المعارضة، وتحكموا في شعوبهم بشكل مطلق عدا بعض الحالات في قرطبة، والمناطق الصقلبية.

---

[1]- ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص ص175-176.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 111؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 477.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 143-147.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 420.

[5]- ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 173.

[6]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 101.

المطلب الثاني: أثر الصراعات العسكرية على الأوضاع الخارجية للممالك والإمارات

سنرى ما إذا كانت الصراعات العسكرية قد أثرت على الوضع الخارجي للإمارات بشكل ما.

الفرع الأول: حركة الجهاد: من أدبيات الحرب الأساسية في الإسلام أن تتم الدعوة إليها من قبل الحاكم أو رئيس الدولة بالتعبير الحديث، فلا حرب إذن إلا بقرار يصدر من أعلى سلطة سياسية في البلاد، من هذا المنظور قررت إدراج هذا العنوان تحت الآثار السياسية للصراعات العسكرية بالأندلس إبان عصر ملوك الطوائف.

لم يكن أحد من ملوك الطوائف يملك الجرأة لإعلان الجهاد ضدّ الممالك النصرانية التي كانت تتحرش بهم في هذه الفترة، لأنهم يعلمون بأن دعوتهم لن تجد القبول في نفوس الناس، فالشعب يعلم بأن الأنظمة القائمة هي أنظمة غير شرعية تغلب أصحابها على المناطق التي تحت أيديهم، لذلك جعلوا كل همهم غزو جيرانهم من المسلمين مستعينين في ذلك بالمرتزقة القادمين من الممالك النصرانية في الشمال لأن الكثير من المسلمين لا يجرؤون على سفك دماء إخوانهم المسلمين[1].

إذن شغل حكام عصر الطوائف عن جهاد النصارى بمحاربة بعضهم بعضا، ووجهوا حرابهم نحو المسلمين إلا ما كان من بعضهم لدفع النصارى عن بعض المدن التي قاموا باحتلالها، فقد نادى المقتدر بالله بن هود بجهاد النصارى عندما قاموا بغزو بربشتر، فلبى نداءه خلق كثير قدموا من كل أقاليم الأندلس، وحاصروا العدو في المدينة، ثم قاموا باقتحامها، ففر العدو، ولحق بهم المسلمون، فأعملوا فيهم سيوفهم وأسروا الكثير منهم[2].

كما يمكن استثناء مملكة دانية والجزائر الشرقية من الممالك التي تقاعست عن الجهاد، فقد اتخذ مجاهد العامري بعد استيلائه على الجزر الشرقية قواعد بحرية لأساطيله للإغارة منها على سردانية وثغور ساحل إيطاليا الغربي وجنوب بلاد الفرنجة وإمارة قطلونية(برشلونة)، وكانت حملته الأولى على سردانية التي استطاع الاستيلاء عليها ولو لوقت قصير، واستمر جهاد النصارى بحرا بعد وفاة مجاهد حتى تمكن الأغلب مولى مجاهد من سنة 441هـ/1049م من الاستيلاء مرة أخرى على جزيرة سردانية من البيزيين[3].

وسار مبشر ناصر الدولة على نهجهم، فكان يقارع بأسطوله أساطيل النصارى التي تغير على السواحل الشرقية للأندلس كما أسس جيشا قويا من الخيالة، وكان كثير الاهتمام بالخيول التي يقاتل بها

---

[1]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 281؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 396.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 190؛ ابن عذاري : المصدر السابق، مج2، ص 461.

[3]- عصام سالم سيسالم: المرجع السابق، ص ص 143-144، 169؛ أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص ص 313-314.

الفرسان في الجبهات حتى صارت أفضل هداياه، وهذا ما يفهم من أشعار ابن حمديس التي وصف فيها خيلا أهديت له فقال[1]:

جاءتك أولاد الوجيه ولاحق فأرتك في الخلق ابتداع الخالق

نينان أمواه وفتخ سباسب وضباء آجام وعصم شواهق

وقد استعان بعض ملوك الطوائف غير مرة بالنصارى لكسر خصومهم من حكام الإمارات الإسلامية المجاورة لهم مقابل مبالغ باهضة تمنح للنصارى أو لقاء التنازل عن بعض المدن والحصون، وهذا التآكل الداخلي قابله استعادة الممالك النصرانية في الشمال لعافيتها واستعدادها لشن هجوم كاسح على الممالك الإسلامية المجاورة مثل طليطلة[2].

فاستعان سراج الدولة بن مجاهد العامري بالإفرنجة لقتال المقتدر بن هود وتم له ذلك بعد قبوله بالشروط التي اشترطها عليه الفرنجة وهي بلا شك شروط تزيد من ضعف إمارات الطوائف وقوة النصارى، وقد قام سراج الدولة بانتزاع عدد من حصون المقتدر هذه المرة[3].

ولو تأملت هذه الفترة من تاريخ الأندلس لوجدت بأن ملوكها قد جدّوا في قتال بعضهم وإرهاق شعوبهم بالحروب المتتالية، فقضى بعضهم فترة حكمه في غزو المسلمين كما فعل المعتضد بن عباد عندما قام بالاستيلاء على الإمارات البربرية الواقعة في المثلث الجنوبي ناهيك عن حروبه مع بني الأفطس والمأمون بن ذي النون، وفي ظل هذا التردي في الطموح عكف النصارى في الشمال على مراقبة المشهد عن كثب ورسم الخطط التي تمكنهم من انتزاع الأندلس من هؤلاء الملوك.

لقد امتنع ملوك الطوائف عن جهاد النصارى في هذه الفترة، وجدُّوا في قتال بعضهم البعض، حتى عدم الناس من يرفع صوته بالدعوة لقتال النصارى، أما بعض الملوك فقد ركنوا إلى الراحة والبطالة، وهذا ما أخبرنا به ابن حيان بقوله:" فنبذوا السلاح، وكلفوا بالترقيح، ونافسوا في النشب، وعطلوا الجهاد، وقعدوا فوق الارائك مقعد الجبابرة المتفاتنين من أهل موسطة الأندلس، ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة..."[4].

---

[1]- ابن حمديس:ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت) ، ص 330.

[2]- حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 458.

[3]- ابن خلدون: المصد السابق، ج4، ص 211.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج2، ص 850.

لقد تعطل جهاد النصارى بالأندلس منذ زمن عبد الحمن شنجول كما يخبرنا بذلك صاحب الحلل الموشية أي منذ تسع وسبعين سنة، ولم يتجدد إلا بجواز يوسف بن تاشفين، وخوض المعركة التاريخية الفاصلة مع النصارى في موقعة الزلاقة سنة 479هـ/1086م، وبعملية حسابية بسيطة نجد بأن الجهاد حسب رواية صاحب الحلل قد توقف بالأندلس منذ الفتنة القرطبية وتحديدا سنة 1010/400[1].

ولم يتوقف الأمر عند تعطيل الجهاد بل عطلت الشريعة برمتها حتى تجرأ أهل الكفر على الإسلام وأظهروا عداوتهم وأعني بذلك ابن النغريلة الذي ألف كتابا يزعم أنه بين فيه ما يوجد من تناقض في القرآن الكريم، وما حمله على ذلك كما يبين ابن حزم سوى ضعف حكام هذه الفترة وعلماء الشريعة فيها[2]، ويذكر ابن الكردبوس أن الوهن قد تسرب إلى نفوس الحكام والمحكومين من المسلمين فخنعوا لحكام النصارى خنوعا تاما حتى كلّت أيدي الثوار عن مقارعتهم[3].

أما ابن عذاري فيخبرنا بأن الله تعالى قد قذف الرعب والجبن في قلوب الحكام المسلمين، فجبنوا عن قتال النصارى، فصار المقاتلون المسلمون يفرون كلما رأو نصرانيا حتى فهم النصارى بأن الضعف قد تمكن منهم وتسلل الخوف إلى قلوبهم وأن ساعة ابتلاعهم قد حانت[4].

ويخبرنا ابن حيان بأن حكام المسلمين في هذه الفترة قد غفلوا عن سد ثغورهم والتفكير فيما قد تؤول إليه أوضاع إماراتهم ما جعل العدو يستأسد عليهم ويقتطع مرة بعد مرة أجزاء منها ويبيد خلقا من المسلمين، وقد تسرب الوهن إلى عموم الأمة، فكان الناس يخبرون في المساجد عن الفادحة التي تحل بجهة من الجهات في الأندلس، فلا تتحرك منهم شعرة واحدة، وتقاعسوا عن النصرة بالدعاء فضلا عن القتال إلى جانب إخوانهم[5].

إنّ كساد سوق الجهاد بالأندلس في هذه الفترة إنما حصل لفساد من يحث عليه في المجتمع، وتقاعس من يقود الناس في الجبهات، فالذي يقوم بتعبئة الناس للجهاد، ويشحذ عزائمهم هم العلماء، ومن يخرج بهم للجبهات هم الحكام، وهذين الصنفين من الناس في هذه المرحلة تقاعسوا عن ذلك، فابن

---

[1]- مؤلف مجهول: الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار – عبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979، ص 82؛ وردة العابد: القيادة العسكرية في الثغرين الأدنى والأعلى بالأندلس في القرن الخامس الهجري حتى الربع الأول من القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008، ص 64.

[2]- ابن حزم:رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 42.

[3]- ابن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2008، ص ص1230-1231.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 499.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص 189.

حيان يذكر بأن الأمة ابتليت في عصر الطوائف بحكام ظلمة عدلوا عن طريق الحق وآثروا الفرقة على الوحدة، والعلماء ساكتون عن مناصحتهم إما خوفا من بطشهم أو خوفا على مصالحهم ورغبة في أعطياتهم[1].

ولم ترتفع أصوات بعض الفقهاء بالنداء لإحياء هذه الفريضة إلا بعد استيلاء النصارى على طليطلة (478هـ/1085م)، إلا أن تعذّر جمع القوات الإسلامية في ممالك الطوائف تحت قيادة واحدة، وعدم رغبة بعض الملوك في التخلي عن الملك والدخول تحت عباءة المرابطين جعل المنادين بالجهاد كمن يصرخ في واد على عكس الممالك النصرانية في الشمال التي اجتمعت تحت قيادة الفونسوا السادس[2].

من الطبيعي أن تتعطل حركة الجهاد في عصر الطوائف لأن الحرب الأهلية كانت على أشدها، ولأن اهتمام ملوك الطوائف قد اتجه نحو الداخل، فكل ملك يرى بأن الخلافة يجب أن تكون من نصيبه لأنه الممثل الشرعي لها، لذلك نجد ابن عباد في اشبيلية يدَّعي بأنه قد عثر على هشام المؤيد، وأن أهل الأندلس مطالبون جميعا بمبايعته، أما باديس بن حبوس فقد بايع الحموديين لاعتقاده بأنهم أولى بالخلافة من غيرهم، ولأن هشام المؤيد قد عهد بالخلافة من بعده لهم، فيما بايع مجاهد العامري في شرق الأندلس المعيطي.

كان كل ملك من ملوك الطوائف المتصارعين يعتقدون بأن جهاد النصارى يأتي بعد إخضاع الملوك المنافسين له وتوحيد الأندلس تحت حكمه، وهذا ما لم يتحقق لأن الملوك جميعا كان يحدوهم الأمل في اعتلاء عرش الخلافة فبذلوا من أجله الدماء، والأموال، وهذا ما جعل أبناء الأسرة الواحدة يقاتل بعضهم بعضا مثلما فعل يحي بن علي بن حمود حيث قاتل عمه القاسم لأنه جلس مكان أبيه بعد اغتياله[3]، وقاتل أحمد بن سليمان بن هود إخوانه بعد وفاة أبيه، فتغلب عليهم واخرجهم من أملاكهم، وكذلك كان الشأن في عدد من دويلات الطوائف.

إذن ما كان جهاد النصارى ليتعطل لولا انشغال ملوك الطوائف بقتال بعضهم، فجهود حكام الطوائف كانت متجها لهدم البيت الداخلي، ما تسبب في استنزاف قوتها، فلم تعد قادرة على مقارعة النصارى، والمتأمل لتاريخ الطوائف يدرك بأدنى نظر بأنه عصر مليء بالصراعات العسكرية، والمناوشات، فلم يعد لدى المتصارعين وقت، ولا جهد لقتال النصارى، فجل وقتهم، ومعظم جهدهم صرف للصراعات الداخلية، وما بقي لديهم من جهد صرفوه إلى الدعة والراحة في مجالس اللهو والمجون، بل تذكر كتب

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 180-181؛ أحمد الطاهري: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1993، ص 134.

[2]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص ص 176-177.

[3]- المقري: النفح، مج1، ص 431.

التاريخ أن المعتضد بن عباد على قسوته، قد انغمس في اللهو ولم يخرج للحرب التي استغرقت فترة حكمه إلا نادرا فقد كان يبعث أبناءه على رأس جيوشه.

هناك عامل آخر ساهم في توقف الجهاد بالأندلس في عصر الطوائف، ويتعلق الأمر بحجم هذه الدويلات، فقد كان معظمها صغيرا لا يملك جيشا يمكنه من الصمود في وجه جحافل النصارى عدا بعض الدويلات الكبيرة نسبيا كإشبيلية، وطليطلة، وبطليوس، التي كانت تتربع على مساحة جغرافية لا بأس بها، وتتمتع بقوة عسكرية مقبولة، أما غيرها من الدويلات فقوتها لا تكفيها للدفاع عن نفسها، لذلك ذاب الكثير منها في غيرها عن طريق الغزو والاحتواء.

وأكبر دليل على ضعف قوة هذه الدويلات، وعدم امتلاكها جيشا يمكنها من الجهاد والغزو لجوء معظمها إلى عقد تحالفات إما مع دويلة أخرى من دويلات الطوائف أو أكثر أو مع الممالك النصرانية من أجل الدفاع عن حدودها أو محاولة استرجاع بعض الحصون التي أخذت منها، ذلك لأن الجيش الذي كان يمارس الغزو والجهاد في عصر الخلافة الأموية قد قسم إلى قطاعات صغيرة لا تنفع لشيء.

ولم يرفع لواء الجهاد إلا بعد جواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس سنة 479هـ وهو العام الذي وقعت فيه معركة الزلاقة الخالدة التي قصم فيها المسلمون ظهر القوات النصرانية، وتمكن المرابطون من استرجاع الكثير من المناطق التي انتزعها الفونسوا من جسم الأمة الإسلامية أما طليطلة التي حاصرها مرارا فقد ذهبت إلى الأبد[1].

الفرع الثاني: حركة الاسترداد المسيحي: إن حركة الاسترداد المسيحي قد بدأت منذ عصر الولاة (95هـ/714م)[2]، ثم خفتت في القرون اللاحقة، لتنتعش مرة أخرى في عصر الطوائف، فبتقسيم الأندلس التي كانت دولة واحدة إلى دويلات انقسم الجيش إلى جيوش كما أسلفنا، فتضعضعت بذلك قوته ولم يعد يدافع عن الأندلس بل عن أقاليم محددة، وهذا ما جعل ميزان القوة في المنطقة يختل لصالح النصارى في الشمال الذين كانوا يراقبون الوضع عن كثب، ويتحينون الفرصة المناسبة للزحف على دويلات الطوائف[3]، ولم تعد الأندلس بعد هذا التقسيم قوة إقليمية كما كانت في السابق، فلم تعد تتحكم في شرايين المواصلات عبر العدوة المغربية إلى بلاد السودان جنوبا وحتى المسالك المؤدية إلى الشمال حيث الممالك النصرانية، كما كان الانقسام والتضعضع سببا في تخليها عن هيمنتها على الملاحة البحرية في المحيط

1- السلمي: المرجع السابق، ص 133.

2- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 418؛ ابراهيم بن عطية السلمي: العدوة الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائف إلى سقوطها في يد الإسبان دراسة سياسية حضارية، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة أم القرى، السعودية، 1430، ص 112.

3- ينظر ج.س كولان: المرجع السابق، ص 131.

الأطلسي والجهة الغربية من البحر الأبيض المتوسط وبذلك فقدت مكانتها كمركز للقرار السياسي والعسكري والدبلوماسي في المنطقة[1].

لقد أدرك الملوك النصارى في الشمال بأن الكل قد صار أجزاء متناثرة، وأن الفرصة قد صارت مواتية لابتلاعها جزءا بعد جزء، وتأكد عجز هذه الأجزاء عندما صارت تطلب العون من النصارى لمواجهة الأخطار والتحديات التي تحيط بها، حينئذ جعل ملوك النصارى التنازل عن بعض المناطق والحصون الإسلامية شرطا للتعاون مع ملوك الطوائف، ففي زمن الفتنة القرطبية تنازل واضح العامري للنصارى عن مدينة سالم مقابل إمدادهم بقطاعات من الجيش لمحاربة المستعين، كما تنازل هشام المؤيد لألفونسو عن عدد من الحصون مقابل تخليه عن دعم سليمان المستعين والبربر المناوئين له[2].

لقد تمكن فرناندوا الأول سنة 428هـ/1037م من سحق حاكم ليون في معركة حاسمة، فأضاف رقعة إلى رقعته وقوة إلى قوته، وبدأت قوته تتعاظم شيئا فشيئا ، وفي سنة 446هـ/1054م تمكن من هزيمة أخيه غرسية ملك نبرة، وبعد أقل من عشر سنوات أي سنة 455هـ/1063م تغلب على أخيه الثاني راميروا ملك أرغون فعظمت بذلك قوته وكثر جيشه، وصارت معظّما عند النصارى مهاب الجانب، وقد قابل هذا الاتحاد والتنامي المستمر في قوة النصارى تشرذم وضعف في الجبهة الإسلامية، وفي ظل هذا النصر الكاسح لفرناندوا على إخوانه بدأ ينفذ غاراته على المدن الإسلامية المتاخمة له فيقتل ويأسر ويقتطع أجزاء منها، ثم شيئا فشيئا توغل نحو الداخل عندما صار ملوك الطوائف يطلبون دعمه لقتال إخوانهم.

وفي طليطلة تمكن ملك النصارى ششكند من خلال حيلة محكمة من انتزاع عدد من الحصون المهمة ومبلغ كبير من المال من المأمون بن ذي النون الذي خرج إليه يطلب معونته لغزو بعض المناطق المجاورة لطليطلة[3]، وكان ملك نبرة قد انتزع من سليمان بن هود مدينة قلهرة عندما استعان به المأمون بن ذي النون سنة 437هـ/1045م[4].

وتعرضت مملكة بطليوس للإجراءات نفسها، وتوجت محاولات الاسترداد فيها باتنزاع فرناندوا الأول مدينتي بازوا ولاميجوا التابعتين لبطليوسسنة 449هـ/1057م، ومدينة قلمرية سنة 456هـ/1064م، وبعد هذا التاريخ شرع الاستيلاء على المناطق الواقعة بين نهر دويرة ومينو[5].

---

[1]- أحمد الطاهري : المرجع السابق، ص 128.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 365؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 194.

[3]- النويري: المصدر السابق، ج23، ص ص 258-259.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 99؛ يوسف أحمد حوالة: المرجع السابق، ص 161.

[5]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 369؛ عنان: المرجع السابق، ص 86؛ يوسف أحمد حوالة: المرجع السابق، ص 165.

وقد اشتدت حروب الاسترداد المسيحي في الفترة التى وقعت فيها مأساة بربشتر أي سنة 456هـ/1064م حيث ذكر ابن حيان أن النصارى كانوا يصولون ويجولون كما يشاءون يجسون نبض الإمارات، وفي كل صولة يقتطعون جزءً من الأراضي الإسلامية[1]. لقد انطلقت الحملة التي استهدفت مدينة بربشتر من فرنسا وتحديدا من منطقة النورمندي، وقادها القائد الأعلى لفرسان البابا الكسندر الثاني، الذي بارك الحملة، وشجع الفرنسيين على الانضمام إليها، وأعلنها حربا صليبية على الإسلام[2]، فلا تعجب بعد ذلك من انتهاك هؤلاء النصارى للأعراض وتنكيلهم بالسكان.

لقد كانت دويلات الطوائف كلها هدفا لحركة الاسترداد، وليس أدل على ذلك من الغارات النصرانية المتكررة التي لم تسلم منها دويلة من هذه الدويلات، ثم تطور الأمر إلى جزية رضي بدفعها ملوك الطوائف جميعا إلى ملوك النصارى الأقوياء في الشمال كفرناندوا الأول[3].

غير أن هذه القوة النصرانية قد تضعضعت بسبب قسمة فرناندوا الأول أراضيه على أبنائه الثلاثة سنة 456هـ/1064م، وتسببت هذه القسمة في حرب أهلية بعد وفاة أبيهم سنة 457هـ/1065م دامت بضع سنوات، فخلال هذه المدة هدأت الغارات على أراضي ملوك الطوائف، ولكن هذا الهدوء لم يستثمر من قبلهم في لم الشمل والإتحاد من أجل تقويض أركان الدول النصرانية في الشمال، بل أمعن حكام المسلمين في الفرقة وقتال بعضهم حتى تمكن الفونسوا السادس من توحيد هذه الممالك مرة أخرة بعد مقتل أخيه شانجة سنة 465هـ/1073م وأسر أخيه الثاني غرسية والزج به في السجن حتى مات فيه سنة 481هـ/1088م[4].

ويخبرنا ابن الكردبوس بأن الفونسوا السادس بعد توليه الحكم أي بعد سنة 468هـ/1075 استفحل أمره وطمع في الأراضي التي كانت تحت حكم المسلمين وعزم على الاستيلاء عليها كلها فلم يغمض له جفن ولم يكف عن شن الغارات على المناطق التي وصلت إليها يده، وأعانه على تنفيذ خطته ذلك حالة الوهن الشديد والتشرذم والاختلاف الذي كانت تعيشها الإمارات الإسلامية[5].

1- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 189.

2- حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 509؛ فايزة بنت عبد الله الحساني: تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأموية حتى سقوطها(316-512هـ/928-1118م) دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1429-1430هـ، ص 114.

3- يوسف أحمد حوالة: المرجع السابق، ص 149.

4- عنان: المرجع السابق، ص 394؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص ص 306-309.

5- ابن الكردبوس:الاكتفاء، ص ص1230-1231.

أما ابن بسام فيذكر بأن الفونسوا السادس بدءا من سنة 468هـ/1075م أي بعد تولي القادر بن ذي النون الحكم في طليطلة قد فغر فاه على الثغور لابتلاعها ، فجعل يطويها كطي السجل للكتاب[1].

كان الفونسوا يعلم بأن جيوشه لا تكفي لطرد المسلمين من الأندلس لذلك عقد حلفا مع مملكتي نبرة وأرغونة التابعتين لابني عميه سانشوا وراميروا الأول، ثم عمل على التقرب من الكنيسة الرومانية، فبدل الطقوس الإسبانية القوطية بطقوس كنيسة روما، وفتح قنوات الاتصال ببابا روما جريجوري السابع ، كما فتح حدوده أمام الرهبان الكلونيين ، ثم وسع علاقاته مع فرنسا التي كانت تتزعم الحروب الصليبية آنذاك[2] ما سمح بتدفق المئات من الفرسان الفرنسيين المغامرين الذين فتح رامون بر نجير حاكم برشلونة الطريق أمامهم عندما ضم ولاية قرقشونة سنة 459هـ/1067م التي تعتبر همزة وصل بين اسبانيا والأراضي الفرنسية[3].

لقد كانت اسبانيا في قلوب أساقفة كلوني منذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي، لكن بعد زواج الفونسوا السادس من الاميرة كونستانس الفرنسية الأصل سنة 471هـ/1078م تدفق الرهبان الفرنسيون على اسبانيا التي يعتبرونها الجبهة الأمامية للدفاع عن المسيحية ضد المد الإسلامي لذلك قاموا بتعبئة شاملة للدفاع عنها، ونظموا الحج إلى شنت ياقوب، وأقاموا على طول الطريق المؤدية من فرنسا إلى اسبانيا الأديرة الكلونية لتكون مكانا ينزل فيه الحجاج للراحة، وكان الرهبان الكلونيون يترددون باستمرار على هذه الأديرة وشاركوا لا حقا في الحملات المسيحية ضد المسلمين[4]، فنزلت الكنيسة بذلك عمليا إلى ساحات المعارك ضد المسلمين ممثلة في فرسان الأديرة والكنائس، وقد اشتهر منها في هذه المرحلة فرسان سنتياجوا(شنت ياقب)[5].

وبمشاركة الرهبان الكلونيين في الحملات العسكرية ضد المسلمين دخل الصراع مرحلة الحرب الصليبية، فالمقاتلون النصارى أصبحوا يقاتلون بأمر رجال الكنيسة وتحت رايتهم، لذلك كان الجنود عند مسيرهم للقتال وأثناء الاشتباك يرفعون الصلبان أو رايات تحمل رسم الصليب، إلى جانب استصحابهم للأناجيل، وهذا ما لاحظه من كان حاضرا في وقعة الزلاقة التي تعتبر من المعارك الفاصلة بين المسلمين

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 156.

[2]- يوسف أحمد حوالة: المرجع السابق، ص ص 245-246.

[3]- رابح رمضان: النشاط التجاري بالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين العاشر والحادي عشر الميلاديين، رسالة ماجستير في التاريخ الوسيط غير منشورة، جامعة السانية، وهران، 2007-2008م، ص 142.

[4]- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، (د.ط)، 1985، ص ص 257-258؛ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق ، ص 262.

[5]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 329.

والنصارى بالأندلس، فقد حضر فيها القساوسة والرهبان بأناجيلهم وصلبانهم، كما حضرها المقاتلون من فرنسا وإيطاليا وجميع المقاطعات النصرانية شمال اسبانيا[1].

لقد تمكن الفونسوا من إضعاف دويلات الطوائف واستنزاف قوتها الذاتية، من خلال ارهاقها بالغارات، وافتعال الصراعات بينها، ولاحقا نجح في استصفاء أموالها، وإفراغ خزائنها، وعندما عجزت عن دفع الجزية أصبح يهددها باكتساح أراضيها[2].

ويرى أمحمد عبود بأن سياسة الابتزاز الذي كانت تمارسه ممالك الشمال المسيحية ضد ملوك الطوائف بواسطة الجزية طيلة الجزء الأكبر من القرن الخامس الهجري قد استنفذت قوة تلك الجيوش التي تعتمد في تجهيزها العسكري وفي تموينها على الأموال، كما توجد قرائن تدل بأن الفونسو قد نجح في توحيد الجبهة الشمالية، وتعبة الجيوش النصرانية للقيام بعملية الاسترداد[3].

وما كان الفونسوا ليوحد الجبهة النصرانية لولا قيامه بكسر شوكة طبقة النبلاء الذين كانوا يتمتعون بنفوذ كبير داخل ممالكهم، ويحولون دون تحقق الوحدة المنشودة داخل المجتمع النصراني إذ نفذ جملة الإصلاحات الجذرية التي منحت له صلاحيات موسعة[4].

وعلى عكس العلماء المسلمين في دويلات الطوائف فإن رجال الدين المسيحي في الممالك الإسبانية كانوا من حين لآخر يعقدون اجتماعا كنسيا من أجل التشاور بشأن التطورات التي كانت تحدث في شبه الجزيرة الأيبيرية، وبعد كل اجتماع يحثون الناس على ضرورة الالتفاف حول قيادتهم، وتقديم الدعم المطلق لها في قتالها للمسلمين، فكانت توصياتهم تجد تجاوبا كبيرا من قبل الرعية، وبهذه الطريقة نجحت الكنيسة في التعبئة للحرب ضد ملوك الطوائف، ولم نشهد في هذا القرن اجتماعا واحدا مماثلا للفقهاء المسلمين[5].

بلغت حروب الاسترداد الذروة مع احتلال الفونسوا لطليطلة سنة 478هـ/1085م وجعلها منطقة مسيحية إلى الأبد، لتنفتح شهية النصارى على مدن أخرى، فقام الكمبيطور باقتحام بلنسية سنة 487هـ/1094م وإخضاعها قبل أن يستردها المرابطون، ثم حصار الفونسوا مرة أخرى لحصن

1- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ص 188؛ حاج عبد القادر يخلف: الدور السياسي والإسهام الفكري لصنهاجة بالأندلس من القرن 4 الهجري إلى نهاية القرن6هـ/10-12م، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الوسيط غير منشورة، جامعة وهران1، الجزائر، 2016-2017، ص 214.

2- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 73، 101؛ وردة العابد: المرجع السابق، ص 80.

3- أمحمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص125.

4- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 323.

5- رجب محمد عبد الحليم: المرجع نفسه، ص 326.

ليبط(Aledo) سنة 481هـ/1088، وفي كل مرة كان المرابطون يتدخلون لكبح تمدد الصليبيين داخل الأراضي الإسلامية.

وفي هذه الفترة امتنع النصارى عن قبول الجزية، وصارو يلحون على أخذ البلدان، فقد بعث المعتمد بن عباد كعادته الجزية إلى الفونسوا فردها، وطلب منه أن يتنازل له عن جميع الحصون الواقعة في المناطق الجبلية، ويبقي السهول للمسلمين، وإلا سار بجيشه لاحتلال قرطبة، وكان الفونسوا يسعى من وراء هذا التدبير إلى محاصرة اشبيلية والإحاطة بها كما يحيط السوار بالمعصم لاقتحامها أو إجبارها على الاستسلام[1].

وعندما نتحدث عن حركة الاسترداد المسيحي للأراضي من أيدي المسلمين فهذا لا يقتصر على الممالك النصرانية الشمالية بل يشمل القوى البحرية المسيحية المنضوية تحت لواء الكنيسة الكاثوليكية والمكونة من قوات الإمارات الإيطالية وقوات الفرنجة التي كانت تقارع أساطيل دانية والجزائر الشرقية في البحر الأبيض وتهاجم الثغور الإسلامية البحرية من حين لآخر، فبعد استيلاء أغلب مولى مجاهد العامري على سردانية أيام حكم علي بن مجاهد سنة 441هـ/1049م قام البابا ليو التاسع بتكوين حلف بحري مسيحي برعاية بيزة كبرى جمهوريات إيطاليا البحرية، وقاموا بمهاجمة القوات الإسلامية في سردانية وأرغموها على الانسحاب منها، ودمروا جزء لا يستهان به من أسطول دانية[2].

لقد وجدت الأساطيل الإسلامية نفسها بعد هذه المعارك البحرية الطاحنة التي مالت فيها كفة التفوق إلى الطرف النصراني عاجزة عن تجديد وإصلاح القطع المدمرة في الحروب البحرية ضد النصارى لأن الغابات التي كانت تزود مصانع السفن بالخشب قد صارت في قبضة النصارى بعد استيلائهم على طليطلة وأجزاء من سرقسطة وبطليوس[3].

لم ينج من معارك الاسترداد هذه في بدايتها سوى بعض الممالك الإسلامية التي كانت تربطها ببعض الممالك التصرانية تحالفات استرتيجية، وعلاقات مصاهرة كمملكة سرقسطة التي كانت حليفا تقليديا لمملكة أرغون التي كانت تخوض حروبها مع مملكة نبرة[4]، إلا أن الوضع تغير بعد احتلال طليطلة فقد

---

[1]- ابن الأثير: المصدر السابق، ج8، ص 439.

[2]- عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص 169.

[3]- أوليفيا ريمي كونستيبل: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ط1، 2002، ص 296.

[4]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 316.

صارت كل الدويلات عرضة للابتلاع، وليس أدل على ذلك من حصار الفونسوا السادس لسرقسطة ومحاولة اقتحامها، ولولا سماعه بجواز يوسف بن تاشفين إلى الأندلس لصارت سرقسطة في جعبته[1].

ومع أن يوسف بن تاشفين قد عبر المضيق لإنقاذ ما يمكن إنقاذه من الدويلات الإسلامية من الاسترداد، إلا أن خوف بعض ملوك الطوائف على مناصبهم منه جعلهم يتآمرون مع ملوك النصارى ضده، وهذا ما فعله أحمد بن يوسف بن هود صاحب سرقسطة عندما علم بمسير جيش يوسف بن تاشفين إلى جهته وخاف منهم على ملكه، فقرر أن يضع عساكر النصارى بينه وبينهم حتى لا يصلوا إليه، فزين للكمبيطور احتلال بلنسية، وأعانه على ذلك بالمال والرجال، وكان هذا الرجل قبل ذلك خاملا منذ زمن، فأخرجه بنو هود من خموله، وسلطوه على مختلف الأقاليم الإسلامية بالأندلس، فداسها بحوافر خيوله، وطال شره كل مكان، فعظم أمره وقوي[2].

وفي جزر البليار بعد توقيع البحرية الزيرية لمعاهدة السلام مع الجمهوريات الإيطالية والبابوية البحرية، وانسحابها من السجال البحري في المتوسط بسبب سيطرة أعراب بني هلال على قواعده البحرية، وتضعضع قوة أساطيل صقلية وبقاء أساطيل البليار لوحدها في ميدان الحرب انتعشت الأساطيل المسيحية فصالت وجالت في المتوسط وهيمنت على المشهد وتعرضت الثغور الإسلامية في شرق الأندلس لغارات ممنهجة[3].

زادت وتيرة حروب الاسترداد بعد إعلان البابا أوربان الثاني سنة 488هـ/1095م في مجمع كليرمون الحرب الصليبية الكونية ضد المسلمين، فوفد على اسبانيا أفواج جديدة من المقاتلين الفرنسيين لقتال المسلمين، وكانت تلك الحركة امتداد للحروب الصليبية التي بدأت في المنطقة منذ سقوط جزيرة سردانية في يد البابا والقوات النصرانية المشتركة الفرنسية الإسبانيةعام 406هـ/1015م[4].

إن الأجواء المشحونة بالفرقة والاختلاف بين ملوك الطوائف حالت دون ايقاض العزائم والهمم، ودون اتحاد المسلمين في هذا الصقع لاسترجاع طليطلة على الأقل، فلقد ذهبت تلك المدينة منذ ذلك الحين دون رجعة، ولم تنفع المحاولات الجادة من قبل المرابطين في استرجاعها، ولم تنجح كذلك معركة الزلاقة التي كبحت حركة الاسترداد المسيحي في الإبقاء على صفوف المسلمين متحدة، فبعد الاستعانة بيوسف بن

---

[1]- مصطفى اعديله: الفتح المرابطي، المجلة المغربية للدراسات الإسبانية، فاس، المغرب، ع2، 1992، ص 49.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 94-95.

[3]- أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص ص371-375.

[4]- مؤلف مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1998، ص 1، 17؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 328.

تاشفين على الفونسوا أستعان ملوك الطوائف بألفونسوا ضد المرابطين وهذا ما جعل ابن تاشفين يعجّل بعزل البعض ونفيه وقتل من قاومه، فأفل بذلك نجم أغلب ملوك الطوائف.

الفرع الثالث : الأحلاف العسكرية: يعتبر التحالف نوعا من أنواع الاستعانة بالآخرين تلجأ إليه الدول أو الأفراد عند الإحساس بأن قوته أو قوتها لا تكفي لإنجاز عمل معين، ولكن قد تكون الأسباب الداعية للتحالف غير ذلك.

تخبرنا المصادر التاريخية بأن العوامل التي دفعت بملوك الطوائف نحو إنشاء تحالفات معينة قد تنوعت من تحالف يفرضه الانتماء لعرق واحد إلى تحالف تحكمه المصالح المادية، إلى آخر يفرضه الحجم الصغير للدولة، لذلك لاحظنا أنواعا من الأحلاف بربري بربري وعربي عربي وعربي بربري وبربري مسيحي وعربي مسيحي.

لقد بدأت التحالفات بين القوى المتصارعة مبكرا، فقد عقد المستعين بالله مع شانجة قومس قشتالة حلفا للإطاحة بالمهدي الذي انتزى على منصب الخلافة بقرطبة، وإزاء هذا الوضع قام واضح العامري الذي كان من أتباع المهدي بالتحالف مع ريموند بوريل قومس برشلونة، وأخيه أرمنجول لمواجهة قوات المستعين التي أجبرت المهدي على الفرار إلى طليطلة[1].

وتحالف الصقالبة مع بعضهم مرارا لمواجهة الأخطار التي تتهدد كياناتهم، من ذلك التحالف الذي أنشأه لبيب الصقلبي صاحب طرطوشة مع مبارك العامري صاحب بلنسية من أجل مواجهة منذر بن يحي التجيبي، وقد استغل هذا الحلف في استرجاع طرطوشة من المنذر بعد انتزائه عليها، كما كان المقتدر بن هود حليفا لمقاتل الصقلبي[2].

وفي سنة 406هـ/1015م تحالف علي بن حمود مع زاوي بن زيري صاحب غرناطة وخيران الصقلبي صاحب المرية للزحف نحو قرطبة وأخذها من سليمان المستعين، وعلى الرغم من أن المستعين هو الذي عين عليا على هذه المناطق إلا أن وصول رسالة إليه من هشام المؤيد يخبره فيها أنه سيجعله وليا لعهده إذا تمكن من إخراجه من السجن وإعادته للحكم أسال لعاب علي وجعله يركب المخاطر ويعقد حلفا من أجل هشام[3]، أما يحي بن علي بن حمود، فقد تمكن من أن يجمع حوله جميع أمراء البربر تقريبا،

---

[1]- سحر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت)، ج1، التاريخ السياسي، ص 355.

[2]- كمال السيد أبو مصطفى: دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، ص 74، 78.

[3]- لويس سيكو دي لوثينا: المرجع السابق، ص ص 19-20.

وأن يجعل من نفسه زعيما للحزب الإفريقي، فصنع بذلك أعظم حلف في هذه الفترة، فصار يشكل خطرا حقيقيا على العباديين في اشبيلية[1].

وفي هذه الفترة كذلك عقد حبوس بن ماكسن علائق المودة والتحالف مع جميع جيرانه من البربر[2]، فاستغاث به إدريس المتأيد بعد توليه الحكم عندما سار ابن عباد إليه فأجابه مع زهير العامري وسار معهما البرزالي .

وفي شرق الأندلس بايع خيران الصقلبي المرتضى الأموي، ثم أقنع ملوك الطوائف بمبايعته، فبايعه منذر بن يحي صاحب سرقسطة، كما بايعه أهل شاطبة وبلنسية وطرطوشة وألبونت فكونوا بذلك حلفا من أجل القضاء على البربر الذين يحملونهم مسؤولية إخراج الفتيان العامريين من قرطبة، ومحاولة استئصالهم[3].

وتحالف بنوا برزال في مستهل أمرهم مع باديس بن حبوس، و بني جهور، وأبو نور بن أبي قرة زعيم بني يفرن، وقاموا باقتحام حصن من حصون بني دمّر بعد محاصرته أياما، فقتلوا الرجال عن آخرهم، وهتكوا الأعراض، وسبب هذه الهجوم على بني دمر كما هو ظاهر من كلام ابن حيان أن بني برزال كانوا يبحثون عن موطئ قدم لهم بالأندلس[4].

وعقد المعتضد بن عباد لاحقا حلفا مع أبي نور بن أبي قرة زعيم بني يفرن، ومحمد بن نوح الدمّري صاحب مورور، وعبدون بن خزرون صاحب أركش، من أجل التناصر والتعاضد في الحروب والشدائد، لكن ابن عباد كان هدفه من إنشاء هذا التحالف استدراج حلفائه ثم ابتلاعهم وهذا ماحدث بالفعل[5]، وتحالف البرزالي مع إدريس المتأيد وباديس بن حبوس لقتال محمد بن عباد عندما قام بغزو قرمونة، وعزم على ضمها لإشبيلية فقاتلوا معه ودحروا جنود ابن عباد وقتلوا ابنه إسماعيل[6].

واستغاث محمد بن يحي اليحصبي بصديقه وحليفه المظفر بن الأفطس عندما هاجمه المعتضد بن عباد فأغاثه، وفعله هذا يضاهي فعل عبد الملك بن جهور عندما استعان بالمعتضد بن عباد حليفه لرد

---

[1]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 30.

[2]- عنان: المرجع السابق، ص 126.

[3]- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1984، ص ص 61، 63.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 491.

[5]- ابن عذاري: المصدر نفسه، مج2، ص ص 492-493.

[6]- عنان: المرجع السابق، ص ص 38-39.

عدوان المأمون بن ذي النون الذي هاجم قرطبة وعزم على ابتلاعها، فأجابه المعتضد وأبطل عدوان المأمون[1].

فنحن نرى هنا بأن المصلحة هي التي تصنع هذه التحالفات، لذلك لا غرابة في أن يصبح عدو الأمس صديقا وحليف اليوم، وأن ينتقل من جبهة إلى أخرى لأن مصالحه مع الحلف الأول قد انتهت.

ويمكن اعتبار الحلف الذي دعا إليه المظفر بن الأفطس وتزعمه باديس بن حبوس، والمكوّن من أمير مالقة محمد بن إدريس ومحمد بن القاسم أمير الجزيرة الخضراء وإسحاق بن محمد البرزالي صاحب قرمونة وعبدون بن خزرون صاحب أركش ومحمد بن نوح صاحب مورور وفتح الله بن يحي صاحب لبلة[2] أقوى حلف بربري تشكل سنة 439هـ/1047م للزحف على اشبيلية بن عباد وتخريبها بسبب الخلاف بينه وبين المظفر بن الأفطس وهذا ما حدث[3].

واستعان المقتدر بن هود على قتال النصارى واسترجاع بربشتر بابن عباد ولم يستعن بالبربر لأنه من بني عمومته ولأن بين العرب والبربر خصومة قديمة تعود إلى زمن الفتح كما يرى عنان إضافة إلى عوامل أخرى كانت سببا في نفورهم من بعضهم[4].

فكل عنصر من العناصر البشرية المكونة للأندلس كان يحس بالغرابة من العناصر الأخرى لانعدام الثقة، وسعي كل عنصر وراء مصالحه الضيقة، ولو كان ذلك على حساب مصلحة الأمة، وقد وصل هذا التنافر حد التقاعس عن نصرة بعضهم لبعض ولو بالدعاء في أوقات المحنة[5].

وربما كان أكبر وأوضح مثال لتحالف ملوك الأندلس ضد بعضهم ما حدث سنة 435هـ/1043م، حيث أنقسموا إلى فريقين وحلفين الأندلسيون بقيادة سليمان بن هود الجذامي، والبربر بقيادة باديس بن حبوس كل فريق يزعم أنه يمثل الخلافة الشرعية، فالفريق الأندلسي منحاز لهشام المزعوم،

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 41؛ محمد عبده حتاملة حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 465.

[2]- لبلة (Niebla):كانت قاعدة كورة تسمى باسمها وهي على بعد خمسين كلم غربي اشبيلية وتتبع مديرية ولبة. المقري: المصدر السابق، مج1، ص 168.

[3]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص449؛ خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها دراسة سياسية اقتصادية (422-892هـ)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1425-1426هـ، ص 49.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 62.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص188-189.

والبربر لإدريس بن يحي بن علي بن حمود[1]، ولم يكن هدف الفريقين في الحقيقة شد عضد الخلافة، فالكل كان يتخذها مطية لتحقيق أطماعه، ومصالحه الضيقة.

وقد يجد البربري نفسه مجبرا على التحالف مع عربي أوصقلبي وليس مع بربري مثله والعكس كذلك لمصلحة تجمعهما كما فعل هذيل ابن خلف بن رزين صاحب السهلة عندما تحالف مع الموالي العامريين لرد محاولات منذر بن يحي التجيبي استتباعه لمملكته لأن الموالي كانوا من أعداء منذر[2].

ونشأ بين محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة وأبي القاسم محمد بن عباد تحالف فرضته حاجة كل واحد منهما إلى الثاني، فابن عباد تحالف مع البرزالي من أجل غزو الإمارات البربرية الأخرى وكذلك لاعتباره قرمونة الحصن الشرقي لإشبيلية، فسقوطها يشكل خطرا كبيرا، بينما لجأ البرزالي إلى هذا الحلف لحماية دولته من بني حمود الذين كانوا يرغبون في الاستيلاء عليها[3].

كما عقد المعتضد بن عباد أواصر الصداقة والمودة وتحالف مع أبي نور هلال بن أبي قرة اليفرني البربري، وكان يبعث بالهدايا إليه وإلى حاكم مورور وشدونة ليضمن حيادهم في المعارك التي تدور بينه وبين الحموديين وبني الأفطس حتى يتفرغ لهم[4]، ولأن المصالح الضيقة هي التي تدفع الحكام لعقد التحالفات فقد كان أحدهم يعقد حلفا مع حاكم وخصمه في آن واحد[5].

واستنجد زهير العامري عند مهاجمة أبي القاسم بن عباد له بحبوس بن ماكسن الصنهاجي، فسار إليه بجيشه وأنقذه من كارثة محققة، فاستجابة حبوس لزهير دليل على وجود تحالف ما بينهما يقضي بإنجاد أحدهما للآخر عند الضرورة، وتشير الدراسات إلى أن الحلف المبرم بين زهير العامري وحبوس بن ماكسن فرضه الخوف المشترك من ابن عباد الذي كانت له أطماع في أقاليمهما، وقد خرق زهير هذا الحلف بعد تولي باديس للحكم، حيث زحف نحو غرناطة لاحتلالها[6].

وبعد مقتل زهير وانتقال حكم المرية إلى عبد العزيز بن أبي عامر ثم إلى صهره معن بن صمادح، اجتمع هذا الأخير بباديس بن حبوس واتفقا على التحالف ضد الأخطار التي تتهددهما، ومات معن فخلفه ابنه المعتصم، فعمل على تجديد الحلف الذي أنشأه أبوه مع باديس، وقد انتفع المعتصم بهذا

1- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 455؛ رابح رمضان: المرجع السابق، ص 48.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص110؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 430.

3- صلاح خالص: المرجع السابق، ص 121.

4- عنان: المرجع السابق، ص 45.

5- محمد ماهر حمادة: المرجع السابق، ص 58.

6- حاج عبد القادر يخلف: المرجع السابق، ص 171.

التحالف عندما ثار ابن شبيب عامله على لورقة على المعتصم، وعزم على الاستقلال بها، فجهز المعتصم جيشا لإخضاعه، وطلب المدد من باديس فأمده، ولم تكن هذه هي المرة الأولى والأخيرة التي أمد فيها باديس المعتصم بقطعات من جيشه بل تكرر ذلك كثيرا، إلا أن هذا الحلف بينهما لم يدم طويلا، فقد انقطع حبله عندما تواطأ المعتصم مع يوسف بن النغريلة على احتلال غرناطة[1]، وهذا ما يؤكد لنا بأن الكثير من التحالفات بين ملوك الطوائف تبرمها وتنقض عراها المصالح التي تتبدل وتتغير من حين لآخر.

وعندما علم باديس بن حبوس بما كان يدبره له المعتصم بن صمادح مع يوسف بن النغريلة حرك جيوشه وقرر معاقبته، فأرسل إلى المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة يطلب منه المدد لاسترجاع الحصون التي أنتزعت منه على أن يهب للمأمون من أراضيه ما تقر به عينه، فهذا الفعل يدل على وجود حلف مسبق بين المأمون وباديس بن حبوس يقضي بإنجاد أحدهما للآخر عند الحاجة، وقد استمر هذا الحلف بينهما إلى زمن القادر بن ذي النون، وتشير الأبحاث إلى أن سبب هذا الحلف بينهما هو الاعتداءات المتكررة لبني عباد عليهما[2].

وتوحي الرسالة التي كتبها ابن عبد البر على لسان المعتضد بن عباد إلى ابن هود يبث فيها شكواه له من المديرين لشؤون قرطبة الذين أججوا نار الفتنة فيها، وأشاعوا في الناس أن المعتضد قد عزم على غزوها، ويطلب رأيه في طريقة الرد عليهم بأنه يعتبر ابن هود حليفا استراتيجيا له، وهذا ما تنطق به العبارات التي خاطبه بها[3].

بل إن ابن بسام يخبرنا صراحة بأن ابن عباد له حلفاء فبعد قتله لابنه إسماعيل كتب الرسائل إليهم يخبرهم فيها بالحادثة فقال: " وخاطب المعتضد يوما جماعة من حلفائه "[4]، وكتب مجاهد العامري إلى المظفر ابن الأفطس رسالة يبين له فيها أن الظروف المتشابهة التي يمر بها كل منهما في هذه الفترة تقتضي منهما أن يوطدا العلاقات بينهما وأن يتحالفا[5]، واستغاث لبيب الصقلبي بمبارك العامري، وتحالف معه لرد عدوان منذر بن يحي التجيبي الذي زحف بقواته على طرطوشة وعزم على ضمها إلى سرقسطة، فأغاثه وسار معه في خمسمائة جندي من خيرة جنوده وهزموه هزيمة منكرة[6].

1- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403-483هـ، ص ص 134-135؛ حاج عبد القادر يخلف: المرجع السابق، ص ص174-175، 176.

2- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة، ص 145.

3- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 135.

4- ابن بسام: نفسه، ق3، مج1، ص 148 ؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 476.

5- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 166.

6- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 208؛ عنان: المرجع السابق، ص 219.

أما المأمون بن ذي النون فقد عمد إلى التحالف مع المعتضد بن عباد والعمل على تقوية أواصر الصداقة معه من خلال اعترافه بالدعوة الهشامية التي دعى إليها ابن عباد على أن يعينه في حربه لسليمان بن هود فقبل المعتضد[1]، وتحالف الفتيان العامريون في شرق الأندلس ضد عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وجعلوا يتربصون به الدوائر وهذا ما جعله يمتنع عن إرسال المدد من الجند لصهره المأمون بن ذي النون عندما طلب منه ذلك[2].

وبعد شعور الإمارات المتصارعة بأن قوتها قد استنزفتها الحروب عمدت إلى التحالف مع النصارى ضد خصومها من المسلمين، فعقد عبد الله بن بلقين عن طريق المأمون بن ذي النون حلفا مع الفونسوا السادس لاسترجاع جيان من المعتمد بن عباد مقابل جزية سنوية، وسلك المعتمد المسلك ذاته فتحالف مع الفونسوا السادس واتفقا على احتلال غرناطة على أن تكون البلاد للمعتمد والذخائر لألفونسوا، وتحالف الوزير ابن عمار للاستيلاء على مرسية مع كونت برشلونة رامون برنار مقابل عشرة آلاف مثقال من الذهب[3].

كما تحالف المستعين بن هود مع الكمبيطور على غزو بلنسية على أن تكون الأسلاب للطرف النصراني والمدينة للمستعين، وكان القادر بن ذي النون قد علم قبل ذلك برغبة المنذر بن هود في غزو بلنسية فاستعان بألفونسوا السادس وبالمستعين بن هود لرد العدوان عنها، لكن المستعين كان هو الآخر يضمر غزوها، ولما علم القادر بنية المستعين والكمبيطور اتصل بهذا الأخير واستماله بالهدايا والأموال دون علم المستعين، ولما علم بخيانته له عقد حلفا مع برنجير كونت برشلونة الذي كان عدوا للكمبيطور[4].

وفي الحقيقة لم يتوان ملك من ملوك الطوائف عن التحالف مع ملوك النصارى إما ضد إخوانهم من أجل غزوهم أو رد عوانهم، أو ضد ملك نصراني آخر يسعى لاحتلالهم وانتزاع اراضيهم، ولو تتبعنا هذه التحالفات مع النصارى فلن تتسع لها اوراق هذا البحث.

لكن لا يجب أن يفوتنا هنا ذكر الحلف النصراني النصراني المكون من القوات الإيطالية والإفرنجية وقوات من سردانية ضد مجاهد العامري وإجباره على مغادرة سردانية والقضاء على الجزء الاكبر من أسطوله في معركة فاصلة[5].

---

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 498؛ عنان: المرجع السابق، ص 99.

[2]- عنان : المرجع نفسه، ص 101.

[3]- عنان: نفسه، ص 63.

[4]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 98؛ محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص ص 106-107.

[5]- عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص 147 وما بعدها.

وتحالف الفونسوا السادس مع مع جمهوريتي جنوة وبيزة من أجل مهاجمة بلنسية، وكان الاتفاق يقضي بمهاجمة أساطيل بيزة وجنوة لها بحرا ومهاجمة الفونسوا لها بحرا، لكن الهجوم لم يتم بسب تعرض أراضي الفونسوا للهجوم من قبل الكمبيطور[1]، أما علي بن مجاهد العامري فقد أنشأ حلفا عن طريق تزويج بناته لعدد من ملوك الطوائف حتى لا يخذلوه في الأوقات الحرجة فكان من أصهاره المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح ، غير أن هذا الحلف لم يكن مفيدا إذ لم ينجده أحد من هؤلاء عندما اقتحم عليه والد زوجته المقتدر بالله بن هود دانية ، وهي الغاية نفسها من تزويج المأمون بن ذي النون ابنته لعبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر، وتزويج ملك بلنسية أبي بكر بن عبد العزيز ابنته لأحمد المستعين بن يوسف المؤتمن بن هود[2].

وآخر ما يمكن أن نذكره من هذه الأحلاف ما قام به عبد الله بن بلقين حيث نزع يده من يد يوسف بن تاشفين، وفضل مناوأته فتحالف مع الفونسوا السادس وتصالح معه وبعث إليه بالأموال الكثيرة حتى يستعين به على حرب ابن تاشفين، وكان هذا الحلف سببا في زوال ملكه إلى الأبد[3].

[1]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 352.

[2]- عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص 191؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص ص 468-469؛ محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 79؛ فايزة بنت عبد الله الحساني: المرجع السابق، ص 125.

[3]- ابن أبي زرع:الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، (د.ط)، 1972، ص ص 153-154.

المبحث الثاني: الآثار الاقتصادية للصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف

سيتم تحت هذا المبحث تتبع آثار الصراعات العسكرية على النظامين المالي والنقدي وعلى البنية التحتية وقطاعات الإنتاج.

المطلب الأول:أثر الصراعات العسكرية على النظام المالي والنقدي

الفرع الأول: الموارد المالية لدويلات الطوائف: وأعني بالموارد المصادر التي تدر الثروة والأموال على الدولة، تحت هذا العنوان سأتتبع مصار هذه الثروة في عصر دويلات الطوائف.

لقد لفت انتباهي وأنا اتتبع مصادر المال في دويلات الطوائف التركيز الكبير لهذه الدويلات على الضرائب لتغطية نفقات الحروب المتتالية وتلبية حاجات العائلات الحاكمة، وينبؤك طلب الفقهاء في الأندلس من أمير المرابطين عند جوازه لأول مرة لدحر النصارى الضغط على ملوك الطوائف من أجل رفع المكوس على الناس بأن هؤلاء الملوك قد أثقلوا كاهل الشعب بالضرائب، وهي كثيرة ومتنوعة إذ لا يكاد يسلم شيء مما في أيدي الرعية من ذلك، فاستجاب يوسف لطلب الفقهاء وأرغم ملوك الطوائف على إلغاء الضرائب لكنهم أعادوها مباشرة بعد مغادرته للأندلس وعودته إلى العدوة المغربية[1].

إلا أن الاعتماد الكبير من قبل ملوك الطوائف على الضرائب لا يعني أنه لا توجد موارد أخرى لهذه الدويلات، فالقراءة الفاحصة المتأنية للمصادر التي أرخت لهذه المرحلة تحيلنا على مصادر أخرى للثروة، وقد رتبت موارد دويلات الطوائف على النحو التالي :

أولا: الغنائم:تعتبر موردا مهما من موارد بيت المال في عصر ملوك الطوائف و هذه الغنائم على نوعين نوع يغنمه ملوك الطوائف من حروبهم ضد النصارى فقد ذكر البكري أن المقتدر ابن هود عندما هزم النصارى في بربشتر، وأخرجهم منها سنة 457هـ/1065. استحوذ على أموالهم ونسائهم وأدخل إلى سرقسطة منها ما يقارب ألف سبية وقريبا من ألف فرس وألف درع وأموالا وأثاثا[2].

ونزلت قوات مجاهد العامري في سردانية[3] ،فغنم وسبى ما لا حصر له حتى كسد السبي في عصره وخست أثمانه، ورضخ حكام الأقاليم بها لمجاهد العامري، وتعهدوا بدفع الجزية[4]، كما أن المعارك

---

[1]- ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 203.

[2]- البكري: المصدر السابق، ج2، ص 910؛ ابن عذاري : المصدر السابق، ج2، ص 461.

[3]- سردانية: جزيرة على طرف من البحر الشامي، وهي كبيرة النظر كثيرة الجبال قليلة المياه وفيها ثلاث مدن الفيصنة، وهي مدينة عامرة. الحميري: الروض المعطار، ص 314.

[4]- عصام سالم سيسالم:جزر الأندلس المنسية، ص 145.

البحرية التي تخوضها أساطيل دانية والجزائر الشرقية تمثل موردا هاما لخزينة الدولة بما تغنمه من النفائس والمغانم المختلفة ومنها كانت تدفع أجور العاملين في البحرية الإسلامية في هذه المناطق[1].

وأما النوع الثاني فما يغنمه ملوك الطوائف من بعضهم البعض من ذلك ما فعله المقتدر ابن هود مع علي ابن مجاهد إقبال الدولة حيث أخرجه من بلاده وحاصره بمدينة دانية حتى استسلم، وسلم له أملاكه كلها سنة 468هـ/1075م، وكانت أمولا ضخمة[2].

وكذلك فعل خيران الصقلبي عندما زحف بجيوشه على المرية سنة 405هـ/ 1014م، فتغلب عليها، وقتل أفلح الصقلبي وولده وغنم ما فيها من مال وعتاد[3].

وهذا ما حدث أيضا للجيش الذي قاده المرتضى الأموي لقتال زاوي بن زيري في غرناطة سنة 409هـ/1018م، فابن حيان يخبرنا بأن هذا الجيش في البداية كان متجها لغزو القاسم بن حمود في قرطبة لكنه قرر أن يعرج على غرناطة وأن يبدأ بها، وكان القائمون عليه متأكدون من النصر على خصومهم، ودخول قرطبة بكل سهولة لذلك لم يترددوا في حمل كل ما يستطيعون حمله من النفائس والذخائر، وخرج معهم في هذه الحملة المشئومة التجار والأعيان، ففقد الجميع هذه النفائس والأموال بعد الهزيمة وصارت في ملك البرابرة[4].

وفي مالقة اخترقت جيوش باديس بن حبوس عساكر المعتضد بن عباد، فأمعنت في قتلهم، وأسرت عددا منهم ليس باليسير، فامتلأت أيديهم يومئذ بالغنائم من الأموال والسلاح والمتاع[5].

ثانيا: ضريبة الثغور والدروب[6]: وهذا النوع من الضرائب المستحدثة حسب ما فهمته يخصص لتأمين الطرق والسالك وكذا المناطق الحدودية التي يتوقع أن يدخل منها العدو، فيقوم الحكام بجمع المال من الرعية لدفع أجور القائمين على تامين المسالك والحدود وهذا كذلك من مقتضيات الحرب وآثارها السلبية.

[1]- عصام سالم سيسالم : المصدر السابق، ص 213.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 461-462 ، ابن الخطيب: أعمال الأعلام :ج2، ص 206.

[3]- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص22.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 454.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 50؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 494-495؛ خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: المرجع السابق، ص 56؛ محمد القاضي: رندة الإسلامية أمنع حصون الأندلس الجنوبي، المجلة العربية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1433هـ، ص 31.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 335.

وإلى جانب هذه الضرائب التي كانت تدفع بشكل منتظم يقوم بعض الحكام بشكل طارئ ومن حين لآخر بجمع الأموال من جميع أفراد الرعية لمواجهة بعض المستجدات والتحديات الأمنية الطارئة مثلما فعل محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي عندما استعان بالنصارى على قتال البربر وعددهم يومئذ سبعة آلاف، فجمع المال من الرعية ليدفعه إليهم نظير مساندتهم له والقتال إلى جانبه[1].

لم يكن هذا النوع من الضرائب معروفا لدى الأندلسيين من قبل، إذ كانت الحملات العسكرية في عصر الخلافة تمول من الأموال التي تغنمها الجيوش الإسلامية من جبهات القتال، ومن عائدات التجارة وغيرها من الموارد المعروفة لدى الدول، أما في عصر الطوائف فنتيجة للصراعات المزمنة لم تعد أموال الخزينة كافية لتمويل الحملات العسكرية لذلك كان حكام الطوائف يلجأون إليها من حين لآخر وهذا ما جعل الشعب الأندلسي ينكرها، فعندما فرضها عبد الله بن بلقين على أهل **اليسانة**[2] –وكانوا يهودا– أنكروها ورفضوا أداءها[3]، فالصراع العسكري في معركة الزلاقة أدى إلى استنزاف قوة غرناطة، فلجأت إلى هذا الإجراء حتى تقف على قدميها، وتستعين به على تجهيز عسكرها لمقاومة ما هو آت، لكن عبد الله أثار غضب الطائفة اليهودية في هذه المدينة، وكاد هذا التصرف أن يؤدي إلى ثورة مسلحة.

ثالثا:ضريبة الرؤوس[4]: ويسميها ابن حزم القطيع ومعناها الضريبة التي لا مفر منها تدفع عن كل شخص صغيرا كان أم كبيرا، وقد وصفها ابن حزم بأنها مشابهة تماما للجزية المفروضة على اليهود والنصارى، وقد سميت بالضريبة التي لا مفرَّ منها لأنها كانت تؤخذ بالقوة والعنف، وقد طالت هذه الضريبة كما صرح ابن حزم كل فرد وكل رأس من الغنم والبقر وكل خليَّة من النحل[5]، وما من سبب يدعوا إلى استحداث هذا النوع من الضرائب وإلزام المسلمين بها ظلما وعدوانا سوى حاجة ملوك الطوائف إلى المال لتمويل حملاتهم العسكرية، فهذا من الآثار السلبية للصراعات العسكرية في هذه الفترة، وهذه الجزية التي أُلزم بها المسلمون في هذه الفترة كالجزية التي كان ملوك الطوائف يحصّلونها من اليهود والنصارى الذين يعيشون بينهم، فقد

---

[1]– ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 109

[2]– من أعمال قرطبة بينهما أربعين ميلا. ينظر المقري:المصدر السابق، مج1، ص 165، 457.

[3]– عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 131؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403–483هـ، ص 175.

[4]– يطلق لفظ ضريبة الرؤوس على المقدار من المال الذي يدفعه غير المسلمين الذين يعيشون في ديار الإسلام لبقائهم على دينهم، وتؤخذ من الرجال الأحرار العقلاء دون النساء والصبيان والمجانين والعبيد، وتسقط عنهم باعتناقهم الإسلام. ينظر الماوردي: الأحكام السلطانية، تحقيق أحمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ط2006، ص 221، 223.

[5]– ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص175، 176؛ المقري المصدر السابق، مج4، ص 446؛ تواتية بودالية: البيئة في بلاد الأندلس عصري الخلافة وملوك الطوائف، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي، غير منشورة، جامعة وهران، 2013–2014م، ص 132.

اتخذ اسماعيل بن النغريلة بعد توليه الوزارة في دولة باديس بن حبوس عمالا يقومون بتحصيلها إلى جانب ضرائب أخرى، ولما خلفه ابنه اسماعيل فعل مثله[1].

رابعا: العشور: ويطلق عند الفقهاء على معنيين: الأول عشور الزكاة وهي ما يؤخذ في زكاة الزروع والثمار، والثاني ما يفرض على الكفار في أموالهم المعدة للتجارة إذا انتقلوا بها من بلد إلى بلد في دار الإسلام[2]، ففي هذه الحقبة لم يقبض العشور من تجارات غير المسلمين حصرا بل طال ذلك تجارات المسلمين وكل من يقبل بسلعة لبيعها في الأندلس فالتجار الأجانب الذين كانت سفنهم التجارية ترسوا على المرافئ الأندلسية كانوا يدفعون نسبة مئوية لقاء السماح لهم بإنزال سلعهم وبيعها للتجار المحليين، وكذا من يأتي منهم عبر الطرق البرية إلى دويلات الطوائف، وقد تشدد ملوك الطوائف في ذلك لأن جزءا من هذه الأموال كان يخصص لدفع الجزية لملوك النصارى[3].

ويذكر ابن حزم بأن حكام صنهاجة كانوا يجبرون الصناع والفلاحين الذين يعيشون في المناطق الخاضعة لحكمهم على دفع الثلث وأحيانا النصف للحاكم، وهذا حسب رأي ابن حزم غصب، وأخذ لأموال الرعية بغير وجه حق[4]، وقد تولى جمع الضرائب في مملكة غرناطة اسماعيل ابن النغريلة اليهودي[5].

إننا ونحن نقلب صفحات المصادر الأندلسية لم نعثر على حاكم من حكام دويلات الطوائف لم يجمع الضرائب من الرعية ، فأبوا مروان بن حيان يخبرنا بأن مبارك ومظفر الصقلبيين بلغت جبايتهما من بلنسية وشاطبة في الأشهر الأولى من حكمهما مائة وعشرين ألف دينار في كل شهر يأخذونها بالقوة والعنف من كل صنف من أصناف الرعية[6].

خامسا:الخراج[7]:كان الخراج قبل هذا التاريخ موردا من موارد بيت مال المسلمين يؤخذ من غلات غير المسلمين، إلا أن حاجة ملوك الطوائف للمزيد من المال جعلتهم يمدون أيديهم إلى غلات المسلمين ليأخذوا منها جزءا، وهذا ما جعل الكثير من الفلاحين في مناطق مختلفة من الأندلس يهجرون أراضيهم،

---

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 488؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج1،ص 438.

[2]- نزيه حماد: معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، دار البشير، جده، السعودية، ط1، 2008، ص 317.

[3]- كونستيبل: المرجع السابق، ص199؛ محمود حسين شبيب هياجنة: الوضع الزراعي في الأندلس منذ الفتح حتى سقوط دولة المرابطين، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1989، ص223.

[4]- ابن حزم:التلخيص، ج3، ص 177.

[5]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 32.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص15-16؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 415 ،417.

[7]- يطلق لفظ الخراج على الضرائب التي تفرض على الخارج من الأرض من الغلات والمحاصيل، ويختص بغير المسلمين.ينظر الموسوعة الفقهية، ج30، ص 102.

ففي بلنسية وشاطبة بالضرائب رحلوا الفلاحون وتركوا قراهم، فقام العامريان مبارك ومظفر بالاستيلاء عليها ومنحوها لمن يعمل فيها بنصيب مما يخرج منها، فعظمت جبايتهما، وتضخمت أموالهم، ومنهم من رضي أن يعمل في أرضه التي انتزعت منه مقابل شيء يسير من غلتها[1].

وكان هدف الحكام من فرض هذه الضرائب هو تحقيق الثراء الفاحش، وملء خزائنهم بالمال، والعيش في بحبوحة، ولم يكن يردعهم عن ذلك شيء، وهذا ما صرح به ابن حزم في معرض شكواه إلى الله من ملوك الطوائف حيث قال:"...وبجمع أموال ربما كانت سببا في انقراض أعمارهم، وعونا لأعدائهم عليهم"[2].

سادسا:التجارة البحرية الرسمية:وأعني بها هنا التجارة البحرية التي تمارسها دويلات الطوائف المشرفة على البحر أو المحيط فهذه التجارة قد شكلت موردا هاما لخزينة الدولة، فمملكة دانية مثلا التي اشتهرت بنشاطها التجاري خاصة في عهد علي إقبال الدولة امتلأت خزائنها بالمال لما لعلي من خبرة عالية في إدارة النشاط التجاري وهمة عالية في تحصيل المال وتكديس الثروة[3]، ومع ذلك يجب الاعتراف بأن الصراعات العسكرية قد تسببت في انكماش النشاط التجاري ما أدى إلى تضاؤل الأموال التي تجبى من هذا المورد المهم[4].

لقد تنوعت الضرائب في عصر الطوائف وكثرت حتى عجز المواطنون عن أدائها وهذا ما جعل ابن سكان بلنسية يعترضون طريق مبارك العامري عندما خرج للنزهة يتوسلون إليه أن يخفض من قيمة الضريبة التي فرضها عليهم[5].

سابعا:تركة الخلافة الأموية:يرى أمحمد بن عبود بأن دويلات الطوائف قد ورثت من الخلافة الأموية ثروة ضخمة تراكمت في خزانة الدولة على مدى عقود من الزمن، وتختلف هذه الثروة من مقاطعة إلى أخرى حسب الموارد الموجودة في كل مقاطعة[6]، فابن عبود يشير هنا إلى تركة الخلافة الأموية المالية، فلا شك بأن خزائن الأموال كانت ممتلئة بالمال لأن الأوضاع المالية والاقتصادية للأندلس قبل سقوط الخلافة كانت جيدة، ولا شك كذلك بأن ملوك الطوائف قد استفادوا من هذه البحبوحة المالية بشكل أو بآخر وبدرجات متفاوتة.

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 15-16.

[2]- عنان: المرجع السابق، ص 419.

[3]- ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ج2، ص 206؛ ابن سعيد المغربي:المغرب في حلى المغرب، ج2، ص 401.

[4]- كونستييل:المرجع السابق، ص 50.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 20 ؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 417.

[6]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 95.

هذه هي أغلب موارد دويلات الطوائف فيما أضاف أحد الباحثين موارد أخرى كالزكاة وأرض الأخماس والإقطاعات، ولم اعثر فيما قرأت على نصوص تتحدث عن ذلك[1].

الفرع الثاني: **نفقات دويلات الطوائف**: وأعني بها السبل والقطاعات التي بذل فيها ملوك الطوائف الأموال التي اجتمعت عندهم وقد قادني البحث عنها إلى ما يلي:

أولا:تمويل الحملات العسكرية: بما أن هذا العصر قد طغت عليه الصراعات العسكرية فقد خصصت الدويلات ميزانية ضخمة للتمويل العسكري سواء تعلق الأمر بشراء السلاح أو العبيد من كل صنف أو استئجار المرتزقة من النصارى وهذا ما فعله أبو القاسم بن عباد بعد توليه الحكم سنة 414هـ/1023م[2]، وقد حذا ملوك الطوائف حذو ابن عباد في اتخاذ الجند، لكن الجميع استعانوا بالمرتزقة من النصارى الذين يقاتلون إلى جانب من يدفع أكثر، لذلك كانت هذه الجيوش كما يرى بعض الباحثين أقرب إلى العصابات والمليشيات منها إلى الجيوش النظامية، وخاصة الدويلات التي توسعت كثيرا كإشبيلية[3].

ويعتقد بعض الباحثين بأن النواة الأولى لجيوش بعض دويلات الطوائف كانت من المرتزقة، فالقاضي ابن عباد عندما استقل بإشبيلية سنة 414هـ/1023م كون جيشا أغلبه من المرتزقة والعبيد القادمين من المغرب وإفريقيا، إلى جانب النصارى والبربر، وقد كان السيد الكمبيطور في فترة من الفترات قائدا لجيوش المقتدر بن هود، فيما كوَّن القاسم بن حمود جيشا من السودان[4].

لقد بدأت عملية الاستنزاف لأموال دويلات الطوائف مبكرا أي بعد الاستقلال بهذه الأقاليم مباشرة، لأن الصراع بينها قد بدأ مبكرا كذلك، ولأن جيوشها لم تكن كافية لإلحاق الهزيمة بالخصم فقد بدأت عملية استئجار قطاعات من الجيوش النصرانية كذلك مبكرا، وعلى ذكر الاستئجار يذكر أرشيبالد لويس، بأن ملوك الطوائف وغيرهم من رجال الأرستقراطية العربية يفضلون استئجار من يقاتل مكانهم على الخروج إلى ساحات القتال، ولا شك بأن بعضهم يفعلون ذلك من خزينة الدولة[5].

1- يوسف أحمد حوالة: المرجع السابق، ص ص 370-373.

2- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 240؛ عبد الله عنان: المرجع السابق، 35؛ يوسف حواله: المرجع السابق، ص83.

3- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 281؛ شاهر عوض الكفاوين: المقامات الأندلسية في عصري الطوائف والمرابطين، رسالة ماجستير في اللغة العربية غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، 1400-1401هـ، ص 93؛ محمد بشير العامري: المرجع السابق، ص 207؛ أمحمد بن عبود:التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص66.

4- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية قاعدة أسطول الأندلس، ص 64؛ أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 108؛ أمحمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص 51؛ رابح رمضان: المرجع السابق، ص 50؛ فايزة بنت عبد الله الحساني: المرجع السابق، ص 121.

5- أرشيبالد لويس:المرجع السابق، ص345.

لقد وصف ابن الكردبوس استعانة ملوك الطوائف بجيوش الفونسوا السادس مقابل مبالغ خيالية من المال بقوله:" وصادف أيام ملكه نفاقا كثيرا بين المسلمين، واختلافا عظيما، وضعف بعضهم عن بعض إلا بمعاونة الروم، فبذلوا للفنش ما يحبه من الأموال ليعينهم"[1]، إن عبارة "ما يحبه من الأموال" تدل بوضوح لا خفاء فيه على أن الفونسوا السادس كان يطلب من ملوك الطوائف مبالغ تكلُّ الأيادي عن حملها لقاء إرسال قطاعات من جيشه معهم للإغارة على خصم من خصومهم المسلمين طبعا.

فالمعتمد بن عباد مثلا قام بإنشاء حلف مع الفونسوا عن طريق وزيره ابن عمار لغزو غرناطة ودفع مقابل ذلك 50000دينار ذهبي، وعندما عزم على غزو "مرسية" عن طريق وزيره ابن عمار كذلك استعان بفرسان برشلونة ودفع لحاكمها " رامون برنجير" عشرة آلاف مثقال من الذهب[2]، وفي عام 445هـ/1053م قرر فرناندوا غزو مدينة شنترين[3] فتهيأ المظفر بن الأفطس للقائه وتم اللقاء في نهر "التاجه" ففاوضه المظفر ابن الأفطس على الرجوع مقابل 5000 دينار يدفعها له كل سنة[4].

وفي الحرب التي دارت بين يحي المأمون بن ذي النون وسليمان بن هود بسبب استيلاء هذا الأخير على وادي الحجارة[5]التي كانت ملكا للمأمون سنة 436هـ/1044م استعان كل واحد منهما لمحاربة الثاني بملوك النصارى وبذلوا لهم الأموال والتحف النفيسة[6]، وأرسل فرناندوا الأول إلى عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر سرايا من المرتزقة لرد عدوان مجاهد العامري عن بلنسية عام 434هـ/1042م[7]، ولا شك بأن فرناندوا قد ذلك قد تم نظير أموال ضخمة تسلمها من مجاهد.

واستعان القادر بن ذي النون بألفونسوا السادس للعودة إلى طليطلة بعد فراره منها ووعده بأن يدفع له أموالا طائلة لقاء ذلك، فلما مكنه الفونسوا من العودة إلى طليطلة رغم أنف سكانها، طاف

---

[1]- ابن الكردبوس: الاكتفاء، ص 1229.

[2]– عنان: الرجع السابق، ص 65.

[3]– شنترين بالأندلس مدينة معدودة في كور باجة.ينظر الحميري: الروض المعطارفي خبر الأقطار، ص 346.

[4]- أنظر ابن الكردبوس: الإكتفاء، ص ص 1229-1230.

[5]- مدينة تعرف بمدينة الفرج بالأندلس وهي بين الجوف والشرق من قرطبة بينها وبين طليطلة خمسة وستون ميلا.الحميري: الروض المعطار، ص 606.

[6]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 498-499؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 177، عنان : المرجع السابق، ص ص 98-99.

[7]- محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 62.

على الرعية وجمع له أموالا عظيمة أضافها إلى أمواله الخاصة ثم أعطاها له، وما زال يدفع له حتى فرغت خزائنه تماما وعجز عن دفع الجزية[1].

لقد كان ملوك الطوائف يوزعون المال الجسيم على جنودهم لا سيما عند الخروج إلى الغزو ضمانا لولائهم وخوفا من قعودهم، وهذا ما فعله باديس بن حبوس عندما هم بالخروج لاسترداد وادي آش[2] التي كان المعتصم بن صمادح قد انتزعها منه، فقد أنفق على جيشه ستة بيوت من المال، وهذا شيء مثير للدهشة[3].

وكذلك عندما رغب الناية في الاستيلاء على بياسة[4]، وقد كلفت هذه الحملة خزينة الدولة أموالا ضخمة دون تحقيق الهدف المرجو منها فاضطر باديس إلى قطع التمويل[5]، وهكذا هي الحملات العسكرية تحتاج إلى نفقات ضخمة وعصر ملوك الطوائف هو عصر الحملات العسكرية لذلك انفقت فيه أموال لا حصر لها، ولما كان المال سلاحا فعالا فقد استمال الحكام به أقواما وصرفوا به عن أنفسهم وبلدانهم شر أقوام، والقارئ لتاريخ الطوائف يجد بأن ذلك قد تكرر كثيرا.

ويدخل ضمن الأغراض العسكرية البحتة تحصين المدن بالأسوار العالية ووبناء الحصون والقلاع وقد كلف ذلك خزينة الدولة أموالا جليلة[6]، ولا شك بأن الاعتداءت المزمنة المتكررة والغارات الدائمة التي هيمنت على حياة هذه الممالك الطائفية هي التي أرغمت الملوك على مثل هذه الإجراءات الوقائية.

ثانيا: الإطاحة بالإنفصاليين:كما استعملت أموال بيت المال في دول الطوائف للإطاحة بالإنفصاليين، أذكر على سبيل المثال لا الحصر ما فعله الناية وزير باديس حيث دفع المال للمغاربة في جيان لإثارتهم على

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 162، 163؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 179؛ دوزي: المرجع السابق، ص 271.

[2]– وادي آش:أو وادي الآشات وهي مدينة جليلة قد أحدقت بها البساتين والأنهار خص الله أهلها بالأدب وحب الشعر تقع على نهر ينحدر من جبل شلير عند السفح الشمالي لجبل الثلج (سيرا نيفادا) قريبا من غرناطة على بعد 35كلم إلى الشمال الشرقي منها. ينظر المقري: المصدر السابق،ج1، ص 149.

[3]– عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 56؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق، عمان، ط1، 1997، ص 34؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403–483هـ، ص 137.

[4]– بياسة BEAZA: بينها وبين جيان عشرون ميلا وتطل على النهر الكبير. المقري: المصدر السابق، مج1، ص 165.

[5]– عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص ص 56–63.

[6]- إحسان عباس: المرجع السابق، ص7.

ماكسن بن باديس الذي استبد بجيان وحكمها بعيدا عن الحكومة المركزية في غرناطة، وقد نجح النابة في الإطاحة به فرجعت جيان تحت حكم باديس[1].

ثالثا: إخماد الفتن والثورات الداخلية:كما قام ملوك الطوائف باستعمال أموال الدولة لإخماد الفتن والثورات الداخلية، من ذلك ما فعله القادر بن ذي النون عندما ثار عليه أهل طليطلة بسبب قتله لوزيره ابن الحديدي، حيث أرسل رسالة إلى الفونسوا السادس يطلب منه فيها أن يوجه إليه عسكرا لإخماد تلك الثورة فأجابه قائلا:" وجه إلي مالا إن كنت تريد الدفاع عن أنحائك، وإلا سلمتك لأعدائك"[2].

رابعا:**ضريبة الباريا**:وهناك نوع آخر من الأموال كانت تدفع للنصارى لكن هذه المرة ليس مقابل إمداد الملوك المسلمين المتصارعين على مناطق النفوذ بالجيش بل كانت ضرائب يدفعها هؤلاء الملوك المتناحرون لملوك النصارى مقابل الكف عن غزو أراضيهم، وهي إتاوات نقدية سنوية، وقد عرفت هذه الضريبة باسم (باريا paria)، وكانت دول الطوائف المتاخمة للمالك النصرانية كطليطلة وبطليوس وسرقسطة مجبرة على دفعها في العام عدة مرات بينما تدفعها الإمارات التي لا تشترك في الحدود مع الممالك النصرنية مرة واحدة في العام[3]، فدفع عبد الله بن بلقين سنة (483هـ/1090م) لألفونسوا السادس ملك قشتالة جزية سنوية قدرها ثلاثون ألف دينار، وزعم –لإبعاد التهمة عن نفسه- أنه دفعها من ماله الخاص ولم يجمع من الرعية دينارا واحدا، كما دفع أهل قونكة مبلغا كبيرا من المال لسانشوا راميرز ملك أراغون فانصرف عنها وتركها، بينما أفرغ المقتدر بن هود جيوب الرعية من المال لشراء سلم النصارى[4].

يرى كل من ابن الكردبوس، وأمحمد عبود بأن الممالك النصرانية في هذه الفترة قد اعتمدت برنامجا دقيقا، وخطة محكمة لاستنزاف خزائن ملوك الطوائف وإفراغها من الأموال تقوم هذه الخطة على إلزام ملوك الطوائف بدفع جزية منتظمة وضخمة، وما قيام المعتمد بن عباد بدفع الجزية إلى الفونسوا من دراهم مغشوشة إلا دليل على خواء الخزائن من المال[5]، وتشير دراسات أخرى بأن بعض ملوك الطوائف عندما فرغت خزائنهم من الذهب أواخر القرن الخامس الهجري صاروا يدفعون الجزية من السلع التجارية وهذا ما حدث في المرية وسرقسطة[6].

---

[1]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص ص 60-61.

[2]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 82.

[3]- أوليفيا ريمي كونستيبل: المرجع السابق ، ص ص43- 44.

[4]- عنان:المرجع السابق، ص 108؛ حميدة منصور حسن أبو شعراية: التاريخ السياسي والحضاري لمملكة بني هود في سرقسطة (431-503هـ/ 1039-1110م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة بنغازي، 2011-2012، ص 75.

[5]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 82؛ أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص90 ؛ وردة العابد: المرجع السابق، ص 63.

[6]- كونستيبل: المرجع السابق، ص 97.

وقد يدفع سكان إقليم مسلم في دويلات الطوائف أموالا جسيمة لحاكم مسلم حتى لا تتعرض أراضيهم للغارات، وهذا ما فعله سكان مالقة مع سليمان المستعين في مستهل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حتى يوقف أتباعه من البربر عن مهاجمتهم[1].

ناهيك عن المؤن التي تمول بها جيوش النصارى من قبل ملوك الطوائف إما لكون ذلك من مقتضيات العقود التي أبرمت بين الطرفين، أو رغبة في إضعاف خصومهم، وقد حدث ذلك كثيرا في عصر الطوائف، نذكر على سبيل المثال لا الحصر قيام القادر بن ذي النون بعد تمكين الفونسوا له من احتلال بلنسية، بفرض ضرائب باهظة على السكان لتسديد نفقات الجيش النصراني المرابط معه في المدينة لتثبيت أركان حكمه[2].

خامسا:الهدايا:ثمة مصرف آخر صرفت فيه أموال دويلات الطوائف في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ، ويتعلق الأمر بالهدايا، والتحف النفيسة التي يتقرب بها ملوك الطوائف إلى ملوك النصارى لإرضائهم، وامتصاص غضبهم، وفي ذلك يقول ابن الكردبوس " وكل واحد منهم ينافس في شراء الذخائر الملكوية متى طرأت من المشرق كي يوجهها لألفونسوا هدية ليتقرب بها إليه ويحظى دون مطالبة لديه"[3].

يدل على تنافس ملوك الطوائف في ذلك إرسالهم لرُسُلهم إلى ألفونسوا السادس بعد احتلاله لطليطلة محملين بالذخائر والنفائس يريدون استرضاءه وإطفاء غضبه حتى لا يقوم بغزو أراضيهم[4]، بل إن إبن الكردبوس يخبرنا بأن بعض ملوك الطوائف بعد قبولهم بدفع جزية سنوية لألفونسوا قد صاروا عمالا عنده يجمعون له الأموال[5].

أما الدويلات التي كانت عرضة للاحتواء من قبل جيرانها من ملوك الطوائف، فكانت تدفع الأموال المجزية لملوك النصارى مقابل حمايتها وهذا ما فعله القادر بن ذي النون عندما علم بأن أحمد المستعين بن هود والمنذر كانا يتنافسان على بلنسية لاحتوائها، فقرر الاحتماء بالسيد الكمبيطور مقابل مائة ألف دينار سنويا[6].

[1]- خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: المرجع السابق، ص 406.

[2]- دوزي: المرجع السابق، ص 277؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 486.

[3]- ابن الكردبوس:تاريخ الأندلس، ص 77.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق 4، مج1، ص 166؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 180.

[5]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 77.

[6]- محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 108.

سادسا:بناء القصور:حسب رأيي المتواضع لم يبن في فترة من فترات التاريخ الإسلامي من القصور ما بني في هذه المرحلة، فقد بلغ التنافس بين ملوك الطوائف في ذلك غايته إذ لم يقتصر تشييد هذه القصور التي استغرق بناؤها مددا طويلة ويدا عاملة كثيرة، على العواصم الكبرى بل تم ذلك في كل بلدة كانت قاعدة لأمير من الأمراء[1]، وهذا ما يجعلنا نجزم بأن أطنانا من الأموال قد سخرت لإنجاز هذه القصور، التي أراد ملوك الطوائف ان تكون تحفا معمارية خالدة وقد كانت.

لقد أشار ابن حزم صراحة إلى انصراف همة الملوك في عصر الطوائف إلى بناء القصور، والتنافس في تنميقها بقوله:" اللهم إنا نشكوا إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا.....وبعمارة قصور يتركونها عما قريب..."[2].

فمبارك ومظفر الصقلبيين سلكا في تشييد القصور مسلك الملوك الجبارين، وتوسعا في ذلك كثيرا بل حذا حذوهما في ذلك الكتاب والوزراء وكل من له علاقة بهما، فصرفوا أموالا خيالية في بنائها حتى فاقت مصاريف بعضهم مائة ألف دينار، وتوسعا في شراء الألبسة الفاخرة والأسلحة، والآلات والخيل، ونفائس الحلي ،وانغمسا في الملذات، كما رفعا أسوار بلنسية وجعلوا لها أبوابا حصينة، فهذا مما كانت تصرف فيه الأموال[3].

وتذكر بعض المراجع التي تحدثت عن ملك صنهاجة بغرناطة أن حبوس بن ماكسن بعد توليه الحكم بعد انصراف زاوي بن زيري عنه قام بجملة من الإجراءات والتدابير التي تجعل من غرناطة دولة مهابة الجانب، فأقام بلاطا فخما[4]، وفي النفح أن القصر الذي شيده باديس بغرناطة لم ير مثله في بلاد الإسلام أو بلاد الكفر[5]، فهذا الكلام يشي بأن باديس قد أحدث معجزة عمرانية صرفت فيها المبالغ الخيالية.

ويذكر ابن بسام أن المعتضد بن عباد قد" ابتنى القصور السامية، واعتمر العمارات المغلة، واكتسب الملابس الفاخرة، وغالى الأعلاق السنية، وارتبط الخيول السابحة، واقتنى الغلمان الروقة، واتخذ الرجال الذادة تنقاهم من كل فرقة "[6].

---

[1]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 136.

[2]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 41.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 16-17؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 415-416.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 126.

[5]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 196.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 26.

فهذه الفقرة تختصر المجالات التي حضيت بالاهتمام في دولة المعتضد بن عباد والتي كان يخصص لها مبالغ معتبرة من ميزانية الدولة، فإلى جانب القصور خصصت مبالغ ضخمة لجلب كل ما من شأنه أن يحقق المتعة والراحة للملوك كالغلمان والقيان وصنوف الطعام والشراب واللباس وآلات اللهو.

ولم يبن العباديون قصرا واحدا بل قصورا وأشهرها في اشبيلية قصر الإمارة المسمى" القصر المبارك"، وقصر "الزاهي" الذي كان بمثابة متنزه للمعتضد ثم للمعتمد من بعده، وكلاهما بني على ضفة نهر الوادي الكبير مع ما يحيط بهما من حدائق غناء، وما يحتويانه من أثير المتاع والمقتنيات، وهذه القصور الفاخرة تعكس حجم الأموال الكبيرة التي أنفقت فيها[1].

ولم يأل المأمون بن ذي النون جهدا في بناء بلاط فخم في طليطلة لنفسه بعد وفاة أبيه واعتلائه لكرسي الحكم، فاستعان على ذلك ببناء ماهر، ويذكر المقري أن المأمون صرف أموالا طائلة في بناء قصره فبالغ في إتقانه وصنع بحيرة في وسطه وصنع وسط البحيرة قبة من الزجاج ملون منقوش بالذهب، وجعل الشموع داخلها والماء تسكبه العيون فوقها[2]، وفي سرقسطة شيد المقتدر بن هود قصر الجعفرية وصرف فيه جبالا من الأموال، وكذلك فعل كل ملك من ملوك الطوائف.

سابعا: الحفلات والأعراس الباذخة:اعتقدت في البداية بأن عصر الطوائف هو عصر الحروب فلا وقت فيه للأعراس والاحتفالات حتى عثرت في المصادر التاريخية التي أرخت لهذه الفترة على نصوص تتحدث عن حفلات لا تنقطع في قصور ملوك الطوائف وسأكتفي هنا بذكر احتفالين أو عرسين ذاع صيتهما في هذه المرحلة، وتحدثت عنهما المصادر بإسهاب، أما الاحتفال الأول فهو الإعذار الذنوني فقد عرف بني ذي النون عند المؤرخين بالإسراف والمبالغة في صرف الأموال على الحفلات والأعراس، وخاصة تلك التي تقام عند الختان حتى ذاع صيتها وصارت تعرف عند أهل الأندلس " بالإعذار الذنوني" وخاصة في زمن المأمون الذي كان يبالغ في أشكال وأنواع الأطعمة والأشربة، ويدعوا لها من الأمراء وكبار الدولة والموظفين والأعيان ما يضيق به المكان، وفي ختام الحفل كان يوزع الأموال والصلات الجزيلة على الجميع[3]، وهذا لم يكن حكرا بني ذي النون بل كان ملوك الطوائف جميعا يتوسعون في أعراسهم، وحفلاتهم، أما الاحتفال الثاني فهو عرس أحمد المستعين بن المؤتمن بن هود عند زواجه من ابنة أبي بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية حيث توسع فيه حتى صار مضرب المثل في البذخ والترف[4].

---

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 55؛ باسيليون بابون مالدونادو: العمارة الإسلامية في الأندلس - عمارة القصور، عصر الخلافة وملوك الطوائف، ترجمة علي ابراهيم المنوفي، مراجعة محمد حمزة الحداد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010، مج1، ص 353.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص 147-148؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 528.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص 128- 136؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 440.

[4]- عنان:المرجع السابق، ص 226؛ حميدة منصور حسن أبو شعراية: المرجع السابق، ص ص 160-161.

وأحيانا يقوم ملوك الطوائف بصرف مبالغ خيالية، في أمور تافهة، وهنا نذكر ماقام به المعتمد بن عباد لإرضاء زوجته اعتماد التي رغبت في الخوض في الطين بقدميها بعدما رأت فلاحات يفعلن ذلك، فأمر المعتمد أن تغطى أرضية إحدى الغرف بالعنبر والمسك والكافور، وتخلط بماء الورد فصنع منها ما يشبه الطين ثم خاضت فيه الرميكية بقدميها مع عدد من جواريها[1].

غير أن التدقيق في الأحوال الاقتصادية لبعض ممالك الطوائف يوحي بأن هذه النفقات الكثيرة وعلى رأسها الإنفاق العسكري لم تؤثر في اقتصادها في بعض الفترات، فالورّاق يخبرنا بأن علي بن مجاهد العامري قد وجه سنة 447هـ/1055م سفينة محملة بالطعام إلى مصر وهي السنة التي عظم فيها الجوع بها[2]، فالسفينة المحملة بالطعام توحي بأن إمارة ابن مجاهد في هذه الفترة كانت مستقرة اقتصاديا، وقد زاد من استقرارها عودة السفينة محملة ياقوتا وجوهرا وذهبا وذخائر، وهذا الازدهار الاقتصادي في مملكة دانية والجزائر الشرقية أيام علي بن مجاهد مرده إلى اهتمامه بالتجارة وجلب الخراج والجباية بصفة عامة[3].

لكن بعد تراجع قوة الأساطيل البحرية الإسلامية في حوض المتوسط وانتعاش الأساطيل المسيحية وهيمنتها عليه فرض المسيحيون إتاوات ضخمة على المدن الإسلامية الواقعة في الساحل الشرقي للأندلس وقد استجابت بلنسية وألمرية لهذا الطلب حماية لسكانها من الأسر والقتل[4].

ومن خزينة الدولة كذلك دفع أحمد بن سليمان أمولا ضخمة لرودمير حتى يسمح له بالاستيلاء على قافلة أخيه يوسف المتجهة لإغاثة سكان تطيلة الذين كانوا يعانون من مجاعة قاتلة[5].

وعلى كل حال فقد اهتم ملوك الطوائف بمظاهر الأبهة، وتنافسوا في ذلك تنافسا خرج بهم إلى حد الإسراف الذي يبعث على الاشمئزاز فصاروا ينفقون الأموال الباهظة لصناعة الألبسة السلطانية الموشاة بالذهب، واقتناء العطور النادرة وبناء القصور المدهشة، وبذل الصلات الخيالية للشعراء، ناهيك عما تزين به هذه القصور من التماثيل والتحف والمجسمات الذهبية والفضية وسائر الأثاث والحدائق والبرك[6]، وهذا التنافس سببه الحمى التي أحدثها الصراع والتنافس العسكري من أجل المزيد من السيطرة على مناطق النفوذ

---

[1]- المقري:المصدر السابق، مج1، ص 440؛ دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 209؛ برنهارد وإلن ويشوا: اسبانيا العربية(الأندلس)، إضاءات على تاريخها وفنونها، ترجمة صفاء كنج، مراجعة وتحرير أحمد إيبش، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2014، ص 243.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 461.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج، ص ص 265-266؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 206.

[4]- ارشيبالد لويس: المرجع السابق، ص ص371-375.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 457-458؛ حتاملة: المرجع السابق، ص 507.

[6]- جهاد غالب مصطفى الزغلول: الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1994، ص ص 119-121.

والتغلب على الخصوم، فالملوك أرادوا أن يصنعوا ملكا يوازي انتصاراتهم العسكرية على أرض الأندلس، ويعكس حجم الطموحات التي يرنون إليها، وهذا ما نلحظه بجلاء في دولة بني ذي النون بطليطلة ودولة بني عباد بإشبيلية.

واشتد التنافس بين ملوك الطوائف في تخليد آثارهم من خلال الأبنية العظيمة وما تتضمنه من درر ونفائس، فجمعت لأجل ذلك الأموال العظيمة، وصرفت فيها الكنوز الثمينة، ولا شك بأن ذلك إلى جانب الجزية قد استنزف خزائن هذه الدويلات.

ثامنا:شراء الجواري: حظي شراء الجواري من مختلف الأعراق والجنسيات في هذه الفترة المضطربة باهتمام ملوك الطوائف فخصص كل ملك جزءا ليس بالهين من خزينة الدولة لذلك، لأن الجواري جزء لا يتجزأ من حياة القصور لذلك عندما خلت أسواق ملوك الطوائف من الجواري القادمات من البلاد الأوروبية بسبب الصراعات العسكرية تحولت أنظارهم إلى الجواري المشرقيات، فجلبوا منهن أعدادا كبيرة[1]، وبذلوا فيهن المال الجسيم فاشترى ابن رزين صاحب السهلة–وهي مدينة صغيرة– جارية واحدة بثلاثة آلاف دينار[2]، فيما بذل المعتمد بن عباد في أخرى ثلاثين الف دينار[3].كان الملوك يحيطون أنفسهم بعدد كبير من الجواري الفائقات الجمال فالمعتضد بن عباد الذي تصفه المصادر التاريخية بأنه كان شغوفا بالنساء اتخذ إلى جانب زوجته الحسناء سبعين جارية من الجواري البارعات الحسن والجمال من الأجناس المختلفة[4].

ولم يكن اقتناء الأعداد الكبيرة من الجواري حكرا على الملوك بل شاركهم في ذلك بعض الوزراء ، فأحمد بن عباس وزير زهير العامري اقتنى لنفسه خمسمائة جارية من أغلى الجواري يلهوا بهن[5]، ولا ندري هذه المرة ما إذا كان ذلك من ماله الخاص أم من خزينة الدولة.

إذن هناك ترابط وثيق في عصر الطوائف بين الصراعات العسكرية والرغبة في التوسع على حساب الآخرين وبناء دولة يهاب جنابها الخصوم وبين الأموال الضخمة التي تصرف على مظاهر الأبهة كالقصور، والحفلات، والملابس الملوكية الفاخرة، والتحف والنفائس النادرة وغيرها، فكما ينفق على الحملات العسكرية ينفق كذلك على مظاهر الأبهة، فكلاهما كان الهدف منه صناعة هيبة الدولة والتفوق على الخصوم.

---

[1]– محمد بشير العامري: المرجع السابق، ص 206.

[2]– ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 430؛حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 476.

[3]– عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 105.

[4]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 43 ؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 447؛ عنان: المرجع السابق، ص 56.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 666، 667.

الفرع الثالث: السياسة النقدية:

أعني هنا مجموعة التدابير والإجراءات التي تتخذها الدولة من أجل ضبط الكتلة النقدية المتداولة وتزويد الاقتصاد بكميات النقود الضرورية من أجل مواكبة النمو دون الإضرار بالتوازنات الاقتصادية الداخلية، فيتطلب الأمر من الجهات المالية المختصة المسئولة عن تدبير السياسات النقدية أن تعمل على تكييف الكتلة النقدية باستمرار مع حاجيات الاقتصاد، فوجود كمية من النقود أكبر من حجم السلع والخدمات المعروضة سيؤدي حتما إلى التضخم، وحدوث العكس سيؤدي إلى الانكماش.

وإذا كانت السياسة النقدية من أهم أهدافها استقرار الأسعار، ودعم النمو الاقتصادي، وتوفير فرص التشغيل، استقرار قيمة العملة، توازن ميزان المدفوعات فهل استطاعت السياسة النقدية في عصر الطوائف أن تحقق هذه الأهداف أو بعضها ؟

إن البحث في السياسة النقدية لملوك الطوائف قادنا إلى الحقائق التالية:

أولا:استقرار الأسعار: لم تشهد دويلات الطوائف استقرارا في الأسعار إلا في أوقات محدودة جدا بسبب حالة الحرب المستمرة التي طبعت هذه المرحلة من تاريخ الأندلس، فلقد تسببت الصراعات العسكرية في ندرة الطعام في أحايين كثيرة ما جعل كمية الطعام المتاحة عند التجار داخل المدن قليلة، وبذلك يكون الطلب أكثر من العرض فترتفع أسعاره وتصل إلى مستويات قياسية، ففي زمن الفتنة القرطبية حاصر البربر قرطبة وقطعوا عنها الميره فاشتد الغلاء وعظم البلاء[1].

وفي عام 448هـ/1056م تعرضت اشبيلية لقحط شديد، فقل الطعام، وكثر الراغبون فيه، فارتفعت أسعاره، وغلا غلاء فاحشا، فعجز الناس بسبب الارتفاع الجنوني لأثمانه عن شرائه، وتسببت تلك الأوضاع في مجاعة مات بسببها خلق كثير حتى صار الناس يدفنون كل ثلاثة أو أربعة في قبر واحد وخلت المساجد من المصلين، وتعرضت قرطبة كذلك لموجات من القحط ارتفعت بسببها الأسعار حتى صار قفيز الحنطة (30 كيلوغراما) يباع بثلاثة دنانير[2].

وقد حاول القرطبيون التخلص من بعض آثار الغلاء الذي ألم بقرطبة في العام الذي مات فيه عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس أي سنة 402هـ/1011م بسبب القحط حيث قاموا ببيع مكتبته الجليلة واستمر ذلك عاما كاملا[3]، أما ابن عذاري فيرى بأن هذه المجاعة قد حدثت بقرطبة سنة

[1]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 110.

[2]- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، ص 468.

[3]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 403.

401هـ/1010م، فأصاب الناس بسببها فقر مدقع جعلهم يقتاتون على أشياء ضارة ومحرمة حيث أكلوا الدم من مذبح البقر، ومات رجل في السجن فأكله السجناء[1].

فالظروف التي جعلت الأسعار ترتفع في الدول الطائفية إما طبيعية كالقحط وندرة الأمطار والسيول الجارفة وغيرها أو بشرية وأخص بالذكر هنا التخريب الذي طال قطاعات الإنتاج الزراعي من جراء الصراعات العسكرية بين الأطراف المتصارعة، والدول الطائفية تعوزها القوة المالية والنقدية حينا وأحيانا السياسة المالية الرشيدة لمواجهة هذه الأزمات وسد الثغرات، إذ أنها لم تتدخل أثناء ندرة الطعام في الأسواق لتعوض النقص الفادح فيه حتى تستقر أثمانه لأن المعروض منه حينئذ سيكون متوافقا مع الطلب، وحين تكون السلع المعروضة في السوق أقل بكثير من الأموال التي تملكها الدولة فإن اقتصادها يصاب حينئذ بالانكماش، وهذا هو حال دويلات الطوائف في النصف الأول من القرن الخامس الهجري لكن الوضع تغير في النصف الثاني حين أستنزف النصارى خزائنهم من الأموال.

لقد استنتجت من خلال قراءتي المتأنية لتاريخ الأندلس في هذه الفترة بأن أسعار السلع والبضائع كانت تتغير بشكل سريع، ومرد هذا التغير اللافت في الأسعار كما يقوال ابن عبود[2] إلى عدة عوامل أهمها:

1-انعدام الاستقرار السياسي والاقتصادي، فقد كانت هناك ثروات تولد وأخرى تندثر بشكل سريع جدا ، وفي ظل انعدام الأمن كانت أسعار السلع ترتفع بشكل عبثي ودون سابق إنذار وبشكل لا يتلاءم مع قيمة السلع المعروضة.

2-استئثار ملوك الأندلس بالثروة في زمن يسير جدا وصرفها في قطاعات غير منتجة كالحفلات الماجنة التي يقيمها الحكام في قصورهم وتصرف فيها أموال خيالية.

3-المبالغ التي تخرج من خزائن الدويلات المتصارعة أكثر بكثير من التي تدخل إليها، وهذا يقودنا رأسا للحديث عن ميزان المدفوعات.

ثانيا: ميزان المدفوعات: لا شك بأن هذا الميزان يكون متوازنا عندما تتساوى الإيرادات مع المدفوعات (المداخيل والنفقات)، فلو كانت الإيرادات أكثر من المدفوعات يكون هناك فائض في ميزان المدفوعات، وإذا حدث العكس يحدث عجز في هذا الميزان.

---

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 374.

[2]- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 113.

وبإلقاء نظرة سريعة على ميزان المدفوعات لدويلات الطوائف نجد بأنه كان مختلا في أغلب فتراته، إذ أن النفقات كانت أضعاف المداخيل التي إما أن تكون على شكل غنائم غنمت أثناء الحروب أو ضرائب جمعت من الرعية أو ممتلكات صودرت من أصحابها أمّا ما تدره قطاعات الإنتاج التي يسهر عليها الحكام فهي قليلة لا تكفي لسد نفقات الدولة.

في حين أن الأموال التي يخصصها ملوك الطوائف لتمويل حروبهم ضد خصومهم كبيرة جدا، خاصة إذا علمنا بأن عددا منهم يعتمدون في هذه الحروب على المرتزقة، ففي سنة 414هـ/1023م كون القاضي ابن عباد جيشا أغلبه من المرتزقة والعبيد القادمين من المغرب وإفريقيا، واستعان عدد من ملوك الطوائف بمرتزقة من الممالك النصرانية في الشمال[1]، وحتى يضمن الحكام قيام هؤلاء المرتزقة بأعمال القتال على أكمل وجه يتوجب عليهم أن يملأوا جيوبهم بالمال، ناهيك عن الأموال الضخمة التي تدفع لملوك النصارى على شكل جزية سنوية خرافية إما من أجل حمايتهم أو إبقائهم في كراسيهم وعدم غزوهم، وقد كثر ذلك في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وخاصة بعد سقوط طليطلة في يد النصارى عام 487هـ/1094م، وقد بسطنا القول في المبالغ التي كان ملوك النصارى يتقاضونها من ملوك الطوائف في عنوان نفقات دول الطوائف.

وعندما نتحدث عن هذه النفقات لا يجب أن يغيب عن علمنا حجم الأموال التي كان ملوك الطوائف يتنافسون في إنفاقها من أجل بناء قصور[2]، لا زالت بقاياها حتى هذه اللحظة تشي بضخامة الأموال التي بذلت في سبيل بنائها، دون أن ننسى الحفلات الماجنة التي بدورها أنفقت فيها مبالغ يعجز العقل عن تصورها.

ثالثا: التشغيل:أما بشأن التشغيل وتوفير مناصب العمل، فقد تم التركيز على بعض القطاعات التي تعد جزءا من السجال العسكري القائم بين ملوك الطوائف كدواوين الملوك والقطاع العسكري، فعلى صعيد الدواوين نلاحظ كثرة غير مسبوقة في عدد الكتاب، وهذه الكثرة مردها حسب بعض الدارسين إلى كثرة الإمارات التي انبجست من الخلافة الأموية، فقد صار في كل بلاط أو قصر أو دار حكم في مدينة كتاب[3].

---

[1]- أمحمد بن عبود: جوانب، ص 108.

[2]- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص ص468-469.

[3]- محمد رضوان الداية: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 2000، ص220.

أما في القطاع العسكري فقد تم الاهتمام في دانية والمرية واشبيلية ومالقة بصناعة السفن والأساطيل الحربية وهذا يحتاج إلى يد عاملة كبيرة[1]، ناهيك عن المصانع التي كانت تنتج السلاح كمصنع طليطلة الذي ذاع صيته في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي[2]، دون أن ننسى الطاقات البشرية الهائلة التي أرغمها الحكام على حمل السلاح والانخراط في الحرب الدائرة بينها.

هذه هي القطاعات استأثرت بالموارد البشرية في عصر ملوك الفتنة، وحظيت باهتمام الحكام، وهذا لا ينفي وجود قطاعات أخرى في بعض الدويلات توجهت لها عناية بعض الملوك كقطاع الصناعة النسيجية في المرية الذي وفر الكثير من مناصب الشغل لأبنائها وللفارين إليها من ويلات الحرب من قرطبة ومناطق أخرى[3]، فنجد بأن الصراعات العسكرية التي نشبت في معظم تراب الأندلس قد أحالت قطاعا واسعا من العمال والمهنيين على البطالة، وأجبرت قطاعا لا بأس به منهم للهجرة بحثا عن لقمة العيش في الأماكن التي تشهد الاستقرار.

وفي بلنسية خلال حكم مظفر ومبارك العامريين(400-412هـ/1010-1021م) سادها الأمن، فلجأ إليها الحرفيون والصناع من جميع التخصصات، وحملت إليها السلع التجارية من كل مكان، فازدهر النشاط التجاري في أسواقها وعم الرخاء بها، وهذا ما جعل أرباب الأموال في المناطق الخاملة اقتصاديا يحملون أموالهم، ويلجأون إلى بلنسية لاستثمارها في التجارة تحديدا[4].

وخلال حكم عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) لبلنسية (412-452هـ/1021-1060م) شهد القطاع الزراعي وفلاحة الأرض ازدهارا كبيرا بها، وقد ساعد على هذا الازدهار وقوعها على نهر الوادي الأبيض الذي تستعمل مياهه في سقي المزروعات من جهة والساحل الشرقي من جهة أخرى إضافة إلى خصوبة تربتها واعتدال مناخها واستعانتهم في عملية السقي بالنواعير والقنوات، كما شيدوا الأبراج والمخازن لتخزين الحبوب، فزاد دخل العمال في هذا القطاع مقارنة بنظرائهم من الفلاحين في دويلات الطوائف الأخرى، وهذا ما جعل أعدادا كبيرة من الفلاحين يتوافدون على بلنسية، ويلجأون إليها

---

[1]- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص 147؛ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ص305-306، 309؛ مؤلف مجهول: مفاخر البربر،تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2005، ص 149؛ عنان: المرجع السابق، ص47.

[2]- عبد الكريم خيطان الياسري- سعد قاسم علي السويعدي: الصناعات المحلية وتطورها في مدينة طليطلة 92-478هـ، مجلة الأستاذ، ع205، مج1، 2013، ص 517.

[3]- E- Levy provençal : La Description de L'Eespagne , Ahmed al Razi,Revesta les estudias Arabes de medrid Granada, XVIII,1953 ,P65.

[4]- ابن بسام:المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 16-17؛ ابن عذاري:المصدر السابق، مج2، ص 415؛ أنسام غضبان عبود: الزراعة في مملكة بلنسية خلال عصر الطوائف- دراسة تاريخية-، مجلة آداب البصرة، ع40، 2006 ، ص99.

لتحسين دخلهم ما دامت فرص العمل متاحة أمامهم وخاصة أولئك الذين يعيشون في المناطق المتوترة وتوقف عملهم في المجال الزراعي بسبب ذلك[1].

وفي طليطلة قام المأمون بن ذي النون بتشييد مصنع للصناعات العاجية في منطقة كونكة، فوفر بذلك العشرات من مناصب الشغل للعمال القادمين من قرطبة والذين كانوا قد فقدوا عملهم بسبب إحراق الأطراف المتصارعة بها للمصنع الوحيد المتخصص في الصناعات العاجية[2].

كما شهدت أسواق قرطبة في عهد أبي الحزم بن جهور نشاطا تجاريا منقطع النظير بسبب تشجيعه للنشاط التجاري ودعمه للتجار، إذ وزع عليهم أموالا تمكنهم من ممارسة عملهم بكل يسر وسهولة على أن تبقى هذه الأموال دينا في رقابهم يأخذون ربحها فقط ويحاسبون عليها من حين لآخر، فساهم هذا الإجراء في في خلق الكثير من مناصب الشغل وانتشال الكثير من الأسر من البطالة فازدهرت التجارة، وتحسنت الأسعار، وحل الرخاء، وقد كان ابن حيان ممن شهد هذا التحول في الحياة التجارية بقرطبة، وتعجب من ذلك، فكان الرخاء الاقتصادي وارتفاع دخل التجار فيها، وتحسن مستوى المعيشة سببا في لجوء أعداد كبيرة من الأندلسيين من مختلف الجهات إليها رغبة في حياة أفضل[3].

هذا على صعيد دويلات الطوائف أما على صعيد الممالك النصرانية في الشمال فقد تسببت هيمنة الرهبان الكاثوليك على الأراضي الشاسعة في عدم نمو المدن وازدهارها، فانعدمت بذلك الوظائف ما جعل العاطلين عن العمل ينخرطون في حروب الاسترداد ويتخذونها وظائف قارة[4]، فهنا يتضح لنا الأثر الإيجابي والدور الفعال للصراعات العسكرية بين ملوك النصارى وملوك الطوائف والمعروفة تاريخيا بحروب الاسترداد في خلق وظائف جديدة للعاطلين عن العمل في الممالك النصرانية، ورغم هذه الجهود المبذولة من قبل بعض ملوك الطوائف لتشغيل من يحتاج إلى ذلك، فإن هذا المجهود معيب من ناحيتين، الناحية الأولى أنه كان تشغيلا محدودا إذ لم يشمل سوى نسبة قليلة من سكان الأندلس، ومن ناحية أخرى أنه كان موجها فقد تم التركيز فيه على القطاعات الخادمة لأطماع الملوك التوسعية كالتجنيد، وصناعة السلاح، والديوان.

رابعا:النمو الاقتصادي:بسبب انشغال ملوك الطوائف بالصراع فيما بينهم وما ترتب عن ذلك من استنزاف للخزائن والثروات لم تستطع دويلات الطوائف إحداث التنمية المنشودة على جميع الأصعدة

1- كمال السيد أبو مصطفى:تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، ص 255، 260.

2- رابح رمضان: المرجع السابق، ص 163؛عبد الكريم خيطان الياسري، سعد قاسم علي السويعدي، المرجع السابق، ص521.

3- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 604؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 433؛ عنان المرجع السابق، ص 23.

4- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 119.

والمستويات، بل كانت تنمية محدودة في قطاعات بعينها كالقطاع الزراعي في بلنسية خلال حكم مبارك ومظفر العامريين ثم حكم عبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبي عامر وقطاع الصناعات النسيجية في المرية والصناعات العاجية في طليطلة خاصة بعد احتراق مصنعها في قرطبة وتشييد المأمون بن ذي النون لمصنع خاص بهذه الصناعات في كونكة، دون أن ننسى الصناعات الحربية فقد انتعشت في هذه الفترة بسبب الأوضاع المضطربة والصراعات العسكرية المزمنة إضافة إلى صناعة السفن والأساطيل البحرية، فقد شهدت انتعاشا كبيرا في كل من دانية والمرية واشبيلية ومالقة بصناعة السفن والأساطيل الحربية وهذا يحتاج إلى يد عاملة كبيرة[1]، وعلى صعيد الصناعات الحربية دائما شيدت طليطلة مصنعا لصناعة الأسلحة التي اشتهرت بجودتها فحققت نموا اقتصاديا ملحوظا بسبب الإقبال المتزايد على شراء أسلحتها.

خامسا: **قيمة العملة**: أما بخصوص قيمة العملة التي سكها كل ملك من ملوك الطوائف، فقد تأثرت هي الأخرى بالصراعات العسكرية،لذلك كانت ترتفع أحيانا لكن في أغلب عصر الطوائف كانت منخفضة بسبب الظروف السياسية الغير مستقرة وإلى جانب العامل السياسي هناك عامل اقتصادي ساهم في انخفاض قيمة العملة ويتعلق الأمر بالمادة التي تسك منها النقود، ففي العقود الأولى من عصر الطوائف كان في حوزة ملوكه من معادن الذهب والفضة الخالصة ما يكفي لإصدار هذه العملات، فكلما كانت العملة مصنوعة من الذهب أو الفضة الخالصتين كانت قيمتها عالية، لكن هذا الوضع تبدل بعد إرهاق ملوك النصارى لملوك الطوائف بالضرائب وإفراغ خزائنهم أصبح ملوك الطوائف يخلطون الذهب والفضة بمعادن أخرى من أجل الوفاء بالجزية للنصارى، فنقصت قيمة هذه العملات[2] ورفضت من قبل مبعوث ألفونسوا السادس إلى المعتمد بن عباد[3]، إذا أضفنا إلى هذين العاملين ضعف قطاعات الإنتاج علمنا لماذا فقدت هذه العملات فيمتها.

إن تتبع السياسات النقدية التي سلكها حكام الطوائف في هذه الفترة يفيد بأنها تأثرت بشكل واضح بالإنقسام السياسي، وفي ظل الظروف المشحونة بالعنف والاستنزاف المزمن لاحتياطات دول الطوائف من العملة. لم يكن بمقدور القائمين على النظام النقدي في عصر الطوائف أن يتخذوا التدابير اللازمة من أجل ضبط الكتلة النقدية المتداولة وتزويد الاقتصاد بكميات النقود الضرورية من أجل مواكبة النمو دون الإضرار بالتوازنات الاقتصادية الداخلية.

[1]- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص 147؛ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ص305-306، 309.

[2]- نغم عدنان الكركجي: الأزمات الاقتصادية فبي الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطه، (92-897هـ/711-1492م)، دار الكتاب الثقافي، أربد، الأردن، ط2017، ص 152.

[3]- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص ص 112-113.

إن الانحطاط الاقتصادي الذي أصاب الاقتصاد في عصر ملوك الطوائف مرده إلى أربعة عوامل:

1-هشاشته في حد ذاته فلم يكن متينا في جميع مراحله.

2-غياب سياسة اقتصادية شاملة وفعالة للنهوض بالاقتصاد.

3-لقد سرع من وتيرة هذا الانحطاط استخلاص ملوك النصارى الجزية من ملوك الطوائف المنشغلين بقتال بعضهم.

4-أما العامل الأخير فيتعلق بظهور الجرائم الاقتصادية كالرشوة، وتزييف العملة، وهي عيوب لا شك أنها نخرت إقتصاد ملوك الطوائف، وهي آفات تظهر في الاقتصاد عندما تكون الدولة في مرحلة الضعف أو الفوضى السياسية والأمنية كما هو الحال في عصر ملوك الطوائف.

المطلب الثاني:أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على البنية التحتية

الفرع الأول: العمران: سيتم الحديث هنا عن نوعين من العمران المدني والعسكري وسيتم رصد نوعين من الآثار العسكرية السلبية والإيجابية .

أولا: العمران المدني:

لا شك بأن المناطق التي تكون مسرحا للمعارك والصراعات المسلحة يتضرر فيها العمران وتُخرَّبُ فيها الديَّار، وهذا ما حدث بالأندلس منذ انفراط عقد الخلافة ودخول البلاد في سلسلة من الصراعات العسكرية المزمنة، ففي الفتنة التي عصفت بقرطبة في مستهل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كانت الحرب التي نشبت بين جيش سليمان المستعين وجيش المهدي وبالًا على العمران حيث دُّمر دمارا فضيعا، وطال ذلك قرطبة كلها فَمُحيت أحياءٌ بأكملها وصارت أثرا بعد عين ومنها الحي المخصص لسكنى البربر[1]، كما أشعل الثوار النيران العظيمة في أسواق الخشابين وحوانيت فحص السرادق وأسواق أخرى بقرطبة أيام الفتنة القرطبية، ولم يسلم جامع الزهراء هو الآخر من هذه النيران[2]، وبخصوص المنازل والأحياء فإن ابن حزم قد زار قرطبة بعد بضعة أعوام من خروجه منها، وتفقد مساكن قومه فيها، فوجدها

[1]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 100؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 541-542؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ وفكر وحضارة وتراث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1996، ج1، ص 408.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 375؛ دوزي: المسلمون في الأندلس، ج2، ص 171.

خرابا يبابا، وامتدَّ الخراب إلى القرى المجاورة لقرطبة فمحيت رسومها، وبعد رحيل البربر عن الزهراء نزلوا بمالقة وإلبيرة فنهبوا الدور وخرَّبُوا العمران[1].

وفي قرطبة دائما توجس علي بن حمود خيفة من مبايعة أهلها للأمويين مرة أخرى،كما فعل سكان شرق الأندلس بالمرتضى المرواني، فعزم على معاقبة أهلها، واستئصال خضرائهم، وأطلق أيدي البربر فيها فهدموا المنازل، وألحقوا بها أضرارا بليغة[2].

ويذكر البكري الذي عاش في هذا القرن أن الصراعات العسكرية التي بدأت في مستهل القرن الخامس واستمرت حتى اللحظة التي دون فيها هذا الخبر في كتابه المذكور وهي سنة 460هـ/1068م قد دمرت قرى بأكملها، ومحت آثارها بالمرة[3]، فإزالة قرى بأكملها من الوجود يكشف عن حجم الصراع العسكري الدامي الذي دار بقرطبة وقراها وحدَّته معا.

فهذه شهادة عالم عاصر المرحلة ونقل لنا حجم الخراب والدمار الذي ألحقته الصراعات العسكرية بين الأطراف التي استعملت السلاح كوسيلة للاستيلاء على كرسي الحكم، فإزالة قرى بأكملها من الوجود دليل على ضراوة المعارك التي كانت هذه المناطق مسرحا لها.

ويضيف أمحمد بن عبود بأن المناطق الريفية في عصر الطوائف كانت أكثر عضة للتخريب من قبل جيوش ملوك الطوائف وجيوش النصارى معا[4] ذلك لأنها أماكن غير محصنة، ولا يخامرنا الشك بأن التخريب الذي ذكره ابن عبود قد طال كل شيء في هذه القرى وفي مقدمة ذلك العمران.

أما في اشبيلية ففي الوقت الذي كان فيه محمد بن عباد يعمل على اقناع العرب والصقالبة بأن بأن هشام المؤيد حيٌّ، ولا بد من مبايعته والإلتفاف حوله، كان يحي بن علي بن حمود محاصرا لإشبيلية مجدّا في تخريب ما يتصل بها من العمران[5]، وتجدد التخريب بإشبيلية سنة 427هـ/1036م على يد حبوس بن ماكسن وزهير العامري ومحمد بن عبد الله البرزالي حيث قاموا بمهاجمة قرى اشبيلية، فأحرقوا قرية طريانة[6]

---

[1]- ابن حزم: طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج1، ص227؛ ابن شهيد: رسالة الزوابع والتوابع، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1967، ص 11؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين: دراسات في التاريخ الأندلسي دولة بني برزال في قرمونة (404-459هـ/ 1013-1027م)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندري، (د.ط)، 1989، ص 35؛ تواتية بودالية: المرجع السابق، ص 111.

[2]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 483؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 488.

[3]- البكري: المصدر السابق ، ج2، ص 902.

[4]- أمحمد بن عبود:جوانب، ص 35.

[5]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 35.

[6]- طريانة ضاحية بإشبيلية موجودة إلى اليوم على الضفة الغربية لنهر الوادي الكبير ينظر الحميري: الروض المعطار، ص 392؛ أبي الفداء عماد الدين اسماعيل بن محمد بن عمر: تقويم البلدان، تحقيق رينود- ماك كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت، ط1850، 167ص.

بأكملها[1]، وفي سنة 421هـ/1030م وقع صدام عسكري بين إسماعيل بن عباد والمنصور بن الأفطس بسبب اقتحام هذا الأخير باجّة[2] واحتلالها فسبق بذلك العباديين، ولم يقف محمد بن عباد إزاء هذه العملية مكتوف الأيدي بل أرسل ابنه اسماعيل على رأس جيش ضخم فقام بمحاصرة قوات المنصور داخل المدينة وخلال ذلك خرب الكثير من الديار[3].

وبعد مقتل ابنه اسماعيل جعل محمد ابن عباد على رأس جيشه ابنه الثاني عبادا(المعتضد)، فكان من بين الأساليب التي لجأ إليها لإرهاب خصومه، وإجبارهم على طاعته، هدم منازل المناوئين، وكذا المشتبه في معاضتهم[4].

وفي سنة 422هـ/1031م تجدد الصراع بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس نفذ ابن عباد خلاله عددا من الغارات على أراضي ابن الأفطس دمَّر فيها الكثير من المنشآت وخرَّب عمراناً قضى ابن الأفطس زمنا في إصلاحه[5].

وفي عام 442هـ/1050م نفَّذ المعتضد على بطليوس سلسلة من الغارات تمكن خلالها من السيطرة على عدد من الحصون وضمها إلى مملكته، وفي طريقه للاستيلاء على تلك الحصون قام بهدم عمران المناطق التي خاض فيها حروبه[6]، وهذه هي عادة الحروب، فقلما يسلم عمران المناطق التي تقع فيها الصراعات المسلحة من التخريب، وما حدث في هذه المنطقة خير دليل على ذلك.

وبعد تولي المعتمد بن عباد الحكم قام بغزو غرناطة مع جيش الفونسوا وتم الاتفاق على أن يكون حكمها بعد الاستيلاء عليها للمعتمد والممتلكات والذخائر لألفونسوا وتذكر الروايات التاريخية أن النصارى خلال عمليات المداهمة أمعنوا في تخريب غرناطة[7]، وكما خرب المعتمد مع جيش النصارى غرناطة، خربت قصوره بإشبيلية على يد المرابطين يوم دخولها[8].

أما المقتدر بن هود فعندما هاجم النصارى المتحصنين بأسوار مدينة بربشتر أمر جيشه بنقب سور المدينة لاقتحامها فأحدثوا فيه ثلما كبيرا ثم دعموه بدعائم من الخشب ثم أشعلوا النار في تلك

[1]- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ص ص 106-107؛ حسين حمدي عبد المنعم: المرجع السابق، ص 71.

[2]- مدينة في البرتغال على بعد 140كلم جنوب شرقي لشبونة.المقري: المصدر السابق، مج1، ص 159.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 20.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 444.

[5]- سحر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق ، ص 399، 405.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 35؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 492.

[7]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص ص 69- 72.

[8]- الذهبي : المصدر السابق، ج19، ص 63.

الدعامات فانهار الحائط وتمكن من أعدائه[1]، فالسور الذي هُدم هو مكون مهم من عمران المدينة وقد تم تدمير جزء منه بسبب الصراع الدائر بين ابن هود والنصارى.

وفي الفادحة التي ألمت ببربشتر سنة 456هـ/1064م يذكر عبد الله بن عبد البر الذي كتب رسالة على لسان أهلها إلى حكام الأقاليم في الأندلس يدعوهم لنصرة أهلها أن النصارى عاثوا في المدينة نهبا وحرقا، فكان مما حرق يومئذ المساجد وهي جزء من المعمار الأندلسي، كما علقت النواقيس والصلبان على جدرانها، ولا شك بأن هدم المساجد أو مسخها إلى كنائس أثر من الآثار التي خلفها الصراع العسكري على عمران المدينة[2].

في سنة 487هـ/1094م قام الكمبيطور بمحاصرة بلنسية تمهيدا لاقتحامها، فطاف بها طواف السوار بالمعصم، ونصب عليها المجانيق، فأحدث أضرارا بالغة في أسوارها، ولم يسلم العمران من التخريب[3] لأن المجانيق لم تنصب لإصابة أهداف بعينها ولكن لاستهداف المدينة كلها.

وعندما اجتاح المأمون بن ذي النون بصحبة النصارى أراضي ابن هود سنة 436هـ/1044م يذكر ابن الخطيب وابن عذاري أن النصارى خربوا البلاد ودمروها واستغل ابن هود هذه الفرصة، فقام بإفساد كل ما وصلت إليه يده من أراضي ابن هود المتاخمة له[4]وردًّا على ماقام به ابن ذي النون داخل أراضي سليمان بن هود قام هذا الأخير بمعية قطعة من الجنود النصارى بالتوغل داخل أراضي ابن ذي النون فدمَّر وخرب هو الآخر[5] وكان العمران في صدارة المرافق التي طالها التخريب.

وفي جزء من رسالة للمعتضد بن عباد يتحدث فيها عن حروبه مع أعدائه أوردها ابن بسام في كتابه يصف ابن عباد فيها حصاره لبلد عدوه المظفر بن الأفطس، فيذكر أنه ضرب طوقا حول المدينة المستهدفة، وأمعن في هدم البيوت التي وصلت إليها يده ثم دخل إلى جهة من جهاتها فصال فيها وجال ونهب وأضرم النار في أطرافها وجعل عاليها سافلها، وتزامنا مع هذا الهجوم البري أرسل أسطولا لمهاجمة سواحله فبالغ في تدمير مدنه ومنشآته الساحلية[6]، ولم يأل حلفاء المظفر بن الأفطس جهدا في تخريب أرضي ابن عباد ردا على عدوانه على لبلة عام 439هـ/ 1047م وقد نال العمران نصيبه من هذا

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 461.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 176.

[3]- محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 129.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 498؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 177.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 499.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 281-282؛ عنان: المرجع السابق، ص41.

التخريب[1] ، وفي سنة 455هـ/1063م شن المعتضد هجوما كاسحا على شلب بهدف احتلالها وضمها إلى دولته وفي طريقه إليها قام بإحراق القرى التابعة لإمارة مورون تمهيدا لاقتحامها[2]، أما شلب[3] فلم يتمكن من اقتحامها أيام حكم عيسى بن محمد بن عيسى بن أبي بكر بن مزين لها إلا بعد هدم أسوارها بالمجانيق[4].

ونشبت بين القادر بن ذي النون وأبناء ابن مغيث سنة 474هـ/ 1081م معركة طاحنة بسبب انتزاء أبناء مغيث على مدينة مجريط ورغبتهم في انتزاعها منه هدمت خلال هذه المعركة البيوت، وبعد سحق القادر لخصومه بالغ في هدم منازلهم[5]، فأصيب عمران المدينة بأضرار بليغة.

وفي الفترة التي تولى فيها فرناندوا الأول الزعامة النصرانية في الشمال يذكر ابن بسام أنه قام مرة باجتياح بطليوس بقواته، فعاثت في أرجائها إفسادا ونهبا، ومحت رسومها[6]، وقد استعمل ابن بسام لفظ الرسم للتعبير على معالم المدينة كلها، فلا شك بأن عمران المدينة وغير العمران قد دمر دمارا فضيعا، وفي سنة 446هـ/1054م أضرم فرناندوا النار في قرى اشبيلية[7].

وبعد دخول الفونسوا طليطلة سنة 474هـ/1081م مع القادر بن ذي النون الذي كان مبعدا عنها أمعن الفونسوا في تدمير المدينة فانتسف مرافقها وأضرم النار في جنباتها، وصار قصر المكرم الذي تفنن المأمون في بنائه وزخرفته مربطا لخيول فرناندوا ومكانا يلهوا في جيشه، وهذا تشويه للعمران وأثر من الآثار السلبية للصراعات العسكرية[8].

وعندما قام المعتمد بن عباد باحتلال قاعدة جيان سنة 466هـ/1074م وانتزاعها من عبد الله بن بلقين قرر هذا الأخير معاقبته، فتحالف مع الفونسوا وخرج في جيش كثيف وخلال عمليات الإغارة والمداهمة التي نفذها على أراضي ابن عباد خرب العمران ونشر الفوضى في كل مكان[9].

---

[1]- عنان: المرجع نفسه، ص 41.

[2]- عنان: نفسه، ص 46.

[3]- شلب: من بلاد الأندلس وهي قاعدة كورة أكشونبه. ينظر الحميري: المصدر السابق، ص 342.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 44؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 494.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 163.

[6]- ابن بسام: نفسه، ق4، مج1، ص 147.

[7]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 171.

[8]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 163، 164.

[9]- عنان: المرجع السابق، ص 63.

وبعد انتزاع الفونسوا السادس لطليطلة من بني ذي النون عبر يوسف بن تاشفين إلى الأندلس رغبة في استرجاعها سنة 483هـ/1090م ففرض عليها حصارا خانقا خرب خلاله أحوازها ودمَّر الكثير من مرافقها حتى يرغم الفونسوا الذي كان بداخلها على الاستسلام لكن ذلك لم يتم[1].

أما بشأن الدمار الذي ألحقه الكمبيطور ببلنسية غداة اقتحامه لها فالقارئ للقصيدة التي رثى بها أبو اسحاق بن خفاجة، وكذا الرسالة التي كتبها أبو عبد الرحمن بن طاهر إلى الوزير أبي عبد الملك بن عبد العزيز، يدرك حجم الخراب الذي أحدثه الفونسوا السادس بعد خروجه منها، فقد أضرم النار في جنباتها، وخرب عمرانها خرابا محا محاسنها، حتى إنّ من يمر بها بعد الفادحة لا يكاد يعرفها[2].

وقد طال التخريب في هذه الفترة مدنا بأكملها فمدينة بجانة مثلا التي كانت إبان القرن الرابع الهجري العاشر الميلادي حاضرة من حواضر الأندلس خربت زمن الفتنة التي أعقبت سقوط الخلافة بقرطبة وبدأ عمرانها في التلاشي حتى ذهبت باقي عمارتها سنة 459هـ/1067م[3]، وخرب باديس بن حبوس مدينة البيرة التي يعود تاريخ إنشائها إلى أزمنة بعيدة، وشيد بأنقاضها مدينة غرناطة وأسوارها لأن موقعها حسب رأيه عرضة للهجمات[4]، وفي قشتالة عمد الكمبيطور إلى حرق، وتخريب، وهدم كل ما وصلت إليه يد جنوده من العمران، انتقاما من الفونسوا السادس الذي هاجم بلنسية التي كانت تحت حكم حليفه القادر بن ذي النون، وشهد البكري خراب قرى بأكملها بأحواز قرطبة [5].

أما الفونسوا السادس فقد استشاط غضبا عندما علم بأن المعتمد بن عباد قد قتل رسوله اليهودي الذي بعثه مع لمة من الفرسان لاستلام الجزية منه، فسار بجيوشه يفتح المعاقل ويخرب القرى، حتى بلغ فرضة المجاز من طريف على جبل طارق ، وخرب العمران المحيط بمدينة طليطلة عندما فرغت خزائن القادر بن ذي النون من المال وعجز عن دفع الجزية[6]، وسمحت الأموال الضخمة والغنائم المتنوعة التي غنمها النصارى أثناء حروبهم مع ملوك الطوائف من بناء الكثير من الاديرة والكنائس والمرافق العمرانية المختلفة[7].

---

[1]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 153.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 100، 101؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج3، ص 34.

[3]- العذري: نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، (د.ط)، (د.ت)، ص 87؛ السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، ص ص 31-32.

[4]- مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ص 124-125.

[5]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص ص99- 100، البكري: المصدر السابق، ج2، ص 902.

[6]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص ص269- 271.

[7]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 330.

إن التخريب الذي طال العمران المدني بسبب الصراعات العسكرية قابله تنافس محموم بين الملوك في التشييد بلغ الذروة، فقد شيد ملوك الطوائف عددا من القصور كانت آية في الإتقان والجمال جلبوا لها الصناع والحرفيين المهرة من كل مكان أهمها قصر الناعورة بطليطلة، وقصر الجعفرية بسرقسطة، وقصر القصبة بمالقة، وقصر الصمادحية بألمرية، وقصر الشراجيب بشلب وغيرها. هذا التنافس بين الملوك في العمران تسبب في نهضة عمرانية جعلت البعض يعتبر عصر الطوائف أزهى عصور العمارة المدنية في الأندلس[1]، بسبب توسع ملوك الطوائف في بناء القصور توسعا رهيبا، فلم يكن أحدهم يقتصر على قصر واحد بل يشيد قصورا، فالمعتمد بن عباد مثلا شيد في اشبيلية الثريا، والمبارك، والتوحيد، والزاهي، والمؤيد، والزاهر[2]، وهذا التنافس في العمران من إفرازات الصراعات العسكرية لأنه يعكس قوة الدويلة وهيبتها.

غير أن المعمار الذي نتحدث عنه هنا هو معمار الطبقة الأرستقراطية التي كانت ممسكة بزمام الحكم والثروة معا، فبنيت قصور في المرية وطليطلة وغرناطة وإشبيلية وبلنسية وصرفت فيها أموال خيالية لتنميقه وزخرفته أما عمران الطبقة البسيطة فكان متواضعا تواضع أحوال سكانه، وعلى أية حال فالسيد عبد العزيز سالم يرى بان العمران الأندلسي قد بلغ مرحلة النضج واكتسب كامل نضارته في عصر الطوائف[3].

ولأن القناطر جزء لا يتجزأ من العمران البشري فقد طاله التخريب في الأندلس خلال هذه الفترة، ففي بعض المعارك التي نشبت بين بعض ملوك الطوائف تهدم القناطر كجزء من التكتيك الحربي وهذا ما فعله باديس ابن حبوس مع زهير العامري الذي قام باختراق أراضيه بجيشه وعزم على غزو غرناطة سنة 429هـ/1038م، فلقيه باديس وناظره لكن زهير أغلظ له القول فقرر باديس قتاله فأمر جنده بهدم القنطرة الواقعة خلف جيش زهير حتى لا تتمكن من الفرار[4]، وفي قرطبة أيام الفتنة قام واضح العامري كإجراء احترازي-مع عدم صوابه- بتخريب منية الرصافة وحرقها وقطع ثمارها حتى يجنب قرطبة دخول البربر إليها من جهة الرصافة[5].

1- السيد عبد العزيز سالم: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، أفريل ماي جويلية، 1977، ص99؛ السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 188.

2- السيد عبد العزيز سالم: نفسه، ص 194.

3- السيد عبد العزيز سالم : نفسه، ص 160.

4- ابن الخطيب: أعمال الأعلام،ج2، ق2، ص 202؛الإحاطة، مج1، ص 519؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 422.

5- ابن عذاري: المصدر نفسه، مج2، ص 371؛ حسين مؤنس:موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 407.

لقد تضرر العمران المدني كثيرا، وقد تكون العبارة التي وظفها ابن عبود في وصفه لحجم الخراب الذي أصاب دويلات ملوك الطوائف في القرن الخامس الهجري كافية لإدراك ومعرفة مدى التدمير الذي تعرض له هذا العمران حيث قال: "**ان دول الطوائف تعرضت لعمليات واسعة من الهدم والتخريب**"[1].

كما يمكن اعتبار الهجرة الجماعية للسكان من منطقة ما نوعا من الخراب لكون ذلك حدث بسبب الصراعات العسكرية، فتسمية العمران توحي بوجود سكان يعمرون البنايات وهجرانها يضفي عليها نوعا من الخراب وهذا ما حدث في المناطق التي وقعت تحت حكم مبارك ومظفر العامريين فقد أجبرا في الأشهر الأولى من حكمها سكان هذه المناطق على الهجرة منها بسبب الضرائب الفادحة التي فرضت عليهم ما جعل ابن حيان يصف هذه الأقاليم بأنها قد خربت عن آخرها وربما أصيب العمران كذلك بالخراب لأن مبارك ومظفر كان يستعملان العنف لإجبار السكان على دفع الضرائب[2].

ثانيا: العمران الحربي:

لم يسلم العمران الذي شيد لأغراض حربية هو الآخر من الخراب بل جرى عليه ما جرى على العمران المدني فعندما خرج عبد الله بن بلقين بجيشه لتأديب أخيه تميم بسبب اعتدائه على عدد من أقاليمه انتزع منه عشرين معقلا وهدَّم عددا من الحصون التي يعتقد أنه في غنى عنها[3]، فهذه الحصون شيدها تميم لأغراض حربية لكن عبد الله هدمها حتى لا تشكل في المستقبل منطلقا لهجومات تميم، إلا أن خوفه بعد معركة الزلّاقة من قيام الفونسوا بأعمال انتقامية داخل غرناطة جعله يجتهد في بناء الحصون ووإصلاح ما يحتاج منها إلى إصلاح، إضافة إلى ترميم الأسوار المتضررة والزيادة في ارتفاعها[4]، فعمليات الهدم والبناء التي نفذها عبد الله بن بلقين من آثار الصراعات العسكرية وإفرازاتها.

وعندما نتحدث عن آثار الصراعات العسكرية على العمران الحربي فنحن لا نكتفي بذكر الدمار الذي يصيبه من جراء ذلك بل نذكر كذلك تلك التحصينات التي يقوم بها بعض القادة في بعض المدن حتى تتمكن من الصمود في وجه الهجمات الخارجية، ومن ذلك ما قام به أمراء الأقاليم المختلفة في الأندلس عندما سمعوا بفادحة بربشتر فقد عمدوا كما قال ابن حيان إلى حفر الخنادق حول المدن وتعلية أسوارها وشد الأركان وتوثيق البنيان[5]، وعلى الرغم من أن هذه الإجراءات التي قام بها الأمراء تنم عن

---

[1]- أمحمد بن عبود:جوانب من الواقع الأندلسي، ص 124.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 15-16 ؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 415.

[3]- عبد الله بن بلقين: المرجع السابق، ص 92؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403-483هـ، ص 178؛ خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: المرجع السابق، ص 58.

[4]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 120، 130.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 181؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 481.

ضعفهم وعدم امتلاكهم القدرة على مواجهة العدو إلا أنها أثرت على العمران تأثيرا إيجابيا وساهم الخوف والهلع في تقديم إضافات للجانب العمراني.

وقام مظفر ومبارك العامريين في بداية حكمهما في بناء بلنسية وتحصينها بسور أحاط بها من جميع جهاتها، وكانت تلك التحصينات سببا في انصراف الطامعين فيها عنها[1]، فنلاحظ هنا بأن مخاوف مظفر ومبارك من الصراعات العسكرية التي تدور غير بعيد عنهما قد تركت على العمران أثرا إيجابيا، فحصنت المدينة وزيد في عمرانها.

ولما تغلب خيران العامري على المرية جعلها عاصمة ملكه ، فاجتهد في تحصينها وإعمارها، فازدهر عمرانها وكثرت تحصيناتها[2]، فهذه النهضة العمرانية ما كانت لتحدث لولا مخاوف خيران من الغزو بسبب الصراعات العسكرية المهيمنة على الأندلس في هذه الفترة.

وتوجس باديس ابن حبوس خيفة من الهجمات العسكرية ومن المؤامرات التي كان يحيكها المنافسون له في الحكم من أبناء عمومته فبنى مالقة بعد أخذها من الحموديين، وبالغ في تحصينها حتى لا يقدر عليها أحد ، كما أحاط غرناطة بسور يحميها من الغارات المتكررة[3]، وقام حفيده عبد الله بن بلقين ببناء عدد من الحصون على طول حدوده الشرقية المتاخمة لبلاد المعتصم بن صمادح ليؤمن بلاده من أطماعه[4]. لقد دفعت الصراعات العسكرية ملوك الطوائف إلى تحصين مدنهم وبناء منشآت عمرانية عسكرية في كل مكان بالأندلس وهذا بلا شك أثر إيجابي للصراعات العسكرية على العمران.

لقد أرغمت الصراعات العسكرية ملوك الطوائف على تشييد القلاع والحصون وتجديد ما يحتاج منها إلى التجديد مبالغة منهم في تحصين مدنهم من الغزو الخارجي فقد حول بنو حمود حصن فارو بمالقة إلى قلعة منيعة وأقاموا بها برجا هائلا للإشراف على مالقة وخليجها[5]، كما قام خيران العامري ببناء جزء من قصبة المرية وهي قصبة تتوزع على ثلاث مرتفعات غير متساوية أمنعها الجزء المبني على المرتفع الأعلى والذي شيده خيران العامري وقد جعل فيه البساتين والحدائق وجلب لها الماء من المدينة[6]، أما باديس بن

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 16-17؛كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الإسلامية، ص 91.

[2]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 200؛ محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ انشائها حتى استيلاء المرابطين عليها (344-484هـ/955-1091م)، تصدير السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 1981، ص ص 171-172.

[3]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 43؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 289؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة على عهد بني زيري البربر، ص 302؛ خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: المرجع السابق، ص53، 408.

[4]- مريم قاسم طويل: المرجع السابق، ص 179.

[5]- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 138.

[6]- السيد عبد العزيز سالم: نفسه، ص 140.

حبوس فقد أعاد تشييد قصبة مالقة بين عامي 448/1056 -454هـ/1062م وأحاطها بأسوار منيعة تتخللها أبراج ضخمة مربعة الشكل إضافة إلى قصره ومجموعة من الدور الصغيرة، وبعد تولي حفيده عبد الله حكم غرناطة ضاق به وزيره سماجه ذرعا وسعى لإسقاط دولته ففر إلى المعتصم بن صمادح وزين له غزوه وبلغ ذلك عبد الله فقام بتحصين المدينة[1].

وتشير المصادر العربية إلى أن حصن الفرج قد تعرض للتخريب فقام المعتمد بن عباد بإصلاحه وترميمه سنة470-471هـ/1077-1078م حتى يستعيد دوره الحربي الذي بني من أجله إلا أنه تعرضه للهدم والتخريب في مرحلة لاحقة وهذا دليل على أن المواقع العسكرية مستهدفة أكثر من غيرها أثناء الحروب ومنها المرحلة محل الدراسة[2].

وبما أن الأساطيل البحرية في زمن مبشر ناصر الدولة في جزيرة ميورقة كانت تجلب له الأموال الكثير والنفائس المختلفة فقد سخر ذلك لإحداث نهضة عمرانية هائلة تضاهي ما فعله الإسكندر المقدوني وهارون الرشيد كل في عصره ومصره، فشيد القصور والقلاع والحصون وغيرها من مرافق العمران التي تجعل المدينة محصنة، وقد أشاد ابن اللبانة[3](ت 507هـ/1113م) بهذه النهضة قائلا:

وعمرت بالإحسان أفق ميورقة   وبنيت فيها ما بنى الإسكندر

فكأنها بغداد أتت رشيدها   ووزيرها وله السلامة جعفر

فهذا أثر ظاهر من آثار الصراعات العسكرية على العمران فإن الأموال التي أحدث بها مبشر ناصر الدولة نهضته العمرانية الهائلة غنمتها أساطيله من الصراعات المسلحة التي تخوضها في عرض البحر الأبيض المتوسط.

---

[1]- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 142؛ محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية، ص 7.

[2]- باسيليو بابون مالدونادو: العمارة في الأندلس- عمارة المدن والحصون، ترجمة علي ابراهيم منوفي، مراجعة وتقديم محمد حمزة الحداد، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط1، 2005، ص 234.

[3]- ترجمته عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج2،ص409؛ ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق ابراهيم الأبياري-حامد عبد المجيد- أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع، بيروت، ط1955، ص 178.تنظر ترجمته عند ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت،1977، ج5، ص 39، رقم الترجمة 206؛ وعند الضبي: بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989، ص 143-144، رقم الترجمة 214؛ الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص ص 373-374، رقم الترجمة 215؛ ابن العماد: شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط-محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 1989، ج6، ص 33.

ويمكن إلحاق القصور الملكية المحصنة بالعمران الحربي كون هذه القصور تمثل الأماكن التي تدار منها دفة الحكم، وهنا كما يقول باسيليون يجب أن نفرق بين قصر الحاكم والقصر الملكي[1]، ولعل باسيليون يريد التمييز هنا بين مقرات الحكم ومقرا إقامة عائلة الملك، فالذي يمكن إلحاقه بالعمران الحربي هي مقرات الحكم التي تدار منها أمور الدولة فهذه الأماكن تكون محصنة ومحروسة بالجند خوفا على حياة الملك لذلك يطلق عليها اسم القصبة أي المكان الأكثر تحصينا بالمدينة[2]، ولو عدَّدنا هذا النوع من القصور لوجدنا بكل إقليم قصرا على اعتبار أن هذه الأقاليم إن لم يكن بها ملك من الملوك فعامل من عماله، أشهر هذه المدن الملكية التي خربت في غمرة الفتنة القرطبية الزهراء والزاهرة فالأولى دمَّرها البربر والزاهرة دمرها أتباع المهدي[3].

وعندما بويع المستكفي بالله بقرطبة تولى مناصب الدولة من لم يكن أهلا لذلك، فاضطربت المدينة لكثرة المتمردين فيها، وكثرت أعمال النهب والتخريب، وقد شهد ابن حيان قيام الغوغاء بتخريب ما بقي من قصور الناصر التي كان يدير دفة الحكم منها بقرطبة تخريبا وصل إلى حد الاستئصال وطمس معالم قصر الزهراء، واقتلاع نحاس أبوابه والاستحواذ على كل شيء فيه[4].

فهذا الإمعان في تخريب ما بقي من الزهراء سببه غياب الدولة، وعدم قدرة الأجهزة الأمنية التابعة لها على ضبط الأمن، لأن القائمين على هذه الأجهزة من عامة الناس، وكما يقال فاقد الشيء لا يعطيه، فكثر في قرطبة المشاغبون وقطاع الطرق، وعلا صوتهم على صوت الأجهزة الأمنية، فصار كل شيء فيها عرضة للتخريب والنهب.

وفي سرقسطة بعد مقتل منذر بن يحي التجيبي سنة 430هـ/1039م وفرار قاتله يذكر ابن حيان أن العوام نفذوا إلى قصره ونهبوه نهبا لم ير في التاريخ مثله،حيث اقتلعوا مرمره، وطمسوا أثره[5]، فقد أضرت هذه الفتنة بهذه التحفة المعمارية وخربتها، وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على هشاشة الانظمة القائمة وعدم قدرتها على حماية منجزاتها العمراية وغير العمرانية.

---

[1]- باسيليون بابون مالدونادو: المصدر السابق، ص 1840.

[2]- يعرف باسيليون القصبة بأنها: " الحصن بمعنى الكلمة في المدن الأندلس المهمة، فقد كانت رمزا للسلطة، وكانت تجسد المركزية السياسية-إضافة إلى الأغراض العسكرية-" وينقل عن ابن بشكوال بأن هذه القصبات بها مبان حربية المصدر نفسه، ص 83، 91.

[3]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 100؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 541-542؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 408.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 436.

[5]- ابن بسام: نفسه، ق1، مج1، ص 188؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 429؛ حميدة منصور حسن أبو شعراية: المرجع السابق، ص 36.

الفرع الثاني: طرق المواصلات:

عني حكام الأندلس على اختلاف الفترات التي ينتمون إليها بشق الطرق وتهيئة المسالك بهدف تمكين الأشخاص والقوافل من التنقل بين المناطق المختلفة بسهولة، وفك العزلة عن المناطق التي تعاني من ذلك،كما قام الحكام بتأمين هذه المسالك من خلال حاميات عسكرية تتوزع على طول هذه الطرق، ولم يقتصر ذلك على الطرق البرية بل طال الطرق البحرية كذلك، وقد وفق الخلفاء الأمويون في ذلك إلى حد بعيد فشهدت هذه الطرق والمسالك حركة دائمة، إلا أن هذا الأمن وهذا التدفق للأشخاص عبر المسالك المختلفة قد تراجع مع بداية القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ودام هذا الأمر إلى غاية سقوط آخر مملكة للطوائف بسب الصراعات العسكرية التي طبعت هذه الحقبة.

أولا: الطرق البرية:

إن المتتبع لحركة الأشخاص عبر هذه الطرق والمسالك خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ليجد بأنها قد تأثرت بأعمال العنف التي خيمت على الأندلس طيلة هذا القرن، ففي مستهل المائة الخامسة نشبت بين جيش المهدي، وجيش المستعين معارك عسكرية في قرطبة توقفت بسببها حركة الأشخاص من وإلى قرطبة لأن طرق المواصلات لم تعد آمنة، ولأن قرطبة نفسها قد تعرضت للحصار من قبل البربر فلا سبيل للدخول إليها أو الخروج منها، ودام هذا الاضطراب في قرطبة ست سنوات وعشرة أشهر[1].

ويروي البكري الذي عايش المرحلة بأن الكثير من القرى التابعة لقرطبة وغيرها من قرى الأندلس قد محيت آثارها وصارت أثرا بعد عين بعد تخريب الأطراف المتصارعة لها[2]، ونتيجة لذلك تعطلت الطرق والمسالك المؤدية من وإليها أثناء الصراع لأن الناس يمتنعون عن الدخول إلى الأماكن المتوترة أما بعد تخريبها فقد فلا يقصدها الناس لأن الحياة تعطلت فيها بعد هجرة الناس منها.

وتحدث ابن حزم- وهو من شهود العيان- عن أعمال القتل و التخريب التي تعرضت لها مدينة الزهراء على أيدي البربر، فيذكر بأنهم أمعنوا في قتل سكانها وسبيهم، وطال ذلك سكان القرى المحيطة بها، فعمّت الفوضى وساد الرعب، وكثرت الغارات،وتعطلت السبل[3]، ويضيف ابن الخطيب بأن البربر قد

---

[1]- حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج1، ص 407؛ الجعماطي: النقل والمواصلات بالأندلس خلال عصري الخلافة والطوائف (316-483هـ)، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2010، ص 106.

[2]- البكري، المصدر السابق، ج2، ص 902.

[3]- ابن حزم : جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط1982،5، ج1 ص102؛ السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الاسكندرية، ط1986، ص 55.

انتشروا في الكور مثل مالقة والبيرة ، وقعدوا بكل سبيل يصادرون الأموال ويسبون الحريم، ويمنعون التجار من إدخال الطعام إلى قرطبة[1]. وهذا ما جعل حركة الأشخاص والبضائع تتوقف تماما في هذه الأماكن حتى إن الراكب ليمشي شهورا فلا يلتقي في طريقه أحدا[2].

وقد عمل علي بن حمود بعد مبايعته في قرطبة على وضع حد للفوضى التي عششت بالمدينة، فعامل المنخرطين فيها من كبار البربر بقسوة بالغة، ونفذ الحدود بنفسه، وهذا ما جعل قرطبة تنعم ببعض الأمن، واستطاع بحزمه أن يؤمن الطرق والمسالك التي تربط قرطبة بالمناطق المجاورة فنشطت حركة الأشخاص بها، ولكن ذلك لم يدم طويلا، فقد انتهى إلى سمعه بأن القرطبيين قد ضاقوا به ذرعا، فأذاقهم ألوانا من العذاب وسلط البربر عليهم، ففقد الأمن بها من جديد وانقطعت السبل[3].

ومما يفيد بأن الطرق كانت تقطع، ما ذكره ابن حيان من أن علي ابن حمود خرج يوما على باب عامر، فالتقى بفارس من البربر يحمل أمامه حملا من عنب فاستوقفه وسأله عن مصدره، فإذا بالفارس قد انتزعه من صاحبه عنوة وقال له: " أخذته كما يأخذ الناس"[4]، وهذه المقولة تفيد بجلاء تام بأن طرق المواصلات لم تكن آمنة وأن اللصوص وقطاع الطرق بقرطبة كانوا بكل سبيل.

لقد سئم الناس من الفوضى التي ملأت جوانب قرطبة، فقرر الكثير منهم مغادرتها،بحثا عن أماكن آمنة، لكنهم فوجئوا بسيطرة البربر على الطرق والمسالك، فقتل الكثير منهم قبل وصوله إلى مأمنه وهذا ما تنطق به كتب التراجم، فقد ذكر ابن بشكوال أن رجلا يدعى راشد بن ابراهيم بن عبد الله خرج من قرطبة متجها نحو الجوف –المناطق الشمالية– فذبح بالطريق[5]، وخرج الفقيه عمر بن عبيد الله المعروف بالزهراوي (ت 454هـ/1062م)، من داره بالربض الغربي ومعه ثمانية أحمال من الكتب يحاول نقلها إلى مكان آمن حتى لا تتعرض للتلف،لكن لسوء الحظ وقعت في يد البربر فانتهبوها[6].

فما ذكره ابن بشكوال عن الرجلين يوحي بأن الطرق المؤدية من وإلى قرطبة قد وقعت كلها تحت سيطرة البربر والقوى المتناحرة في قرطبة، وكل من يسير فيها يتعرض إما للقتل أو النهب.

1- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 110.

2- حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 408.

3- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص ص 97-99.

4- ابن حيان القرطبي: المصدر السابق، ص 39؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 482؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 488.

5- ابن بشكوال : المصدر السابق، مج1، ص 260.

6- ابن بشكوال: المصدر نفسه، مج2، ص 13.

ويبدوا بأن إنعدام الأمن في الطرق والمسالك كان ظاهرة عامة في الأندلس خلال عصر الطوائف، وطال جميع فتراته، فبعد تولي زمن هشام المعتد الحكم بقرطبة عهد بتسيير شؤون الدولة إلى وزيره حكم بن القزاز، فملأها ظلما وجورا، فتعطل كل شيء فيها، وخلت طرقها من الحركة فلم يرغب في الدخول إليها كل من سمع بما يحدث فيها[1].

وقد حمل بعض المؤرخين أشخاصا بعينهم مسؤولية انعدام الأمن في الطرق والمسالك فابن حيان يصف محمد بن عبد الله البرزالي بأنه "**قطب رحى الفتنة**" لأنه كان يحرض القاضي ابن عباد على شن الغارات على بطليوس وقرطبة، وكان شديد الحرص على عدم قيام الخلافة الأموية مرة أخرى بقرطبة لذلك كان يبالغ في حصارها وقطع طرقها[2].

فيذكر ابن حيان أن البرزالي هذا صاحب قرمونة كان يقطع السبل على قرطبة ويشدد عليها الخناق ولم ينقطع عنها شره إلا بعد استعانة وزرائها بفريق من بني برزال بشدونة[3]، وذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن جهور، أساء السيرة بعد توليه الحكم بقرطبة في حياة أبيه ، وتسلط على المسلمين، وزرع الفوضى في كل مكان، وشكل بطانة من الأشرار والمجرمين، فقطعوا الطرق وأخافوا المارة[4]، وفي رسالة بعث بها محمد بن عبد الواحد البغدادي إلى الوزير أبي المطرف بن مثنى وزير المأمون بن ذي النون المتوفى سنة 458هـ يخبره فيها بأنه قد مر ببعض مناطق الأندلس الواقعة في طريق طليطلة، فوجد الأمن فيها منعدما ووجد الطرق والمسالك ممتلئة باللصوص وقطاع الطرق، ما جعله يحترس أثناء تنقله[5].

وتذكر الروايات التي تحدثت عن هجوم المعتضد بن عباد على لبلة لاحتوائها واستنجاد حاكمها بالمظفر بن الأفطس أن هذا الأخير أنجده ودارت بينه وبين ابن عباد معركة طاحنة، فأرسل إلى حلفائه من البربر يحرضهم على عزو إشبيلية فأجابوه إلى ذلك ودخلوا اشبيلية معا فعاثوا فيها فسادا وأمعنوا في قتل سكانها وساد الرعب وتسببت هذه الحالة في انعدام الحركة في الطرق المؤدية من وإلى اشبيلية كلها[6].

وفي سنة 442هـ/1050م، وبعد انتهاء الحصار الخانق الذي ضربه المعتضد بن عباد على المظفر بن الأفطس واستيلائه على عدد من حصونه، أرسل المظفر رسولا إلى قرطبة ليجلب له وصائف ملهيات يأنس بهن، فالتمس له صبيتين، وعندما أراد الخروج بهما إلى بطليوس لم يستطع لأن خيل المعتضد

1- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 522.
2- ابن بسام: المصدر نفسه، ق2، مج1، ص 21.
3- عنان: المرجع السابق، ص 36.
4- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 464.
5- ابن بسام: المصدر السابق، ق 3، مج1، ص 411.
6- ابن بسام : المصدر نفسه، ق2، مج1، ص 34.

قطعت جميع الطرق المؤدية من وإلى قرطبة، ولم يتسن له الخروج إلّا مع حشد من الجنود قاموا بمرافقته[1]، فهذا هو حال المناطق المتوترة في الأندلس في عصر الطوائف، يعجز الإنسان عن الانتقال منها إلى غيرها، وأغلب الجهات بالأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كانت ملتهبة، فلا تكاد تجد منطقة تنعم بالهدوء وهذا ما فهم من كلام ابن حزم في إحدى رسائله حيث يذكر بأن ملوك الطوائف جميعا يقومون بشن الغارات على أموال المسلمين، ويبيحون لجنودهم قطع الطريق[2]، فالطرق والمسالك على مدار العام عامرة باللصوص وقطاع الطرق، وهذا ما يجعل الحركة في الطرق والمسالك مشلولة.

فهذا المأمون بن النون بعد استيلاء المعتمد بن عباد على قرطبة، سلط على سبلها رجلا له يقال له ابن عكاشه، وجعله عينا عليه في حصن قريب منها، فكان يخيف السبيل[3]، أي يقطع الطرق المؤدية إليها ويعترض الداخلين إليها والخارجين منها، أما حصن **لييط** الذي شحنه الفونسوا بالعتاد والرجال فقد كان النصارى ينفذون منه الغارات على مرسية، ولورقة، والمرية فتسبب ذلك في حالة من الهلع والرعب خلت بسببه طرق المواصلات من المسافرين.

وفي سنة 487هـ/1094م حاصر الكمبيطور بلنسية مدة، فقطع طرق ومنع الناس من الدخول إليها أو الخروج منها، بهدف إضعافها تمهيدا لاقتحامها، حتى أن التجار الذين جلبوا الطعام لبيعه داخل المدينة لم يسمح لهم بالدخول[4]، وبعد استيلائه عليها ، شرع في شن الغارات على دانية والمدن المجاورة ، فساد الخوف، وأحجم الناس عن الدخول أو الخروج فتعطلت حركة المواصلات بالمرّة[5].

وعندما جيّش مجاهد العامري الجيوش سنة 417هـ/1026م وخرج لقتال خيران العامري صاحب المرية واستئصاله تسبب ذلك في انقطاع الطرق، وتوقف حركة المواصلات، حتى إن صديقا لابن حزم من المرية نزل عنده في داره بشاطبة، كان يريد العودة إلى بلده، فلم يقدر بسبب الخوف الذي خيم على الطرق[6].

ولم تسلم الطرق والأزقة التي يستعملها المارة داخل المدن والقرى للانتقال عبرها من مصادرتها من قبل البعض وصرف الناس عنها بأساليب مختلفة كإلقاء الأوساخ فيها أو إغلاقها وضمّ المغلق لها إلى

[1]- ابن بسام:المصدر السابق، ق2، مج1، ص 35؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ص 450؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج2، ص 16.

[2]- ابن حزم:رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 173.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 269.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 97.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج3، ص 28.

[6]- ابن حزم:طوق الحمامة، ج1، ص217.

أملاكه وهو كثير في عصر الطوائف وهذا ما تنطق به الشكاوى الكثيرة التي رفعت إلى المفتين والقضاة بشأن ذلك وشهد ابن سهل (ت 486هـ/1093م) بعضها باعتباره صاحب خطة القضاء في هذا العصر، والسبب في انتشار هذا النوع من التجاوزات في عصر الطوائف ضعف الكثير من دويلات الطوائف وانشغالها بالصراعات العسكرية داخليا وخارجيا، وعدم قدرتها على بسط الأمن داخل مدنها[1].

وبخصوص الطرق البرية التي تربط دويلات الطوائف بالممالك النصرانية المتاخمة لها، فتمدنا بعض المصادر التاريخية بوجود اتفاق بين المقتدر بن هود صاحب سرقسطة وسانشوا الرابع حاكم نافار سنة 460هـ/1068م يقضي بتأمين حركة الأشخاص عبر هذه الطرق[2]، فالصراعات العسكرية بين الطرفين قد أثرت على حركة الأشخاص عبر هذه المسالك ما جعل الاتفاق ضرورة ملحة.

ويذكر عبد الله بن بلقين أن أخاه تميم الذي كان حاكما في مالقة قد بنى حصنا يسمى حصن اشتنير، وشحنه بالرجال من أجل قطع الطريق بين غرناطة ومالقة[3]، فلا شك بأن تميم قد فعل ذلك خوفا على ملكه من أخيه، فمنع الناس بسبب ذلك من التنقل عبر هذا الطريق، ورآى عبد الله أنه لا يستطيع منازلة مالقة إلا بعد الاستيلاء على حصن منت ماس إذ كان المعتصمون به يقطعون الطريق أمام القوافل التجارية التي تحمل الطعام إلى المناطق المختلفة في غرناطة[4].

وذكر عبد الله بن بلقين أن قائدا من قواد الزيريين على أرجذونة أنتقيره يدعى كباب بن تميت، اجتمع إليه الأشرار من كل قطر، فكان يقطع الطريق بهم، ويخيف الناس، وينتزع من المسافرين أموالهم، حتى صار لا يتجرأ على المرور بجهته أحد[5].

أما على صعيد الآثار الإيجابية للصراعات العسكرية، فقد أتاحت الغنائم الضخمة التي غنمها النصارى من المسلمين أثناء المعارك شق طرق المواصلات، وبناء الكثير من القناطر في الأقاليم النصرانية[6].

ثانيا: الطرق البحرية:

تأكدنا من أن الطرق البرية في عصر ملوك الطوائف كانت مستهدفة وكان الأمن بها مفقودا في كثير من الأحيان وحركة السير معطلة ما جعل المسالك المائية بديلا لا مناص منه، فكل الأخبار المستقاة من

---

[1]- الجعماطي: النقل والمواصلات، ص ص 402-403

[2]- كونستيبل: المرجع السابق، ص 92.

[3]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 91.

[4]- عبد الله بن بلقين: نفسه، ص 92.

[5]- عبد الله بن بلقين، نفسه، ص 95، 97؛ خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: المرجع السابق، ص 60.

[6]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 330.

بطون المصادر تؤكد بأن حركة النقل المائي كانت نشطة خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي في البحر الأبيض المتوسط وخلال شبكة الأنهار الكبرى فبعض الأشعار التي تعود إلى القرن الخامس الهجري تكشف عن استعمال نوع من المراكب الحربية تسمى **"الغراب"** في نقل المسافرين وفي الرحلات الترفيهية على طول الأنهار الأندلسية ومنها شعر ابن خفاجة(ت533هـ/ 1139م) الذي يصف فيه تسابق المراكب قرب جسر على نهر شقَّر، ومن كثرتها واصطفافها جنبا إلى جنب تحت الجسر وصفها ابن خفاجة بالخيول الدهم[1]، وربما يعود استعمال هذا النوع من المراكب لنقل المسافرين إلى الأجواء المضطربة في الأندلس من أجل ضمان سلامة المسافرين.

أما التنقل عبر البحر فنستشف من القصيدة التي وجهها ابن دراج القسطلي إلى خيران العامري يمدحه بها، ويصف فيها محنته أثناء ركوبه البحر إلى المرية بأن الفتن الداخلية قد جعلت التنقل عبر الطرق البرية أمرا تكتنفه الكثير من المخاطر ما جعل المسافرين من مكان إلى مكان يفضلون ركوب البحر[2].

غير أن التنقل عبر البحر لم يكن آمنا دائما فأثناء الحروب البحرية بين دويلات الطوائف تتعطل حركة النقل البحري بالكامل وهذا ما فهم من كلام ابن حزم عن صديق له يسكن المرية خرج لحاجة له في شاطبة ولكنه لم يستطع العودة إلى المرية بسبب حرب نشبت بين مجاهد العامري وخيران العامري سنة 417هـ/1026م حيث يقول:" فانقطعت الطرق بسبب هذه الحرب وتحوميت السبل واحترس البحر بالأساطيل"[3].

وفيما يتعلق بحركة الملاحة البحرية نحو المشرق فلم تكن كذلك آمنة دائما فقد كانت الأساطيل المسيحية تمارس القرصنة من حين لآخر وقد قتل خلال هذه العمليات عدد من المسافرين من المرافئ الأندلسية نحو المشرق حسب المعلومات التي تقدمها كتب التراجم وممن مات بسبب ذلك عبد العزيز بن علي الشهرزوري[4] الذي زار الأندلس سنة 426هـ/1035م حيث قتل في العام الموالي على يد قراصنة مسيحيين بعد مغادرته لميناء دانية[5].

---

[1]- ابن حمديس: المصدر السابق، ص 434؛ أبو إسحاق ابراهيم بن أبي الفتح بن عبد الله بن خفاجة الأندلسي: ديوان ابن خفاجة، شرحه وضبط نصوصه وقدم له عمر فاروق الطباع، دار القلم، بيروت، لبنان، ط1994، ص37؛ عبد السلام الجعماطي: دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار في الغرب الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص 63.

[2] -HENRI Pérés : la poésie Andalouse en arabe classiqueau au XIème siècle, 12eme édition 1953,pp214-215.

[3]- ابن حزم: طوق الحمامة، ج1، ص ص 216-217.

[4]- ترجمته عند ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 473.

[5]- الجعماطي: النقل والمواصلات، ص 130.

كما يخبرنا ابن بسام بأن سقوت البرغواطي صاحب سبتة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي قد بث سراياه في مضيق جبل طارق فكانوا يمارسون قرصنة السفن، فتأثرت حركة الملاحة البحرية في هذا المكان سلبا بأعمال السلب والنهب ومصادرة السفن والمعدات وانتشر الرعب بين المسافرين[1].

ولم يكن النقل عبر الأنهار في عصر الطوائف قاصرا على الأشخاص بل شمل البضائع والسلع التجارية، وقد اتخذ الأندلسيون على ضفتي الأنهار الكبرى المعروفة بالأنلس مرافئ ومراسي ترسوا فيها السفن أعظم هذه المراسي مرسى اشبيلية على ضفة الوادي الكبير، كما أن حركة السفن والمراكب لم تنحصر داخل هذه الشبكة النهرية الكبيرة بالأندلس بل امتدت إلى البحار المحيطة بشبه الجزيرة الأيبيرية كالبحر الأبيض المتوسط والمحيط الأطلنطي[2].

وفي مملكة بني عباد كما في غيرها من الممالك التي تخترق أراضيها الأنهار الكبيرة كان الأشبيليون يبحرون في نهر الوادي الكبير بأعداد كبيرة لا للسفر فحسب ولكن للصيد والنزهة والاستمتاع بشرب الخمور، وقد شاهد مؤرخ مجهول قواربهم رائحات وغاديات على امتداد أربع وعشرين ميلا[3]، وكان ذلك ديدن ملوك الطوائف في هذه الفترة فقد كانوا يخرجون للنزهة في مراكب عبر النهر فيصطحبون معهم الموسيقيين والمغنيات والراقصات، وممن كان يفعل ذلك المستعين بالله أحمد بن يوسف بن هود حاكم سرقسطة حيث كان يخرج مع ثلة من أصحابه في مركب عبر النهر مصطحبا معه أنواعا من الآلات الموسيقية العجيبة التي تعزف أعذب الألحان وكانت الزواق تحيط بمركبه في مشهد يأخذ الألباب[4]، وكانت مواكب ملوك بني عباد في الوادي الكبير أكبر من غيرها وهذا يحتاج إلى عدد من الزوارق كبيرة فيشربون الخمور ويستمعون للمعازف، وتذكر الدراسات أن المسرات بهذا الوادي ممتدة على طول السنة[5].

ويبدوا بأن الطرق والمسالك البحرية قد تأثرت بالصراع العسكري بين الأساطيل الإسلامية والأساطيل النصرانية ابتداء من سنة 441هـ/1049م حيث كوّن البابا ليو التاسع حلفا بحريا مسيحيا

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج2، ص 662؛ الجعماطي: النقل والمواصلات، ص 124.

[2]- عبد السلام الجعماطي: دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار في الغرب الإسلامي، ص 137.

[3]- مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد ميغل أسين، مدريد، 1983، ج1، ص 62.

[4]- ابن خاقان: قلائد العقيان، م1، ج2، ق2، ص 55؛ المقري:المصدر السابق، مج1، ص 942؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 158.

[5]- السيد عبد العزيز سالم: صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1979، مج19، ص 64.

برعاية بيزة كبرى جمهوريات إيطاليا البحرية وقاموا بمهاجمة القوات الإسلامية في سردانية وأرغموها على الانسحاب منها، ودمروا جزء لا يستهان به من أسطول دانية[1].

إن انتعاش الأساطيل المسيحية المنخرطة في حروب الاسترداد في البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري قدأثر سلبا على التجارة في الأندلس، فقد سيطروا على طرق التجارة البحرية في غرب المتوسط[2] وفرضوا إتاوات ضخمة على المدن الإسلامية الواقعة في الساحل الشرقي للأندلس وقد استجابت بلنسية وألمرية لهذا الطلب حماية لسكانها من الأسر والقتل[3] وهذا ما جعل أغلب مولى مجاهد العامري الوالي على جزر البليار زمن علي بن مجاهد(436-468هـ/1044-1075م) يؤمّن خطا بحريا تجاريا بين ثغور مملكة دانية والجزائر الشرقية وميناء الإسكندرية في مصر فكانت الشحنات التجارية ترسل في سفن حربية بسبب انتعاش الأساطيل المسيحية في المتوسط[4]، وفي جزر البليار بعد توقيع البحرية الزيرية لمعاهدة السلام مع الجمهوريات الإيطالية والبابوية البحرية سنة 484هـ/1091م، وانسحابها من السجال البحري في المتوسط بسبب سيطرة أعراب بني هلال على قواعده البحرية، وتضعضع قوة أساطيل صقلية وبقاء أساطيل البليار لوحدها في ميدان الحرب انتعشت الأساطيل المسيحية فصالت وجالت في المتوسط وهيمنت على المشهد وتعرضت الثغور الإسلامية في شرق الأندلس لغارات ممنهجة[5].

المطلب الثالث: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على قطاعات الإنتاج

الفرع الأول: الزراعة: تشكل الزراعة رافدا من روافد الاقتصاد المهمة للدول، وهو كغيره من النشاطات يتأثر بالأحوال السائدة في البلدان ازدهارا وانحطاطا حربا وسلما وهذا ما سيتم رصده هنا وسيتم تتبع آثار الصراعات العسكرية على هذا القطاع وفق التقسيم التالي:

أولا:شرق الأندلس والثغر الأعلى:

تشير الأبحاث والدراسات التي أجريت حول القطاع الزراعي في شرق الأندلس إبان عصر ملوك الطوائف إلى وجود نشاط زراعي ملحوظ في هذه الجهة لكن ليس في جميع دويلاته ولا جميع فترات هذا القرن وإنما في بعض الدويلات وفي الفترات التي كان الأمن فيها مستتبا، فبلنسية مثلا عاشت خلال حكم عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) لها (412-452هـ/1021-1060م) استقرار ملحوظا

[1]- عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص 169.

[2]- كونستيبل: المرجع نفسه، ص 119، 123.

[3]- ارشيبالد لويس: المرجع السابق، ص ص371-375.

[4]- عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص 172؛ رابح رمضان: المرجع السابق ، ص 164، 165.

[5]- ابن خلدون: المصدر السابق، ج6، ص 212؛ أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص ص371-375.

لعدم مشاركتها في الحروب التي دارت بين ملوك الطوائف ما جعل الفلاحين والمزارعين ينتقلون إليها من المناطق الملتهبة في الأندلس، وبذلك تفوقت على غيرها في هذا النشاط، وقد ساعد على هذا الازدهار وقوعها على نهر الوادي الأبيض الذي تستعمل مياهه في سقي المزروعات من جهة والساحل الشرقي من جهة أخرى وخصوبة تربتها واعتدال مناخها واستعانتهم في عملية السقي بالنواعير والقنوات، كما شيدوا الأبراج والمخازن لتخزين الحبوب[1]، إلا أن هذا النشاط الزراعي الملحوظ في بلنسية تركز في الأماكن القريبة من الحصون والقلاع،حتى يتمكن الفلاح من النجاة بنفسه عند الهجوم، وتمركز الزراعة في هذه الأماكن دليل على أن الفلاحين ليسوا في مأمن من القتل والسبي وإتلاف غلاتهم، فالصراعات العسكرية إذن هي المتحكم في توزيع النشاط الزراعي بالمنطقة.

ورغم انصراف عدد من الأندلسيين عن هذا القطاع بسبب التخريب الذي يتعرض له على يد المتغلبين إلا أن قطاعا واسعا منهم تشبث بزراعة الأرض وفلاحتها في هذه الفترة العصيبة، وليس أدل على ذلك من الاحتفال السنوي الذي يقيمه سكان المرية والمدن الأندلسية الأخرى بمناسبة جنيهم لمحصول العنب وعصره، فهذا مؤشر مؤشر واضح على اهتمامهم بالفلاحة[2].

وفي سنة 488هـ/1095م حاصر الكميطور بلنسية، فلزمها مدة، وخلال هذا الحصار قام بنسف أقواتها، أي يفسد الزروع والغلات التي كانت خارج المدينة، حتى لا ينتفع بها أصحابها، وقد تسبب ذلك في مجاعة عامة بعد نفاذ الطعام الذي كان بحوزتهم[3].

أما المرية فلم يكن فيها النشاط الزراعي ذا شأن بسبب مناخها المعتدل الذي يسوده الجفاف فسماؤها صحوة في أغلب أيام السنة والأمطار تكاد تكون شحيحة في فصل الشتاء كما أن شعاب الجبال فيها عميقة لذلك قلما تحتفظ بمياه الامطار التي لا تصب كما أسلفنا إلا في أوقات قليلة إضافة إلى سطحها الصخري، وكل غلاتها وبساتينه تتركز على طول وادي بجانة[4].

والجدير بالذكر أن دويلات الطوائف في شرق الأندلس لم يتعرض فيها القطاع الزراعي للتخريب كما حدث في وسط الأندلس وغربها وجنوبها إلا في بعض الأوقات وهذا يعود لقلة المناوشات بين العامريين في هذه الجهة، فأغلب هذه الدويلات استطاعت ان تنعم بالهدوء والاستقرار لسنوات طويلة ولم تتعرض محاصيلها الزراعية للإتلاف إلا عند غزو النصارى لها كما حدث عند اقتحام الكنبيطور لبلنسية.

---

[1]- كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية، 255، 256، 258، 260؛ محمود مكي: المرجع السابق، ص107.

[2]- مريم قاسم طويل: مملكة المرية على عهد بني صمادح، ص ص 65-66.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 97.

[4]- محمد أحمد أبو الفضل: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي، ص 29، 201، 202؛ بجانة مدينة بالأندلس كانت في قديم الدهر من أشرف قرى أرش اليمن...ينظر الحميري: الروض المعطار، ص 79.

وفي كثير من الأحيان يتخذ إتلاف الزروع كجزء من التكتيك الحربي لإضعاف المدينة المحاصرة وإجبارها على الاستسلام، وفي هذا الصدد يجب أن نذكر ما تعرضت له أراضي بن هود على يد النصارى استجابة لطلب المأمون بن ذي النون الذي عزم على الانتقام من ابن هود لأنه انتزع منه مدينة وادي الحجارة، فاجتاحت قوات فرناندوا الأول أراضي ابن هود، وصالت فيها، وجالت دون أن يتصدى لها أحد وأمعنت في تخريبها وابن هود متحصن منهم في حصونه، وكان ذلك في بداية فصل الصيف والزروع على وشك الحصاد، فحصدها جنود النصارى، ونقلوها إلى بلادهم، وأفرغت المنطقة من جميع الزروع والأقوات[1].

إن إخبار ابن عذارى لنا بأن النصارى الذين استعان بهم المأمون بن ذي النون على غزو أراضي سليمان بن هود فعلوا ذلك في شهر الحصاد، فتحصن منهم ابن هود في حصونه، فحشروا جنودهم لحصاد الزروع ودرسها ونقلها إلى بلدهم وقد استغرق ذلك منهم شهرين كاملين فيه دليل على اهتمام الفلاحين في هذه الفترة العصيبة بالفلاحة من جهة وتأثرها بالصراعات الدائرة في الأندلس من جهة أخرى[2].

وعاث النصارى في شرق الأندلس عندما سمعوا بجواز يوسف بن تاشفين للمرة الثالثة، فشنوا الغارات على سرقسطة، وبلنسية، ودانية، وشاطبة ومرسية، فخربوا مزارعها[3]، وما من تفسير لفعل النصارى بالمزارع في هذه النواحي سوى أنهم يريدون إدخال سكان هذه المناطق في مجاعة عامة حتى تضعف سواعدهم عن معاونة المرابطين في عمليات الجهاد وصد العدوان النصراني.

ثانيا: الأندلس الوسطى والغربية:

لم يكن النشاط الزراعي في دويلات الطوائف بوسط الأندلس وغربه يختلف عنه في شرقه فقد شهدت عدد من هذه الدويلات نشاطا زراعيا كبيرا، ففي طليطلة مثلا امتد النشاط الزراعي على طول نهر التاجه كما قام المزارعون بنصب دواليب على النهر ترفع الماء منه وتقوم بصبه في قنوات شقت لسقي بساتين ومزروعات بعيدة نسبيا عن النهر[4].

كما تذكر الأبحاث أن المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة كان مولعا بالأشجار فأنشأ بستانا على نهر التاجه وعهد برعايته إلى ابن بصال وعهد به ابن بصال بعد خروجه من طليطلة إلى صديقه

1-ابن عذاري:المصدر السابق، مج2، ص 498؛ عنان: المرجع السابق، ص 99؛ إبراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص110.

2- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 498.

3- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة على عهد بني زيري البربر، ص 109.

4- السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 156.

الطبيب ابن وافد[1]، وهذا ما جعل الباحث عادل محمد علي الشيخ حسين في حديثه عن تطور الزراعة وعلم النبات في زمن المأمون بن ذي النون يجزم بأنهما قد ازدهرا وبلغا مبلغا لم يصلا إليه في قطر آخر في العالم[2].

ذلك لأن بعض ملوك الطوائف قد خصصوا مشاتل واسعة لغرس وتجربة الأشجار المثمرة والنباتات مع تقديم جميع أنواع الدعم للخبراء العاملين بها، فبلغت العناية بالأشجار والمحاصيل الزراعية ذروتها، ولم تقف عناية المتخصصين في الفلاحة والزراعة عند هذا الحد بل امتدت لتشمل أنواع التربة، وما يصلح لكل نوع من الأشجار والنباتات، وأنواع المياه التي تسقى بها، وأنواع الأسمدة التي تسمد بها الأرض ومتى يكون ذلك وأنواع البذور والثمار والنباتات والأشجار، والخبرات التي يجب توفرها عند المزارعين ، وطبيعة الأمراض التي تتعرض لها المحاصيل وطرق الوقاية منها، والتقويم الفلاحي المرتبط ارتباطا وثيقا بالفلاحة، كما يطال اهتمامهم بعض أنواع الحيوانات التي يقوم الفلاحون بتربيتها كالنحل والدجاج والإوز وغيرها، وطرق محاربة بعض الحيوانات الضارة وهذه الخبرات لم تذهب سدى بل أفرد لها المهتمون كتبا ككتاب ابن وافد[3] وكتاب ابن بصّال وغيرهما[4]، وتمثل المعلومات الفلاحية والزراعية التي دونها هؤلاء العلماء في مصنفاتهم خبرة سنوات من العمل في المجال الزراعي وفلاحة الأرض والتجارب المتصلة التي كانوا يخضعون لها الأشجار والنباتات في الأماكن المخصصة لذلك[5].

وفي اشبيلية بني عباد عرفت الضواحي الريفية التابعة لها استغلالا فلاحيا واسعا، وكان الهدف من هذا النشاط الفلاحي الكبير في هذه القرى هو تحقيق الاكتفاء الذاتي وخاصة في منتوج القمح الذي يعد المصدر الغذائي الأول لسكانها، ولا شك بأن الفضل في ازدهار الفلاحة في ربوع اشبيلية يعود لشبكة

---

[1]- محمد أمشين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1995، ج5، ص 165، فريد جحا: المرجع السابق، ص 363.

[2]- ينظر بحثه حول : النبات في اسبانيا العربية (الأندلس)، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب المنعقدة تحت عنوان: إسهامات العرب في علم النبات، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط1، 1988، ص ص326- 327.

[3]- هو أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن يحي بن وافد بن مهند اللخمي، عني بقراءة كتب جالينوس وتفهمها ومطالعة كتب أرسطوطاليس وغيره من الفلاسفة، تمهر بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه احد في عصره وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له جمع فيه ما تضمن كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة ورتبه أحسن ترتيب، وقد عانى في جمعه وحاول ترتيبه وتصحيح ما ضمنه من أسماء الأدوية المفردة وصفاتها وأودعه إياه من تفصيل قواها وتحديد درجاتها نحوا من عشرين سنة. تنظر ترجمته كاملة عند ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، (بيروت، (د.ط)،(د.ت)، ص 496.

[4]- خوسي مارية مياس بييكروسا:علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، تعريب عبد اللطيف الخطيب، معهد مولاي الحسن، تطوان، المغرب، (د.ط)، 1957، ص 19-20.

[5]- أبو الخير الأشبيلي: عمدة الطبيب في معرفة النبات، قدم له وحققه محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1992، ج1، ص 19، 23، 24، 28.

الأنهار التي تخترق أراضيها ومنه نهر الوادي الكبير، إلا أن هذا النشاط قد تأثر بالغارات التي تنفذ على أراضي اشبيلية من حين لآخر إما من قبل خصومها من ملوك الطوائف أو من قبل القوات النصرانية في الشمال، فكانت الزروع تحرق والبساتين تخرب[1].

ولم يكن شغف المعتمد بن عباد بالحدائق والبساتين أقل من شغف المأمون بن ذي النون فبعد انتقال ابن بصال إليه طلب منه أن ينشئ له حديقة ملكية فلم يتردد ابن بصال في إنشاء بستان يضاهي بستان ابن ذي النون بإشبيلية يضم كل الأشجار المثمرة المعروفة في الأندلس آنذاك[2].

وعلى كل حال فإن هذا التخريب قد طال المزروعات والبساتين في دويلات وسط الأندلس وغربها لكن بنسب متفاوتة ففي سنة 422هـ/1031م شن المعتضد بن عباد عددا من الغارات على أراضي المظفر بن الأفطس أفسد خلالها الغلات، ودمر المزارع، فانعدمت الأقوات داخل بطليوس، وتسبب ذلك في مجاعة عامة[3]، وتكرر ذلك مع مملكة بطليوس كثيرا فقرر البربر معاقبته.

ففي سنة 439هـ/1047م اجتمع عدد من رؤساء البربر وهم باديس بن حبوس، وإسحاق بن محمد البرزالي، ومحمد بن نوح الدمري، وعبدون بن خزرون، والمظفر بن الأفطس، فبايعوا محمد بن القاسم بن حمود وقدموه للخلافة، ثم خرجوا في حلف قاده باديس بن حبوس للرد على العدوان السافر للقوات الإشبيلية على أراضيهم حيث قاموا بمحاصرة اشبيلية لأيام وخلال هذه المدة قاموا بإتلاف المحاصيل الزراعية والبساتين المحيطة بها[4]، إلا أن ذلك لم يثن المعتضد عن عزمه على غزو بطليوس فقام بذلك 442هـ/1050م) فأفسد الغلات وانتسف الزروع كعادته وأجبر المظفر بن الأفطس على الاعتصام بحاضرته كما قام في وقت لاحق على لبلة فخرب بسائطها[5]، فكان التخريب هنا متبادلا بين البربر وابن عباد، وقد كان تخريب الزروع والثمار أثناء الغارات مقصودا، فالقائم بالتخريب يسعى لتجويع خصمه تمهيدا لاقتحامه.

---

[1]- صلاح خالص: المرجع السابق، ص 48.

[2]- محمد أمشين فرشوخ، موسوعة عباقرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1995، ج5، ص 165، فريد جحا: المرجع السابق، ص 363.

[3]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 121؛ سحر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 399.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 463؛ خالد بن عبد الله الشريف: المرجع السابق، ص 49؛ عمر بوخاري: البربر في الأندلس في عصر الطوائف خلال القرن (5هـ/11م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط غير منشورة، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2014-2015، ص 258.

[5]- عنان: المرجع السابق، ص 41، 42.

واستعان سليمان بن هود بفرناندوا الأول للإنتقام من المأمون بن ذي النون لأنه توغل داخل أراضيه بصحبة جيش فرناندوا الأول، فخرج إلى ثغر طليطلة، وجبن الناس عن لقائه، فأفسد غلاتها وأحرق محاصيلها الزراعية، وتسببت الغارات المتكررة على طليطلة في استنزاف أرزاقها[1].

وعندما جاز يوسف ابن تاشفين إلى الأندلس الجواز الثالث سنة 483هـ/1092م سار إلى طليطلة وقام بمحاصرتها وألفونسوا يومئذ بها، فقطع ثمارها إمعانا في التضييق على النصارى فيها[2]، وهذا جزء من التكتيك الحربي الذي تعمل القوات المحاصرة من خلاله على استنزاف قوة المحاصرين وإرباكهم لحملهم على الاستسلام.

وفي قرطبة تحدث ابن حزم عن اهتمام الإنسان القرطبي بفلاحة الأرض وإنتاج أنواع من الغلات كالقمح والشعير والفول والزيتون والتين والزبيب وأنواع من الفواكه والقطن وغيرها إلا أن الضرائب الفادحة الملقاة على عاتق الفلاحين جعلتهم يتوقفون عن زراعة الأرض والهجرة إلى أماكن أخرى للعمل بعيدا عن الضغوطات اليومية[3]، فاتجه عدد كبير منهم إلى بلنسية وكان ذلك سببا في ازدهار الزراعة فيها، فالحكام كانوا يجبرون الفلاّحين على دفع الضرائب لتمويل حملاتهم العسكرية، وهذا السلوك جعل الزراعة تنحصر بل تنعدم في بعض المناطق بقرطبة.

وفي سنة 442هـ/1047م قرر المعتضد بن عباد معاقبة المظفر بن الأفطس بسبب مشاركته سنة 439هـ/ 1047م في الحلف البربري الذي حاصر اشبيلية وخرب المزارع والبساتين المحيطة بها فتوغل المعتضد بقواته داخل أراضي ابن الأفطس وقام بإتلاف الزروع والمحاصيل[4].

وفي طليطلة أثرت الصراعات العسكرية التي نشبت بين المأمون بن ذي النون وسليمان بن هود من جهة وبين المأمون ومحمد بن عباد من جهة أخرى سلبا على القطاع الزراعي فيها حيث كانت الغارات المتكررة تدمر محاصيلها الزراعية وتخرب بساتينها[5].

وإذا كان رحيل المزارعين المهرة إلى بعض المدن الأندلسية فرارا من الحروب يمثل مكسبا وغنيمة للمدن التي تم الفرار إليها ،فهو خسارة للقطاع الزراعي في المدن التي هاجروا منها، فبذهابهم تضاءل حجم

---

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 499؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 285؛ عنان: المرجع السابق، ص 99.

[2]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 153.

[3]- ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 175.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 41، 46.

[5]- إبرهيم بن عطية الله بن هلال السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 161.

النشاط الزراعي في هذه المناطق، وتراجع الإنتاج، وهذا ما تعكسه الندرة المتكررة للمحاصيل الزراعية، والارتفاع الفاحش لأسعارها في الأسواق، وقد تكرر ذلك كثيرا في عصر الطوائف.

ثالثا: الأندلس الجنوبية:

لم تسلم الزراعة في دويلات الطوائف الجنوبية من التخريب أيضا فعندما غزا الفونسوا السادس غرناطة مع المعتمد بن عباد خرب النصارى بسائطها لا سيما مرجها الشهير[1]، ولم يكن النصارى يدخرون جهدا في انتساف الزروع في دويلات الطوائف كلما كانت الفرصة مواتية، وكان ذلك ديدنهم طوال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فهم يعملون على إلحاق أقصى ما يمكن من الضرر بالقطاع الفلاحي فيها كوسيلة ناجعة لإضعافهم ثم إرغامهم على الاستسلام[2].

وتنبؤنا بعض الدراسات التاريخية بأن زراعة قصب السكر قد لقي اهتماما في بعض الممالك الجنوبية كالبيرة، وغرناطة، ومالقة فانتعشت زراعته فيها في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بها[3]، واللافت للنظر أن المزروعات والمغروسات في هذه الفترة قد تأثرت تأثرا واضحا بالصراعات التي نشبت في الأندلس، فكانت تنتعش في الأماكن التي تنعم بالاستقرار وفي فترات معينة من القرن الخامس الهجري بينما تقل أو تنعدم في الأماكن التي تكثر فيها الصراعات، فالصراعات العسكرية هي التي تتحكم في توزيع هذه المنتوجات الفلاحية.

وفي قرمونة تولى عزيز بن محمد بن عبد الله البرزالي الحكم بعد وفاة أبيه سنة 434هـ/1042م وتنازل أخيه عن الحكم له فسار في الناس سيرة حسنة فساد الأمن والرخاء في بلاده، ولكن هذه الأوضاع لم تدم طويلا لأن المعتضد بن عباد قد استأنف غاراته على قرمونة بهدف إضعافها وفي هذه الفترة كان يخترق أراضيها من حين لآخر فينتسف الزروع ويفسد الغلات وقد دام ذلك عدة أعوام[4].

والحق أن المعتضد بن عباد قد سلك مع الإمارات البربرية في جنوب الأندلس مسلك الإنهاك بالغارات وانتساف الزروع وإفساد الغلات كتكتيك حربي يعمل من خلاله على إضعاف الخصم وشل قدرته على المقامة تمهيدا لابتلاعه وهذا ما حدث مع مناد بن محمد بن نوح الدمري الذي تولى حكم مورور بعد مقتل أبيه على يد المعتضد بن عباد فقد أرهقه هذا الأخير بغاراته كما أضرم النيران في أراضيه الزراعية ولم تتوقف تلك العمليات إلا عندما أرسل مناد إلى المعتضد يخبره باستسلامه سنة (458هـ/

---

[1]- عبد الله ابن بلقين: المصدر السابق، ص ص 69-70؛ عنان: المرجع نفسه، ص 63؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة، ص 180.

[2]- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 121.

[3]- جهاد غالب مصطفى الزغلول: المرجع السابق، ص 151.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 151.

1066م)[1]، إلا أن عمليات التخريب هذه للمحاصيل الزراعية والفلاحية قد أثرت سلبا على الزراعة في هذه المناطق فالفلاحون امتنعوا عن زراعة الأرض خوفا من القتل ما جعل هذا النشاط يتقلص في هذه البقعة من الأندلس.

وفي ختام هذا الفرع أقول: إن ظهور علماء كبار في علم الفلاحة أمثال ابن بصّال في طليطلة ثم اشبيلية والطغنري في غرناطة، وابن وافد، وابن اللّونقة في طليطلة(ت 498هـ/1105م)، وأبي عمر أحمد بن محمد بن حجّاج الأشبيلي، وابن سيده المرسي، وأبو الخير الاشبيلي، والبكري وغيرهم في هذه الفترة دليل على أن الفلاحة وزراعة الأرض كانت في صميم اهتماماتهم.

أما على صعيد الآثار السلبية للصراعات العسكرية على الزراعة في القرن الخامس الهجري فقد بلغ مبلغا لم تعرفه الأندلس قبل هذه المرحلة إذ كان ذلك دائما ومتكررا طوال عصر الطوائف، فتضرر قطاع الفلاحة والزراعة من هذه الممارسات ونجمت عنه خسائر فادحة[2].

الفرع الثاني: الصناعات والمهن والحرف: تعتبر الصناعات والمهن والحرف رافدا مهما من روافد الاقتصاد لا تخلوا منها حضارة من الحضارات، فبانتعاشها ينتعش الاقتصاد وبذبولها يذبل، ولعل دويلات الطوائف هي الأخرى قد أدركت ذلك فخصصت مساحة لها، وما من سبيل لمعرفة الصناعات والمهن والحرف المنتشرة في دويلات الطوائف وأماكن وجودها دون تتبع ذلك في المصادر التي أرخت لهذه المرحلة

أولا: الصناعات:

رغم الحروب التي مزقت المنطقة وأنهكت الكثير من القطاعات فيها إلا أن الكثير من الصناعات قد ازدهرت في هذا العصر ومنها صناعة الزجاج، فقد صنع الزجاجون للمأمون قبة من الزجاج الملون ونقشوا عليه بالذهب[3]، وربما تكون هذه القبة هي قبة النعيم التي ذكرها ابن سعيد تنسدل فيها خيمة من ماء يشرب المأمون في جوفها مع خواصه في فصل الصيف فلا تصل إليه ذبابة وتقع هذه القبة في بستان الناعورة[4].

فصناعة الزجاج قد تطورت، فأنتجت منها أنواع وألوان بديعة استعملها الملوك في زخرفة مجالسهم كمجلس المأمون المسمى المكرم المزين ببحور منتظمة من الزجاج الملون الملبس بالذهب والإبريز[5]،

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 155.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 254؛ ابن عبود:جوانب، ص 98.

[3]- حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 492؛ عبد الكريم خيطان الياسري: المرجع السابق، ص516.

[4]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 528؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص9.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 133.

وقد تركزت صناعة الزجاج في مرسية والمرية ومالقة[1] ما يعني أن هذه الصناعات لم تتأثر بالصراعات العسكرية على الأقل داخل قصور الملوك والمترفين في هذه المرحلة، بل ساعد تنافس الملوك في مظاهر الملك على انتعاشها، ولم تخل هذه الفترة من ميكانيكيين، فقد جلب المأمون المهندسين لقصره وقاموا بصناعة ما يشبه النافورة فوق القبة الزجاجية التي جعلها وسط البحيرة يفور الماء فوقها دون انقطاع، وجعلوا داخل القبة شموعا مشتعلة في منظر بديع وتزيين القبة بالشموع دليل على ازدهار صناعة الشمع في هذه الفترة[2]، كما تذكر المصادر التاريخية أن المعتصم بن صمادح أثناء حصار يوسف بن تاشفين لحصن لييط مع ملوك الطوائف أحضر فيلا صنع من خشب وحاول اقتحام الحصن به[3]، لكن النار أصابته فأحرقته، فلا شك بأن انتقال هذا الفيل كان من خلال حيل ميكانيكية.

وفي ألمرية ازدهرت في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي صناعة المنسوجات وقد انتقلت إليها من قرطبة بعد سقوط الخلافة واضطرام الفتنة، ومن بجانة انتقلت إليها صناعة الحرير فبألمرية يعمل الوشي والديباج والحلل الموشية ولم يكن في الأندلس من يجيد ذلك إجادة أهلها[4]، ويعلل الرازي ذلك باجتماع أرباب الصناعات فيها[5]، وليست المرية وحدها المشتهرة بالصناعات النسيجية بل تشاركها فيها مالقة ومرسية المشتهرتان بالوشي المذهب الذي أدهش حسنه أهل المشرق والمغرب وفي مدينة تنتالة من أعمال مرسية تصنع البسط الثمينة وفي غرناطة وبسطة تصنع الألبسة الفاخرة[6].

لقد كان للصراعات العسكرية التي نشبت بين الأطراف المتصارعة أثره الواضح في انتقال الصناعة النسيجية من قرطبة وبجانة إلى المرية، التي كان بها خلال فترة الطوائف خمسمائة منسج[7].

وفي سرقسطة كانت تصنع في القرن الخامس الهجري الثياب المصنوعة من وبر حيوان السمُّور، وقد بلغت في اتقانها حدا لا يضاهى لذلك كانت تعرف بالثياب السرقسطية[8].

وقد اشتهرت أكثر من مدينة أندلسية بصناعة السجاد في القرن الخامس الهجري كتدمير وجنجالة التي ينسب إليها الوطاء الجنجالي لاشتهارها به، واشتهرت كونكة بصناعة الأوطية المتخذة من الصوف ،

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 202.

[2]- المقري: المصدر نفسه، مج1 ص 258.

[3]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 109؛ مريم قاسم طويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص 45.

[4]- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، ص 155، الزغلول: المرجع السابق ، ص 76.

[5] -Levi-provençal: la Description D'Al- Andalus de Razi , Vol ,XVIII ,1953,P 65.

[6]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 201-202.

[7]- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 467.

[8]- العذري: المصدر السابق، ص 22؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 197؛ فطيمة عابد: المرجع السابق، ص 28.

واشتهرت مرسية وتنتالة التابعة لها البسط الفاخرة الباهظة الثمن، وانفردت بسطة بصناعة البسط من الديباج والمصليات[1].

ومما يدل على ازدهار صناعة السجاد الثمين والأفرشة المطرزة بالذهب في هذه الفترة ما ذكره ابن بسام عن القاعة الواسعة في قصر المأمون بن ذي النون فقد قال: " ثم وصلوا إلى مجلس قد فرش بالديباج التستري المرقوم بالذهب، وسدلت فوق حناياه ستور من جنسه تكاد تلتمع الأبصار بصناعة ألوانها وإشراق عقيانها " وأنواع أخرى من القماش والأفرشة التي تأخذ العقول[2]، وتسمية بعض الأفرشة بأسماء بلدان بعيدة عن الأندلس لا يعني أنها لم تصنع بالأندلس بل لنسبتها إلى الأماكن التي ظهرت فيها أول مرة، فقد صارت معامل الأندلس تنتج جميع الأفرشة والبسط والأقمشة المعروفة في مختلف الحواضر المعروفة آنذاك.

لقد كانت دور الطرز منتشرة في الأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ويعزوا بعض الباحثين هذا الانتشار إلى التنافس الحاد بين ملوك الطوائف الذين بذلوا قصارى جهودهم لإحاطة أنفسهم بهالة من الأبهة تضاهي ما كان يفعله خلفاء قرطبة، ونجم عن هذا التنافس تقدم في هذا النوع من الصناعات تقدما لم تشهده البلاد من قبل[3]، وإلى جانب هذه الصناعات ازدهرت صناعة الورق في طليطلة بل أصبحت مركزا لهذه الصناعة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي[4].

ويظهر من الهجوم البحري الذي نفذه المعتضد على المظفر بن الأفطس والقاسم بن محمد بن حمود في الجزيرة الخضراء بأن صناعة السفن والأساطيل البحرية كانت مزدهرة في اشبيلية وبعض المدن الساحلية في الأندلس[5]، ويذكرأحمد مختار العبادي أن بني عباد بإشبيلية كانوا يملكون دارين لصناعة السفن إحداهما في شلب والأخرى بإشبيلية، وقد ذاع صيتهم في ذلك وبلغوا فيها مبلغا فاقوا فيه غيرهم، وهذا ما يؤكده صاحب كتاب مفاخر البربر فقد ذكر أن المعتمد بن عباد أنشأ سفينة عملاقة تضاهي تلك التي تصنعها الممالك العظمى، وهذه السفينة الضخمة التي أمد بها يوسف بن تاشفين في المغرب ليستعين بها على قتال البرغواطيين ما هي إلا قطعة من أسطول العباديين الكبير، كما اشتهرت اشبيلية بصناعة الآلات

1- جهاد غالب مصطفى الزغلول: المرجع السابق، ص 88.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص 130-131.

3- جهاد غالب مصطفى الزغلول: المرجع السابق، ص 93.

4- ابراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 163 ، 183.

5- عنان: المرجع السابق، ص47؛ خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: المرجع السابق، ص 208.

الموسيقية[1]، كما توجد دار أخرى لصناعة السفن الحربية والتجارية بالجزيرو الخضراء أنشأها المنصور ابن أبي عامر وقد استمر نشاطها حتى أواخر عصر الطوائف[2].

ونقل ابن خاقان عن المعتصم بن صمادح صاحب المرية بأنه كان مهتما بصناعة الأساطيل، ولم يكن يشغله عن ذلك شيء لأنه كان جزءا من النشاط البحري لأسطوله سواء كان تجاريا أم حربيا[3]، وهذا دليل كاف على أن هذه الصناعة قد حظيت باهتمام عدد من ملوك الطوائف بعض هذا الاعتناء كان لأسباب عسكرية محضة كمدافعة العدو أو لأغراض سلمية كالتجارة.

وفي بعض المدن الساحلية الأخرى أنشأ حكامها دارا لصناعة الأساطيل الحربية مثلما فعل مجاهد العامري في دانية في مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فأنشأ أسطولا اعتبر حينها من أقوى الأساطيل ساعده على ذلك توفر اليد العاملة المؤهلة، وخبرة سكان هذه البلدة في ذلك إضافة إلى توفر غابات الصنوبر في المناطق المحيطة بدانية ،وينبؤك العدد الكبير المكونة لأسطول مجاهد العامري بازدهار صناعة السفن في دانية والجزائر الشرقية فقد كان مكونا من مائة وعشرين قطعة بحرية[4].

غير أن الصراعات التي نشبت بين ملوك الطوائف قد أثرت على بعض الصناعات، وفي مقدمتها صناعة السفن، فقد تعرضت الكثير من الأساطيل المصنوعة في كثير من الأحيان للحرق، وتسببت الغارات في تعطيل مصانعها، فمعز الدولة ابن صمادح مثلا بعد دخول المرابطين إلى المرية خرج إلى بجاية في جزء من أسطول أبيه وأحرق الباقي[5]، وفي اشبيلية قام المرابطون بعد دخولها وأسر المعتمد بإحراق بعض وحدات الأسطول الأشبيلي الراسية في الوادي الكبير[6].

وأثناء الزحف النصراني على دويلات الطوائف في القرن الخامس الهجري تم الاستيلاء على الكثير من الغابات التي كانت تمول المصانع والورشات بالخشب، ما أدى إلى تراجع هذه الصناعة في الكثير من المناطق الأندلسية[7].

---

[1]- مؤلف مجهول: مفاخر البربر، ص 149؛ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق، ص ص 305-306؛ السيد عبد العزيز سالم- أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1969، ص 201؛ يوسف أحمد حوالة: المرجع السابق، ص 387.

[2]- الجعماطي: النقل والمواصلات بالأندلس، ص 80.

[3]- ابن خاقان: المصدر السابق، ج1، ق1، ص 147؛ أحمد ختار العبادي: المرجع السابق، ص 309.

[4]- عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص 140، 144، أرشيبالد لويس: المرجع السابق، ص 313.

[5]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 186؛ مريم قاسم طويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص 17.

[6]- السيد عبد العزيز سالم- أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 202.

[7]- كونستييل: المرجع السابق، ص 296.

كما أن الصراع العسكري الذي أفضى إلى تقسيم الأندلس قد تسبب في إضعاف هذا القطاع بسب اقتسام ملوك الطوائف لمناطق صناعة السفن، وربما للآلات التي تستعمل في ذلك، وبلا شك اليد العاملة المؤهلة، وهذا فيه تشتيت للجهد المبذول في هذا القطاع.

ورغم ازدهار صناعة السفن والقطع الحربية في عدد من دول الطوائف وخاصة تلك التي تطل على المسطحات المائية كأشبيلية وشلب التي كانت مصانعها تنتج أعدادا كبيرة والمرية في عصر المعتصم بن صمادح الذي حرص على إنتاج أكبر قدر ممكن من السفن وإنشاء أسطول قوي يرابط على سواحلها لمجابهة الأخطار التي تتهدد المرية، فتقدمت المرية على غيرها في هذه الصناعة إلا أن هؤلاء الملوك قد استعملوا السلاح كأداة لتقسيم الأسطول الأندلسي الذي كان مرابطا في مراسي بلنسية، ودانية، ومرسية، والمرية، واشبيلية[1] فاستولى عدد من هؤلاء الملوك على أجزاء من هذا الأسطول، فأدى ذلك إلى تراجع القوة البحرية في الأندلس أمام القوى البحرية المعادية.

كما حافظت صناعة المسكوكات على مكانتها فكان الحكام يصدرون عملات معدنية تحمل أسماءهم وألقابهم الملوكية، فقد عثر في مدينة شمال دانية عام 405هـ/1014م على نقود تحمل اسم الخليفة المعيطي ومجاهد العامري معا وبعد خروج مجاهد العامري إلى الجزائر الشرقية لإخضاعها أعلن المعيطي عزل مجاهد واستبد بالحكم وسك عملة تحمل اسمه فقط، كما عثر على عملات معدنية تحمل اسم حسن سعد الدولة ابن مجاهد العامري[2]، وفي اشبيلية عثر على نقود عبادية بها حروف نفذت بإتقان وترجح بعض الباحثين أن يكون الفنانون الذين زخرفوا هذه النقود من قرطبة هربوا من الفتنة وعملوا عند ابن عباد[3]، فهذا أثر من الآثار الإيجابية للفتنة التي استعرت في قرطبة في العقد الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حيث جعلت المشتغلين بزخرفة المسكوكات ينتقلون من قرطبة إلى اشبيلية لينقلوا إليها خبرتهم في هذا الميدان، وهي إضافة حضارية لإشبيلية، وفي كل دويلة من دويلات الطوائف دار لضرب النقود، وكان كل حاكم من حكام الطوائف يكتب اسمه على عملته غير أن الدور التي اضطلعت بضرب العملات في هذه الدول قد صارت ضعيفة لأن وسائلها الصناعية كانت ضعيفة[4]، وأغلب الظن أن ذلك يرجع إلى اقتسام أدوات دار السكة في قرطبة، فقد تأثرت هذه الدار بالصراعات العسكرية فالمتغلبون

[1]- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، ص ص 48-49.

[2]- عصام سالم سيسالم :جزر الاندلس المنسية، ص 141، 150-151، 164.

[3] - انتونيوا فرنانديز بويرتاس: فن الخط العربي في الأندلس، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2، ص 924.

[4]- جهاد غالب مصطفى الزغلول: المرجع السابق، ص 180.

على الأصقاع عمدوا إلى نهب محتوياتها وتفرد كل واحد منهم ببعض آلاتها وهذا ما جعل دور السكة التي أنشأوها فيما بعد ضعيفة لا ترقى سكتها من حيث الجودة الى سكة قرطبة في عصر الخلافة الأموية.

كما أن الضرائب التي كان ملوك الطوائف يدفعونها للنصارى في الشمال إما رغبا او رهبا قد ساهمت في انتشارها في هذه الممالك النصرانية وشاع تداولها بين سكانها[1]، فالصراعات خدمت العملة الإسلامية من هذا الوجه، وهذا شكل من أشكال تأثير الحضارة الاسلامية بالاندلس في الحضارة المسيحية.

وفي هذه الفترة ازدهرت كذلك صناعة الإسطرلاب وهذا ما تخبرنا به تراجم الكثير من العلماء الذين برعوا في علم الفلك كأبي إسحاق إبراهيم بن يحي التجيبي النقاش المعروف بابن الزرقالة أو الزرقالي (ت480هـ/1087م)، فقد ابتكر نوعا جديدا يسمى الاسطرلاب الكوني الذي يمكن استخدامه من أي مكان والذي يمثل ذروة التكنولوجيا في ذلك العصر، وفي الفترة نفسها أي القرن الخامس الهجري اخترع علي بن خلف فلكي المأمون بن ذي النون الصحيفة الشاملة[2]، وفي متحف بلنسية الآن يوجد اصطرلاب صنع في طليطلة سنة 459هـ/1067م صنعه إبراهيم بن محمد سعيد السهلي وجد اسمه مسجلا تحت الحلقة التي يعلق منها،وقيل بل اصطرلابان يوجدان الآن في متحف طليطلة[3]، كما يخبرنا ابن أبي أصيبعة بأن ابن الصفار الفلكي والمهندس كان له أخ يسمى محمدا كان بارعا في صناعة الاسطرلاب، ولم يكن في الأندلس قبل ذلك من هو أحسن صنعا له منه[4]، وهناك اصطرلاب آخر صنعه عالم يدعى علي بن خلف سنة 464هـ/1072م ،وقد قام بإهدائه إلى المأمون بن ذي النون فسمي بالمأموني.

وإلى جانب الاسطرلابات ازدهرت في الأندلس خلال عصر الطوائف صناعة الساعات خاصة في مملكة طليطلة[5] فالزرقالي اشتهر بصناعة الساعات الدقّاقة كما تسمى، وكان أغلب هذه الساعات يتحرك بواسطة الماء والرمل والكرات الحديدية[6]، ويبدوا بأن طليطلة في عصر الطوائف كانت

[1]– الكركجي: المرجع السابق، ص 152.

[2]- مجموعة من المؤلفين: ألف اختراع واختراع التراث الإسلامي في عالمنا، تحرير سليم الحسني، مؤسسة العلوم والتكنوجيا، المملكة المتحدة، (د.ط)، 2005، ص 296؛ ابراهيم أحمد ابراهيم مصطفى العطار: الجانب الرياضي في الفن الإسلامي كوسيلة لإثراء الابداع في التصوير، رسالة ماجستير في التربية الفنية غير منشورة، جامعة حلوان، مصر، 2004، ص 32.

[3]- السلمي:تاريخ مدينة طليطلة، ص 166، 221.

[4]- ابن أبي أصيبعة:المصدر السابق، ص 484.

[5] -S.P. SCOTT : History of the Moorish Empire in Euroupe, Philadelphia-london, jb Lippincott company,1904, Vol. lll, p435.

[6]- غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (د.ط)، 2013، ص477؛ سعد عبد الله البشري: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس (422-488هـ/ 1030-1095م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1405-1406هـ، ص 623.

رائدة في صناعة الاصطرلابات والساعات، وتنبؤك القصائد التي دبجها الشعراء في وصف النواعير التي تستعمل في سقي المزروعات بأن صناعتها كذلك كانت منتشرة في الأندلس في هذه الفترة[1].

كما ازدهرت صناعة صناديق العاجية التي تحفظ فيها النساء الحلي والمجوهرات وبعض الأغراض الخاصة بالملوك، وقد انتقلت من قرطبة إلى كونكة في طليطلة وأنشئ بها مصنع يلبي طلبات كبار رجال المدينة[2]، وقد عثر في طليطلة على علب لحفظ الأغراض تعود لحقبة المأمون تفنن في صناعتها الصناع القرطبيون الذين نزلوا بمدينة كونكة، وكذا صندوق من العاج رسمت عليه حيوانات في مشهد صيد موزعة في ثلاث صفوف أفقية وقد كتب عليها بالخط الكوفي سنة صناعتها واسم المصنوع له ويبدوا أن هذا الصندوق قد صنع سنة 417هـ/1026م، كما يوجد في متحف مدريد صندوق مشابه تتوزع في المستطيل الذي يقع على جانبيه توريقات ويحيط بالمستطيل حيوانات وطيور متقابلة زوجين زوجين يفصل بين كل زوجين أقواس مفصصة وفي الجانبين الأخرين من الصندوق رسوم للصيد والطعان وقد كتب على تاجه لفظ الجلالة، وعبارات الدعاء واسم المدينة التي أنجز فيها هذا الصندوق وهي مدينة كونكة وبأمر الحاجب حسام الدين أبي محمد إسماعيل بن المأمون وسنة الصنع وكان ذلك سنة 441هـ/1049م[3].

فهجرة عمال الصناعات العاجية والنسيجية وكذ صناعة المسكوكات الصناع من قرطبة المضطربة في زمن الفتنة إلى مدينة كونكة والمرية وطليطلة تعتبر من الآثار المباشرة للصراعات العسكرية في هذه الحقبة، وقد حرمت هذه الصراعات قرطبة من عقولها المبدعة في مجال الصناعات لتفيد بها منطقة أخرى ومملكة فآثار الصراعات العسكرية هنا مزدوجة سلبية على المناطق هاجر منها العمال وإيجابية في المناطق التي نشأت بها مصانع جديدة.

كما اشتهرت طليطلة بصناعة السيوف ذات الجودة العالية ومختلف الأسلحة الحربية كالدروع والرماح والخوذات وغيرها وذلك لوجود معدن الحديد فيها، وقد تفننت في ذلك أيما نفنن، وبلغت مبلغ لم تبلغه مملكة أخرى حتى وصفت أسلحتها بآلات الحرب العجيبة[4]، وقد كان للحروب الدائرة بين بني ذي النون وجيرانهم العباديين والهوديون أثر في ازدهار هذه الصناعة، وتذكر بعض البحوث بأن الأندلس قد حققت الفائض في إنتاج الأسلحة المختلفة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، وتركزت

1- Jan Read: the Moors in Spaine and Portugal, Rowman & Littlefield Pub Inc, 1st edition ,1975, P 82 .

2- جهاد غالب مصطفى الزغلول: المرجع السابق، ص 185.

3- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص ص 265-266.

4- ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 9.

صناعة هذه الأسلحة في طليطلة وغرناطة وإشبيلية والمرية حتى اشترى منها يوسف بن تاشفين سنة 474هـ/1081م كميات كبيرة[1].

فانظر كيف أثرت الصراعات العسكرية الدائرة بين الأطراف المتصارعة في عصر الطوائف على الصناعات الحربية، فحاجة كل طرف في اقتطاع أجزاء من الدويلات المجاورة لها والسعي نحو السيطرة على أراض جديدة جعل عبقرية الدول الدول المتصارعة تخترع أسلحة جديدة أكثر فعالية في ساحات المعارك كالقسي التي تعرف "بالعقارة"[2] والتراس، والنبال، والرعادات وغيرها من الأسلحة[3].

كما توحي الثريات الست التي عثر عليها أثناء عملية الحفر التي أجريت في المكان الذي كان يقبع فيه جامع البيرة الذي أحرقه البربر سنة 499هـ/1106م بأن صناعة الثريات كان مزدهرا في هذه المدينة خلال عصر الطوائف وأكبر هذه الثريات ثرية على شكل طبق مستدير محزم في شكل هندسي ، ويتخلل محيطها فراغات مستديرة توضع فيها الكؤوس التي تضاء بالزيت وفي المحيط حلقات صغيرة متصلة بالسلاسل التي تعلق بها الثريا[4].

وفي الصناعات الجلدية تفوقت مدينة مالقة على غيرها واشتهرت بتجليد الكتب والمصنفات تجليدا فاخرا[5]، كما اشتهرت مدينة لبلة بدباغة الجلود في القرن الخامس الهجري وذاع صيتها لمعرفة أهلها بدباغة الجلود الحمراء حتى صارت تعرف بالحمراء وصارت جلودها تضاهي الجلد الطائفي في الجودة[6]، وإلى جانب هاتين المدينتين انتشرت هذه الصناعة في كل من اشبيلية وباجة وطليطلة وسرقسطة التي عرف أحد أرباضها بـ" ربض الدباغين"[7]، كما انتشرت صناعة الأصباغ في عصر الطوائف في عدد من المدن الأندلسية فاشتهرت طليطلة بالصبغ السماوي حتى صارت تصدره إلى نواحي الأندلس المختلفة[8]، كما كانت لبلة مركزا لهذه الصناعة إلى جانب مدن أخرى.

---

[1]- مجهول:الحلل الموشية، ص 37.

[2]- نوع من الأقواس الكبيرة التي شاع استخدامها في المغرب الإسلامي وتتميز ببعد مداها وكانت تستخدم في وضعية الجثو من قبل جنود أقوياء البنية ينظر مؤلف مجهول: الحلل السندسية، ص 76.

[3]- عبد الله بن بلقين: المرجع السابق، ص 120.

[4]- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس: ص 271.

[5]- سعد البشري: المرجع السابق، ص 234؛ محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1978، ص 183.

[6]- القزويني: آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت)، ص 555.

[7]- جهاد غالب مصطفى الزغلول: المرجع السابق، ص 95.

[8]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 143.

وفي القرن الخامس الهجري اشتهرت صناعة السكر في عدد من المدن كإلبيرة وغرناطة والمرية واشبيلية ومالقة والمنكب[1]، ومدن أخرى وهذا بسبب انتشار ازدياد المساحات المخصصة لإنتاج محصول قصب السكر في هذه المدن.

كما يذكر بعض الباحثين بأن المعادن المتاحة في الأندلس قد شهدت استغلالا غير مسبوق[2]، وهذا دليل على أن الصناعات التي تتوقف على المعادن كانت على أشدها وخاصة تلك التي يحتاجها الملوك في صراعاتهم العسكرية كالأسلحة المتنوعة، وبذلك تكون الصراعات العسكرية سببا في انتعاش بعض الصناعات.

وتذكر بعض الدراسات التي تطرقت للصناعات في طليطلة في القرن الخامس الحادي عشر الميلادي أنها كانت تصنع كل ما يحتاجه المجتمع الطليطلي نظرا للحصارات المتكررة عليها والذي يطول أحيانا، وساعدها على ذلك وجود اليد العاملة الماهرة[3]، وهذا أثر آخر من آثار الصراعات العسكرية ولكنه أثر إيجابا على الحياة الصناعية في طليطلة، فالأزمة كما يقال تلد الهمة، والحاجة أم الاختراع، فقد أجبرتها ظروف الحصار المتكرر الذي كان يعزلها عن العالم الخارجي على إنشاء مصانع لتحقيق الاكتفاء الذاتي ولا شك بأن هذا الهم تتقاسمه معها كثير من دويلات الطوائف لكننا نشك أن تكون هذه الدويلات قد صنعت محليا كل احتياجاته لأن الكثير من المعادن تقع في أقاليم دويلات أخرى.

ثانيا: المهن

لما كان المؤرخ الأندلسي ابن حيان ممن عاصرو هذه المرحلة فقد أشار في كتاباته إلى بعض المهن التي كانت مشهورة آنذاك كمهنة الطراح، والطراز، والنجار[4].

كما ازدهرت في هذه الفترة مهنة البناء بسبب تنافس ملوك الطوائف في تشييد القصور وإن الناظر إلى القصور العجيبة التي شيدها ملوك الطوائف ليدرك بأن مهنة البناء، كانت حاضرة، وأن البنائين في هذه الفترة كانوا على درجة عالية من الحرفية، فالمقري يذكر بأن قصر المأمون قد قام ببنائه بناءون مهرة

[1]- AL-Munecar: مرفأساحلي مرتفع يقع جنوب شرق الأدلس بمقاطعة غرناطة، نزل به الأمير عبد الرحمن الداخل عند دخوله الأندلس ينظر: ابن الخطيب: معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 2002، ص 94.

[2]- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 467.

[3]- ابراهيم بن عطية الله بن هلال السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص166

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 18.

بالغوا في إتقانه، وأنشأ في وسطه بحيرة[1]، وربما تكون هذه القبة هي قبة النعيم التي ذكرها ابن سعيد تنسدل فيها خيمة من ماء يشرب المأمون في جوفها مع خواصه في فصل الصيف فلا تصل إليه ذبابة وتقع هذه القبة في بستان الناعورة[2].

وقد اتخذ بعض الشعراء الشعر مهنة يتكسب بها عند ملوك الطوائف كما فعل ابن اللبانة، فقد طاف على عدد من ملوك الطوائف يمدحهم، فمدح في البداية المعتصم بن صمادح ثم غادره إلى بطليوس بعد فساد العلاقة بينهما، فمدح المتوكل على الله ثم غادره إلى قرطبة لنفس السبب الذي ترك من أجله ابن صمادح، فمدح المعتمد وهنأه بفتح قرطبة سنة 469هـ/1076م، وانتقل معه إلى اشبيلية، وعاش في كنفه حتى دخل المرابطون اشبيلية وحمل المعتمد إلى أغمات وسجن هناك فرحل معه[3].

كما ازدهرت في بعض دويلات الطوائف مهنة الحصَّارين فالعبادي يخبرنا بأن خلف الحصري الذي جاء به محمد بن عباد مدعيا أنه هشام المؤيد كان يحمل حصريا في مصنع الحلفاء ما يعني أن اشبيلية في هذه الفترة كان بها مصنع لمتهني مهنة انتاج الحُصر وكان الرجل إلى جانب عمله في هذا المصنع يؤذن في مسجد القرية وهذه مهنة أخرى من المهن الحاضرة في عصر الطوائف[4].

وقد عثر في في منطقة تسمى " طورويل" على زجاجة عطر فضية تعود لزمن الطوائف ما يعني أن مهنة العطار قد حضيت بالاهتمام في هذه الفترة وكان لها خبراء يشرفون على إعدادها[5]، ولا شك بأن هذا النوع من المهن قد انتشر في أقطار الأندلس كونه من متطلبات حياة الطبقة الأرستقراطية.

وإلى جانب الصناعات المختلفة في طليطلة ازدهرت بهذه المملكة مهنة النجارة وتحوير الخشب بكل أنواعه فتفنن فيه النجارون وأبدعوا في استعماله، فكانت بها مدرسة مكونة من أمهر النجارين الذين يحتاجهم المأمون بن ذي النون لتشييد قصره، ومن هذه المملكة خرجت الأخشاب التي لم تعرف من قبل

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 528؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 492؛ عبد الكريم خيطان الياسري؛ المرجع السابق، ص516.

[2]- ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص9.

[3]- فاضل فتحي محمد والي: الفتن والنكبات وأثرها في شعر الأندلسي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1996، ص 272-273 ؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م2، ص 667، تنظر ترجمته في سير أعلام النبلاء، ج19، ص ص 373-374، ابن العماد: المرجع السابق، ج6، ص 33.

[4]- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب ولأندلس، ص 257 ؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 442؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندس، ج2، ص 11.

[5]- جيريلين دودز: فنون الأندلس، ترجمة جاسر أبو صفية، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2، ص 873.

إلى الممالك المختلفة[1]، إلا أن هذه المهنة قد تراجعت إن لم نقل تعطلت بعد احتلال الفونسول لطليطلة لأنه سيطر على الغابات التي كانت تزود ورشات النجارين بالخشب[2]، كما اشتهرت اشبيلية بانتشار مهنة انتاج زيت الزيتون على نطاق واسع لكثرة محاصيله بها[3].

وتحتفظ المصادر التاريخية بقصة حدثت لفخر الدولة بن المعتمد ابن عباد مفادها أنه تعلق بفتاة وأراد الزواج بها فلما أراد أبوه أن يخطبها له قيل له إنها ابنه خباز بالمدينة[4]، فنستشف من هذه القصة أن مهنة الخبازين كانت موجودة في عصر الطوائف.

وهناك مهن لا يخلوا منها مجتمع كالحمالين الذين يحملون السلع إما على ظهورهم أو على الدواب، وقد تأثرت هذه المهنة في عصر ملوك الطوائف بالصراعات العسكري فأغلبهم يقع في يد اللصوص وقطاع الطريق فينتزعون منه الحمولة وقد عد ذلك من النوازل التي عالجها فقهاء هذه الفترة[5]، وإلى جانب هذه المهنة هناك مهن أخرى كالحدادة والسمسرة والبيطرة والحجامة والقصابة ومهنة الحطابين وتجارة الدواب وهذه الأخيرة هي الأخرى تأثرت بالأوضاع المضطربة فقد استغل التجار هذه الأوضاع للتحايل في بيعها[6]، وعند ابن عذارى أن خلع هشام المؤيد وتخريب الزاهرة تم على يد عشرة من الرجال حجَّامين وحرازين(الإسكافي) وكنافين (صانعي الحلوى) وزبالين فهذه أربعة مهن كانت حاضرة في مستهل عصر الطوائف[7].

ثالثا: الحرف:

لم يخل عصر ملوك الطوائف من الحرف التقليدية التي كانت معروفة قبل ذلك ويأتي في مقدمة هذه الحرف صناعة التماثيل والمجسمات لحيوانات كالأسود وغيرها وقد شغف بهذا النوع من الحرف الطبقة الأرستقراطية من الملوك والوزراء وكبار رجال الدولة وأثريائها إذ كانوا تزينون بها قصورهم ومجالسهم، فلا يخلوا قصر من قصور دويلات الطوائف من هذه التماثيل والمجسمات لا سيما في بهو القصر حيث تتخذ البحيرات، والنافورات، أذكر على سبيل المثال لا الحصر قصر المعتمد بن عباد المعروف بالزاهي الذي

---

[1]- باسيليون بابون مالدونادو: المرجع السابق، ص 279.

[2]- أوليفيا ريمي كونستيبل: المرجع السابق، ص 296.

[3]- جهاد غالب مصطفى الزغلول: المرجع السابق، ص 151؛ أمحمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص169.

[4]- النويري: نهاية الأرب، ج23، ص 273.

[5]- الشعبي أبو المطرف عبد الرحمن: الأحكام، تقديم وتحقيق الصادق الحلوي، بيروت، ط1992، ص ص 298-299.

[6]- السقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي: كتاب آداب الحسبة، تحقيق ج.س. كولان-إ.ليفي بروفنسال، باريس، المطبعة الدولية، ط1931، ص 66؛ الجعماطي: النقل والمواصلات، ص 469، 474، 477.

[7]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 350.

يوجد بفنائه بحيرة مزينة بمجسمات لفيلة مصنوعة من الفضة الخالصة، تقذف الماء من خراطيمها، وقد زينت هذه البحيرة بنقوش حفرت على المرمر والعاج ما يدل على ازدهار حرفة النقش على الأجسام الصلبة في هذا العصر، وشبيه بقصر ابن عباد قصر المأمون بن ذي النون الذي جعل في فنائه بحيرة وحول البحيرة أسود من الذهب الإبريز فاتحة أفواهها ينساب منها الماء في البحيرة[1].

ومن التحف الشائعة كذلك في بيوت الطبقة الأرستقراطية في هذه الفترة النواعير المصنوعة من الفضة الخالصة[2]. إن هذه التحف التي لا يخلوا منها قصر أو بيت ثري قد صنعت كلها من المعادن النفيسة كالذهب والفضة، وقد ساهم تنافس الطبقة الثرية في اقتنائها وتزيين القصور بها في ازدهار حرفة الصياغة في عدد من المدن الأندلسية كمدينة باجّة[3]، ولو خير أبناء الملوك بينها وبين غيرها من الحرف والصناعات لاختاروها هي، وهذا ما فعله فخر الدولة ابن المعتمد بن عباد عندما اشترط عليه الخباز أن يتعلم حرفة يستعين بها على نوائب الدهر حتى يزوجه ابنته فاستجاب لشرطه، وتعلم فخر الدولة لحرفة صياغة الذهب والمجوهرات دليل على وجود المتخصصين فيها[4].

ولم يقتصر حرفيوا عصر ملوك الطوائف على إنشاء تحف ومجسمات من المعادن النفيسة بل طال ذلك الشمع، حيث تفنن فيه الأندلسيون وصنعوا مجسمات تسلب الألباب، والغالب على الظن أن هذه التحف تصنع لتكون هدايا في المناسبات ، فقد أهديت للمعتمد بن عباد شمعة على هيئة مدينة لها أسوار يعلوها الحراس وكانت غاية في الإتقان فوصف حسنها الوزير الأديب أبو القاسم بن مرزقان مولى المعتمد في أبيات من الشعر[5]، كما أن المعتمد بن عباد أمر الحرفيين بصناعة غزال وهلال لكن هذه المرة من ذهب فأهدى الغزال إلى ابنة مجاهد العامري والهلال لابنه الرشيد[6].

يرى أحد الباحثين بأن حمّى الصراعات التي نشبت بين ملوك الطوائف وسعي كل واحد منهم للظهور بمظهر الممثل الشرعي والوحيد للخلافة المنهارة في قرطبة، قد جعلت كل واحد منهم يتخذ أبهة

---

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 105، عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص ص 133-134؛ السيد عبد العزيز سالم: المساجد والقصور في الأندلس، ص 61.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص 18.

[3]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 159.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 79؛ عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 120؛ ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج5، ص 38.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص520، المقري:المصدر السابق، مج4، ص 124، تنظر ترجمة مرزقان عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص 266، رقم الترجمة 193.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 521؛ المقري: المصدر السابق، مج3، ص 614.

تليق بمقامه، ويشيد قصورا حفلت بالفنون والحرف اليدوية[1]، ما يعني أن هذه الحرف كانت مزدهرة في هذه الفترة ولو لم تكن كذلك لعدم الملوك من يقوم بزخرفة قصورهم والتفنن في بنائها.

ثمة حرفة أخرى برزت فيها طليطلة في القرن الخامس الهجري وهي من الحرف القديمة قدم الإنسان ويتعلق الأمر بصناعة الفخار ذي البريق المعدني الذي يأتي في المرتبة الثانية بعد الخزف الصيني في الجمال والقيمة الفنية ابتداء من سنة 459هـ/1067م، وفي اشبيلية يوجد كذلك مصنع خاص بالخزف[2].

كما كان لحرفة الزراعة حضور قوي في عدد من دويلات الطوائف في بعض الفترات من هذا القرن ومنها بلنسية أيام حكم عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) لبلنسية (412-452هـ/1021-1060م) حيث كانت قبلة المزارعين الذين فروا إليها من مناطق النزاع كقرطبة[3].

وفي ختام هذه الفقرة أقول:

لقد تحكمت الصراعات العسكرية خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وبشكل يكاد يكون كاملا في توزيع هذه الصناعات والحرف في الأرضي الأندلسية، فمن خلال تتبعنا للمرحلة التي سبقت عصر الطوائف، وجدنا أن هذه الصناعات ازدهرت في مدن معينة لتختفي منها في عصر الطوائف وتظهر في أماكن أخرى وخاصة تلك التي تتبع لدويلات الطوائف القوية كأشبيلية، وطليطلة، وسرقسطة، والمرية، وغيرها، ولا شك بأن الصناع والحرفيين في الأماكن التي اختفت منها هذه الصناعات لم يستطيعوا مزاولتها بسبب الصراعات العسكرية وانعدام الأمن.

كما نسف الاقتتال الداخلي كل محاولات التصنيع داخل الدويلة الواحدة نظرا لوقوع المواد الأولية لصناعتها خارج ترابها، ناهيك عن الضغوط العسكرية التي كانت تمارسها الممالك النصرانية على دول الطوائف من أجل تحويل مواردها إلى النصارى في الشمال وعدم تصنيعها داخليا[4] ناهيك عن عرقلته كل محاولات التكامل في مجال المهن والحرف والصناعات بين دويلات الطوائف.

الفرع الثالث: التجارة: لقد مارس الأندلسيون في عصر ملوك الطوائف نوعان من التجارة داخلية وخارجية شأنهم في ذلك شأن الشعوب في كل الحضارت، لذا سأعمل على رصد آثار الصراعات العسكرية على النوعين معا.

---

[1]- جيريلين دودز: المرجع السابق، ص 872.

[2]- الياسري- السويعدي: المرجع السابق، ص 517، 518؛ انتونيو فرناندز بويرتاس: المرجع السابق، ص 924.

[3]-كمال السيد أبو مصطفى:تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، ص 255، 260.

[4]- ابن عبود:جوانب من التاريخ الأندلسي، ص 96.

أولا: التجارة الداخلية:

وأعني بها تلك التي جرى تبادل السلع والمنتوجات فيها داخل دويلات الطوائف ويمكن تسميتها التجارة البينية، فلو بدأنا بقرطبة في زمن الفتنة أي في مستهل القرن5هـ/11م لوجدنا بأن الخراب الذي لحق بها بخربت يكاد يكون كاملا،حيث طال جميع مرافقها وقطاعاتها، ولا شك بأن التجارة والأسواق قد تأثرت بهذه الفوضى، لانتشار الظلم والخوف كما قال ابن حيان[1]، ومن بواكير هذا التأثر قيام بعض المناؤئين للمهدي بإحراق سوق السرادق[2] ولا أدري ما إذا كان هذا السوق هو نفسه سوق السراجين الذي ذكر بعض المؤرخين أنه تعرض للحرق خلال هذه الفتنة المبيرة بقرطبة أم أنه سوق آخر[3] وبعد امتداد الفتنة إلى مختلف الجهات بالأندلس تعرضت الكثير من أسواقها للحرق ومنها الحريق المهول الذي أتى على أسواق طرطوشة[4]، وقد تسببت هذه الفتنة في هجرة الكثير من التجار إلى أماكن آمنة يستطيعون فيها ممارسة البيع والشراء وهنا يتبادر إلى أذهاننا تلك الفئة من التجار اليهود الذين تنقلوا إلى الممالك النصرانية وعملوا على استيراد المواد المصنعة من الأندلس وغيرها إلى هذه الممالك[5]، فيلاحظ هنا بأن الصراعات العسكرية قد تسببت في حرمان الكثير من دويلات الطوائف من كفاءاتها في المجال التجاري وفي نفس الوقت تسببت في تعزيز قطاع التجارة والأسواق في الممالك النصرانية بتجار من الطراز العالي كرّسوا خبرتهم لإحداث انتعاش في أسواق هذه الأخيرة.

وإذا علمنا بأن مدينة قرطبة أيام المنصور بن أبي عامر قد بلغ عدد الحوانيت بها (80455) حانوتا[6] تبيع مختلف السلع والبضائع وأن هذه الحوانيت قد تضرر أكثرها من الفتنة التي عصفت بقرطبة مستهل القرن الخامس عرفنا حجم الأضرار التي ألحقتها الصراعات العسكرية بالتجارة والأسواق في هذه المدينة وحدها ناهيك عن المدن الأخرى التي شهدت صراعات مسلحة، وقد كانت الصراعات العسكرية المتسبب في النيران العظيمة التي أتت على أسواق الخشابين، وأسواق أخرى بقرطبة أيام الفتنة القرطبية[7].

ولم تسلم المكتبات التي كانت بقرطبة من أعمال الشغب، فقد تعرضت مكتبتها الكبيرة للنهب وبيعت مجلداتها وكتبها في الأسواق بأثمان بخسة، فقام بشرائها هواة ينتشرون في دويلات الطوائف

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 36.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 355؛ دوزي: المسلمون في الأندلس، ج2، ص 171.

[3]- النويري: المصدر السابق، ج23، ص 245.

[4]- الونشريسي: المعيار المعرب، ج8، ص 329.

[5]- علي أحمد: اليهود في الأندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية، السنة الخامسة، ع17، 1418هـ/1997م، ص72.

[6]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 541؛ جهاد غالب الزغلول: المرجع السابق، ص 206.

[7]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 375.

المختلفة وأنشئوا مكتبات ضخمة فازدهرت في هذه الدويلات تجارة الكتب[1]، فالصراعات العسكرية في قرطبة أثرت على التجارة والأسواق فيها سلبا لكنها خدمتها في المدن التي حملت إليها الكتب فقد كانت سببا في انتعاش تجارة الكتب بها.

وبعد تولي علي بن حمود الحكم بقرطبة، وفي الفترة الأخيرة منها أساء معاملة القرطبيين وسلط عليهم ألوانا من العذاب حتى لزموا بيوتهم وامتنعوا عن الظهورا نهار حتى لا ينكّل البربر بهم، فخلت أسواقهم من الحركة[2]، فلا شك بأن الكثير من القرطبيين كانوا تجارا، وقد تركوا أماكنهم في السوق خوفا من القتل أو سوء المعاملة، ومن لم يكن تاجرا كان زبونا.

وعندما بويع هشام بن محمد الملقب بالمعتد،تسلط وزيره حكم بن القزاز على كل شيء في الدولة، وجمع الأزمة كلها في يده،فكان هشام لا يرى إلا ما يراه وزيره، فأساء الوزيره التدبير، وتعسف مع الرعية حتى كسدت الأسواق وتعطلت التجارة[3].

كما أدى انعدام الأمن في الكثير من الأماكن والضغوط التي يمارسها حكام الطوائف على التجار للحصول على مزيد من المال إما لتمويل حملاتهم العسكرية ضد بعضهم أو دفع الجزية لحكام النصارى إلى تقلص النشاط التجاري.

هناك عامل آخر لا يقل أهمية عن العوامل السابقة التي أثرت سلبا على التجارة والأسواق ويتعلق الأمر بحركة السكان داخل دويلات الطوائف، فقد تسببت الصراعات العسكرية في هجرة ونزوح الكثير منهم، فأصيبت الأسواق في المناطق المهجورة بالشلل[4]، ففي بطليوس تعطلت الأسواق تماما وأغلقت الدكاكين مدة طويلة سنة 442هـ/1050م بسبب الدمار الذي ألحقته قوات ابن عباد وحلفاؤه بالمدينة وكثرة من قتل من أبنائها في معركة يابرة[5].

وإذا كانت الأسواق بأنواعها المعروفة اليومية الأسبوعية والموسمية قد ازدهرت في الفترة التي سبقت عصر الطوائف، فإن بعضها قد تراجع نشاطه في هذه الفترة، والبعض الآخر اختفى ولم يعد له

1- خوليان ريبيرا: التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط2، 1994، القاهرة، ص 127.

2- ابن حيان القرطبي: المصدر السابق، ص ص 39-40؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج1، ص 413.

3- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 522.

4- رابح رمضان: المرجع السابق، ص47، 50، 53.

5- يابره Evora : مدينة من كورة باجه أي هي من البرتغال، تقع على بعد 117كلم بالسكة الحديدية من لشبونة ينظر المقري: المصدر السابق، مج1، ص 673؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 388؛ دوزي: ملوك الطوائف، ص 121؛ سحر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق،ج1، التاريخ السياسي، ص 401، 403.

وجود بسبب جملة من العوامل منها تعطل الطرق التجارية في الشمال بسبب حالة التوتر بين ملوك الطوائف والممالك النصرانية في الشمال التي كانت تغذي الأسواق بالعبيد الصقلبي[1] إضافة إلى ندرة المال لدى التجار بسبب الضرائب المتزايدة وهذه الآثار السلبية على الأسواق والتجارة من إفرازات الصراعات العسكرية، وعلى مستوى العملات المضروبة في عصر الطوائف شهدت الأندلس ندرة في العملة الذهبية بسبب انحسار التجارة الخارجية وقلة الذهب الذي يأتيها من بلاد السودان[2].

كما تسبب الحصار العسكري سواء من قبل الحكام المسلمين لبعض الأقاليم أو من قبل ملوك النصارى في تعطل التجارة في الأسواق، فطليطلة كان النشاط التجاري يتوقف فيها أثناء الغارت وفي فترات الحصار، ليعود إلى النشاط من جديد بعد زوال الحصار وانتهاء الغارات ولكن السلع ترتفع أثمانها عندئذ بسبب الإقبال الكبير عليها من قبل التجار القادمين من خارجها لنفاد السلع من محلاتهم وعدم القدرة على التزود منها مدة الحصار، كما كان أهل طليطلة وخاصة فئة التجار يدفعون الأموال لحاكمهم إمّا من أجل القيام بتحصين المدينة حتى تصمد في وجه الهجمات الخارجية أو من أجل دفع الجزية للنصارى، فهذه الأموال جزء من رأس المال الذي يغذي التجارة في طليطلة، ولا شك بأن هذه المبالغ التي تدفع في كل مرة قد أثرت سلبا على النشاط التجاري وحركة الأسواق[3].

أما السلع التي تأتي طليطلة من الأماكن المجاورة فتتوقف أثناء الحصار والحروب وهذا ما يجعلها نادرة فترتفع أثمانها وهذا ما جعل السكان والتجار معا يشترون منها كميات كبيرة في أوقات السلم ويقومون بتخزينها بطرق مبتكرة وفعالة[4]، فإذا نظرنا إلى ندرة السلع في الأسواق أدركنا الأثر السلبي للصراعات العسكرية عليها، أما إذا نظرنا إلى الطرق المبتكرة لتخزين ما يقبل التخزين منها عرفنا بأن هذه الصراعات قد أثرت إيجابا على التجارة وخففت من غياب السلع من الأسواق وسمحت بتطوير طرق التخزين.

أما الأسواق المنصوبة خارج المدينة فيلجأ التجار أثناء الحروب لنقلها إلى داخلها، وهذا ما جعل الإقبال على هذه الأسواق يقتصر على سكان المدينة فقط، وقد كانت قبل ذلك قبلة للتجار من كل مكان، ورغم كل ما تم ذكره من تأثير الصراعات العسكرية على نشاط الأسواق فإن بعض الدراسات التي

---

[1]- رابح رمضان: المرجع السابق، ص 140.

[2]- رابح رمضان: المرجع نفسه، ص 60، 77.

[3]- السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 169.

[4]- السلمي: نفسه، ص 169، 172.

تناولت طليطلة تفيد بأن الأمن الذي تحقق لها في فترات من حكم المأمون وبداية حكم القادر قد صاحبه رخاء اقتصادي، لكنه كان رخاء تعكره الغارات المتكررة من جيران المأمون كابن هود وابن عباد[1].

لا يجب أن يغيب عن علمنا بأن حصار المدن كان له أثر سيء على التجارة،إذ يتسبب الحصار في عدم تدفق الطعام إلى الأسواق، فترتفع أثمانه ويسود الغلاء الفاحش، وهذا ما حدث في بربشتر سنة456هـ/1064م وأثناء حصار الكمبيطور لبلنسية سنة 487هـ/1094م، وقد تكرر ذلك كثيرا بالأندلس في القرن الخامس الهجري بسبب الصراعات التي لا تتوقف[2].

ورغم هذه الصورة القاتمة عن الأوضاع في مستهل عصر الطوائف يمكننا القول بأن بعض الممالك شهدت أسواقها في بعض فترات عصر الطوائف نشاطا تجاريا ملحوظا ما يعني أن هذه الممالك في هذه الفترات لم تنخرط بعد في الحروب الدائرة بالأندلس، وهذا ما نلاحظه في مملكة بلنسية عندما تولى مبارك ومظفر الصقلبيين حكمها فقد التحق بها في مستهل أمرها عريف كل صناعة، وجلبت إلى أسواقها السلع والأمتعة من كل مكان، فازدهرت بها التجارة وعمّ الرخاء بها، فرغب الناس في العيش بها ورحل إليها أرباب الأموال من كل مكان بالأندلس فقاموا بشراء الضياع وشيدوا بها القصور واتخذوا الرياض النظرة وحملوا إليها الماء [3].

وقد صارت بلنسية في هذه الفترة قبلة للتجار الذين جاءوا بالسلع المختلفة من مختلف الأقاليم، فاحتوت أسواقها على كل نفيس وثمين من المراكب والملابس والأفرشة والحلي والخشب والآلات والخدم فبلغ الناس في الرفاه مبلغا لم تبلغه قرطبة أيام عزها وفاقت مواكب مظفر ومبارك مواكب الخلفاء قبلهما[4].

كما شهدت أسواق قرطبة في عهد أبي الحزم بن جهور نشاطا تجاريا منقطع النظير بسبب تشجيعه للنشاط التجاري ودعمه للتجار إذ وزع عليهم أموالا تمكنهم من ممارسة عملهم بكل يسر وسهولة على أن تبقى هذه الأموال دينا في رقابهم يأخذون ربحها فقط ويحاسبون عليها من حين لآخر، فساهم هذا الإجراء في ازدهار التجارة وتحسنت الأسعار وحل الرخاء مكان الكساد، وقد كان ابن حيان ممن شهد هذا التحول في الحياة التجارية بقرطبة وتعجب من ذلك[5].

---

[1]- السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 172.

[2] - رابح رمضان: المرجع السابق، ص 86.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 16-17؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 415.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 17-18.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 604؛ عنان: المرجع السابق، ص 23.

كما شهدت تجارة الفخار رواجا كبيرا وازدهار وكانت طليطلة هي المزود الرئيسي للأسواق الأندلسية بهذه السلعة النفيسة التي عمل الكثير من القضاة والزهد على تأثيث بيوتهم بها، وكانت هذه الأواني تتخذ لتخزين الأطعمة والسوائل فيها[1].

ثانيا التجارة الخارجية:

بسبب الأوضاع المضطربة على اليابسة في الأندلس وسيطرة اللصوص وقطاع الطرق على الطرق التجارية الداخلية لجأ التجار إلى المسالك النهرية بالأندلس لنقل بضائعهم فانتعشت فيها التجارة في الفترة محل الدراسة حيث كانت تنتقل السفن التجارية على طول الأنهار، وقد جعلت لها موانئ تتوقف فيها إما لشحن السلع التجارية أو إنزالها لنقلها إلى المدن والقرى ومن الأنهار التي شهدت حركة تجارية ملحوظة الوادي الكبير الذي انتظم عدة مرافئ على ضفتية أبرزها مرفأ اشبيلية ومن هذه المرافئ كذلك تنطلق السفن التجارية نحو البحر الأبيض والمحيط الأطلنطي[2]، كما يشير ابن خفاجة في أبيات من قصيدة له إلى الحركة الكبيرة للسفن التجارية في نهر شقر أواخر عصر الطوائف حيث شبه كثافتها واصطفافها تحت الجسر بالخيول الدهم[3].

وإذا كان الصراع العسكري المحتدم في نقاط التماس مع الممالك النصرانية قد أثر سلبا على تدفق العبيد الصقلبي إلى دويلات الطوائف، فإن هذا النقص قد تم تداركه بجلب الجواري بمختلف الأصناف من مدن المشرق الإسلامي كبغداد، فقد تنافس ملوك الطوائف في ذلك أيما تنافس، وأدى هذا التنافس إلى ازدهار هذا النوع من التجارة[4].

كما ارتبط ميناء طرطوشة في المدة التي كانت تابعة لسرقسطة بعلاقات تجارية مع الأسواق الدولية كبزنطة والبندقية وجنوة، كما كانت أسواق العبيد القادم من أوروبا منتشرة في سرقسطة لمجاورتها لبلاد النصارى[5].

ويرى ليفي بروفنسال بان المدن الأندلسية الساحلية مثل دانية ومالقة والمرية خاصة كانت أساطيلها تجوب البحر الأبيض المتوسط تنقل المنتجات القادمة من مختلف أنحاء اسبانيا أو من المعامل المنتشرة في المدن الأندلسية كأصناف الأغطية والمطرزات والسجاد وفراء السمور من سرقسطة والخزف

[1]- عبد الكريم خيطان الياسري – سعد قاسم علي السويعدي: المرجع السابق، ص 519.

[2]- الجعماطي: دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار في الغرب الإسلامي، ص 137.

[3]- ابن خفاجة الأندلسي: المصدر السابق، ص 37.

[4]- محمد بشير العامر: المرجع السابق، ص 206.

[5]- فايزة بنت عبد الله الحساني: المرجع السابق، ص 183، 198.

المذهب من مالقة والمجوهرات المرصعة والجلود التي زادت عن حاجة أهل قرطبة والأسلحة من طليطلة والورق السميك، وكانت لها علاقات تجارية مع مصر منذ القرن الحادي عشر ميلادية الخامس هجرية[1].

ويخبرنا العذري(ت 478هـ/1085) الذي عاش في هذه الفترة بأن التجار كانوا يتجهزون بالأمتعة والسلع من الدويلات التي تحتوي على موانئ بحرية ليتوجهوا بها إلى غانة وبلاد السودان وإلى جميع بلاد المغرب[2]، بعدما تأثرت حركة التجارة في الشمال بسبب الصراع العسكري مع القوى النصرانية.

ففي الفترة التي كان فيها أغلب مولى مجاهد العامري واليا على جزر البليار زمن علي بن مجاهد تم تأمين خط بحري تجاري بين ثغور مملكة دانية والجزائر الشرقية وميناء الإسكندرية في مصر، وكانت الشحنات التجارية ترسل في سفن حربية بسبب انتعاش الأساطيل المسيحية في المتوسط ، فكان هذا الخط التجاري من أنشط الخطوط، وتظهر وثائق الجنيزا ارتباط السواحل الشرقية للأندلس كألمرية، وشاطبة،ومالقة بساحل الاسكندرية، وبسواحل الشام والعراق وآسيا[3].

وهذا ما جعل بعض المؤرخين اعتمادا على وثائق القاهرة الجنيزا يجزمون بأن التجارة الخارجية للأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي لم تتأثر كثيرا بالصراعات التي كانت تدور رحاها هناك ولا بالضرائب الطائلة التي كانت تدفع لملوك النصارى بل بقيت نشطة أواسط هذا القرن بفضل العدد الكبير من التجار الذين ينقلون البضائع بين المرية والإسكندرية وخاصة الحرير، وقد مكنت عائداتها الوفيرة ملوك الطوائف من دفع جزية (الباريا) لملوك النصارى بانتظام[4].

ورغم قيام البرهان على ازدهار التجارة الخارجية في بعض دويلات الطوائف ونشاط أسواقها إلا أن تخصيصها لجزء كبير من عائدات هذه التجارة لشراء السلم مع النصارى وإيقاف الصراع المسلح معها ولو لفترات قصيرة قد أثر سلبا على النشاط التجاري، فالعائدات الضخمة لهذه التجارة تذهب إلى خزائن النصارى وليس إلى الاستثمار الداخلي.

[1]- ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ص ص 59-60؛ خالد بن عبد الله بن حسن آل زيد الشريف: المرجع السابق، ص 324، 372.

[2]- العذري: المصدر السابق ، ص 19.

[3]-Pière Guichard:De la expansion Arabe a la reconquista, Esplendor y Fragilidad de la Andalus (De la expansion Arabe a la reconquista), edi.por El legado Andalusi, Granada,2002, p.81

[4]- أوليفيا ريمي كونستيبل: المرجع السابق، ص 44؛ ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ص 60.

ولا يجب أن يغيب عن علمنا بأن التطورات العميقة التي حدثت في المنطقة وانتقال موازين القوى إلى الممالك النصرانية في الشمال وصعود المرابطين في المغرب وتوسع الفاطميين في مصر كل تلك التطورات قد دمرت التجارة الخارجية للأندلس بسبب سيطرة القوى الجديدة على الطرق والمنافذ التجارية.

ويشعرك قدوم بعض علماء المشرق الإسلامي للتجارة في الأندلس وشراء السلع التي لم تكن متاحة عندهم بأن الطرق التجارية من وإلى الأندلس كانت نشطة وأن حركة الأسواق كانت دؤوبة، فكان ممن قدم لذلك في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادي من المشرق للتجارة أيوب بن نصر بن علي بن المبارك الشامي المقدسي وكنينته أبو العلاء[1]، وعيسى بن محمد بن هارون بن عتاب النسفي الأستاذ ويكنى أبا موسى مع ابنه محمد[2].

إن المعلومات المتوفرة حول عدد المسلمين الذين نشطوا في مجال التجارة المحلية في عصر ملوك الطوائف قليلة جدا، وهذا النقص الفادح في المعلومات يعزوه الكثير من الباحثين في هذا الشأن إلى الصراعات العسكرية التي طبعت هذا القرن[3]، وعلى صعيد التجارة الخارجية دائما، فقد خلصت دراسة قام بها باحث غربي يشار إليه بـ(M.L.Avila) حول رحلة العلماء من أجل الحج أو التجارة أو أمور أخرى إلى وجود تباطء ملحوظ في هذه الرحلات خلال السنوات 421هـ/1030م -431هـ/1040م وتعزى أسباب هذا التباطؤ إلى الاضطرابات الأمنية التي كانت تعانيها المنطقة[4].

وإذا كانت الضرائب الفادحة التي يدفعها ملوك الطوائف لملوك النصارى اتقاء لغزو أراضيهم قد أسهمت على المدى الطويل في إفراغ خزائن الاموال عندهم فإنها من جهة أخرى قد تسببت في إقبال الموانئ الاندلسية على التجارة من أجل الوفاء بهذه الضرائب، وقد قدم عدد من التجار من مناطق مختلفة إليها بغرض التجارة، وهذا أثر إيجابي غير مباشر من آثار الصراعات العسكرية بين ملوك الطوائف والممالك النصرانية[5].

تشير الأبحاث التاريخية بأن المرية بدأت تبرز كمركز مهم للتجارة البحرية الخارجية منذ سقوط الخلافة الأموية وانتزاء خيران العامري، ويدل على أهميتها التجارية ما ذكرته بعض المصادر من أن المعتمد بن عباد منح لشخص مبلغا من المال ليعتاش منه، ففضل الذهاب إلى المرية لاستثماره في التجارة حيث

---

[1]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 172، رقم الترجمة 269.

[2]- ابن بشكوال: المصدر نفسه، مج2، ص ص 59-60، رقم الترجمة 948.

[3]- كونستيبل: المرجع السابق، ص 141.

[4]- كونستيبل: المرجع نفسه، ص 142.

[5]-كونستيبل: المرجع السابق، ص 142.

كان ميناؤها نشطا، وقد نجح في ذلك وصنع لنفسه ثروة[1]، كما تشير رسائل الجينيزا بأن المرية في القرن الخامس الهجري كانت مرفأ تجاريا دوليا، تتردد عليه السفن المشحونة بالسلع لمسلمين ولغير المسلمين،ومن مرفئها تخرج السفن إلى المغرب وبقية انحاء العالم[2].

ولعبت مالقه في هذا القرن دورا مماثلا للدور الذي لعبته المرية في التجارة الدولية، وكذالك دانية فيذكر الإدريسي أن السفن كانت تخرج منها إلى أقصى المشرق[3]، ولم يكن مرفأ اشبيلية بعد سيطرة العباديين على شلب والجزيرة الخضراء أقل شأنا من غيره، بل عده بعض الباحثين أضخم مرفإ، فوثائق جينيزا مرة أخرى أثبتت العلاقة بينه وبين شرق المتوسط وخاصة موانئ تونس ومصر التي صارت مكانا مفضلا للتجاراليهود الأندلسيين خلال النصف الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي إذ فضل البعض الإقامة بها واتخاذها مركزا له[4].

وتذكر رسائل الجينيزا أن خطوط التجارة بين الأندلس والمدن الجنوبية لإيطاليا وصقلية من جهة والأندلس مصر وما وراءها من العالم الإسلامي وصولا إلى اليمن والعراق والهند عبر ميناء المهدية في القرن الخامس الهجري كانت نشطة، وكانت تحمل سلعا ومنتجات مختلفة من وإلى الأندلس[5].

ومرد هذا النشاط التجاري البحر إلى كون البحر الابيض المتوسط منطقة خالية من الصراعات العسكرية التي تدور داخل التراب الأندلسي، لكن هذا كان قبل استيلاء الأساطيل المسيحية الفرنسية والإيطالية على المسالك التجارية في البحر الأبيض المتوسط.

هذا على صعيد التجارة الخارجية البحرية أما على صعيد التجارة الالخارجية البرية وخاصة داخل الأراضي المسيحسة في الشمال ومع القسطنطينية، فقد كان النشاط التجاري محتشما، فرغم نجاح الأندلس في جلب التجار المسيحيين من شمال اسبانيا وبلدان أوروبا إلى أسواقها الداخلية إلا أن التجارة الأندلسية تركزت في الموانئ نحو العالم الإسلامي، ولم يتجه إلى شمال اسبانيا سوى قلة من التجار المسلمين واليهود الأندلسيين[6]، وما من تفسير لهذا الفتور في حركة التجارة نحو الشمال سوى أن التجار كانوا يخافون على أنفسهم وبضائعهم من الصراعات القائمة في مناطق التماس.

---

[1]- عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية، ص 168.

[2]- العذري: المصدر السابق، ص 85؛ كونستيبل: المرجع السابق، ص 57.

[3]- الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 2002، مج1، ص557؛ كونستيبل: المرجع السابق، ص 58.

[4]- كونستيبل: المرجع نفسه، ص 59 ،74، 78.

[5]- كونستيبل: نفسه، ص 78.

[6]- كونستيبل: المرجع السابق، ص 83.

وقد أشارت بعض الدراسات بأن الفراء التي كان التجار يجلبونها من المناطق الشمالية القصوى لبيعها في المدن الأندلسية الإسلامية قد اختفت بعد القرن العاشر الميلادي أي خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ويعتقدون أن ذلك ربما حدث بسبب انحسار الاتصالات مع هذه المناطق بسبب الصراعات العسكرية[1]، وهو اعتقاد صحيح لأن العلاقات بين ملوك الطوائف وملوك النصارى في الشمال كانت متوترة، وكانت المعارك تندلع من حين لآخر، فهذه الأجواء المضطربة أثرت على التجارة سلبا، فقد توقف التجار عن جلب السلع من هذه المناطق لأن ذلك يعد مغامرة خطيرة.

ورغم أن بعض المصادر تمدنا بمعلومات تفيد بأن بعض ملوك النصارى قد وقعوا اتفاقية مع جيرانهم من ملوك المسلمين تقضي بحماية طرق المواصلات بينهما، كالاتفاق الذي تم بين المقتدر بن هود صاحب سرقسطة وسانشوا الرابع حاكم نافار سنة 460هـ/1068م[2]، إلا أن الإشارة صرحة إلى القوافل التجارية في هذا الاتفاق لم يتم، ومهما يكن من أمر فإن حدوث الاتفاق دليل على تأثر حركة الأشخاص تجارا كانوا أم مسافرين بالصراعات العسكرية بين الطرفين.

وإجمالا يمكن القول بأن المدن الساحلية في القرن الخامس الهجري كانت تمارس نشاطا تجاريا دوليا ملحوظا تعكره الصراعات العسكرية من حين لآخر، وقد أشغلت الصراعات العسكرية الحكام الذين تشرف دويلاتهم على مرافئ تجارية عن مراقبة العمليات التجارية التي تجري فيها باستثناء مجاهد العامري الذي حرص على أن تكون مختلف العمليات التجارية تحت سمع وبصر موظفيه.إن انتعاش الأساطيل المسيحية المنخرطة في حروب الاسترداد في البحر المتوسط في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري قدأثر سلبا على التجارة في الأندلس، فقد سيطروا على طرق التجارة البحرية في غرب المتوسط ونهبوا التجارة الإسلامية[3].

وأخيرا لا يجب أن ننسى تجارة الرقيق التي انتعشت بشكل كبير بسبب الصراعات العسكرية التي كانت تفرز أعداد هائلة من الأسرى، وقد كان التجار اليهود حاضرين في الحملات العسكرية لشرائهم وبيعهم في الحواضر، وكانوا في كثير من الأحيان ينشئون أسواقا لذلك قرب القواعد العسكرية[4]، وقد شكلوا حلقة وصل بين أوروبا والأندلس في تجارة الرقيق، وكانت برشلونة هي مركز تلك الحلقة، إلا أن جلب

---

[1]- كونستبيل: المرجع السابق، ص 298.

[2] - L.Garcia de Valdeavellano,Sobre los burgos y burgueses de la Espana medieval ,Madrid, 1960, P60.

[3]- السيد عبد العزيز سالم- أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس، ص 204، 206.

[4]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 473؛ عيوني محمد: دور الرقيق في الحياة السياسية والثقافية ببلاد المغرب والأندلس خلال القرنين4 و5 الهجريين، رسالة ماجستير في الحضارة الإسلامية غير منشورة، جامعة الجزائر1، 2012-2013، ص 68.

الرقيق الأبيض عبر الطرق التجارية التي تمر بالممالك النصرانية في الشمال قد قل بسبب حالة اللا أمن التي خيمت على الطرق التجارية، وتزامن ذلك مع محاولة بعض الملوك في الشمال إيقاف هذه السلعة من التدفق نحو الأراضي الإسلامية كشكل من أشكال الإضعاف، فيما نشطت المتاجرة بالرقيق المسلم بسبب وقوع الكثير من المدن الإسلامية بيد النصارى كبلنسية وطليطلة وغيرهما من المناطق[1].

وكخلاصة للآثار الإقتصادية للصراعات العسكرية أقول:

لقد ساهمت الصراعات العسكرية الداخلية والخارجية وعمليات النهب والسلب والجزية والضرائب وتخريب الأسواق في إضعاف التجارة داخل دويلات الطوائف، ولم تكن النشاطات التجارية المحدودة لتصنع اقتصادات قادرة على الوقوف في وجه الأزمات إلا في فترات محدودة وممالك محددة،لأن الدول التي احتضنت هذه النشاطات لم تكن تملك مقومات الدول الحقيقية كالمساحة وعدد السكان وغيرها رغم توفرها على الموارد اللازمة لإنشاء اقتصاد حقيقي، ناهيك عن الأخطار التي كانت تتهددها داخليا وخارجيا[2].

على صعيد التجارة الخارجية تمتعت الدويلات التي تحتوي على موانئ مهمة كألمرية ومالقة وطرطوشة بقدر لا بأس من النشاط التجاري لكن هذا الوضع تغير بعد سيطرة الأساطيل المسيحية على طرق التجارة البحرية، أما التجارة البرية الخارجية فكانت محدودة جدا بسبب سيطرة القوى المتصارعة على الطرق والمسالك.

1- رابح رمضان: المرجع السابق، ص 145، 147.

2- خالد محمود الديلمي- مهند عبد رحيم: تزايد قوى الممالك الإسبانية وانحسار النفوذ الإسلامي في الأندلس خلال الحقبة (422-478هـ)، مجلة آداب الفراهيدي، ع18، 2014، ص 435.

الفصــل الثاني: الآثار الاجتماعية للصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف

المبحث الأول: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الاجتماعية

المطلب الأول: طبقات المجتمع

الفرع الأول: طبقة الخاصة

الفرع الثاني: طبقة الخاصة

الفرع الثالث: الطبقة الوسطى

المطلب الثاني: البؤس الاجتماعي

المطلب الثالث: الخزان الديموغرافي

المبحث الثاني: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الأسرية والصحية

المطلب الأول: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الأسرية

الفرع الأول: النسيج الأسري

الفرع الثاني: حركة الأفراد

الفرع الثالث: الأخلاق والآداب

المطلب الثاني: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الصحية

الفرع الأول: الأمراض والادوية

الفرع الثاني: الأطباء والصيادلة

المبحث الأول: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الاجتماعية

سنرى في هذا المبحث مدى تحكم الصراعات العسكرية في التقسيم الطبقي لمجتمع الطوائف ومدى استنزافها للخزان البشري للأندلس وعلاقة هذه الصراعات بالبؤس الذي خيم على حياة الناس وكيف أثرت على الحياة الأسرية والصحية للإنسان الأندلسي.

المطلب الأول: طبقات المجتمع: اعتمادا على بعض الدراسات التي أجريت في هذا المجال يمكن الحديث عن عدة طبقات في مجتمع الطوائف، وقد تعمدت جعل طبقة العامة الثانية في الترتيب على اعتبار أن المقابل الطبيعي للطبقة العليا هي الطبقة الدنيا.

الفرع الأول:طبقة الخاصة:

وتشمل الطبقة الحاكمة، ومعظمهم من الملاك العقاريين الكبار،لأن المجتمع الأندلسي زراعي بالدرجة الأولى، وهي أغنى طبقات المجتمع، وأكثرها ثراء ويطلق عليها اسم الارستقراطية، ويكفي للتدليل على صحة هذا الطرح أن نعلم بأن بني عباد قبل توليهم حكم اشبيلية كانوا يملكون ثلث كورة اشبيلية[1] فيما ملك بنوا طاهر نصف مرسية، وهكذا العائلات الأخرى التي سيطرت على الحكم في عصر الطوائف، وهذه الطبقة هي القابضة على زمام الحكم والموجهة للحياة، ويلحق بهؤلاء من يدور في فلكها من الموظفين الساميين في الدولة،كالوزراء، والقضاة، وكبار الكتاب والفقهاء والعلماء، والتجار الكبار[2].

وكل فئة حاكمة تؤلف ارستقراطية يرجع أصلها إلى عرق من الأعراق الوافدة إلى الأندلس كالعرب والبربر والصقالبة[3]، فدويلات الطوائف هي في الحقيقة دويلات أسر عريقة كأسرة بني عباد، وأسرة بني ذي النون، وأسرة بني زيري إلى جانب دول دول لموالي بعض الأسر العربية العريقة كأسرة بني جهور.

ويرى أمحمد بن عبود بأن التشنج هو السمة الغالبة على العلاقة بين الارستقراطيين من العرب والبربر في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي والذين حافظوا على سلوكهم وعقليتهم القبلية[4]، وقد تطور هذا التشنج ليصل إلى صراع عسكري دمر الكثير من العلاقات التي اتسمت في السابق بالوديّة.

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 15؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص37؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 439؛ دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 19؛ أمحمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص 46؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص117؛ صلاح خالص: المرجع السابق، ص 42.

[2]-كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، ص 239؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 95؛ صلاح خالص: المرجع السابق، ص 37، 40، 53.

[3]- الصقالبة: ينظر تعريفهم عند أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، ص ص 256-257.

[4]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع، ص 31.

والملك في دويلات الطوائف ذو سلطان مطلق يتصرف كما يشاء يتخذ قرارات انفرادية لاستئثاره بالسلطة واجتماع الأزمة في يده عدا بعض النماذج الفريدة كأنموذج أبي الحزم بن جهور الذي حكم قرطبة بنظام حكومة الجماعة الأرستقراطية، وما سوى ذلك فهي أنظمة استبدادية قمعية شمولية استأثرت بجميع أسباب القوة[1]، وقد كان لدى ملوك الطوائف اهتمامات مشتركة فقد مال أكثرهم للاستكثار من أسباب الترف وضروب العمران وهذا ما يخبرنا به ابن حزم الذي عاش في هذه المرحلة حيث يقول: " اللهم إنا نشكوا إليك تشاغل أهل الممالك من أهل ملتنا بدنياهم عن إقامة دينهم، وبعمارة قصور يتركونها عما قريب عن عمارة شريعتهم... وبجمع أموال..." ، وقد جعلوا من شعوبهم مصدر جباية فقد أرهقوا كاهلهم بالضرائب[2].

ورغم اختلاف درجة السلطات التي يتمتع بها كل حاكم من حكام الطوائف تبعا لأهمية الدولة التي يترأسها وحجمها، فإن الجميع كان يعيش حياة البذخ والترف ويملكون ثروات طائلة[3]، وقد تشكلت حول أمراء الممالك أرستقراطيات تؤثر في دوائر صنع القرار، وتشمل الوزراء والكتاب والولاة والقضاة ورؤساء الإدارات والجيش وهؤلاء جميعا كانوا يؤلفون المستوى الأعلى للمجتمع، وهم المستفيدون من الامتيازات التي تقدمها الدولة، وهم لا يختلفون عن غيرهم في الكثير من الأنظمة السياسية التي تحظى فيها الأقلية التي تتحكم في مفاصل الدولة بامتيازات لا تتاح للطبقات الأخرى في المجتمع .

لقد وجد حكام الطوائف أنفسهم بعد استقلالهم بأجزاء من الأندلس مجبرين على اتخاذ الوزراء والكتاب، وهؤلاء غالبا يتخذون من الأدباء والشعراء باعتبارهم الأقدر على تنفيذ المكاتبات والمراسلات التي تصدر من وإلى الحكام إضافة إلى ضبط الدواوين المختلفة سائر شؤون الدولة، فأضحى هؤلاء بحكم مناصبهم الرفيعة طرفا مهما في تسيير شؤون الدول التي ينتمون إليها، وقد درت عليهم مناصبهم أموالا طائلة أهلتهم ليكونوا ضمن الطبقة العليا للمجتمع، ويمكن أن نذكر في عصر الطوائف أسماء وصلت إلى هذه المرتبة كابن عمار، وابن زيدون، وابن عبدون وغيرهم بل حاول بعضهم أن يتخطاها إلى مرتبة الإمارة كما فعل ابن عمار حين انفصل بمرسية[4].

---

[1]- أمحمد بن عبود:التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص86، 87.

[2]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 41؛ إحسان عباس:تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 15؛ العفاني سيد بن حسين: زهرة البساتين من مواقف العلماء الربانيين، دار العفاني، القاهرة، ج4، ط1999، ص 182؛ السامرائي أسامة عبد الحميد حسين: تاريخ الوزراء في الأندلس (138-897هـ/755-1492م، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012، ص 261.

[3]- أمحمد بن عبود: جوانب، ص 20.

[4]- مرسية:Murcia: اختطت سنة 216هـ فخلفت تدمير، وأصبحت الكورة تسمى كلها باسمها، وكانت القاعدة قبلها أوريولة. المقري: المصدر السابق، مج1، ص 166.

وبقليل من التأمل للعناصر المكونة لطبقة الخاصة نجد بأنها تنتمي إلى عناصر عرقية مختلفة في المجتمع لكن هناك قاسم مشترك بينها هو الثراء والجاه وهما عنصران كافيان للتمتع بالنفوذ اللازم في المجتمع والهيمنة على كل شيء فيه، لقد تم شراء الذمم بهذه الأموال،وبذلك سهل عليهم تكوين عصبية أعانتهم على الوصول إلى كرسي الحكم.

أما على صعيد المعيشة فقد عاش ملوك الطوائف وخاصة الأقوياء منهم كبني عباد، وبني ذي النون، وبني صمادح ، ووجهاء الدولة حياة الترف والبذخ، ولم يكن عند هؤلاء فرق بين المال العام وأملاكهم الخاصة، فبنوا عباد مثلا كما أسلفنا كانوا الذين ملكوا ثلث كورة اشبيلية ضيعة وغلة يتصرفون في أموال الدولة كما يشاءون[1]، أما أبو الحزم بن جهور فقد تضاعف ثراؤه بعد توليه الحكم رغم اشتهاره بالتعفف عن مال الدولة[2].

وهكذا أبو بكر بن عبد العزيز حاكم بلنسية (ت456هـ/1064م) اجتمع عنده من المال، وفخامة الحال، وآلات الجلال ما جعله على كل لسان، وتضاعف ثراء بني رزين في السهلة، واجتمع عند حاكمها عبد الملك من المال ما جعله ندا لإسماعيل بن ذي النون[3].

أما مبارك ومظفر العامريين فقد جمعا بعد استيلائهما على بلنسية(Valencia)[4]، وشاطبة عن طريق الضرائب أموالا ضخمة جعلتهما يسلكان سبيل الملوك الجبارين في تشييد القصور والمباني والتوسع في المعيشة، وقد نافسهما في ذلك وزراء دولتهم وكتابها وكل من كانت له صلة بهما من رجال الدولة[5]، فالاغتناء في هذه الدولة كان من خلال فرض ضرائب مجحفة على الرعية، وقد استمر ذلك طوال عصر الطوائف، وكذا مصادرة واستصفاء أموال أغنياء الدولة بعد الصاق تهم خطيرة بهم، دون نسيان مضايقة ملاك الأراضي لإجبارهم على تركها، فيضمّها الحاكم إلى ممتلكاته كما فعل مبارك ومظفر

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 15؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 37؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 439؛ دوزي: المرجع السابق، ص 19؛ صلاح خالص: المرجع السابق، ص 44.

[2]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص31، 37؛ عنان: المرجع السابق، ص 23؛ محمود مكي: المرجع السابق، ص 103؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 468.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص42، 111.

[4]- بلنسية: من أكبر مدن الساحل الشرقي ازدهارا في العصور الإسلامية إلى الشمال من دانية على شاطئ البحر كانت تسمى مدينة التراب، ومطيّب الأندلس، وبستان الأندلس،كانت عند الفتح مرسى صغيرا يسمة فالنثيا وينطقه المسلمون بلنسية، وهي شرقي قرطبة وشرقي تدمير، استقل بها مجاهد العامري سنة 401هـ/1010م، ثم ملكها عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) سنة 411هـ1021م، ثم ابنه عبد الملك صهر المأمون بن ذي النون، وتعاقب عليها عدد من الحكام حتى استولى عليها القادر بن ذي النون سنة 478هـ/1085م، وبعد مقتله احتلها الكمبيطور وأحدث فيها أمورا فظيعة.المقري: المصدر السابق، مج1، ص 166؛ محمد عبده حتامله: موسوعة الديار الأندلسية، المكتبة الوطنية، عمان الأردن، ط1، 1999،ج1، ص 301، 306، 307، 308.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، 415.

الصقلبيين[1]، ولا يجب أن ننسى التوسع العسكري الدائم لبعض ملوك الطوائف كبني عباد لمضاعفة أملاكهم.

وقد أسلفنا بأن بني عباد ملكوا ثلث كورة اشبيلية ، وابن جهور تضاعف ثراؤه بعد حكم قرطبة، أما حكام مرسية من آل طاهر، فكان نصف أراضي هذه المدينة مملوكا لهم، وكثر مال أبي محمد هذيل بن خلف بن لب بن رزين صاحب السهلة[2]بعد استيلائه عليها وضبط أمورها[3] أما محمد بن عبد الله البرزالي فقد ذكر ابن الطيب أنه خلف عند موته ثروة عظيمة صرف حياته في جمعها ومنع غيره من الانتفاع بها فتراكمت حتى سمع بثرائه القاصي والداني بالأندلس[4]، وجعل باديس بن حبوس أموال غرناطة تحت تصرف ابنه الوحيد بلقين يتصرف فيها كما يشاء[5].

بينما كان المستوى المعيشي للشعراء يتوقف على حجم الأجرة أو المكافأة التي يتلقاها الشاعر ممن يمدحه، فقد حظي عبد الجليل بن وهبون بألفي دينار على بيتين من الشعر ألقاهما على المعتمد بن عباد، وخلع هذا الأخير على الطبيب الأديب أبي محمد المصري[6] خلعا لا تصلح إلا للملوك، وملأ يده بالدنانير، ثم قربه منه بسبب أبيات انشدها في حقه يمدحه[7]، وقد تكرر ذلك كثيرا في مجلس المعتمد، فيما منح المعتصم بن صمادح قرية بأكملها للشاعر أبي الفضل جعفر بن محمد بن شرف البرجي (444-534هـ/1052-1139م)[8] بسبب بيت واحد في رائيته المشهورة التي مطلعها[9]:

قامت تجرّ ذيول العصب والحبر ضعيفة الخصر والميثاق والنظر

كما خص بعض الحكام بعض الشعراء في بلاطهم بمرتبات عالية كون الشاعر هو لسان حال المملكة،

1- صلاح خالص: المرجع السابق، ص 43.

2- تسمى أيضا شنتمرية الشرق –سهلة بني رزين Santa Maria de Albarracin- وهي من كبار معاقل شنتبرية Santaver، وتمتد من كورة سرقسطة الجنوبية حتى كورتي وادي الحجارة وطليطلة، وتقع إلى الشمال الشرقي من مدريد استقل بها هذيل بن لب بن رزين الملقب بالأصلع سنة 403هـ/1012م، ثم خلفه بعد وفاته ابنه عبد الملك الذي استمر حكمه حتى سنة 496هـ/1102م ثم آلت إلى المرابطين سنة 497هـ/1104م. المقري:المصدر السابق، مج1،ص166؛ محمد عبده حتامله: موسوعة الديار الاندلسية، ج1، ص616، 617، 618.

3- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص108، 117.

4- ابن الخطيب: أعمال لأعلام، ج2، ق2، ص 215.

5- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 36.

6- ترجمته عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص ص 128-129.

7- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص 59.

8- ترجمته عند ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 187.

9- بالنثيا: المرجع السابق، ص 111؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 295.

فابن حمديس مثلا حين نجح في الامتحان الذي أجراه له المعتمد بن عباد حين أجاز أبياته فرض له راتبا شهريا مقداره مائة دينار[1]، وأحيانا ينشد الشاعر الحاكم ثم ينصرف خالي الوفاض.

الفرع الثاني:طبقة العامة:

وهي الطبقة التي تقابل طبقة الخاصة وهي الطبقة الكادحة في المجتمع الأندلسي، وهذه الطبقة مرتبطة بطبقتي الخاصة والوسطى من حيث أنها تغطي احتياجاتهما من اليد العاملة ، فمنها الفلاحون الذين كانوا يشكلون أغلب هذه الطبقة، والذين يعملون في الأراضي الزراعية التي يملكها الأرستقراطيون، وقد لجأ معظم الشعب للعمل عندهم لأنهم يملكون القدرة على حمايتهم من الاعتداءات التي كثرت بسبب الصراعات العسكرية، والعبيد المخصصون لخدمة أسيادهم، كما أنهم مرتبطون بالتجار والصناعيين- الطبقة الوسطى -إذ يكسبون عيشهم من الأعمال المرتبطة بالصناعة والتجارة، والخدمات المختلفة التي تحتاجها المدينة، ويلحق بهذه الطبقة العاطلون عن العمل[2]، وقد كان البون واسعا جدا بين طبقة الخاصة وطبقة العامة من حيث المعيشة، ففي الوقت الذي تقيم فيه الطبقة الأولى ولائم فاخرة تدوم أسابيع، ويعيشون في قصور فارهة كان معظم أفراد العامة يعيشون في أكواخ أو في العراء ،ولا يملكون من الطعام ما يسد رمقهم، فأكلوا الحشيش والجلود والميتة، وغيرها، وقد تكرر ذلك كثيرا في القرن الخامس الهجري، ففي بلنسية مثلا زمن مبارك ومظفر الصقلبيين لم يجد العمال طعاما، فأكلوا الحشيش، ولبسوا الجلود، وكان متوسط أجر العامل البسيط فيها لا يتعدى درهم ونصف[3]، في حين أن ابن رزين صاحب السهلة-وهي مدينة صغيرة- اشترى جارية واحدة بثلاثة آلاف دينار[4]، أما المعتمد ابن عباد فقد بذل في أخرى ثلاثين الف دينار[5]، فهذه الأرقام التي يظهر فيها الفرق الواسع بين معيشة الطبقتين الخاصة والعامة، دليل على غياب العدالة الاجتماعية في هذه المجتمعات.

ويرى أمحمد بن عبود بأن هذه الطبقة تشمل الكادحين في الريف الأندلسي وفي المناطق الحضرية كذلك، وما من أمارات برأيه لمعرفة الجهة الأكثر تشردا الريفية أم الأندلسية لكنه يميل إلى الاعتقاد بأن الكادحين في الأرياف هم أكثر تضررا بحكم قساوة العيش في الريف، أما الطبقة الكادحة في المدينة فيمكن للامتيازات المتاحة فيها أن تخفف من معاناتهم، ومع ذلك تبقى هذه الطبقة في الريف أو المدينة

---

[1]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 231.

[2]- صلاح خالص: المرجع السابق، ص 40، 48، 53.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 19؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 416-417؛ أنسام غضبان عبود: المرجع السابق، ص 101.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 430؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 476.

[5]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 105.

محرومة من الحد الأدنى من الامتيازات التي تتمتع بها الطبقتين العليا والوسطى، وهذه الطبقة برأي ابن عبود كذلك لم تكن تملك أدنى درجة من الوعي السياسي لذلك لم تشارك في العمل السياسي، لكنني لا أشاطر ابن عبود الرأي عندما يدعي بأن الحكام كانوا يجتهدون في تلبية احتياجات العامة إلى أبعد الحدود خوفا من الانفجار الاجتماعي[1]، لأن عبد الله عنان يصرح اعتمادا على ما جاء في المصادر حول هذه المرحلة بأن ملوك الطوائف قد جعلوا من شعوبهم عبيدا[2]، ولا شك بأنه يقصد هنا طبقة العامة التي لم تكن تملك شيئا، وهذه الطبقة تختلف تماما عن الطبقة الأولى كونها لا تحظى بشيء من الامتيازات التي تنعم بها الطبقة الخاصة.

وتذكر بعض الدراسات أن فئة الفلاحين تحديدا في عصر الطوائف–وتمثل الأغلبية من طبقة العامة– هي الأكثر حرمانا بسبب ممارستها لهذه الحرفة في ظروف جد قاسية، فهي من جهة تعمل في الأرض وفق الشروط المهينة لصاحب الأرض، ومن جهة أخرى يتأثرون قبل غيرهم بالحروب المندلعة، إذ كانت غلاتهم في كثير من الأحيان تتعرض للحرب أو النهب،كما تصادر حيواناتهم[3].

وقد عبرت هذه الطبقة عن قلقها من استعباد الأنظمة الحاكمة لأفرادها وعدم رضاها عن مستواها المعيشي من خلال أعمال التخريب التي نفذتها زمن الاضطرابات السياسية ، ففي قرطبة انخرط الغوغاء في الانقلاب الذي قام به محمد بن عبد الجبار فخربوا الزاهرة ونهبوا ممتلكاتها وسفكوا الدماء، وفي غرناطة شعر الشعب باستغلال ابن النغريلة له فثاروا ضده وقتلوه[4]، فثوران العامة في غرناطة كان ضد رجل من الطبقة الارستقراطية وهذا ما يثبت وجود تنافر بين الطبقتين في هذه الفترة سببه وعي طبقة العامة باستغلال طبقة الخاصة لها وهضم حقوقها.

لقد سلك حكام الطوائف مسلك تفقير الشعب من خلال الضرائب الفادحة والمكوس، والغارات، والمصادرة، والنهب ، والتهجير القسري ما أدى إلى اتساع دائرة الطبقة الكادحة في المجتمع الأندلسي، ويعد مبارك ومظفر الصقلبيين عميدا ملوك الطوائف في ذلك[5] وخلال القرن الخامس الهجري كانت طبقة العامة تصارع من أجل الحصول على لقمة العيش، وقد أرهقها الحكام بالضرائب المختلفة، وعندما يعجزون عن التسديد يجبرون على ترك أملاكهم[6].إن ابن عبود يعود مرة أخرى ليقر بأن طبقة

---

[1]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس، ص 26.

[2]- عنان: المرجع السابق، ص 421.

[3]- كمال السيد أبو مصطفى: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، ص 240؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص ص108–109؛ صلاح خالص: المرجع السابق، ص 48؛ أنسام غضبان عبود: المرجع السابق، ص 101.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 464.

[5]- محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص ص 45-46.

[6]- محمود حسين شبيب هياجنة: المرجع السابق، ص ص 255-257.

العامة قد كانت جزءا لا يتجزأ من النظام الاقتصادي والاجتماعي الذي استفادت منه طبقة الخاصة أكثر من أي جهة أخرى، وبرأي ابن عبود فإن طبقة العامة تنتمي في أغلبها إلى العرق الإسباني[1].

الفرع الثالث: الطبقة الوسطى: وبين طبقة الخاصة والعامة توجد الطبقة المتوسطة والتي ساهمت التجارة والصناعة في إنشائها وتتشكل من التجار والصناعيين(ومنهم الحرفيين) وأصحاب الأعمال، وصغار الملاك والإداريين والموظفين الذين يسهرون على تنفيذ قرارات الموظفين الساميين وبرامجهم، وقد كان عدد هؤلاء الموظفين في الدول الطائفية الكبيرة كأشبيلية وطليطلة كبيرا جدا، وهي التي حافظت برأي أمحمد بن عبود على التوازن بين طبقة الخاصة وطبقة العامة وخففت من حدة التناقضات الموجودة بينهما وقللت احتمالات التصادم، ويشكلون أغلب سكان المدن[2].

وقد تأثرت مكانة الطبقة المتوسطة الاجتماعية ونمط معيشتها في عصر الطوائف بحجم الدولة التي ينتمون إليها وموقعها الجغرافي، فالدولة التي كانت تملك مساحة جغرافية كبيرة كأشبيلية وتنعم بموارد طبيعية متنوعة كان وضع الطبقة المتوسطة فيها أفضل من نظرائهم في الدويلات الصغيرة التي لا تملك الأراضي والموارد.

وعلى عكس طبقة العامة التي فقدت الأمل في تحسين مرتبتها الاجتماعية كانت الطبقة الوسطى يحدوها الأمل للصعود وتحسين أوضاعها المعيشية ورتبتها في المجتمع لذلك راحت تنشط في القطاعين التجاري والإداري والصناعي دون كلل أو ملل، ولم تؤثر التقلبات السياسية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي في حيويتها ونشاطها، كما كانت العلاقة بينها وبين طبقتي الخاصة والعامة خالية من الاصطدام ، ناهيك عن الإنسجام الذي كان قائما بين عناصر هذه الطبقة في جميع دول الطوائف لا سيما فئة التجار التي كانت تحتك مع بعضها وتتبادل المصالح[3].

يفهم من كلام ابن عبود حول هذه الطبقة بأن أفرادها كانوا على درجة عالية من الذكاء وقد سخروا ذكاءهم للنهوض بأحوالهم الاجتماعية من خلال ممارسة وظائف وأعمال لا يستطيع المجتمع الاستغناء عنها، كما عملوا على بناء علاقات جيدة مع الطبقتين الخاصة والعامة تسبغ عليهم نوعا من المصداقية.

---

[1]- ابن عبود: جوانب، ص 29، 31.

[2]- ابن عبود: نفسه، ص 33، 188؛ صلاح خالص: المرجع السابق، ص 40، 50، 52.

[3]- ابن عبود: المرجع السابق، ص 39، 40؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة على عهد بني زيري البربر، ص 263.

وعند حديثنا عن الطبقة الوسطى لا يجب أن يغيب عن وعينا بأن النخبة الثقافية والدينية كما يسميها ابن عبود ينتمي معظم أفرادها إلى الطبقة الوسطى[1]، وأن هذه النخبة قد شكلت مجموعة ضغط هامة في المجتمع الأندلسي.

أما **الفقهاء** أو الشيوخ أو علماء الشريعة كما يحلوا للبعض تسميتهم، فعلى مستوى السلطة لم تكن سلطتهم أقل شانا من سلطة الحكام، فهم يمثلون السلطة الروحية ويقومون بحماية الشريعة لذلك حظيت هذه الفئة باحترام المجتمع، وقد عمل الحكام في عصر الطوائف على استمالتهم بالمال وتقريبهم لتدعيم نفوذهم وإضفاء الشرعية على أنظمتهم وتبرير ظلمهم للرعية فنجحوا في ذلك[2].

هذا على مستوى السلطة أما على المستوى المعيشي، فكانوا يصنفون ضمن الطبقة الوسطى،إذ لا يملك هؤلاء من الثروة ما يساوي أو يقارب ثروة الطبقة الأولى،عدا بعض العلماء الذين عينوا في مناصب سامية كالوزارة والقضاء والكتابة في ديوان الملك كابن الملح، وابن القصيرة وابن عبد البر(عبد الله) وغيرهم[3].

ولأنهم كانوا عونا للحكام على ظلم الرعية-إلا نفرا يسيرا منهم- ولم يقوموا بالوظيفة المرجوة منهم والمتمثلة في الوقوف في وجه الظلمة، فقد رماهم ابن حزم بالخيانة واتهمهم بالفسق والتستر وراء الشرع والتماس الأعذار للحكام وتبرير ظلمهم للرعية بتبريرات واهية، وبعبارة واضحة لقد تحالف الفقهاء مع الحكام ضد الرعية من أجل خدمة مصالحهم الضيقة، لذلك كانوا يلتمسون لجرائم الحكام المبررات، ويخترعون فتاوى على المقاس، لكن ابن سهل يرى أن الحكام قد أدنوا أشباه الفقهاء ممن لا علم لهم، لذلك وصفهم بعض معاصريهم باللصوص[4].

يرى أمحمد بن عبود بأن الفقهاء في القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادية قد تمتعوا في الأندلس بمركز اجتماعي متميز وأن علاقتهم بالسلطة وبالأشخاص الذين تقلدوا مناصب عالية في الدولة وطيدة بسبب إشرافهم المباشر على تعليم الأشخاص الذين أصبحوا لاحقا إطارات في الدولة، بل إن

---

[1]- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 146.

[2]- بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين (من بداية القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر) دراسة شاملة، تحقيق مصطفى الرقي، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2، ص 978؛ أمحمد بن عبود:المرجع السابق، ص 19؛ محمد بشير العامري: المرجع السابق، ص 205؛ عمر راجح شلبي: دور علماء الأندلس في الحياة السياسية في القرن الخامس الهجري، مجلة الجامعة الإسلامية(سلسلة الدراسات الإنسانية)، مج16، ع2، يونيه 2008، ص265.

[3]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 95.

[4]- ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 173؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 51؛ أحمد الطاهري: المرجع السابق، ص 134.

الكثير من الفقهاء قد شغلوا مناصب إدارية هامة في دول الطوائف، ولم يكن موقفهم تجاه القضايا الكبرى في عصرهم كالضرائب المفروضة على الرعية والعلاقات مع النصارى في الشمال وفساد بعض ملوك الطوائف سلبيا بل كان دورا اتسم بالحركية ولكن هذا الدور لم يصل إلى درجة المعارضة للأنظمة القائمة[1].

لذا نقول بأن فقهاء عصر الطوائف لم يكونوا على شاكلة واحدة، فبعضهم كان عنيفا مع الأمراء منتقدا لهم كأبي حفص بن الحسن الهوزني(ت 460هـ/1068) الذي خاطب المعتضد بن عباد من مرسية بعبارات لاذعة لتقاعسه عن نصرة إخوانه في بربشتر عندما نكل النّصارى بهم سنة 456هـ/1064م، وكان انتقاده هذا سببا في هلاكه على يد المعتضد سنة 458هـ/1066م[2]، أما البعض الآخر فقد آثر أن يكون مسالما لهم متغاضيا عن تجاوزاتهم في حق الرعية كالفقيه أبي بكر بن الملح[3]، ويعتبر عبد الله ابن يوسف بن عبد البر مثالا للفقيه المرن الذي يعرف كيف يتفادى التصادم مع السلطة، فقد ساءت علاقته بالمعتضد لكنه عرف كيف يتجنب شره، وتظاهر بموالاته ومساندته في الكثير من أعماله التعسفية[4]، وعلى عكس ابن عبد البر فقد بدا ابن حزم معارضا لملوك الطوائف منذ البداية معتبرا أنظمتهم غير شرعية[5]، وقد وصفهم بأنهم محاربون لله ورسوله وقطاع طرق مفسدون في الأرض، كما وصف الفقهاء المتواطئين مع الحكام بالفساق اللابسين جلود الضأن على قلوب السباع، المزينين لأهل الشر شرهم الناصرين لهم على فسقهم[6].

وقد أشار ابن حيان الذي عاصر أحداث هذه المرحلة إلى فساد الفقهاء في هذه الفترة، وتقاعسهم عن أداء واجب النصح للحكام إما رغبة وطمعا فيما عندهم وهؤلاء برأيه هم الأكثرون أو رهبة وهم قلة، ما شجع الحكام على التمادي في تعسفهم وانحرافهم عن الحق، كما لم تفته الإشارة إلى المواقف الفردية الإيجابية لبعض الفقهاء كابن حزم وأبي الوليد الباجي وأبي إسحاق الألبيري، ولكن يجب أن نسلم بأن بعض هذه المواقف قد جاءت متأخرة نوعا ما، ولم تظهر إلا بعد استفحال أمر الفونسوا، وعزمه

---

[1]- أمحمد بن عبود :جوانب من الواقع الأندلسي، ص 161، 163، 173.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 81-83؛ خالد محمود الديلمي- مهند عبد رحيم:المرجع السابق، ص 435؛ عمر راجح شلبي: المرجع السابق، ص 265.

[3]- ترجمته في : قلائد العقيان، ق2، ج2، ص 558؛ النفح، ج4، ص 70؛ المغرب، ج1، ص 383، رقم الترجمة 273؛ الذخيرة، ق2، مج1، ص 452.

[4]- ابن بسام: المرجع نفسه، ق3، مج1، ص ص 125-126.

[5]- أمحمد بن عبود: المرجع السابق، ص 181،179.

[6]- ابن حزم: التلخيص، ج3، ص 173؛ عمر راجح شلبي: المرجع السابق، ص 265.

على انتزاع الأقاليم الإسلامية من ملوكها،بعد سيطرته على طليطلة، فحينئذ تحرك الباجي وطاف على عدد من ملوك الطوائف يدعوهم للوحدة ونبذ الخلاف والتصدي للمد المسيحي[1].

والذي يظهر لي بعد تتبع مواقف العلماء من قضايا زمانهم في عصر الطوائف وعلى رأسها تناحر الملوك فيما بينهم، واستبدادهم بالسلطة وبمقدرات شعوبهم أن هؤلاء العلماء لا يشكلون رابطة موحدة يجتمع تحت لوائها علماء الأندلس جميعا ليصدروا قرارا موحدا يدين ملكا من الملوك أو يمنعه من التسلط على إخوانه أو يحثه على نصرة المسلمين وإنجادهم بل كان هؤلاء العلماء ينتمون إلى إمارات مختلفة متنازعة فيما بينها، فكان الكثير منهم لا يجرؤ على معارضة حكامهم إما رغبة أو رهبة عدا بعض الأصوات التي أخمدت إما قتلا كالهوزني، وعمر بن حيان بن خلف بن حيان(ت 474هـ/1081م)[2]، أو إبعادا وطردا كابن حزم، فكان الصمت عن سياسات الحكام هو الصفة الغالبة على علماء هذه الفترة لكن هذا الموقف تغير بعد انتصار يوسف بن تاشفين على النصارى في موقعة الزلاقة عام 479هـ/1086م، فقد نقل الفقهاء شكاوى الرعية من ظلم ملوك الطوائف لهم إلى يوسف بن تاشفين وقاموا بمساندة القوة الجديدة وصار رأيهم متشابها[3].

يشير الباحثون في طبقات المجتمع في عصر ملوك الطوائف إلى طبقة أخرى ويتعلق الأمر بالمرتزقة، وهؤلاء يشكلهم ملوك الطوائف من العناصر الداخلية لمجتمعهم أو من الممالك النصرانية في الشمال أو من القادمين للحرب من المغرب، وهؤلاء مهمتهم حفظ الأمن الداخلي لدويلات الطوائف، والمشاركة في الصراعات الخارجية، وهذه الطبقة مرتبطة ارتباطا وثيقا بطبقة الخاصة[4]، وقد ساهمت الصراعات العسكرية التي اندلعت في الأندلس بشكل مباشر في إنشائها.

وقبل مغادرة هذا العنوان يجدر بنا أن نتحدث عن استغناء بعض حكام هذه الدويلات عن أهل العلم والفضل والفطنة والخبرة في شؤون الحكم وتقريب السفهاء والغوغاء، وهذا الفعل أحدث خللا في الترتيب الإجتماعي، فارتفع من كان حقه الخفض وخفض من كان حقه الرفع، وهذه هي طبيعية الفترات المضطربة من التاريخ البشري، وقد رصد ابن الكردبوس هذا الخلل في عصر الطوائف ، فذكر أن الفوضى عمت الأندلس وفسد حال الرئيس والمرؤوس وارتفع كل خامل وخسيس، وثار الثوار، واشتعلت النار في كل مكان[5].

[1]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 98.
[2]- عمر راجح شلبي: المرجع السابق، ص265.
[3]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص40، 170.
[4]- صلاح خالص: المرجع السابق، ص 41.
[5]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 68؛ عمر راجح شلبي: المرجع السابق، ص 264، 265.

وقد بدأ ذلك مبكرا فقد قام عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمستظهر بالله بعد مبايعته في قرطبة سنة 414هـ/1023م بتقليد بقايا من بني مروان الوزارات وقدمهم على سائر رجاله، وكانوا كما وصفهم ابن حيان الذي كان حاضرا عند المبايعة " عصابة يحل بها الفتاء ويذهب بها العجب..."[1]، فأغضب ذلك أهل السياسة وعجل بانقضاء دولته.

ولما بويع هشام بن محمد الملقب بالمعتد بقرطبة سنة 420هـ/1029م قلد وزيره حكم بن القزاز الأعمال، فاستعان هذا الاخير على إدارة شؤون الدولة بكل نغل دغل ، وماجن سفيه أو سوقي رذل، ثم عادى الأحرار، وتنقص الفضلاء، وآذى أصحاب البيوتات[2].

ويذكر ابن حيان بأن المستكفي بالله الأموي عندما تولى حكم قرطبة فتح باب الوظائف أمام الناس ليتولى منهم من شاء ما شاء من المناصب فتولى المناصب الرفيعة الحثالة من الناس ووفد عليه كل صغير حقير فاختل أمر الدولة[3].

وفي مملكة بلنسية داس مبارك ومظفر أحساب الأحرار بأقدامهم، وقربوا العبيد والموالي من كل جنس فحفز ذلك العبيد على الفرار من أسيادهم وكثر ذلك في الأندلس فقدموا إليه من كل المناطق واتصل بهم كل مطرود ومن لم يجد ملاذا يلوذ به ولم يكترثوا للأحرار وأبنائهم الذين وفدوا عليهم[4].

وغير بعيد عن بلنسية استقر خيران الصقلبي بعد فراره من قرطبة زمن الفتنة بأريولة[5]، فانحاز إليه الصعاليك وقطاع الطرق، فكان يغير بهم على المناطق المجاورة، حتى تمكن من السيطرة على الجهة[6].

وفي قرطبة تولى عبد الملك بن محمد بن جهور الحكم في حياة أبيه بعد مبايعة الناس له فأساء السيرة حيث فسح المجال للأوغاد، وقد استعان بهم للانقلاب على أخيه عبد الرحمن الذي كان شريكه في الحكم وقام بسجنه[7].

---

[1]- ابن حيان القرطبي: المصدر السابق، ص 33.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 518-519، 523، 524.

[3]- ابن بسام: نفسه، ق1، مج1، ص ص 435-436.

[4]- ابن بسام: المصدر نفسه، ق3، مج1، ص 16؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص415.

[5]- حصن بالأندلس وهو من كور تدمير.الحميري: الروض المعطار، ص 67.

[6]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 199.

[7]- عبد الله عنان: المرجع السابق، ص 26؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة 365، 463.

وفي رندة(RONDA)[1] فسح باديس بن هلال بن أبي قرة المجال لرجاله بعد جلوسه مكان أبيه المعتقل عند المعتضد، فأمعنوا في نهب المدينة وانتهاك الأعراض، فكانوا يأخذون الزوجات من أزواجهن والبنات من آبائهن ولم يسلم من ذلك أقرب الناس إليه من خاصة محارمه[2].

ونقل غير واحد من المؤرخين وأصحاب التراجم عن إدريس بن يحي بن علي بن حمود صاحب مالقة أنه كان لا يصحب ولا يدني منه إلا كل ساقط نذل، وأنه لم يكن يحجب حريمه عنهم[3] ما يدل على أن معايير الترتيب الاجتماعي قد انتكست عند هولاء فقدموا كما أسلفنا من حقه التاخير وأخروا من حقه التقديم فانتج ذلك ترتيبا إجتماعيا تأثر بالفوضى الذي خيمت على البلاد.

وهنا يجب أن نشير إلى حالة التنافر الشديد الذي أصاب المجتمع الأندلسي في هذه الفترة والقطيعة التي طبعت العلاقة بين الإمارات حتى صار المجتمع على حافة الانهيار[4]، ولا شك بأن المسؤول عن تقسيم المجتمع إلى هذه الطبقات ووصوله إلى هذه الحالة من التنافر والتناكر هي الصراعات العسكرية.

أما الممالك النصرانية فكانت حروب الاسترداد فرصة للكثيرين فيها لتغير أوضاعهم في مجتمعاتهم وللحصول على مركز اجتماعي جيد، فأصبح الرجال الأحرار عامة يصعدون السلم الاجتماعي في المجتمع القشتالي ليصبحوا فرسانا من نوع (Caballeros Villanos)، في حين كان الفرسان من عامة الشعب يصيرون (Hidalogos) أي رجالا من طبقة النبلاء الصغار فور انتهائهم من الخدمة العسكرية وامتلاكهم لحصان ودرع، وعلاوة على ما ذكرنا هناك عدد من المنتمين إلى طبقة النبلاء الأصليين يرجع الفضل في صعودهم الاجتماعي إلى الفرص الاقتصادية التي وفرتها الصراعات العسكرية مع ملوك الطوائف[5].

---

[1]– من مدن تاكرنا على نهر ينسب إليها يصب في نهر لكّه، وهي مدينة رومانية قديمة كان اسمها Arunda من اهم آثارها الإسلامية قصبتها الشهيرة وقنطرتها الواقعة عند مدخلها الغربي وحماماتها ومنارتها الواقعة في نهاية المدينة ويبلغ طولها اثني عشر مترا ، بنيت فوق ربوة عالية مما جعلها ذات موقع استراتيجي حصين وأتاح لها أن تكون منّ أهم القواعد العسكرية في الأندلس لم تصرح المصادر باسم فاتحها ، ولكن المرجح أن فاتحها هو طارق بن زياد بعد انتصاره على القوط في معركة وادي لكّه، استقر بها بعد الفتح بنوا اليفرني من البربر لأنها منطقة جبلية، وسميت تاكرنا باسم بعض قبائلهم، ثار بها بعد الفتنة هلال بن أبي قرة بن دوناس اليفرني.ينظر المقري: المصدر السابق، مج1، ص 165، حتاملة: موسوعة الديار الأندلسية، ج1، ص 454، 456، 457.

[2]- عنان: المرجع السابق، ص 46.

[3]- ابن حزم: ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس، ج2، ص 207؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 29؛ عبد الواحد المراكشي:المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2006، ص 56.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص188.

[5]- ابن عبود: جوانب، ص 120.

المطلب الثاني : البؤس الاجتماعي :

الفرع الأول: الفقر: تخبرنا الكتب التي أرخت لعصر الطوائف بأن الكثير من أثرياء الدولة، وسراة الناس في هذه الفترة فقدوا ثروتهم وأصبحوا على شفير الفقر بسبب الفتنة التي قلبت المنطقة رأسا على عقب[1]، وممن عضه الفقر وأصبح معدما من أفراد الأسرة الأموية التي حكمت الأندلس لزمن طويل وملكت ديناره ودرهمه محمد بن عبد الرحمن بن عبيد الله الناصري المعروف بالمستكفي الذي تولى حكم قرطبة بعد المستظهر سنة 414هـ/1023م ودام حكمه لها سبعة عشر شهرا ، فقد شاهده ابن حيان أيام الدولة الحمودية بقرطبة يطلب الصدقة من الفلاحين أيام جمعهم لغلاتهم[2].

وقد أثّر تنافس ملوك الطوائف في تشييد القصور وزخرفتها سلبا على معيشة السكان فكان كل ملك يجتهد في جمع الأموال لبناء العاصمة النموذجية، فقلّ الدينار وعجز العوام عن الوصول إليه، فأصيب الناس بالفاقة واتسعت رقعة الفقر في المجتمع[3].

وفي المرية اتسعت دائرة الفقر في بعض فترات عصر الطوائف وصار الكثير من سكانها يعتمدون بصفة كلية على الصدقات التي تقدمها الدولة، فقد أحصى قاضيها موسى بن أحمد المرسي فيها وفي أرباضها عشرين ألف معدم[4]، وقد أثر ذلك في نفوس بعض أثرياء هذه المدينة فحبس كل واحد منهم ضياعا وبساتين على أقاربه الفقراء من جهة أبيه وأمه، فكان ريعها مخصصا لشراء طعامهم وكسوتهم وغيرها من احتياجاتهم[5].

ولم يقتصر الفقر الذي تسببت فيه الصراعات العسكرية بالأندلس خلال عصر الطوائف على مكوّن دون آخر من مكونات الشعب الأندلسي فالكل تأثر به، فالكثير من العائلات اليهودية أجبرتها الفاقة على الهجرة من بلد إلى آخر لعلهم يجدون ما يسد رمقهم وهذا ما نستشفه من قول شاعرهم:

لقد قست وجه الأرض بقدمي   كما لو أنهما مسطرتي قياس

فهذا الشاعر يخبرنا بأنه بعد الهجرة قد وجد نفسه وحيدا بعيدا عن أسرته، وقد كشفت القوائم الخاصة بتوزيع الصدقات من قبل يهود مصر في هذه الفترة عن أسماء أفراد من يهود الأندلس قدموا إلى

[1]- شاهر عوض الكفاوين: المرجع السابق، ص 93.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص434.

[3]- خميسي بولعراس: الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف 400- 479هـ/1009-1086م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007، ص 199.

[4]- العذري: المصدر السابق، ص 86؛ الجعماطي: النقل والمواصلات، ص ص 478-479.

[5]- المعيار المعرب: الونشريسي، ج7، ص ص 477-478.

مصر بعد الفتنة التي عصفت بقرطبة، وعاشوا على الصدقة وهذا دليل على أنهم كانوا يمرون بأوضاع معيشية صعبة[1].

وتخبرنا بعض الدراسات بأن الفقر في هذا القرن قد طال قطاعا لا بأس به من العلماء والشعراء، بسبب إحالتهم على البطالة وتعطل أقلامهم وقد فهم ذلك من قول أبي حفص بن برد " وسوق الأدب قد كسدت.... وأقلامنا يومئذ في عطلة ومحابرنا في عقلة" [2]، وفي ظل الفاقة التي عاشها بعض الشعراء لم يجدوا بدا من التطواف على الملوك والأثرياء وقول الأشعار فيهم طمعا في عطائهم، أما البعض الآخر فقد آثر الهجرة داخل الأندلس أو خارجها بحثا عن القوت[3].

كما لا يجب أن يغيب عن علمنا بأن الضرائب المختلفة والمتنوعة التي فرضها ملوك الطوائف على شعوبهم في هذه الفترة قد وضعت السواد الأعظم من الأندلسيين على شفير الفقر، فالمصادر التاريخية تخبرنا بأن الكثير منهم كانوا يقتاتون على الحشيش ويلبسون الجلود لأنهم لأن الملوك قاموا باستصفاء أموالهم[4].

وفي ظل هذا الفقر المدقع شرع االكثير من الأندلسيين في البحث عن بدائل لتوفير لقمة العيش فاختار الكثير منهم السرقة، فتخصصت في ذلك أسر بأكملها ، ومن الأسر التي ذاع صيتها في السرقة إبان عصر ملوك الطوائف أسرة الرجل الإشبيلي المعروف بالبازي الأشهب وقصتها مع التاجر صاحب البغل المحمل بالبضائع مبسوطة في كتب التاريخ[5]، فيما فضل البعض سرقة أكفان الموتى بعد دفنهم لبيعها وشراء الطعام بثمنها[6].

لقد كانت هذه الصراعات العسكرية في عصر الطوائف سببا في إفقار عدد من ملوك هذا العصر، فالمتغلبون عليهم كانوا يأخذون كل ما عندهم، وممن حدث له ذلك عبد الملك بن جهور فعندما غدر به جند المعتمد بن عباد وأخذوا منه قرطبة أخرجوه من قصره مع حريمه وأسكنوهم في مقصورة المسجد ريثما يتم ترحيلهم، إلا أن عددا من جنود النصارى الذين كانوا مع جند ابن عباد، دخلوا عليهم فأخذوا كل ما

---

[1]- خالد يونس عبد العزيز الخالدي: اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (92-897هـ/711-1492)، دار الأرقم، فلسطين، غزة، (د.ط)، 2011، ص 196.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 488.

[3]- ابن بسام: نفسه، ق2، مج1، ص 311، الطاهري: المرجع السابق، ص 130، 131.

[4]-ابن بسام: المرجع السابق، ق3، مج1، ص 19؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 416-417

[5]- المقري: المصدر السابق، مج4، ص 128.

[6]- بولعراس:المرجع السابق، ص 116.

عندهم من الأموال التي بحوزتهم، فعاشت أسرة عبد الملك لحظات من الخوف والهلع وشعروا بالبؤس، وكانت نهاية ذلك الذلّ بإخراجهم إلى جزيرة شلطيش ليعيشوا شظف العيش[1].

وعندما سقط عبد الله بن بلقين، في يد المرابطين نفذوا إلى قصره وفتشوه شبرا شبر، فصادروا ممتلكاته وجردوه من جميع أمواله وأخذو منه خدمه وغلمانه، فصار فقيرا في طرفة عين بعدما كانت خزائنه ممتلئة بالمال، فكانت تلك اللحظات هي الأسوأ في حياة عبد الله، تجرع فيها مرارة الإهانة، وشعر بالتعاسة[2].

ولقي المعتمد بن عباد مع أسرته المصير نفسه، وبلغ البؤس الغاية منهم، فقد خلعه المرابطون هو الآخر وجردوه من ممتلكاته وأخذوا أمواله ثم ربطوه مع أفراد أسرته بحبل واحد، وقاموا باقتيادهم إلى السفينة في منظر محزن، لأخذهم إلى المنفى بالمغرب، وبناته قد مزقن وجوههن بأظافرهن من شدة الحزن، والناس على ضفتي الوادي الكبير يبكونهم، وفي أول عيد له بسجن في أغمات دخلت عليه أسرته للإطلاع على حاله، فساءه منظر بناته وقد لبسن أثوابا رثة وأقدامهن حافية فأيقن بأنهنّ يعانين فقرا مدقعا أرغمهن على الاشتغال بالغزل لكسب القوت، فأنشد أبياتا يتحسر فيها على أحوالهن ويصف حجم البؤس الذي أصابهن[3]، فالمتسبب في تعاسة هذه الأسرة وشقائها هي الصراعات العسكرية التي كانت تدور في هذه المنطقة في هذه الفترة، فقد قلبت حياتها رأسا على عقب ونقلتها من حياة الترف والدعة إلى حياة الفقر البؤس والحرمان.

ولا نشك بأن أسر هؤلاء الوزراء المنكوبين قد عاشوا أياما عصيبة بعد التخلص من مُعيلهم، إذ تتعرض منازلهم وأملاكهم لمداهمات إما من قبل جنود الحاكم أو من قبل العوام، فيصادر كل شيء فيها، ويترك أفراد تلك العوائل على شفير الفقر، فيعيشون ظروفا بائسة، وفي هذا المقام نذكر ما حدث لعائلة ابي بكر بن الحديدي بعد قتله، فقد قام العوام بنهب دياره بعدما عجزوا عن نصرته[4]، ولا شك بأن التوغل داخل أملاكه لنهبها قد رافقتها أعمال شنيعة وتجاوزات خطيرة في حق تلك الأسرة.

الفرع الثاني: المجاعات:تعرض الشعب الأندلسي طيلة القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي لمجاعات متكررة وكانت الصراعات العسكرية هي المتسبب الرئيس في أغلبها، إمَّا من خلال منع التُّجَّار من إدخال الطعام إلى المدن أو إتلافه أثناء عمليات الاقتحام للمدن والحصون، ففي مستهل القرن الخامس

---

[1]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 136؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، ص 37.

[2]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص ص 156-157.

[3]- ابن خاقان: المصدر نفسه، ج1، ق1 ص ص 95-96، ابن الخطيب:الإحاطة، مج2، ص 118؛ علي أدهم: المعتمد بن عباد، مكتبة مصر،(د.ط)،(د.ت)، ص ص 292-293؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص ص 242-243.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 155.

الهجري نشبت الحرب بين جيش المهدي وجيش المستعين بقرطبة فأدى ذلك إلى تدهور الأوضاع داخل المدينة، فارتفعت الأسعار وعمّ الغلاء،لأن البربر سيطروا على كافة الطرق المؤدية إلى قرطبة ومنعوا الميرة من الدخول إليها، ولم يقتصر ذلك على قرطبة المدينة بل طال القرى المحيطة بها[1].

وربما كان السبب في إصرار البربر على منع التجار من إدخال الطعام إلى قرطبة هو قيام المهدي قبل ذلك بإجهاض أية محاولة لإيصال الطعام للبربر المعسكرين خارج قرطبة مع المستعين بالله، إذ بعث من ينادي في سائر الثغور أن من يحمل إليهم شيئا من الطعام فدمه حلال، فأقاموا خمسة عشر يوما يعيشون على حشيش الأرض[2]، وهذا جعلهم يتعقبون القوافل المحملة بالطعام في الدروب والمسالك المؤدية إلى قرطبة.

وفي سنة 425هـ/1034م غدر ابن الأفطس بجنود ابن عباد، وكمن لهم أثناء عودتهم من غزو مملكة ليون وحاصرهم في مضيق بين جبلين، فقتل أغلبهم، وفر إسماعيل بن عباد مع عدد من أصحابه، ولبثوا زمنا لا يجدون طعاما يأكلونه، فأصابهم البؤس، وتغلب عليهم الجوع، ولم يرتفع ذلك عنهم إلا بذبح بعض خيولهم وأكل لحومها[3].

وفي سنة 442هـ/1050م تسببت الغارات المتلاحقة للمعتضد بن عباد على أراضي بن الأفطس في مجاعة طويلة لسكانه[4]، ولك أن تتخيل آثار هذه المجاعة التي طال أمدها في مملكة بطليوس، فلا شك بأن السكان قد عاشوا أوقات صعبة، وتعطلت حياتهم بالكامل بسبب ضعف أجسادهم وعجزهم عن الحركة، كما يحدث تماما داخل المدن المحاصرة لإجبارها على الاستسلام وفتح أبوابها للعدو، ففي سنة 456هـ/1064م هاجم فرناندوا الأول مدينة "قلمرية" وحاصرها بجيشه ستة أشهر كاملة حتى ضعف أهلها عن الدفاع عنها بسبب الجوع والأمراض[5].

كما أن المال في هذه الفترة قد اجتمع في يد قلة قليلة من الناس كالحكام وبعض النافذين من الوزراء وأصحاب النفوذ كاليهود، فقد ذكر ابن حزم في رسالته التي رد فيها على ابن النغريلة الذي تطاول على القرآن وزعم أن فيه تناقضا أن هذا الرجل قد حمله على ذلك كثرة الأموال لديه وتوافر الذهب والفضة

---

[1]- ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ج2، ص 110؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين: المرجع السابق، ص 28، 35.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق،ج2، ص 359.

[3]- ابن بسام:المصدر السابق، ق2، مج1، ص 22؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 444؛ دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 29.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص35؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 450.

[5]- ابن عذاري: المصدر نفسه، مج2، ص 469؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، ص 36.

عنده[1]، وقد كان الرجل وزيرا عند بني زيري في غرناطة ولا شك بأن منصبه قد أسعفه في جمع هذه الأموال الطائلة التي كانت سببا في طغيانه وجرأته على القرآن الكريم .

وعندما حاصر الروم بربشتر عام 456هـ/1064م نفذ الطعام واستبد العطش بالمحاصرين وفي اليوم الثالث من استيلاء النصارى على المدينة أذنوا للمتحصنين في بعض الأماكن فيها بالنزول، ففعلوا وقد تغيرت وجوههم لأن الجوع والعطش قد استنزف قواهم[2]، ولا شك بأن الأماكن التي تعرضت للغزو سواء من قبل ملوك الطوائف أو من قبل القوات النصرانية قد حدثت فيها أوضاع متشابهة.

وفي مملكة بلنسية تعرض سكان قراها للاضطهاد على يد مبارك ومظفر الصقلبيين، واستعملوا في وظائف شاقة وحرموا أجورهم وسلط عليهم عمال قساة، فأصابهم البؤس وعدموا الطعام واللباس، فلبس الكثير منهم الحصر والجلود وأكلوا البقل والحشيش، وزاد العمال في عذابهم فاختار الكثير منهم مغادرة قريته وهذه الصورة القاتمة طبعت الكثير من ممالك الطوائف، فالمتغلبون عليها أغلبهم سلكوا مع رعيتهم مسلك مبارك ومظف[3].

غير أن البؤس الذي أصاب أهلها عندما قام الكمبيطور بمحاصرتها لا يشبهه إلا بؤس بربشتر، فقد منع الميرة من الدخول إليها، فاستبد الجوع بأهلها حتى أكلوا الجلود والجيف، وزاد الكمبيطور في حصارهم فضاقت صدورهم، وبلغت قوبهم الحناجر، وعاشوا أياما عصيبة يملأها الحزن والبؤس، وحاول بعض السكان التخلص من من هذه الأوضاع البائسة بالهرب منها، ففقئت أعينهم، وقطعت أيدي وأرجل البعض الآخر، فتضاعفت المعاناة، ونفذ صبرهم، ففتحوا الباب للعدو، واشترطوا عليه ألا يؤذي أحدا فاقتحمها سنة 487هـ/1094م ، ثم اوقد نارا عظيمة لابن جحاف أحرقه فيها[4].

وعاش سكان مدينة قلمرية في السنة نفسها بؤسا مشابها عندما قام فرناندوا الأول بمحاصرتها ستة أشهر حتى نفذ الطعام والزاد وضعفت أجسامهم، فقام باقتحامها ونكل بسكانها رجالا ونساء وأطفال، فكان المشهد بائسا بكل ما تعنيه الكلمة[5].

[1]- ابن حزم:رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3 ص 42؛ هشام فوزي عبد العزيز: يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، مجلة العصور، مج11، دار المريخ، لندن، يناير2001، ج1، ص 50.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 185، 186؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 459.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص 19؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص ص 416-417.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 97، 98، 99؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج3، ص 27؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 487؛ خالد بن ناصر بن سعيد الغامدي: المرجع السابق، ص 510.

[5]- ابن عذاري:رالمصدر السابق، مج2، ص469؛ عنان:المرجع السابق، ص86.

وقام الكمبيطور باستخراج الأموال من سكان بلنسية بالضرائب حتى صار الغني فيهم كالفقير، وساد الغلاء، فعجز الناس عن شراء الطعام واستوى في العجز الغني والفقير، وعمد الكمبيطور إلى إحراق كل من يحاول الفرار من المدينة، وعدمت الأقوات فهلك الناس بسبب المجاعة ولم يبق منهم إلا نفر يسير، وتصرف في أهل بلنسية بالنفي، والقتل،والمصادرة، والتعذيب[1]، فعاش الناس تحت حكم هذا المحتل بؤسا لا تكاد تجد له نظيرا.

وعاش النصارى المتحصنين في حصن **لييط** -وعددهم اثني عشر ألف مقاتل غير العيال والذرية- عقب معركة الزلاقة حياة مليئة بالبؤس وساءت معيشتهم بسبب حصار يوسف بن تاشفين لهم، فلقي الجميع حتفهم إما جوعا أو قتلا، ولم ينج منهم سوى مائة رجل[2].

وعندما قام الفونسوا السادس سنة 474هـ/1081م باقتحام طليطلة لإرغام سكانها على طاعة القادر بن ذي النون المطرود، فقلبها رأسا على عقب وعاث فيها فساد، فكانت هذه النكبة سببا في نقص الطعام، وارتفعت الأسعار فتفاقم الأمر في هذه المدينة، وبلغت القلوب الحناجر، وعاش الناس أياما عصيبة[3].

وقد كان بؤس بعض العائلات في هذه الفترة سببه القحط وقلة الطعام وارتفاع الأسعار، ففي عام 448هـ/1056م ضرب اشبيلية قحط شديد رافقه غلاء فاحش أصاب الناس بسببها مجاعة، ومات بسببها خلق كثير حتى صار الناس يدفنون كل ثلاثة أو أربعة في قبر واحد، وخلت المساجد من المصلين، ولم تسلم قرطبة هي الأخرى من القحط وغلاء الأسعار حتى صار قفيز الحنطة (30كيلوغراما) يباع بثلاثة دنانير[4]، وقد أصاب القحط قرطبة قبل هذا التاريخ في العام الذي مات فيه عبد الرحمن بن محمد بن عيسى بن فطيس أي سنة 402هـ/1011م وغلت الأسعار، فاجتمع أهل قرطبة وقاموا ببيع مكتبته الجليلة واستمر ذلك عاما كاملا[5]، أما ابن عذاري فيرى بأن هذه المجاعة قد حدثت بقرطبة سنة 401هـ/1010م، فأصاب الناس بسببها فقر مدقع جعلهم يقتاتون على أشياء ضارة ومحرمة حيث أكلوا الدم من مذبح البقر ومات رجل في السجن فأكله السجناء[6].

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج3، ص 31، 32، 33.

[2]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 153

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 164.

[4]- خليل ابراهيم السامرائي وأخرون: المرجع السابق، ص 468.

[5]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 403.

[6]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 374.

ولم يكن القحط ليؤثر على معيشة السكان لو لم تقسم الأندلس إلى ثلاث وعشرين دويلة، فقد كان الطعام قبل انقسام يحمل من أماكن الرخاء إلى أماكن القحط والجوع، فاستقلال كل حاكم بإقليم جعل بعض هذه الدويلات ينعم بالرخاء وبعضها الآخر يعاني من القحط وغلاء المعيشة، وهذه من الآثار المباشرة للصراعات العسكرية، فحالة التشنج بين ملوك الطوائف والاقتتال الدائم واستثمار هكذا أزمات للاستيلاء على الأقاليم التي تعرضت للقحط جعلت الشعب يعيش أياما عصيبة.

الفرع الثالث: الانتهاكات:

تعددت الانتهاكات التي ارتكبت بحق الشعب الأندلسي في غمرة هذه الصراعات وسيتم التركيز هنا على اغتصاب النساء مع الإشارة إلى نكبة بعض الشخصيات السياسية المرموقة، فبخصوص الاغتصاب تحتفظ المصادر التاريخية بعدد لا بأس به من النصوص التي تثبت بأن هذا الفعل الشنيع قد ارتكب في حق النساء الأندلسيات مرارا أثاء عمليات الغزو والمداهمة، وقد بدأ ذلك مع الفتنة القرطبية أي مع مطلع القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، ففي قرطبة تعرض الحريم للاغتصاب من قبل البربر بعد نجاحهم في اقتحامها مع المتسعين بالله سنة 403هـ/ 1012م، انتقاما من القرطبيين الذين قاموا باغتصاب النساء البربريات قبل ذلك بتحرض من المهدي[1]، كما تعرض حريم هشام المعتد سنة 422هـ/1031م للاغتصاب بعد قتل وزيره حكَم بن القزَّاز من قبل الناقمين على هشام وعلى وزيره، وسلبت منه أمواله وكل نفيس كان تحت يده، وجثا هشام على ركبتيه يتوسل إلى الناس أن يأذنوا له ولأهله بالرحيل عنهم، وبات ليلته تلك ذليلا مهانا ونساؤه حوله مولولات، حاسرات والجوع يعصر أمعاءهم، والبرد يقرص أبدانهم، وبجانبه طفلة تشكوا من الجوع، فبكى عليهم كل من رآهم على تلك الحالة، وكانت ليلته تلك أسوأ ليلة مرت به وبأسرته[2].

غير أن الفادحة التي نزلت بأهل بربشتر عندما اقتحمها النصارى لا تكاد تجد لها نظيرا فقد ذكر ابن بسام نقلا عن عبد الله بن عبد البر(458هـ/1066م) من رسالة كتبها على لسان أهل بربشتر إلى المسلمين في ربوع الأندلس، يستنفرهم لإنقاذ إخوانهم أن النساء المسلمات قد اقتادهنّ الجنود النصارى من شعورهن وهن عاريات فقاموا باغتصابهن، فكثر الضجيج والعويل والنياح، وكل من تأبى الإنقياد يقومون بسحلها فكثر عدد النساء المغتصبات منهن، وطال ذلك الصغيرات والكبيرات[3]، فكان ذلك اليوم أشبه بيوم القيامة كما يقول ابن عبد البر.

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 429.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 526؛ ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 134.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص175- 177.

ولم تتوقف معاناة نساء بربشتر عند هذا الحد بل قام النصارى باقتسامهن فملك كل نصراني طائفة منهن وهذا ما شاهده يهودي أرسله بعض من بقي على قيد الحياة من أشرافها لاستخلاص بنات لهم بالفدية من يد سيد من أسياد النصارى، فوجد داره عامرة ببنات المسلمين مسخرات لخدمة سيدهن، فبنت صاحب الدار تلد له الأولاد وفي الفتيات المغنية والعازفة على العود والساقية التي تسقيه الخمر وهلم جرا، وقد أخبر النصراني المبعوث اليهودي بأنه سيتصرف مع الفتيات المسلمات المجتمعات في بيته تماما كما كان المسلمون يتصرفون مع النصرانيات اللائي يأسرهن المسلمون في الحروب ومعنى كلامه أنه سيتخذهن للمتعة أي سيقوم باغتصابهن بطريقة ممنهجة[1].

غير أن أسوأ شيء تعرض له أهل بربشتر وترك جروحا غائرة في نفوسهم لم تقبل الاندمال على مر الأزمان قيام النصارى بهتك أعراض النساء أمام محارمهن من الرجال[2].

وتكرر المشهد مع أهل بلنسية بعد استقرار الكمبيطور بها، فقد سام سكانها سوء العذاب، واسترقهم حتى صار المسلم يباع بخبزة وقدح خمر، أو رطل حوت ، وسلط الكلاب على بعضهم فمزقوه شر ممزق، وعمدت طائفة منهم إلى الأعضاء التناسلية للذكور والنساء فقطعوها، وقد كان هذا البلاء سببا في تحول الكثير من المسلمين عن دينهم، ولما علم الكمبيطور بسير القوات المرابطية إلى بلنسية لاستردادها أخرج الضعفة من النساء والولدان، وأمرهم باللحاق بالمرابطين، فوقعوا في طريقم بيد السودان والسفلة، والعبيد فامعنوا في اغتصاب النساء وتلك محنة أخرى تضاف إلى المحن السابقة التي تعرض لها مسلموا بلنسية[3].

إنَّ ما فعله النصارى بالمسلمين لا يجب أن يبعث على التعجب والاستغراب لأن الحرب الدائرة بالأندلس في عصر الطوائف بين الطرفين دينية بالدرجة الأولى، لكن المستغرب أن ينكّل المسلمون ببعضهم وأن يتسببوا في تعاسة إخوانهم، ففي مشهد دراماتيكي قام بنوا برزال مع باديس بن حبوس وعسكر بني جهور باقتحام حصن من حصون بني دمّر بعد محاصرته أياما، فقتلوا الرجال عن آخرهم وفتكوا بالأبكار وهن عاريات يبكين والدماء تسيل على أقدامهن في مشهد مؤلم يعكس منتهى التعاسة التي عاشها سكان هذا الحصن تحت سيوف هؤلاء الهمجيين[4].

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 186-188.

[2]- ابن بسام: المصدر نفسه، ق3، مج1، ص 184؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 460.

[3]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص ص 103-104؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج3، ص 28.

[4]- ابن عذاري: المصدر نفسه، مج2، ص 491؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403-483هـ، ص 144.

أما على صعيد النكبات فقد تسببت التقلبات التي كانت تحدث باستمرار في بلاطات الحكم في نكبة وتعاسة بعض كبار الموظفين، فأُهين الكثير منهم في مجالس خاصة وعامة، وعاشوا أياما عصيبة في السجون، وربما كانت نكبة ابن عمار على يد المعتمد بن عباد أعظم من أي نكبة أخرى في هذا القرن، فقد عرض للبيع بعد أسره فدفع فيه المعتمد مالا جزيلا، وعندما همّ بنقله من قرطبة إلى اشبيلية أركبه على بغل وخرج به إلى الناس في جمع من النساء يحملن الشموع ويتضاحكن ويهزأن به، وكأنهن أخرجن عروسا من بيت أبيها ليزفوها إلى زوجها، فهذا المشهد قد أثر في نفس ابن عمار وجعله يشعر بالمرارة، وعندما وصل إلى اشبيلية سجنه المعتمد في مكان قريب منه داخل القصر، وكان يقوم باستجوابه عدة مرات في اليوم، ويكثر من توبيخه ولومه، ثم قتله في نهاية المطاف[1].

ونكّب أبو عبد الرحمن محمد بن طاهر صاحب مرسية قبل ذلك على يد ابن عمار حيث خلعه من منصبه، ثم سجنه، وبعد إطلاق سراحه عاش زمنا ينتقل بين بلنسية، وشاطبة، وتعرض للحبس مرتين خلال هذه المدة، كما جُرّد من أملاكه كلها، فعاش بقية حياته خاملا يعاني في صمت حتى مات في بلنسية ثم حمل إلى مرسية ودفن بها سنة 507هـ/1113م[2].

كما نكّب كل من المعتمد بن عباد وعبد الله بن بلقين والمتوكل بن الأفطس على يد يوسف بن تاشفين وأعوانه، حيث أنزلوا عن عروشهم فقتل بعضهم صبرا أما ابن عباد وابن بلقين فقد نقلوا إلى المغرب الأقصى بعد مصادرة املاكهم وقضى المعتمد بقية أيامه في سجن بأغمات حتى مات هناك وقد مر ذلك بنا في الفقرة السابقة، وإذا كانت أسباب النكبات قد تنوعت في عصر الطوائف فإن أعظم سبب هو انعدام الأمن فقد مرت على الأندلسيين أيام لم يعرفوا فيها طعم الأمن أبدا وخاصة سكان البوادي الذين استحالت حياتهم إلى جحيم بسب عدم وجود أسوار تحمي قراهم ما جعلهم يفرّون إلى المدن[3].

لن نمضي في تتبع النكبات وأسبابها وصورها وتفاصيلها في عصر الطوائف كله لأن هذا العصر –عدا بعض الأوقات منه– هو عصرا النكبات بحق ولو مضينا في تتبعها فإن أوراق هذا البحث لن تتسع لذلك، لكن إجمالا نقول لقد نكّب الوزراء والكتاب والموظفون السامون على اختلاف رتبهم ومواقعهم في مراكز المسؤولية كما طال ذلك أفراد الشعب وهذه من الآثار السلبية للصراعات العسكرية.

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 428-429؛ ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 158.

[2]- ابن خاقان: المصدر السابق، ج1، ق1، ص ص 170-172.

[3]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 34.

المطلب الثالث: الخزّان الديموغرافي: وأعني به البشر الذين كانوا يعيشون في شبه الجزيرة الأيبيرية في الفترة محل الدراسة المنخرطون منهم في هذه الصراعات وغير المنخرطين المواطنون في دويلات الطوائف ومواطني الممالك النصرانية وبما أن وقود الحروب في جميع فترات التاريخ الإنساني هو الإنسان نفسه، وبما أن القرن الخامس الهجري هو قرن الصراعات المسلحة فلا شك بأن هذه الحروب قد حصدت أرواح الآلاف من البشر في هذه الفقرة سنرى كيف تأثر هذا الخزّان بالصراعات العسكرية على مدى قرن كامل وسيتم رصد ذلك على مستويين أو جبهتين الجبهة الداخلية والجبهة الخارجية.

الفرع الأول:الجبهة الداخلية:

إن المتتبع للفتن والحروب التي حدثت بين المسلمين عبر تاريخهم يجد بأن أسوأها هي حروب القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بالأندلس ذلك لأن الأطراف المتصارعة قد بذل كل طرف منها وسعه من أجل استئصال الأطراف الأخرى مستعينا في ذلك بأحدث ما تم اختراعه من الأسلحة وأدوات إفناء الإنسان.

فمن الحروب التي نشبت مبكرا بين مسلمي الأندلس في هذا القرن ومات بسببها الكثير من أبناء الأندلس ما وقع بين أهل قرطبة بزعامة المهدي والبربر بزعامة المستعين بالله في مستهل القرن الخامس الهجري، فقد التحم الفريقان في مكان يسمى قنتيش وأسفرت المعركة عن مقتل عشرة آلاف مقاتل وقيل عشرون ألف[1]، وهذا عدد كبير بلا شك ففقد الأندلس خلال هذه الحادثة جزءا من خزانه الديموغرافي، وتوالى الاقتتال بين البربر والقرطبين أيام حكم المهدي وفي كل مرة كان الناس يموتون بالمآت إن لم نقل بالآلاف، فتذكر المصادر أن القرطبيين بعد استيلاء المهدي على الحكم فيها كانوا يتعقبون البربر ويبحثون عنهم لقتلهم، وقد خرجوا خلفهم بعد فرارهم منها، فدارت بينهم معركة طاحنة بوادي السقائين(يارو) من أحواز مربلّه هزم فيها المهدي وقتل يومئذ من حلفائه أكثر من ثلاثة آلاف مقاتل، وغرق في الوادي خلق كثير[2].

وفي المعركة الفاصلة التي وقعت بين علي بن حمود الحسني، وحلفائه من جهة والمستعين بالله الأموي قائد البربر من جهة أخرى قتل خلق كثير، وقد شنَّها علي بن حمود للسيطرة على قرطبة من جهة ومن جهة أخرى للانتقام من سليمان المستعين لأنه قتل هشام المؤيد[3].

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 362؛ أحمد فكري: قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1983، ص 123؛ حاج عبد القادر يخلف: المرجع السابق، ص 142.

[2]- حاج عبد القادر يخلف: المرجع نفسه، ص ص143-144.

[3]- حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 440.

كما نشب القتال بين عبد الرحمن بن محمد الملقب بالمرتضى الذي نصب خليفة بشرق الأندلس، وزاوي بن زيري حاكم غرناطة سنة 409هـ/1018م، وكان المرتضى قد جمع إلى جيشه جيش منذر بن يحي التجيبي، وخيران الصقلبي، وسليمان بن هود، وقطعة من خيل الأفرنجة، واشتد القتال بينهم وبين جيش زاوي بن زيري، ودام ذلك أياما هزم فيه المرتضى هزيمة منكرة وقتل، وتعقب البرابرة جنودهم في البسائط والوديان وقتلوا كل من ظفروا به، فكان ما حلَّ بهم كما يقول ابن حيان مصيبةً سوداء أنست ما قبلها[1].

وقام بنوا برزال قبل استقرارهم بقرمونة مع باديس بن حبوس وعسكر بني جهور باقتحام حصن من حصون بني دمّر بعد محاصرته أياما، فقتلوا الرجال عن آخرهم[2].

وعندما طرد القرطبيون القاسم بن حمود سنة 414هـ/1023م، عاد مرة أخرى إلى اشبيلية، فمنعه سكانها من دخولها بإيعاز من قاضيها محمد بن عباد، وتعاون مع محمد بن زيري على قتاله، فقتل من البربر والسودان يومئذ خلق كثير[3]، وبعد انصراف القاسم بن حمود إلى شريش(Jerez)[4] حاصره يحي ابن أخيه علي عشرين يوما دارت بينهم خلالها معارك طاحنة قتل فيها قوافل من البشر من الطرفين[5].

وبعد قيام دولة بني عباد بإشبيلية سنة 414هـ/1023م عزم أبو القاسم بن عباد على ضم مدينة باجّه لكن المنصور بن الأفطس سبقه إليها فقرر غزوه وانتزاعها منه فخرجت كتائبه مدعومة بقوات محمد بن عبد الله البرزالي صاحب قرمونة، وتمت محاصرة جيش المنصور داخل المدينة ثم نشب القتال بين الطرفين تمكنت قوات ابن عباد خلاله من إبادة من داخل المدينة ومن نجا من القتل تم أسره[6].

وفي سنة 425هـ/1034م سمح ابن الأفطس لقوات محمد بن عباد بقيادة ابنه اسماعيل بالمرور عبر أراضيه لقتال مملكة ليون، وكان بين ابن عباد وابن الأفطس عقد يقضي بعدم تعرض أحدهما للآخر، إلا أن ابن الأفطس أخلف وعده، وقرر الانتقام من قوات ابن عباد، فجمع رجال ثغره، وكمن له

1- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص454،453، 455؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 485؛ ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 100؛ ابن الخطيب: الإحاطة، مج1، ص 516.

2- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 491.

3- المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 487-488؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، ص 8.

4- تقع إلى الجنوب الشرقي من بطليوس وتشتهر اليوم بنبيذها قاعدة كورة شذونة قريبة من سواحل المحيط الأطلسي ثار بها خزرون بن عبدون من زناتة سنة 402هـ/1011م، واستولى عليها علي بن حمود سنة 414هـ/1035م عندما هاجمها وحاصر عنه القاسم بها وقبض عليه آلت سنة 461هـ/1068م إلى المعتضد بن عباد ثم إلى المرابطين. المقري: المصدر السابق، مج1، ص 184؛ حتاملة: موسوعة الديار الاندلسية، ج1، ص 538، 542، 543.

5- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 485.

6- عنان: المرجع السابق، ص 36.

عند فج بين جبلين وابن عباد لا يعلم شيئا، فوقع جيشه بين فكي كماشة وأطبق عليه جيش ابن الأفطس، فمزقه شر ممزق كان ذلك سنة (425هـ/1034م)، وانتهز النصارى هذه الفرصة فقتلوا منهم أمة، وقد وصف ابن حيان هذه المجزرة بالحادثة الشنيعة[1].

وفي سنة 427هـ/1036م خرج إسماعيل بن عباد مع محمد بن عبد الله البرزالي في جيش كبير لقتال يحي بن علي بن حمود وكان يومها قد سيطر على قرمونة وتفرغ فيها للهو والشراب، فأشرفت خيل ابن عباد على المدينة ليلا ويحي غارق في شرابه، فلما علم بخبرهم خرج إليهم في عدد من فرسانه، والتحم الفريقان، فكثر الكرُّ والفرُّ، وصمد جنود ابن عباد في وجهه حتى قتلوه وقطعوا رأسه، ثم أَعمل السيف في أصحابه فقتلوا قتلا ذريعا حتى اشمأزَّ محمد بن عبد الله البرزالي حليف إسماعيل بن عباد من ذلك وتحركت نخوته لقومه، فطلب من ابن عباد أن يوقف القتال ولولا تدخله لصارت إبادة جماعية[2].

وبعد سنوات من هذه الواقعة وتحديدا سنة (439هـ/1047م) قام ابن الافطس بغزو مدينة لبلة ، فيذكر أبو مروان ابن حيان أن ابن الأفطس قد أرسل خيله إلى فتح بن يحي صاحب لبلة ليؤدبه على تحالفه مع المعتضد بن عباد، فاستنجد ابن يحي بالمعتضد، فأرسل إليه أفضل جنوده، ووقعت بين الطرفين معركة كانت فيها الغلبة لجيش عباد، فقطعت رؤوس خمسين مقاتلا من مقاتلي بن الأفطس وأعْمَلَ السيف فيهم حتى أوشك على إفنائهم[3].

وفي مواجهة أخرى وقعت داخل أراضي بني الأفطس سنة (442هـ/1053م) بسبب غزو ابن عباد لها أيضا قدَّر ابن حيان قتلى هذا الصدام المسلح بأكثر من 3000 قتيل، وتعتبر هذه المعركة امتدادا للمعركة الأولى التي أنجد فيها ابن عباد صاحب لبلة، فبعد دحر ابن عباد لقوات ابن الأفطس وردها عن لبلة توغل داخل أراضيه وأشرك معه في هذه الحرب حلفاءه، فنادى ابن الأفطس هو الآخر على حلفائه ودعا كل من كان قادرا على ركوب الخيل وحمل السلاح من مواطنيه للمشاركة في هذه المعركة الفاصلة، واشتبك الفريقان فكثر القتل وتخلَّف عن ابن الأفطس بعض حلفائه فقتل جيشه عن آخره ولم ينج منهم إلا نفر يسير[4].

إن أصدق عبارة يمكن أن توصف بها الصراعات الدامية والمزمنة التي نشبت بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس وأزهقت بسببها أرواح الآلاف من البشر من الطرفين هي عبارة ابن حيان حيث

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 22، ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 444.
[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 317-318.
[3]- ابن بسام: نفسه، ق1، مج1، ص 386-387.
[4]- ابن بسام: نفسه، ق1، مج1، ص ص 387-388؛ سحر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 399.

قال: " فامتد شأو هذين الأميرين يومئذ في الغي وتباريا في القطيعة حتى أفنيا العالمين"[1]، فهذه الفقرة كفيلة ببيان الكمّ الهائل من البشر الذين قتلوا بسبب هذه الحروب.

ولم يتورع ابن عباد في غمرة هذه الصراعات العسكرية عن الغدر بالقبائل ورتكاب ما يعرف في عصرنا بالإبادة الجماعية، وهذا ما فعله مع قبيلة بريان التي خرجت من أركش متجهة إلى بعض أقاليم غرناطة فرارا من غاراته المتكررة، حيث اعترضت جيوشه طريقهم فمحت أثرهم من الأندلس[2].

أما المعركة التي خاضها باديس بن حبوس بجيوشه ضد زهير العامري سنة 429هـ/1038م بعد قيامه باقتحام غرناطة بجيشه، وهزم فيها زهير شر هزيمة فقد وصف ابن حيان المجازر التي حدثت فيها بقوله:" وركبت صنهاجة ولفها[ومن تبعها] من أمداد زناته أكتاف القوم، باذلين السيف فيهم بصدق العصبية، وإيثار الفناء،فلم يبقوا على أحد قدروا عليه، ولا فرقوا بين أندلسي ولا جندي ولا سوقي، فأساءوا الاعتداء، وأبادوا أمة ..."[3].

إن الألفاظ التي استعملها ابن حيان مرة أخرى لوصف ما حدث في هذه المعركة توحي بأن ما دار فيها كان رهيبا، فالصنهاجيون عزموا على استئصال القوم وإبادتهم عن آخرهم، حيث تتبعوهم في الأودية والفجاج فلم ينج من القتل في هذه الواقعة إلا من قدر الله له النجاة، ومع ذلك كثرت أشلاء المقتولين حتى غصَّ المكان بالجثث.

كما أمعن باديس في تقتيل الثوار الذين تخابروا مع المعتضد بن عباد ومهدوا السبيل لجيشه للسيطرة على مالقة، وكان أغلبهم من العرب الحانقين على باديس، فكان هذا الأخير بعد فشل المعتمد في الاستيلاء على مالقة ومقتل عدد كبير من جنوده على يد البربر كان باديس ينتقل من مكان إلى مكان يقتل ويمثل ويحرق وينكّل، فأباد أمة منهم[4]، أما سليمان بن هود فقد خرج مع سرية من النصارى إلى مدينة سالم التابعة لطليطلة فاستباحها وغدر بأهلها فقتل معظم المدافعين عنها[5].

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 36؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 451.

[2]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص ص217- 218.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 659.

[4]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 162.

[5]- عنان: المرجع السابق، ص100.

وعندما انتزى بعض الخارجين على القادر بن ذي النون على مجريط سنة 474هـ/1083م شمر القادر لقتالهم وسار إليهم، فدارت بينهم معارك تمكن خلالها من إبادتهم واستأصال شأفتهم، وهي السنة التي أعاد فيها الفونسوا القادر إلى طليطلة بالقوة، فقعد جيشه لأهلها بكل سبيل يقتلون ويأسرون[1].

وعندما قام الأمير سير المرابطي باقتحام اشبيلية على ابن عباد في رجب سنة 484هـ/1091م، فعل ذلك بعد مقاومة عنيفة هلك فيها كما يقول عبد الله بن بلقين عالم، أي أعداد كبيرة من الناس، لا تقل عن الأعداد التي قتلت عند اقتحام المرابطين لقرمونة، أو رندة، أو مدينة من المدن المقاومة[2]، وأثناء حصار جيوش المرابطين للمدن التابعة لإشبيلية أرسل المعتمد رسالة استغاثة إلى الفونسوا السادس فأغاثة بجيش فتك بالمرابطين الذين حاصروا مدينة جيان وأبادهم عن آخرهم، وخاف أهل اشبيلية من القتل عند اقتحام المرابطين لها، فألقى الكثير منهم بنفسه من على أسوارها وهلكوا[3].

الفرع الثاني: الجبهة الخارجية:

ضعفت شوكة المسلمين في هذا القرن بسبب تشتتهم وانشغالهم بإضعاف بعضهم فتكالبت الممالك النصرانية عليهم وأمعنت في قتلهم، فالقارئ لما كتب حول الصراع بين المسلمين والنصارى في هذه الفترة يجد بأن النصارى قد أمعنوا في الشرب من دماء المسلمين طيلة هذا القرن ومجزرة بربشتر التي حدثت سنة 456هـ/1064م، أكبر شاهد على ذلك، فبعد اقتحام النصارى لها قتلوا المقاتلة من سكانها، وكان المدافعون عن المدينة قد قتلوا خمسمائة مقاتل من النصارى قبل ذلك أما من خرج من غير المقاتلين من المدينة فقد ساحوا في الأراضي المجاورة، فخاف قائد النصارى أن يلتئم شملهم من جديد، فأمر جنوده بإعمال السيوف فيهم، فقتل منهم يومئذ ستة آلاف، أما الباقون فقد قضى كثير منهم في الزّحام الذي وقع بالأبواب عند خروجهم، وقد جاء في رسالة عبد الله ابن عبد البر إلى حكام الأقاليم الإسلامية لنجدة بربشتر أن الدماء تسيل سيل المطر بكل سبيل[4]، في إشارة واضحة إلى العدد الهائل من القتلى من المسلمين، وقد خرج عدد من الناجين متجهين إلى مدينة **منتشون** فوقعوا في قبضة سرية من النصارى فقتلوهم جميعا[5].

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 163، 164.

[2]- ابن بلقين: المصدر السابق، ص 170، 171.

[3]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 159.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج 1، ص175، 181-183؛ ابن عذاري المصدر السابق، مج2، ص ص 459-460؛ حميدة منصور حسن أبو شعراية: المرجع السابق، ص 57.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 185.

وقد وقع الخبر كالصاعقة على ملوك الطوائف بالأندلس فخافوا العدو وجبُنوا عن لقائه فتحصَّن كل ملك في حصنه ولسان حالهم يقول لا دخل لنا بما حدث في بربشتر، فمكث النصارى مدة يصولون في المنطقة ويجولون وفي كل صولة وجولة يبيدون أمَّةً من المسلمين[1]، وتشاء الأقدار أن تجتمع كلمة المسلمين على استرجاع بربشتر وأن يعمل السيف في النصارى، فيذكر ابن حيان بأنهم قتلوا منهم ألف فارس وخمسمائة راجل، واستشهد من المسلمين خمسون مقاتلا[2].

أما في بلنسية سنة 455هـ/1063م، فلم يتم اقتحام المدينة بل تم استدراج أهلها إلى خارج أسوارها، بعد حصار دام مدة أُنهكت فيها قواهم، فخرج سكان بلنسية يومئذ بلباس الزينة لملاحقتهم ظنًّا منهم أن العدو قد فرَّ باتجاه بطرنة، فاحتواهم العدو وقتلهم قتلا ذريعا، ولم ينج منهم إلا القليل[3].

وعندما أجبرت القوات المسيحية المتجمعة من مدن إيطاليا مجاهد العامري على الانسحاب من سردانية إلى جزر البليار بأسطوله واجهته رياح عاتية في طريق عودته ولاحقته الأساطيل المسيحية، فقرر اللجوء إلى أحد المراسي وكان ذلك غير ملائم، فأدى ذلك إلى تحطم عدد من سفن الأسطول وغرق من كان على متنها من المسلمين ومن نجا من الغرق قتلته القوات المسيحية المكونة من الفرنجة والإيطاليين والسردانيين فأطلقوا عليها اسم "جزيرة الشهداء"[4].

كما قام أحمد بن سليمان بن هود باعتراض قافلة محملة بالطعام لأخيه يوسف كانت في طريقها إلى مدينة تطيلة عبر أراضي رودمير النصراني، فأخذ الدواب والمؤونة التي على ظهورها، وأعمل السيوف في المشرفين عليها وكانوا آلافا فقتل بعضهم وأسر النصارى أكثرهم ولم ينج منهم إلا عدد يسير[5].

وفي معركة الزلاقة الفاصلة التي دارت رحاها في الأندلس سنة 479هـ/1086م وحضرها ملوك الطوائف اشتد القتال بين المسلمين والنصارى، وسقط القتلى فيها من الطرفين ولكن محنة النصارى كانت أعظم إذ لم ينج من الجحافل التي جاء بها الفونسو السادس وجمعها من الإمارات النصرانية سوى مائة فارس واستشهد يومئذ من المسلمين ثلاثة آلاف مجاهد، أما النصارى فقتل منهم ثلاثمائة ألف، ولا

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 481.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 190؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 461.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج2، ص ص 849-850، 855-857؛ ابن عذاري، المصدر السابق، مج2، ص ص 478-479؛ المقري:المصدر السابق، مج4، ص 448.

[4]- ابن حزم: ملحقات، شذرات من الروايات التاريخية ، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2، ص 228؛ الضبي: المصدر السابق، ص632؛ عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، 147؛ الحميدي: المصدر السابق، رقم الترجمة 830 ص 522.

[5]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 458؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، ص 23.

شك بأن التكلفة البشرية لهذه المعركة كبيرة إذ فقد فيها الطرفان الكثير من المقاتلين الأشداء فقد ذكرت المصادر التاريخية أن رؤوس النصارى قد صارت بين يدي يوسف بن تاشفين أمثال الجبال[1].

وعمد الفونسوا السادس بعد معركة الزلاقة إلى حصن **لييط** فشحنه بالخيل والرجال، فكانوا يغيرون منه على أرضي بن عباد فيقتلون ويأسرون من المسلمين كل يوم انتقاما من ابن عباد، فكثر قتلى المسلمين بسبب ذلك ما جعل ابن عباد يستنجد بابن تاشفين مرة أخرى فجاز إلى الأندلس الجواز الثاني[2].

وفي سرقسطة بعد تولي أحمد بن محمد بن هود الملقب بالمستعين الحكم سنة 479هـ/1086م، هجم النصارى على مدينة وشقة التابعة له، فاستنفر الجيوش للدفاع عنها، والتحم الجيشان من طلوع الشمس إلى غروبها في معركة كاد أن يفنى بسببها الفريقان، ومات من المسلمين في هذه الواقعة ما يناهز اثني عشر ألفا[3]، وهذا العدد بمقاييس الحروب الحديثة ضخم جدا.

وتسببت العملية الانقلابية التي قادها يوسف بن النغريلة اليهودي وباءت بالفشل في موت ما لا يقل عن أربعة آلاف يهودي[4]، ليس لأن هؤلاء اليهود جميعا شاركوا في هذه المؤامرة، ولكن لأن البربر بعدها فقدوا الثقة باليهود فقرروا إبادتهم، ولا شك بأن المجتمع الغرناطي قد خسر بموت هؤلاء اليهود الكثير من الكفاءات والعناصر النشطة التي كانت تخدم المجتمع بشكل من الأشكال.

وفي معركة الكُراز (AL coras) التي وقعت بين جيوش المستعين أحمد بن يوسف بن هود وجيوش مملكة أراغون سنة 489هـ/1095م على مقربة من وشقة، ومني فيها المستعين بالهزيمة، قتل يومئذ في هذه المعركة زهاء اثني عشر ألفا مقاتل، وهو عدد ليس بالقليل[5]، وفي التاريخ نفسه حدثت مقتلة أخرى بوشقة[6] (Huesca) هلك فيها نحو عشرة آلاف رجل.

إن الحروب التي دارت رحاها بين ملوك الطوائف وبينهم وبين ملوك النصارى واستغرقت القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بأكمله قد اكتوى بنارها المجتمع الأندلسي بجميع شرائحه وفئاته، وساهمت وبشكل مريع في استنزاف الكفاءات والطاقات التي يعج بها الأندلس ، فمات في هذه الحروب القذرة العلماء والوزراء والمخترعون والصناع والحرفيون وغيرهم.

---

[1]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 149؛ مجهول: الحلل الموشية، ص 63؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ص 199.

[2]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 152.

[3]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 169.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 769؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 75.

[5]- ابن الخطيب: المصدر السابق، ج2، ق2، ص 169؛ فايزة بنت عبد الله الحساني: المرجع السابق، ص 129.

[6]- وشقة: من كور الثغر الأعلى، بينها وبين سرقسطة خمسون ميلا. المقري: المصدر السابق، مج1، ص 166؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج4 ص209.

المبحث الثاني: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الأسرية

المطلب الأول: أثر الصراعات العسكرية على الحياة الأسرية

الفرع الأول: النسيج الأسري : لا شك بأن الأسر الأندلسية في هذه الفترة العصيبة لم تكن بمنآى عن الصراعات العسكرية، وأنها قد تأثرت بشكل ما، وهذا ما أحاول رصده في هذه الفقرة.

ففي خضم الغارات المتصلة تعرضت الكثير من الأسر للتشريد وتمزق بعضها بسبب الاسترقاق، فكل مدينة يتم الاستيلاء عليها سواء من قبل ملوك الطوائف أو من ملوك النصارى يتم تصفية رجالها عادة أما الأولاد والنساء، فيسبون ويفرق بينهم وبين من بقي من أسرهم[1].

فبعد استيلاء محمد بن عبد الجبار على الحكم في قرطبة حرض أتباعه على البربر، فقاموا بمداهمة بيوتهم، فسبوا نساءهم، ثم قامو ببيعهن في دار البنات، وقد تكرر هذا المشهد مع البربر بعد فشل سليمان المستعين في اقتحام قرطبة، فسلط المهدي العوام على البيوت البربرية، فقتلوا وأسروا واسترقوا الكثير منهم[2].

بل إن الحاكم إذا نقم عليه أهل البلد قاموا باقتحام قصره، وأخذوا حريمه وهذا ما حدث مع عبد الرحمن المستظهر الذي بويع سنة 414هـ ودام حكمه سبعا وأربعين يوما لا غير فقد اقتحم القرطبيون قصره وحملوا حريمه فجرى عليهن ما لم يجر على حريم سلطان، ثم قتل عبد الرحمن في وقت لاحق[3]، وهذا السلوك كان يتكرر كلما تغلب متغلب على خصمه،وبهذه الطريقة تمزق نسيج الكثير من الأسر الأندلسية، فكانت الأسرة الواحدة تقسم نساؤها على عدد من الرجال، ومنهم من لم يرجع إلى أسرته بعد ذلك البتة.

وقد قابل ضعف الممالك الإسلامية في هذه الفترة تنامي القوة النصرانية في الشمال وهو ما دفع النصارى إلى شن غارات على القرى والمدن الإسلامية فيقومون بتشتيت الأسر التي تقطنها سبيا وأسرا[4]، فمن الفواجع الأليمة التي بقيت وصمة عار في جبين ملوك الأندلس الذين تقاعسوا عن حماية شعبهم من السبي والتشريد ما تعرض له سكان بربشتر عام 456هـ على يد النصارى النورمان الذين ضربوا حصارا خانقا على المدينة.

---

[1]- عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، (د.ن)، (د.م)، ط1، 1993، ص69.

[2]- ابن عذاري: البيان المغرب، مج2، ص356، 357؛ مليكة حميدي: الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (من 92-897هـ/711- 1492م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط غير منشورة، جامعة الجزائر2، 2013-2014،ص 147؛ حاج عبد القادر يخلف: المرجع السابق، ص 138

[3]- ابن حيان القرطبي: المصدر السابق، ص 35؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 450.

[4]- ابن الكردبوس: الاكتفاء في أخبار الخلفاء، ص 1231.

وقد تقاعس عن حمايتهم ونصرتهم أميرهم يوسف بن سليمان بن هود، فبربشتر كانت من أعماله، فمكث العدو محاصرا للمدينة أربعين يوما حتى قَلَّ بها الطعام وتنازعه الناس، وعمد النصارى إلى هدم النفق الذي ينفذ منه الماء إلى البلدة، فنفد الماء من الأوعية وأصاب الناس عطش شديد، فطلبوا الأمان لأنفسهم وذراريهم للخروج من البلدة وتركها للنصارى، فتظاهروا بالقبول، فلما شرع السكان في الخروج غدروا بهم وأمعنوا في قتل مقاتلتهم أما النساء والولدان فقد تعرضوا للسبي[1].

وتذكر المصادر التاريخية أن نساء بربشتر قد قسمن بين القادة العسكريين، فحاز كل قائد عددا كبيرا منهن، وقد اختار قائد الحملة خمسمائة بكر منهن أعمارهن بين الثمانية والعشرة أعوام أهداها لصاحب القسطنطينية، وبعض الدراسات أوصلتها إلى سبعة آلاف بكر منتخبة[2].

ولا شك بأن هؤلاء الفتيات قد أنتزعن من عائلاتهن وبترن عنهن بنقلهن إلى بلاد النصارى ليكنّ خادمات وخادنات في بيوت النصارى، فهذا الانتزاع قد أحدث تمزقا وشرخا في نسيج هذه الأسر الذي كان متماسكا قبل هذه الحملة المسعورة.

ولقيت الأسر النصرانية التي استحوذت على بربشتر المصير نفسه فتعرضت للأسر والاسترقاق بعد استرجاع المسلمين لها بعد عام واحد من حدوث المحنة، فتمزق نسيج هذه الأسر وصار كل جزء منها في سهم رجل من المسلمين[3].

وكذلك تمزقت أسرة مجاهد العامري عندما تعرضت زوجاته للأسر مع بناته وأمه وابنه الوحيد علي في المعركة البحرية التي خاضها أسطوله ضد الأسطول النصراني بعد خروجه من سردانية متجها إلى جزر البليار سنة 406هـ/1015م[4]، وكان مجاهد قبل ذلك حين غزا سردانية غنم وسبى ما لا حصر له، فشتت بذلك أسرا بأكملها[5].

وتمزقت أسرة علي إقبال الدولة عندما عزم على تزويج بناته السبع لعدد من ملوك الطوائف ليتقي شرهم ويضمن مسالمتهم له، فخاب ظنه فيهم إذ لم ينجده أحد منهم عندما غزاه المقتدر بن هود

---

[1]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 17.

[2]- البكري: المصدر السابق، ص910؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 181-185 ؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 459-460، 480؛ المقري: المصدر السابق، مج4، ص 449-453؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، ص 25؛ شكيب أرسلان: المرجع السابق، ج2، ص 184.

[3]- البكري: المصدر السابق، ص910؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 190.

[4]- عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص 149.

[5]- عصام سالم سيسالم: نفسه، ص 145.

دانية وحاصرها ثم أخذها وقام بنقل علي مع أسرته إلى سرقسطة وأقطعهم فيها ما يكفيهم لمعيشتهم[1]، فعلي بن مجاهد أرغمه الغليان الذي يعيشه الأندلس في هذه المرحلة وانتزاء الملوك على بعضهم على تمزيق أسرته وتزويج بناته من عدد من ملوك الطوائف اتقاء لشرهم وضمان معاونتهم له في أوقات المحنة وهذا ما لم يحدث عند محاصرة ابن هود له.

وتمزقت أسرة يحي بن علي بن حمود بعد مقتله، حيث تمكن محمد بن عبد الله البرزالي من الوصول إلى نسائه داخل القصر فأباحهن لبنيه واستحل حرمه[2]، وأنَّى لأسرة وقعت في قبضة البرزالي الذي كان خصما ليحيى أن يلتئم شملها من جديد، فلا شك بأن هؤلاء النسوة قد تصرف فيهنّ وأبعدن عن بعضهن كحال الكثير من الأسر التي وقع أفرادها ضحية للصراعات العسكرية.

وقريبا من ذلك ما حدث لأسرة عبد الملك بن جهور وحرمه بعد استيلاء جنود المعتمد بن عباد على قرطبة، فقد قبض على إخوته وسائر أهل بيته وأسرته وبالغوا في انتهاك حرمه[3]، وما دام العسكر قد نكل بهذه الأسرة، فلا شك بأن أفرادها نساء ورجالا قد صار كل فرد منهم في سهم رجل من رجال ابن عباد، وبذلك يكون شمل هذه الأشرة قد تشتت، وجمعها قد تفرق،وتجرعوا مرارة الاسترقاق.

ولقيت أسرة المتوكل بن الأفطس المصير نفسه بعد اقتحام المرابطين لبطليوس، إذ جعلت زوجته وبناته ضمن الفيء[4]، ولا شك بان هذا الفيء قد قسم بعد ذلك على الجند فتمزقت هذه الأسرة وصارت كل فتاة في سهم رجل من المرابطين.

وفي سنة 430هـ/1039م قام باديس بن حبوس بإعدام الفيلسوف أبو الفتوح الجرجاني لتورطه في مؤامرة ضد باديس تهدف إلى انتزاع الحكم منه، فتشردت بذلك عائلة الجرجاني المكونة من زوجة وابن وبنتين[5].

وعندما قام فرناندوا الأول بالاستيلاء على مدينتي بازوا ولاميجوا التابعتين لبطليوس سنة 449هـ/1057م استرق أهلها[6]، أي جعلهم رقيقا، فبعضهم بيع والبعض الآخر احتفظ به المحتلون

[1]-ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص266-268؛ عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 77-78؛ العذري: المصدر السابق، ص 16.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 318؛ دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 37.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 611؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 483.

[4]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 174.

[5]- دوزي: المرجع السابق، ص ص 75-77.

[6]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 369.

لأنفسهم، وتكرر ذلك في مدينة قلمرية سنة 456هـ/1064م، وفي مثل هذه الحالات تتمزق الأسر ويتشتت أفرادها، وقد لقيت الأسر المسلمة المصير نفسه في المدن التي تعرضت للغزو.

ورجع يوسف بن تاشفين بعد حصاره لطليطلة سنة 483هـ/1090 وإلحاق الدمار بها بسبي كثير[1] ولا شك بأن الأسر التي تعرضت للسبي ستمزق بعد ذلك لأن الجنود سيقومون بقسمة أفرادها وسيكون كل فرد من أفرادها في سهم رجل من رجال ابن تاشفين.

وقد تشتت أسرة المعتمد بن عباد، فقد نقل إلى أغمات وأسر هناك، وعاشت بناته حياة الشظف والفاقة أما أولاده الذكور، فقد قتل بعضهم في الأندلس وبعضهم نقل معه إلى المنفى[2]، أما ابنته بثينة فقد وقعت في الأسر وتم بيعها، فاشتراها تاجر اشبيلي وأهداها لابنه، فامتنعت منه وكتبت إلى أبيها في أغمات تستأذنه في الزواج منه، فأذن لها[3]، فالصراع العسكري بين المرابطين والمعتمد بن عباد أفضى إلى انهيار ملكه ووقوع أفراد من أسرته في الأسر وقتل بعضهم وبيع بثينة وهذا تمزق لهذه الأسرة، وكان الصراع العسكري هو المتسبب الرئيسي في ذلك.

بل إن بعض الحكام المسلمين كانوا يتزلفون إلى حكام النصارى بإهدائهم فتيات مسلمات ليتخذوهن قينات، فينتزعن من أسرهن انتزاعا ويُغرَّبن عن أوطانهن، وبذلك تكون الأسرة التي تنتزع منه تلك الفتاة قد مزقت، وقام الممزق لها بانتزاع جزء منها وإبعاده عن الكل، فابن بسام مثلا ينقل عن ابن حزم أن الفقيه أبو محمد بن الحسن المعروف بالكتاني كان يوما في مجلس ابن العلجة بنت شانجة ملك البشكنش ، وفي المجلس عدة قينات مسلمات من اللواتي وهبهن له سليمان بن الحكم أيام إمارته بقرطبة، وكانت إحدى هذه القينات بنتا لسليمان بن مهران السرقسطي[4]، وقد أخبرت الكتاني أنها لم تر أهلها منذ مدة[5].

ولو مضينا في تتبع الأسر التي تشتت بسبب الصراعات العسكرية التي دارت رحاها بالأندلس خلال القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فإن صفحات هذا البحث لن تتسع لذلك، فوراء كل غارة من الغارات التي ينفذها ملوك الطوائف أو ملوك النصارى، يقسم الأسرى فيحتفظ المتغلبون ببعضهم ويبيعون البعض الآخر في سوق العبيد.

---

[1]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 153.

[2]- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص95، 96-97.

[3]- المقري: المصدر السابق، مج4، ص 284؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 204

[4]- ترجمته عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 442.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 318، 319.

الفرع الثاني: حركة الأفراد (الهجرة) : لا تعتبر المناطق التي تشهد نزاعا مسلحا مكانا ملائما للعيش لذلك يقوم الكثير من سكان هذه المناطق بالنزوح إلى أماكن أخرى يتوفر فيها الأمن، وهذا ما نلاحظه في دويلات الطوائف التي شهدت نزاعات مسلحة دائمة، فقد هاجر منها الوزراء والعلماء والوجهاء، الفلاحون والتجار وأصحاب المهن المختلفة وعوام الناس، وفي كثير من الأحيان كان أصحاب البوادي والقرى يتركون أماكن سكناهم لانعدام الأمن بها ويلجأون إلى المدن للاحتماء بها، وتزداد حركة الهجرة عندما تسقط المدن الإسلامية في يد النصارى[1]، ومن يقرأ أشعار الشعراء في هذه الفترة يجد بأن الكثير منهم قد رفعوا أصواتهم يحثون الناس على الرحيل إلى أماكن آمنة[2].

لقد تسبب الاضطراب الذي طبع الأندلس خلال القرن الخامس وانتشار الظلم في هجرة الكثير من الأندلسيين إما داخل الأندلس أو إلى خارجها ، فالفتنة القرطبية مثلا كما جاء في كتابات الفقيه الأديب أبي محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم قد تسببت في إجلاء أسر بأكملها عن قرطبة- وأسرته إحداها- وتفريقهم في الآفاق[3]، ففر الصقالبة بأسرهم إلى شرق الأندلس، وفعل العامريون مثله[4]، وفرت جموع البربر خارج قرطبة إلى مناطق المثلث الجنوبي، وأجبر المهدي من بقي منهم في قرطبة على الرحيل خشية التواطؤ مع جيش المستعين، فأخذوا أسرهم وأموالهم ثم رحلوا[5]، كما قام المهدي بإبعاد جمهور كبير من الصقالبة والعامريين عن العاصمة فانصرفوا إلى شرق الاندلس وأقاموا كياناتهم هناك[6]، وأساء البربر معاملة العائلات اليهودية بعد استيلاء المستعين على قرطبة فخرجت منها إلى مالقة وغرناطة ومدن أخرى[7].

---

[1]- إحسان عباس: المرجع السابق، ص 27؛ امحمد بن عبود: جوانب، ص 34.

[2]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 112.

[3]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 101؛ ابن حزم: طوق الحمامة، ج1، ص 252؛ خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي: الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم - الخزرجي)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)،2001، ص ص 14-15، خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 335.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 352، 356؛ ابن شهيد: المصدر السابق، ص14؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 412؛ محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 40؛كمال السيد أبو مصطفى: المرجع السابق، ص 71.

[5]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 487؛ أحمد فكري: المرجع السابق، ص 122؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين: المرجع السابق، ص 32؛ حاج عبد القادر يخلف: المرجع السابق، ص 141.

[6]- دوزي: المسلمون في الأندلس، ج2، ص ص 169-170.

[7]- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ص 110.

أما مملكة البونت الصغيرة التي استقل بها بنوا قاسم سنة 400هـ/1010م، فقد كان نظامها السياسي مواليا لبني أمية، ما جعل الأمراء الأمويين في قرطبة يفرون إليها نجاة بأنفسهم وأسرهم من القتل، فلجأ إليها المرتضى وهشام المعتد[1].

وبعد مقتل المهدي وجلوس المستعين بالله مرة أخرى على كرسي الخلافة، وقتل هشام المؤيد اقتحم البربر قرطبة وفعلوا بأهلها الأفاعيل، ثم قاموا بإخلائها من سكانها[2] أي قاموا بطرد القاطنين فيها منها، ولا شك بأن هؤلاء المطرودين قد تفرقوا في الآفاق.

وهاجر إلى بلنسية حرفيون وصناع من مناطق مختلفة من الأندلس خلال حكم مبارك ومظفر العامريين لها (401-408هـ/1010-1017م)، ونزح إليها الكثير من موالي المسلمين ومن أجناس الصقلب والإفرنج والبشكنش وغيرهم من العبيد الآبقين من أنحاء مختلفة من الأندلس جم غفير، ونزع إليهم كل شريد وطريد، وكل منحرف ومتمرد، وأقبل أرباب الأموال بأموالهم إليها من كل مكان، وقام باستيطانها جملة من جالية قرطبة [3]، كما هاجر عدد غير يسير من القرطبيين إلى سرقسطة التي كانت مستقرة، وبعيدة عن مسرح الفتنة[4]، و خلال حكم عبد العزيز بن عبد الرحمن (شنجول) لبلنسية إستمرت الهجرة إليها لما كانت تنعم به من الامن والاستقرار[5].

فالصراعات العسكرية أرغمت قطاعات واسعة من القرطبيين على الرحيل إلى بلنسية مبارك ومظفر العامريين،ينشدون الاستقرار والأمن،فاتخذوها وطنا لهم بعد قرطبة وهذا ما جزم به ابن حيان القرطبي الذي كان شاهدا على هذه المرحلة القلقة من تاريخ الأندلس[6]، ولم يكن المهاجرون من قرطبة ينتمون إلى فئة بعينها بل شمل ذلك فئات وشرائح اجتماعية مختلفة، وكان العلماء إحدى هذه الفئات التي تفرق أفرادها في مختلف دويلات الطوائف[7].

---

[1]- عباس فضل حسين المسعودي: دولة البونت (400هـ/1009م-496هـ/1102م) دراسة في أوضاعها السياسية والفكرية، مجلة كلية التربية، ع9، (د.ت)، ص293.

[2]- أحمد فكري: المرجع السابق، ص 124.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 16-17.ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 415؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 470.

[4]- حميدة منصور حسن أبو شعراية: المرجع السابق، ص 102.

[5]- محمود مكي: المرجع السابق، ص 107.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 17.

[7]- محمد عبد الوهاب خلاف: القضاء في قرطبة الإسلامية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد31، السنة الحادية عشرة، دوجنبر 1984، ص ص 314-315؛ رابح رمضان: المرجع السابق، ص 47.

وفي سنة 414هـ/1023م خاض القرطبيون قتالا عنيفا ضد البربر تمكنوا خلاله من هزيمتهم، فأجبروهم على مغادرتها، ولا شك أن المدينة لم يبق فيها بعد الهزيمة بربري، فقد هاجر الجميع، وتفرقوا في الأقاليم خوفا على أنفسهم من أعمال انتقامية[1]، كما كان السكان يفرون من المناطق التي سيطر عليها البربر لحدوث أعمال انتقامية فيها، ولم يكن ذلك خاصا بالبربر بل بكل متغلب ينتزي على منطقة ما[2].

وفي قرطبة هاجر الحرفيون والصناع الذين كانوا يعملون في معمل الصناعات العاجية بعد هجوم البربر على قرطبة وإحراقهم للمصنع إلى بلاط المأمون بن ذي النون، فاستقبلهم بحفاوة بالغة وشجعهم على الاستقرار في كونكة إحدى مدن طليطلة، ثم شيد لهم معملا للصناعات العاجية[3].

أما الموسيقيين والمغنيين بعد احتدام الصراع المسلح في قرطبة، فقد إتجهوا صوب قشتالة وليون ونبرة وأراغون، وقد وجدوا ضالتهم في بلاطات ملوك النصارى الذين كانوا يميلون إلى استماع الغناء والموسيقى العربية[4].

كما هاجر من قرطبة عمال الصناعات النسيجية بعد اندلاع الحرب بين جيش محمد بن عبد الجبار الملقب بالمهدي وجيش المستعين المكون من البربر، فقد كانت هذه الحرب كل يوم تحصد أرواح الكثير من القرطبين، وفي ظل هذه الظروف عجز عمال النسيج عن الخروج إلى المصنع لمزاولة العمل فقرروا الهجرة للعمل في مكان آخر وقد قادتهم أقدارهم إلى المرية التي كانت بها مصانع الوشي والديباج والحلل الموشية[5] فاستقروا هناك، وتفيد المصادر التاريخية التي أرخت للجوء الأفراد بالأندلس خلال هذه الحقبة أنه قد لجأ للعمل في معمل

نساجون من مناطق مختلفة في الأندلس وليس من قرطبة وحدها وهذا ما أكده الرازي عندما تحدث عن أسباب ازدهار هذه الصناعة في المرية[6].

وكما هاجر الناس من قرطبة زمن الفتنة هاجروا إليها زمن أبي الحزم جهور بن أبي جهور، فقد استطاع أن ينتشلها بحكمته من الفوضى التي كادت ان تقضي على كل شيء فيها ،فحل الأمن مكان الخوف، وساد الرخاء، فتحسنت معيشة السكان فيها وهذا ما جعل الناس يهاجرون إليها من كل صقع

[1]- لويس سيكو دي لوثينا: المرجع السابق، ص ص 27-28.

[2]- إحسان عباس: المرجع السابق، ص 28.

[3]- عبد الكريم خيطان الياسري- سعد قاسم علي السويعدي: المرجع السابق، ص 521؛ دوزي: المرجع السابق، ص 16.

[4]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 434.

[5]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 162-163.

[6] - Levi-Provençal:OP CIT,P 65 .

في الأندلس ويرغبون في العيش فيها فتضاعف عدد سكان قرطبة في العقد الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي[1].

وفي اشبيلية عثر على نقود عبادية بها حروف نفذت بإتقان وترجح الجيوسي أن يكون الفنانون الذين زخرفوا هذه النقود قد نزحوا من قرطبة هربا من الفتنة وعملوا عند ابن عباد[2]، فهذا أثر من الآثار الإيجابية للصراع العسكري الذي نشب في قرطبة في مستهل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي حيث جعلت المشتغلين بزخرفة المسكوكات ينزحون من قرطبة إلى اشبيلية لينقلوا إليها خبرتهم في هذا الميدان وهي إضافة حضارية مهمة لإشبيلية.

وفي طليطلة ضاق الناس بتصرفات القادر بن ذي النون، حيث أجبرهم على تسليم ما كان بحوزتهم من الأموال حتى يدفعها لألفونسوا السادس، فلما عجزوا عن مواجهته خرجوا سرا إلى عمل ابن هود[3]، وبعد استيلاء الفونسوا السادس على طليطلة أرغم عددا غير يسير من سكانها على الهجرة منها[4]، أما المرية فلما طال حصار المرابطين لها ، ساءت أحوال السكان بداخلها فجعلوا يفرون منها إلى وجهات مجهولة بالأندلس[5].

وهاجرت أفواج من البربر من أركش، وولبة وجزيرة شلطيش وغيرها من المدن التي وضع المعتضد بن عباد عليها يده وأخضعها بقوة السلاح، فلجأوا إلى غرناطة، لأن مدنهم كانت مسرحا للصراعات العسكرية[6].

وفي السنوات الأخيرة من حكم عبد الله بن بلقين لغرناطة، وتحديدا سنة 482هـ/1089م قام بطرد مقاتل بن عطية الزناتي مع إخوته وثلاثمائة من الفرسان[7]، ولم تذكر المصادر أين نزلوا بعد خروجهم من غرناطة، فهذا الإجراء الذي قام به عبد الله يأتي في إطار الاحتياطات التي اتخذها لإخلاء المنطقة من المناوئين، لكنه بهذا التصرف أجبر عددا غير يسير من الغرناطيين على الهجرة.

وهاجر الكثير من سكان بلنسية إلى مناطق مختلفة بالأندلس بعد دخول القادر بن ذي النون إليها تحت حراب جنود الفونسوا السادس سنة 478هـ/1085م،كما تمت الهجرة مرة أخرى عند احتلال

---

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 433؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 462.

[2]- أنتونيو فرناندز بويرتاس: المرجع السابق، ص 924.

[3]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 84؛ ابراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 125.

[4]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 234.

[5]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 185.

[6]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 138.

[7]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، منتخبات من كتاب البيان المغرب لابن عذاري المراكشي، ملحق1، ص 206.

القمبيطور لها، وهاجر إمام جامع بلنسية أبو بكر بن المعلم محمد بن حمدون مع جماعة من أهلها بعد تحويل جامعها إلى كنيسة سنة 479هـ/1095م[1]، فهاهي الصراعات العسكرية مرة أخرى تتسبب في هجرة هؤلاء الأشخاص من أوطانهم.

هذا على مستوى الجماعات الصغيرة أما إذا تحدثنا عن نزوح قبائل بأكملها وإخلاء مدن من سكانها، فيمكننا أن نذكر الفرار الجماعي لأفراد قبيلة بني يرنيان البربرية من مدينة أركش وإخلائها تماما وإعطائها لجنود باديس بن حبوس سنة 458هـ/1066م ولجوئهم إلى مكان قريب من غرناطة، بسبب الغارات المتكررة للمعتضد بن عباد على محلتهم[2]، ويذكر المؤرخون أن أفراد هذه القبيلة لم يقدر لهم أن يصلوا إلى المكان الذي قرروا اللجوء إليه فقد اعترض جنود المعتضد طريقهم وقتلوهم عن آخرهم [3].

كما لا يفوتنا هنا أن نذكر قيام فرناندوا الأول بعد احتلاله لمدن بازوا ولاميجوا وقلمرية بإخلاء المناطق الواقعة بين نهري دويرة ومينو(منديغوا) من السكان المسلمين[4]، وبسبب هذا القرار نزحت أعداد هائلة من البشر إلى مناطق داخل بطليوس، وفي جميع المناطق التي قام النصارى باستردادها ، أجبر الكثير من المسلمين على الرحيل، وحل مكانهم المستعربون الذين كانوا يعودون مع الحملات العسكرية النصرانية، أو ينزحون من المناطق الشمالية[5]، فهذا نزوح باتجاهين مختلفين، تسببت فيه الصراعات العسكرية.

كما تحدثت المصادر التاريخية عن هجرة أعداد كبيرة من اليهود من المناطق التي اندلعت بها صراعات مسلحة وفي مقدمتها قرطبة التي نزحوا منها إلى سرقسطة وطليطلة وممن نزح إلى هذه الأخيرة من اليهود عدد من المثقفين كالشاعران إسحاق بن خلفون وأبوا زكرياء حنيجة[6].

وفي الفترة التي إشتد فيها الخلاف بين سليمان ابن هود ويحي المأمون بن ذي النون أي من سنة 435-إلى 438هـ/1043-1046م توغلت قوات فرناندوا الأول داخل أراضي المأمون وكثفت الغارات على سكان البوادي، فأجبرهم ذلك على ترك بيوتهم وأراضيهم، ونزحوا إلى داخل المدينة المحمية بالأسوار، ونزح كثير منهم إلى القواعد الكبرى بالأندلس[7].

---

[1]- محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 98، 105، 144.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 493.

[3]- عنان: المرجع السابق، ص 46.

[4]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص ص 369-370، 414.

[5]- Chapman Charles E: A History of spain.founded on the historia de Espanay de la civiligation Espanala of Altamira U.S.A 1931.

[6]- خالد يونس عبد العزيز الخالدي: المرجع السابق، ص 196.

[7]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 499؛ فايزة بنت عبد الله الحساني: المرجع السابق، ص 110.

وتعرضت طليطلة للغزو من قبل الفونسوا السادس سنة 474هـ/1081م، فخرجت منها قوافل من سكانها وتفرقت في الأندلس، وإنما خرج هؤلاء منها نجاة بأنفسهم من موت محقق، فجنود الفونسوا كانوا يقتلون كل من يعترض طريقهم، ومن لم يقتل بالسيف كان مصيره السبي[1].

أما سكان غرناطة العاصمة فعندما علموا بقدوم يوسف بن تاشفين بعسكره لانتزاعها من يد عبد الله بن بلقين، خرجوا إلى البادية أفواجا[2]، والأرجح أنهم فعلوا ذلك خوفا على أنفسهم من صراع قد ينشب بين عسكر ابن تاشفين ومؤيدي عبد الله.

ولم يكتف الهاربون من ويلات الحروب في الأندلس بالانتقال داخل ممالك الطوائف بل فرّ الكثير منهم إلى الممالك النصرانية في الشمال، فتذكر المصادر التاريخية أن عددا لا يستهان به من أصحاب المهن والحرف المختلفة من اليهود انتقلوا إلى هذه الممالك وتحصلوا فور وصولهم على وظائف في التخصصات التي يتقنونها[3]، كما فرت أعداد منهم إلى مصر وهذا ما تثبته القوائم التي تحتوي على أشخاص من يهود الأندلس قدمت لهم المعونات والصدقات من قبل يهود مصر في هذه الفترة[4]، كما أن حروب الاسترداد قد أفرغت المناطق التي تمكن النصارى من استرجاعها من السكان المسلمين كطليطلة وغيرها من المناطق الحدودية ثم ملأتها بسكان مسيحيين، ففر من هذه المناطق الآلاف من المسلمين ونزل بها الآلاف من المسيحيين[5].

كما لا يجب أن ننسى المجاعات المتكررة التي ألمت بالأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي والتي كانت الصراعات العسكرية هي السبب الرئيسي فيها وليس العامل الطبيعي، فهذه المجاعات التي مات بسببها الكثيرون كانت وراء هجرة قطاعات واسعة من الشعب الأندلسي من مختلف المناطق ونزوحهم إلى مناطق يتوفر فيها الطعام، وخاصة سكان المدن المحاصرة التي نفذ منها الطعام، وهذا ما حدث في قرطبة عندما حاصرها البربر سنة 401هـ/1010م فقد تسبب هذا الحصار في نفاد الطعام منها فغلت الأسعار وجاع الناس ففر عدد منهم إلى البوادي والسواحل[6]، وفي سنة 448هـ/1056م يذكر المؤرخون أن الأندلس تعرضت مرة أخرى لمجاعة كبيرة ولكن دون تقديم أية تفاصيل عن آثار هذه المجاعة ونحن متأكدون من أنها أجبرت السكان على الهجرة بحثا عن الطعام وتلافيا للمجاعة.

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 164.

[2]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 152.

[3]- علي أحمد: المرجع السابق، ص72.

[4]- خالد يونس عبد العزيز الخالدي: المرجع السابق، ص 196.

[5]- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 119.

[6]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 374.

هذا عن المجاعة بسبب الصراعات العسكرية وحصار المدن، وهناك سبب آخر للمجاعة التي أجبرت بعض سكان الأندلس على الهجرة ويتعلق الأمر بالظلم الذي مورس من قبل بعض الحكام على سكان بعض القرى والبوادي ومن ذلك ما تعرض له سكان القرى التابعة لبلنسية على يد كل من مبارك ومظفر العامريين، فقد أجبر الجميع على العمل لساعات غير محددة في أعمال شاقة وبدون مقابل، وقد كلف بمتابعة العمال وضمان السير الدائم للأعمال مشرفون لا يعرفون الرحمة أبدا، فكانوا في كل مرة يدفعون بالعمال إلى أعمال أكثر صعوبة، فتأذى بسبب هذه المعاملة القاسية عدد كبير من العمال، وأنهك العمل المتواصل أبدانهم الضعيفة، ومنعوا من الطعام مبالغة في إذلالهم وإضعاف أجسامهم فاستبد الجوع بهم وحملهم على ملء بطونهم بالبقل والحشيش وتقطعت ملابسهم فأصبحت أبدانهم عرضة للبرد والأمراض فلبس الكثير منهم الحصر والجلود، وفي ظل هذه الظروف الكارثية فر الكثير منهم وتركوا أملاكهم، ولم يكن هذا مسلك مبارك ومظفر مع رعاياهم في القرى والبوادي بل كما يقول ابن بسام وابن عذاري هو مسلك كل متغلب في الأندلس[1].

وقد تأثر علماء القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كغيرهم بالأحداث والصراعات العسكرية التي عصفت بالأندلس في هذه الفترة فهاجر عدد كبير منهم إلى مناطق مختلفة منه وبعضهم هاجر إلى خارج الأندلس، وبتتبع أخبار هؤلاء العلماء في كتاب " **الصلة**" لابن بشكوال وجدنا أن واحدا وعشرين عالما من علماء قرطبة خرجوا منها بين سنتي 400-422هـ/1010-1031م بسب الفتنة التي ألمت بها[2]، وإذا تأملنا تراجم هؤلاء العلماء وجدنا بأن ابن بشكوال يستعمل بعض العبارات التي تدل على أن الخروج من قرطبة قد تم في كثير من الأحيان في شكل مجموعات كقوله في ترجمة أبي أحمد بن عفيف بن عبد بن مريوال "**خرج عن قرطبة فيمن خرج عنها**"[3]، ويؤيد ما ذهبنا إليه عدد من القرائن منها أن خروج هؤلاء العلماء كان متزامنا، فقد خرج مثلا أحمد بن محمد بن سعيد الأموي مع خلف بن علي بن ناصر البلوي السبتي (ت400هـ/1009م) في وقت واحد، ولو تتبعنا السنة التي خرج فيها كل عالم لوجدنا تزامنا بين عدد منهم.

أما القرينة الثانية التي تدل على الهجرة الجماعية فهي نزولهم بمكان واحد، فقد نزل أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج اللخمي الأقليشي(ت410هـ/1019م) بطليطلة ونزل أحمد بن يحي بن أحمد بن سميق(ت 450هـ/ 1058) بالمكان نفسه، وأثناء مروري بتراجمهم كنت أجد عالمين على الأقل ينزلان

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 19؛ ابن عذاري: المصدر السابق: مج2، ص ص 416-417.

[2]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص ص 67-68، 73، 77، 87، 99، 106، 218، 222-223، 228، 234، 248، 260، 298-299، 321-322، 449-450، ج2، ص 128-129، 132-133، 146، 149، 156، 296.

[3]- ابن بشكوال: المصدر نفسه، ج1، ص 77.

بمكان واحد، ولا شك بأن هؤلاء العلماء أكثرهم كان متزوجا وله أسرة ولا يعقل أن ينجو أحدهم بنفسه من الفتنة والصراعات العسكرية دون أن يصطحب معه أسرته.

يرى أمحمد بن عبود بأن الهجرات داخل الأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كانت ظاهرة عامة، وخاصة إلى المدن الكبرى التي كانت تنعم بالاستقرار السياسي والازدهار الاقتصادي، وهذا ما تؤكده أسماء الكثير من الشخصيات الأدبية والسياسية والقانونية المرموقة التي تنسب إلى بلد لكنها تعيش في غيره[1]، فالشعب كان دائم الحركة تماشيا مع التقلبات التي كانت تشهدها المنطقة.

فالصراعات العسكرية وإن كانت سببا في هجرة الكثير من الأفراد من أوطانهم الأصلية إلى أوطان أخرى في ممالك الطوائف إلا أنها ساهمت من الناحية الاجتماعية في تعزيز المجتمعات الجديدة بعناصر سكانية كان لها الفضل في إحداث تحولات إيجابية بها على مختلف الأصعدة والمستويات.

الفرع الثالث: الأخلاق والآداب:

لا شك بأن تطهير المجتمع من الرذائل مما يقع على عاتق الحكام، وفي عصر الطوائف أدى انشغالهم بمحاربة بعضهم عن تطهير المجتمع وحمايته من الآفات الاجتماعية، إلى حدوث انفلات أخلاقي، فظهرت الدعارة ومعاكسة النساء في الطرقات وبرز المخنثون وانتشرت السرقة، وتفشي الكسب المحرم الذي من صوره الرشوة التي كان رجال الشرطة وسائر الوظفين من رجال الدولة يأخذونها من عامة الناس، وقد بلغت في هذا العصر مستويات جعلت الشعب يطلب من القضاة محاربتها[2].

ففي جواب علي بن حزم على سؤال من سأله من أهل عصره عن حكم الأموال التي تصل إلى أيديهم، وما يشترى بها من الطعام واللباس ما يدل على انتشار الطرق المحرمة في تحصيل الأرزاق حتى أنه جزم بأن الأموال التي يتداولها الناس لا يوجد بينها درهم واحد حلال عدا ما يستخرجه الناس من الذهب من وادي لاردة[3]، ما يعني بأن المجتمع الأندلسي في هذه الفترة قد أصيب في أخلاقه ووصل إلى أقصى مستويات التعفن المالي.

ويبين ابن حزم كيف تعفنت الأموال التي يتداولها الناس في هذه الفترة، فيخبرنا بأن الحكام يسلطون جنودهم على التجار والصناع والفلاحين لاقتطاع جزء من الأرباح التي يحققونها بغير وجه حق،

---

[1]- ابن عبود:جوانب من الواقع الأندلسي، ص 89، 93.

[2]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 297؛ بولعراس: المرجع السابق، ص115؛ تواتية بودالية: المرجع السابق، ص 119.

[3]- مدينة قديمة ابتنيت على نهر يخرج من أرض جيليقية يعرف بشيقر، وهو النهر الذي تلقط منه برادة الذهب الخالص وهي بشرقي مدينة وشقة. ينظر الحميري: المصدر السابق، ص 507.

فإذا اجتمعت هذه الأموال عندهم وزّعوها على الجنود وهؤلاء يتوجهون بها مرة أخرى إلى الصناع والتجار والفلاحين لشراء السلع منهم بهذه الطريقة تعفنت هذه الأموال، وهي الطريقة ذاتها التي يستعملها البربر بعد مصادرتهم للماشية والزيتون من أهل الريف فيقومون ببيعها للتجار ويقبضون ثمنها والتجار يبيعونها مرة أخرى للناس[1].

ولم يكن انشغال الحكام بمحاربة بعضهم عن تنظيم أمور الرعية ومحاربة الآفات الاجتماعية هو السبب الوحيد في فساد أخلاق الناس بل تغييب الشريعة كذلك من قبل هؤلاء الحكام عمدا حتى لا تحول أحكام الله بينهم وبين مآربهم ونزواتهم، وهو ما عبر عنه ابن حزم بقوله :"وهذا هو هتك الأستار ونقض شرائع الإسلام وحل عراه عروة عروة وإحداث دين جديد"[2]، فأغلب الحكام كان منكبّا على شهواته غافلا عما يدور في مجتمعاتهم، وقد أصيب المجتمع الأندلسي بانفلات أخلاقي منذ اللحظة التي انفرط فيها عقد الخلافة، أي منذ استيلاء المهدي على قصر الخلافة، فقد أظهر هذا الأخير الخلاعة، وجلب من الخمر مائة خابية، ومائة مزمار، ومائة عود، واشتري له صقلبي كان يتعشقه، وأرسل إلى خليلاته،فقدمن عليه، فأظهر من الفسق ما لا يحيط به الوصف[3]، ولم يكن ذلك ديدن المهدي وحده، ولكنها السمة الغالبة على حكام هذه الفترة، وهذا ما صرح به الطاهر أحمد مكي أثناء حديثه عن المعتمد بن عباد حيث قال[4]" فقد تولى مقاليد شعب أفسد الترف طبعه، فلم يصرف شيئا من العناية إلى أمور رعيته، وترامى على ملذات نفسه"[5].

وبتغييب الشريعة تجرأ النصارى على الاستهزاء بالإسلام وبالأذان، وسب بعضهم محمد (ﷺ) على ملإ من المسلمين، فلم يجرؤ أحد على قول شيء[6]، وهذا دليل على أن الدين لم يكن يعني لملوك الطوائف شيئا.

لم تكن أطماع ملوك الطوائف تقف عند حد معين، فالكل يريد الهيمنة على مقدرات الآخرين وابتلاع أراضيهم، ولا شك بأن الطمع والجشع مرضان نفسيان ينمان على خلل في أخلاق هؤلاء الحكام، فلما هان الدين في أعينهم هانت عليهم رعيتهم وبلدانهم، فصاروا أحيانا يعينون النصارى على الفتك

1- ابن حزم: رسالة التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 175.

2- ابن حزم: المصدر نفسه، ص 176.

3- ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 354؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 428.

4- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 241.

5-:R.Dozy :Histoire des Musulmans d'Espagne,jusq'A La conquéte de l'andaluossie par les Almoravides 711-1110 ,Trad. Espagnole leyde Brill,Toronto, 1861 ,Vol.II ,p422.

6- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 368.

بالمسلمين وأسرهم والعبث بأعراضهم، وفي أحايين كثيرة يتنازلون عن القلاع والمدن بلا مقابل فتفرغ من أهلها وتعمر بالنصارى وترفع النواقيس وتخلى من الأذان[1].

إن المصادر التاريخية كلها تجمع بأن ملوك الطوائف في هذه المرحلة الحرجة قد أصيبوا في أخلاقهم، فيذكر ابن الكردبوس أنهم كانوا منشغلين بشرب الخمر واقتناء القيان وارتكاب المعاصي وسماع المعازف، ونقل عن الفونسوا السادس قوله عنهم " أظهروا الفسوق، والعصيان"[2]، وذكر المؤرخون أنهم كانوا يقضون الليل كله مع ندمائهم يشربون الخمر لا يغمض لهم جفن، وهذا ما حكاه ابن خاقان عن المتوكل بن الأفطس، أما باديس، فكان لا يفيق من السكر أبدا[3].

وهنا يمكننا أن نرصد أثر الصراعات العسكرية في انتشار ظاهرة شرب الخمور عند الملوك والجيوش المصاحبة لهم في حروبهم، فالمؤرخان برنهارد وإلن ويشوا يريان بأن المعتمد بن عباد كان يشرب الخمر لا سيما عند خروجه للغزو، ويسمح لجنده أن يفعلوا الشيء نفسه عند القتال[4]، فالمعتمد اتخذ من الخمر وسيلة لكسب المعارك،إذ أنها تحدث في نفس شاربها نشوة القتال، والإلقاء بها في أتون المهالك، فقد يكون المعتمد قصد هذا المعنى.

فالحكام إذن إلى جانب انشغالهم عن أمور الحكم وتطهير المجتمع من الرذائل بمحاربة بعضهم وبناء القصور عمروا هذه القصور بإقامة مجالس اللهو والشراب والاستماع للمعازف والمغنيات، فلم يعد أحد يتحدث عن مكارم الأخلاق فصار الانحلال مستساغا، ولم يخل بلاط واحد من هذه المظاهر[5].

فالمستكفي بالله الأموي الذي تولى الحكم في قرطبة سبعة عشر شهرا مثلا وصفه معاصره ابن حيان بأوصاف تدل على انحطاط أخلاقه، فذكر بأنه" لم يجلس في الإمارة مدة تلك الفتنة أسقط منه ولا أنقص ....مشتهرا بالشرب...أسير الشهوة، عاهر الخلوة..." ، ويبدوا بأن الرجل كان مخنثا فقد خرج من قرطبة لابسا لباس النساء منتقبا بين امرأتين لا يعرف منهما، ومرد ذلك برأي ابن حيان إلى مرانه على التخنث[6].

---

[1]- ابن حزم : تلخيص التخليص،ج3، ص 176.

[2]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 77، 89.

[3]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 14؛ ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص 140.

[4]- برنهارد وإلن ويشو: المرجع السابق، ص 241.

[5]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 296.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، م1، ص 434، 437؛ ابن الأثير: المصدر السابق، مج8، ص 103؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج1، ص 421؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص ص 450-451.

وكان حكم بن سعيد الحائك وزير الخليفة هشام المعتد بالله عهر الخلوات صريع الشهوات، كثير الكذب والعدوان، شنيع الفجور والعصيان، عاكف على الخمر والقيان، وقد قواه على المعاصي تأييد الخليفة له[1]، فحالة الفوضى التي أفرزتها الصراعات العسكرية ساهمت في انحطاط أخلاق رجال الدولة، وجعلتهم ينشغلون بساسف الأمور لا بمعاليها.

أما عبد الملك بن جهور، فقد ذكر ابن عذاري بأنه بعد توليه الحكم بقرطبة وضع الشرع جانبا، أي عطل الشريعة، وصحب الفساق والمنحرفين، وشرع في المعاصي والفسوق، وأظهر الخنا، فشاع الانحراف بسببه في قرطبة، وساد الإنحلال،فاهتز الناس لذلك ودعوا عليه بالهلاك[2].

وفي رندة تولى باديس بن هلال بن أبي قرة الرئاسة بعد اعتقال أبيه في اشبيلية من قبل المعتضد بن عباد، فأساء السيرة، وأرهق الناس بسوء أخلاقه إذ كان مع ثلة من السفلة والمجرمين ينتزعون الزوجات من أزواجهن والبنات من آبائهن بالقوة ويقومون باغتصابهن ولم يسلم من ذلك أقرب الناس إليه من خاصة محارمه[3].

وقد شاعت في عصر الطوائف ظاهرة التغزل بالغلمان ومخادنتهم حتى صار بعض الرجال يفضلهم على النساء، وممن ذاع عنه ذلك الوزير ابن السقاء الذي اجتمعت أزمة الحكم في يده في دولة أبي الوليد بن جهور، فقد قال عنه ابن حيان بعد ذكر أخباره: " ...من رجل عهر الخلوة لزهده في النساء،وكلفه بالغلمان، واتخذ دارا آخر مدته للخلو بهم..." سماها الناس دار اللذة، ونقل عن عبد الجليل بن وهبون كلفه بالغلمان، واشتهاره عند الناس بذلك، وقد كلف بفتى من اشبيلية كلفا أفقده عقله[4]، ومنهم من كان عشق الغلمان سببا في هلاكه وموته كابن الطبني[5]، ولم يكن هذا قاصرا على هذا الرجل فأمثاله من المتيّمين بالغلمان كثيرون، وإن الدهشة لتصيبك وأنت تقرأ ما كتبه الكثير من شعراء القرن الخامس الهجري في التغزل بالغلمان، فانتشار هذه الظاهرة المشينة في هذه الفترة على نطاق واسع، -رغم إصرار البعض على حصرها في طبقة محدودة- دليل على أن الأندلسيين قد أصيبوا في أخلاقهم[6].

---

[1]- حسين مؤنس: المرجع السابق، ج1، ص 425.
[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 464.
[3]- عنان: المرجع السابق، ص 46.
[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 242، 243؛ ابن خاقان: قلائد العقيان، م2،ج2، ق4، ص 768، 771.
[5]- ابن حزم: طوق الحمامة، ج1، ص 263.
[6]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص149.

فيذكر ابن عذاري أن عبد الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بلنسية كان رجلا خليعا يمارس الفاحشة بالفتيان والغلمان[1]، ولم يكن ابن عمار مختلفا عن عبد الملك، فقد ذكر ابن بسام أنه كان زير قيان وغلمان، وصريع راح وريحان، ووصف الذهبي يحي المأمون بأنه كان خلال فترة حكمه لطليطلة "عاكفا على اللذات والخلاعة"[2]، أما المعتضد بن عباد فقد كان شغوفا بالنساء فإلى جانب زوجته الحسناء اقتنى من الجواري البارعات الحسن والجمال من الأجناس المختلفة سبعين جارية[3]، ويصف ابن الأبار المعتمد بن عباد بأنه كان مولعا بالخمر منغمسا في اللذات[4].

وقد انتشر شرب الخمر في الأندلس في عصر الطوائف حتى صار ظاهرة مقبولة اجتماعيا، فكثرت فيه الحانات، ومجالس اللهو والشرب، وهذا ملاحظ في كثرة امتداح الشعراء له في اشعارهم، بل تجاوز ذلك إلى جمع بعضهم للأشعار التي قيلت فيه في كتاب خاص، ككتاب الشاعر أبي عامر بن مسلمة الموسوم بـ" حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح"[5].

لقد أصبح الخمر سيد المجالس في عصر الطوائف، فلم يخل منه مجلس في ليل أو نهار حتى صار الخلان لا يتسامرون إلا عليه، وصار ليل الكثيرين نهارا، وهذا ما نلاحظه عند كبار موظفي الدولة كأبي بكر بن ذكوان وأبي عامر بن شهيد وأبي الوليد بن زيدون، فقد كان ذلك دأبهم حتى مات عنهم ابن ذكوان[6]، وقد مررت بتراجم الكثير من الملوك والوزراء، فوجدت بأن أغلبهم يؤثر الخمر، فعلمت بأنها ظاهرة عامة بالأندلس خلال هذا العصر يتعاطاه الملوك والوزراء والعلماء والكبار حتى الصغار لم يسلموا من ذلك، وهذا ما صرح به الوزير الكاتب أبو بكر بن الملح حيث يقول[7]:

وكنت فتى الكأس عهد الصبا فَرَدَّني الدهر شيخ الدعاء

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 490؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، ص 41؛ مليكة حميدي: المرجع السابق، ص 121.

[2]- الذهبي: المصدر السابق، ج18، ص 220.

[3]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 43، رقم الترجمة 119؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 447؛ عنان: المرجع السابق، ص 56.

[4]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص54.

[5]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 144.

[6]- ابن خاقان:قلائد العقيان،ج1، ق2، ص ص 218-219.

[7]- ابن خاقان:المصدر نفسه، مج1،ج2، ق2، ص 562.

وتحدث ابن حيان عن هذيل بن خلف بن لب بن رزين، فذكر بأن الشباب قد قواه على المعصية، فبعد في الشذوذ شأوه، وتنطق أبيات الشعر التي نسبها له ابن بسام بأنه كان مدمنا على شرب الخمر واللعب بالمحضيات اللواتي جمع منهن الكثير[1].

أما مبارك ومظفر الصقلبيين فقد جعلتهما الرفاهية التي تحققت لهما في بداية حكمهما لبلنسية ينصرفان لطلب اللذة، وقد بالغا في ذلك حتى فاقا من كان قبلهما ومن جاء بعدهما[2].

ولم يكن إسماعيل بن عباد ليتمكن من محاصرة قرمونة واسترجاعها من بني حمود لو لم يكن يحي منشغلا باللهو والشراب، فقد خرج ليلا لفك الحصار عنها وهو ثمل، فقطع رأسه[3].

والأسوأ من ذلك أن محمد بن عبد الله البرزالي قد تسلل بعد مقتل يحي إلى نسائه في القصر وأباح أعراضهن لأبنائه[4]، فالبرزالي بهذا الفعل قد تجرد من أخلاقه، وفعل ذلك نكاية بيحي الذي أخذ منه قرمونة، لكن كان الأولى أن لا يجرم في حق نسائه، ومنذ ذلك الحين انغمس البرزالي في المعاصي.

وتغيرت طبائع مجاهد العامري بعد هزيمته الساحقة أمام الأساطيل المسيحية المتحدة في سردانية، فتارة يكون عابدا قارئا للكتب وتارة يصبح خليعا لا يتوارى عن الأنظار عند طلبه للذة وانغماسه في الشراب[5].

وذكر ابن عذاري أن عبد الله بن حكيم التجيبي قاتل يحي بن منذر التجيبي والمتولي حكم سرقسطة بعده لزمن ليس بشيء كان عاهر الفرج، وكان يدخل على النساء في الحمام[6].

ووصف ابن حيان حكم بن القزاز وزير هشام المعتد بأنه عهر الخلوات،صريع الشهوات، ...، كثير الكذب والأيمان، شنيع الفجور والعدوان[7]، وهذه الأوصاف التي ذكرها ابن حيان في هذا الرجل هي

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 111، 117، 118.

[2]- ابن بسام: المصدر نفسه، ق3، مج1 ص 18 ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 416.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 318؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 434.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 318.

[5]- ابن بسام: المصدر نفسه، ق3، م1، ص ص 23-24؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 412؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج1، ص 43.

[6]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 457.

[7]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 524.

أوصاف الكثير من رجال الدولة في عصر الطوائف، وكان ابن عمار بعد استيلائه على مرسية مدمنا على الخمر، مغرقا في المعاصي، ذاكرا للمعتمد وأهله بالسوء فكرهه الناس لذلك[1].

ومما يدل على فساد أذواق رجال الدولة في هذا العصر وانتكاس أخلاقهم استكثارهم من الجواري والقيان في بيوتهم، والانشغال عن معالي الأمور بمداعبتهم واللهو معهم، فالوزير أحمد بن عباس وزير زهير العامري صاحب الثراء الفاحش، اقتنى لنفسه خمسمائة جارية من أغلى الجواري يلهوا بهن، وكان متهما بعهر الخلوة، وكان إلى جانب ذلك يقضي معظم نهاره وجزءا من ليله يلعب الشطرنج[2].

وعلى كل حال فإن الانحطاط الأخلاقي الذي طبع هذه الفترة من تاريخ الأندلس قد مس طبقات الشعب الأندلس كلها، فالجميع كان يبحث عن المتعة الحسية[3] والسبب في ذلك هو تغييب الشرع وتعطيل الحدود والتوسع في ممارسة الحريات الفردية والجماعية فأصبح الجهر بالعصية أمرا مستساغا[4]، فسكان قرطبة مثلا رغم الظروف الاجتماعية المزرية التي كانوا يعيشونها بسبب انعدام الطعام بها وحصار البربر لها إلا أن أنهم كانوا يشربون الخمور ويمارسون الزنا واللواط جهارا[5].

وتذكر كتب الحسبة أن مقبرة اشبيلية قد اتخذها المنحرفون مكانا يلجأون إليه لشرب الخمور، وممارسة الفاحشة، فيترامون على ظهور المقابر[6]، فهذا دليل على انحطاط أخلاق الناس في هذه المدينة في هذه الفترة من تاريخ الأندلس، ويظهر من كلام بعض المؤرخين أن الفساد الأخلاقي قد عم مدنا بأكملها، فالمقري نقل عن الحجاري صاحب المسهب أن شريش لا تكاد ترى بها إلا عاشقا ومعشوقا[7].

وفي بعض مدن الأندلس شاهد ابن حزم بيوتا إتخذها أصحابها أماكن لممارسة اللواط وأخرى فتحها صاحبها للزّنا بحريمه[8]، وامتلأت أركان الأندلس بالمنخنثين، حتى صار إتيان الذكران أمرا مألوفا، وقد عرفوا باسم القُطماء، وفاقت قرطبة غيرها من المدن في هذه الظاهرة، ولهم فيها حي مشهور يعرف بدرب ابن زيدون[9]، وهذا ما جعل ابن حيان يصف أهل زمانه بأوصاف تدل على انحطاط أخلاقهم فيقول:"

1- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 80.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 666، 667.

3- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 431.

4- عنان: المرجع السابق، ص424.

5- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 374.

6- ابن عبدون: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، (د.ط)، 1955، ص 26؛ تواتية بودالية: المرجع السابق، ص ص 119-120.

7- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 184

8- رسائل ابن حزم: طوق الحمامة، ج1، ص 279، 280.

9- ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص 177؛ تواتية بودالية: المرجع السابق، ص 121.

وأركستهم الذنوب ووصمتهم العيوب فليسوا في سبيل الرشاد بأتقياء ....من أدل الدلائل على فرط جهلهم بشأنهم اغترارهم بزمانهم وبعادهم عن طاعة خالقهم ورفضهم وصية رسوله نبيهم عليه السلام"[1]، فانتشارهذه الآفات إنما سببه الفوضى التي تعيشها الأندلس في عصر الطوائف، والحروب التي لا تنتهي.

أما عن النساء، فقد استولين على الأحوال، وأسندت إليهن الأمور، وصارت كل امرأة من نساء العلية تخالط كل شرير وفاسد وصاحب خمر[2]، وشارك بعضهن أزواجهن في سياسة الرعية وصناعة القرار وممن فعل ذلك اعتماد الرميكية زوجة المعتمد بن عباد، والنساء النافذات في قصر باديس بن حبوس[3].

بل إن المرأة في عصر الطوائف كانت ترى في الطرق متسكعة متنزهة، كما كانت تشارك في الحفلات المختلطة التي تقام في اشبيلية على ضفاف الأنهار[4]، فجرها التحرر من قيود الشريعة، وأعراف المجتمع، وسلطة الرجل إلى إقامة علاقات محرمة مع الرجال، والتغزل بهم في شعرها، وهنا تحضرنا أسماء كولادة بنت المستكفي، وأم الكرم بنت المعتصم بن صمادح وأخريات كثيرات[5].

إن تحرر المرأة في عصر الطوائف من قيود الشرع وما تمليه الأعراف جرها إلى امتهان الدعارة، فقد نفق سوقها في هذه الفترة، فاحترفت ممارستها طبقة من النسوة يعرفن بالخراجيات اتخذن من الفنادق مأوى لممارسة هذه الرذيلة[6].

كما انتشرت السرقة في عصر الطوائف، ففي مملكة اشبيلية ظهر أكبر لص عرفته الأندلس يدعى البزّي السنجابي، أوقع الرعب والرهبة في سكان البوادي، ولم يزل ينهب الممتلكت حتى وقع في قبضة المعتمد فصلبه ليكون عبرة لغيره، وبناته بجانبه يبكينه، وقصة هذا اللص مبسوطة عند دوزي[7].

وفي ختام هذه الفقرة أقول: إن ما تم ذكره من الآفات الاجتماعية التي انتشرت في دويلات الطوائف تدل دلالة قاطعة بأن حالة الفوضى التي أفرزتها الصراعات العسكرية قد ساهمت في إيجاد الفوضى الأخلاقية.

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 189.

[2]- محمد بن أحمد بن علي الجوير:جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، مكتبة الرشد ناشرون، السعودية، ط1، 2003، ص 125.

[3]- عنان: المرجع السابق، ص 67؛ مليكة حميدي: المرجع السابق، ص 118.

[4]- العمودي: المرجع السابق، ص 45.

[5]- المقري: المصدر السابق، مج4، ص 205؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص ص 114-115.

[6]- بولعراس: المرجع السابق، ص 115.

[7]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 216 وما بعدها.

المطلب الثاني: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الصحية

الفرع الأول: الأمراض والأدوية:من أجل التعرُّف على الأمراض التي أصابت الفرد الأندلسي في هذه الفترة، والأدوية التي عولجت بها هذه الأمراض، وعلاقة الصراعات العسكرية بها يجدر بنا أن تتبع ذلك في مظانه، وأعني بالمظان هنا الكتب المتخصصة وغير المتخصصة، فالمتخصصة هي التي ألفت في الطب والصيدلة، وغير المتخصصة ما سوى هذه الكتب التي تناولت المرحلة محل الدراسة.

فعلى صعيد المصنفات المتخصصة صنف علماء الأندلس في هذه الفترة عددا من المصنفات في الأدوية المفردة والمركبة، وتصنيفهم لها يشي بوجود أمراض في المجتمع الأندلسي في هذه الفترة الحرجة إذ لا معنى للحديث عن دواء لا يعالج مرضا موجودا.

وممن فعل ذلك أبو العلاء زهر بن عبد الملك الأشبيلي، فقد ألف كتابا في الأدوية المفردة، وبين الأمراض التي يعالجها كل دواء من الأدوية المثبتة فيه، ولا شك بأنه قد قدم فيه وصفات للأمراض التي كانت معروفة في عصره[1].

وما قيل عن كتاب أبي العلاء بن زهر يقال كذلك عن كتاب " **الوساد**" لابن وافد (ت 467هـ/1074م)، فقد تحدث فيه عن الأمراض التي تصيب الفم والأسنان واللثة ، والدماغ، والشرايين، وأمراض العين، وأمراض القلب، وأمراض المعدة، والطحال، والأحشاء، وأمراض الأجهزة التناسلية، وأمراض الكلى، والإمراض الجلدية، والأمراض العصبية، وغيرها مع ذكر الأدوية المناسبة لكل مرض من هذه الأمراض وذكر الطرق التي يتبعها في علاجها[2]، ما يعني أن ابن وافد كان يشخص المرض ثم يصنع له الدواء المناسب ، ولو لم تكن هذه الأمراض معروفة في عصره لكان من العبث أن يفرد لها صفحات في كتابه وأن يستفيض في شرحها ثم يذكر علاجاتها.

وقد حاولت إيجاد علاقة ما بين الأمراض المذكورة في هذا الكتاب والصراعات العسكرية في عصر الطوائف، فلم أجد ما يشير إلى هذه العلاقة، عدا عبارة الوباء أو الأوبئة التي ذكرت في كتب التاريخ، والتي غالبا ما يتم ذكرها بعد حصار مدينة من المدن إما من قبل ملوك الطوائف أو من قبل النصارى، ما يعني أن الحصار العسكري الطويل للسكان داخل المدن هو المتسبب في ظهور أمراض مختلفة، فقرطبة مثلا خلال حصار البربر لها في مستهل القرن الخامس الهجري انتشرت بها الأوبئة والأمراض[3]، وفي بلنسية تسبب حصار الكمبيطور لها سنة 487هـ/1094م، في انتشار الوباء بين الناس بشكل كاد أن

---

[1]- الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص 596؛ ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 519.

[2]- سعد البشري: المرجع السابق، ص ص 561-563.

[3]- حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج1، ص 407؛ عدنان صالح عبد الله العمودي: المرجع السابق، ص 44.

يقضي على كل السكان، ولهذا الوباء علاقة مباشرة باقتيات الناس على الجيف،وبعض الحيوانات المحرمة والمأكولات الضارة، فبينما الرجل يمشي يسقط ميتا[1]، وهذه الحالات تكررت كثيرا بالأندلس في عصر الطوائف، ففي كل حصار تحدث أوضاع مشابهة، فانظر كيف تسبب الحصار العسكري في انتشار الوباء.

وعندما خرج الفونسوا السادس لنجدة النصارى المعتصمين بحصن **لييط** وكان عددهم إثنا عشر ألف مقاتل، وكان يوسف بن تاشفين قد حاصرهم بعد الجواز الثاني له سنة 481هـ/1088م شتاء، فمات أغلبهم بسبب الوباء الذي فتك بهم[2]، واستقر مجاهد العامري في مدينة مهجورة من مدن سردانية موبوءة بسبب وجود المستنقعات التي كانت مرتعا خصبا للأوبئة على شاطئها، فأصاب الوباء القاطنين بها من المسلمين[3].

غير أن لفظ الوباء عندما يقترن بالمجاعة نفهم أنه يقصد به الأمراض المصاحبة لسوء التغذية، ففي سنة 407هـ/1016م انتشرت بالأندلس وإفريقية مجاعة عامة بسبب القحط الشديد فظهرت من جراء تلك المجاعة أوبئة كثيرة[4]، وقد مر بنا أن الإتلاف الواسع للمحاصيل الزراعية في المناطق الملتهبة في الأندلس، هو السبب المباشر في ندرة الطعام وانتشار المجاعة .

وأحيانا يوظف المؤرخون وأصحاب التراجم لفظ الطاعون لوصف الموتان الجماعي للأشخاص، ففي كتاب الصلة يذكر ابن بشكوال عند ترجمته لخلف بن يوسف المقرئ أنه توفي بالطاعون سنة 451هـ/1059م[5]، ولا شك بأن الطاعون هو مرض قاتل نزل بالمنطقة التي كان يسكنها المترجم له هلكت بسببه أعداد من الناس.

ويبدوا من خلال التتبع والاستقراء لأحداث هذه المرحلة بأن الطاعون كان حاضرا بقوة في الأماكن التي إندلعت فيها الصراعات المسلحة، ما يعني بأن أعمال القتل والتخريب التجويع تجعل من هذه الأماكن بيئة ملائمة لانتشار الطاعون، وهذا ما لاحظه المؤرخون في قرطبة زمن الفتنة، فقد مات بالطاعون خلال الفتنة الكثير من سكانها[6].

---

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج3، ص 32؛ محمد عبده حتامله: موسوعة الديار الأندلسية، ص 308؛ محمد نايف العمايرة: المرجع السابق، ص 131.

[2]- مريم قاسم طويل:مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر، ص 210.

[3]- عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص 145.

[4]- ابن أبي زرع: المصدر السابق، ص 118.

[5]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1 ص 237، رقم الترجمة 385؛ شكيب أرسلان: المرجع السابق، ج2، ص 185.

[6]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 214.

وإذا كان مصطلح الوباء قد تكرر كثيرا في المصادر التي أرخت لهذه الفترة، فإن مصطلحات أخرى تدل على أمراض معروفة كانت حاضرة فيها كذلك، فابن الخطيب يذكر بأن محمد بن عبد الملك بن أبي عامر توفي سنة إحدى وعشرين وأربعمائة هجرية بمرض الجذري المعروف[1].

ومات المعتضد بن عباد من علة تسببت فيها ذبحة قصيرة الأمد[2]، والذبحة التي أصيب بها المعتضد هي الذبحة الصدرية المفاجئة التي تحصل نتيجة نقص إمداد جزء من عضلة القلب بالكميات اللازمة لها من الدم المحمل بالأكسجين، وقد كان للقلق والتوتر الدائم الذي عاشة المعتضد طوال مدة حكمه، بسبب الحروب والنزاعات التي انخرط فيها علاقة مباشرة بهذه الذبحة، ورغم اعتبار بعض المؤرخين موت ابنة له في ريعان الشباب بين ذراعيه السبب المباشر في تأزم حالته وتدهور صحته ثم موته لاحقا، إلا أن حتاملة يجزم بأن ذلك قد حصل له بسبب الإجهاد في الحروب، ويضيف إليها بعض الباحثين تفكيره الدائم وقلقه المزمن على مملكته من البربر ومن نصارى الشمال، وبذلك تكون الحالة النفسية المتدهورة للمعتضد-إلى جانب الإجهاد- سببا في هذا المرض العضوي المعروف[3].

ويذكر ابن الخطيب أن علي ابن مجاهد بعد افتكاكه من الأسر واعتناقه للإسلام ختنه أبوه فأصابه من ذلك مرض شديد، ولم يذكر اسم المرض، وربما حدث له التهاب في المنطقة المختونة وتطور الأمر إلى تعفن مثلما يحدث للمختونين في كل عصر بسبب عدم تعقيم أدوات الختان[4].

أما القادر بن ذي النون، فتذكر المصادر التاريخية أنه كان يعاني من علة في معدته أكثر وقته تعرف بالذّرب، وهذا الداء يمنع المعدة من هضم الطعام فيبقى على حاله كما بلعه صاحبه[5]، وذكر أبو محمد علي بن حزم أن أبا عامر بن شهيد أصيب قبل موته بمرضين اثنين ضيق التنفس، ومرض النفخ، وكلاهما مرض عضوي[6]، ومن خلال المعلومات المتعلقة بشخص ابن شهيد يمكن إيجاد علاقة بين المرضين الذين أصيب بهما والصراعات العسكرية التي دارت رحاها بالأندلس في هذه الفترة، فحالة القلق الشديد والإضطرابات النفسية التي عاشها بسبب الأوضاع المقلقة ربما أنتجت لديه اضطرابات قلبية وباضطراب القلب المسؤول عن ضخ الدم في الأوعية نتج عنده النفخ.

---

[1]- ابن الخطيب:أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص187.

[2]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2 ص 41؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق2، م1، ص25؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج2، ص 11.

[3]- برنهارد والن ويشوا: المرجع السابق، ص ص 23-238؛ حتاملة:الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 496؛ يوسف أحمد حوالة:المرجع السابق، ص 175.

[4]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ص 205.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 150؛ ابراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 122.

[6]- ابن حزم: ملحقات، مل3، شذرات من الروايات التاريخية عن ابن حزم، ج2، ص 229.

وبذكر ضيق التنفس نتذكر الوزير والكاتب أبو جعفر بن أيوب اللمائي في مالقة بني حمود، فقد أصيب هو الآخر بهذا المرض الذي ينم عن خلل في الرئتين، وقد كان لهذا المرض علاج ودواء متاح ولكنه لم يجد نفعا، فمات بسببه، وهذا ما يفهم من قول اللمائي[1]في بيت شعري:

عظم البلاء فلا طبيب يرتجى منه الشفاء ولا دواء ينجع

وفي عام 455هـ/1063م توفي أبو بكر أحمد بن طاهر بعد معاناة دامت طويلا مع مرض الفالج[2]، وكان عبد الملك بن جهور يعاني من المرض نفسه، مع تحول فمه عن مكانه[3]، والمعروف في عصرنا أن إعوجاج الفم عند الإنسان، والشلل النصفي المعروف بالفالج مرضان يحصلان نتيجة حصول إضطرابات عصبية حادة عند الإنسان، أو تلف في الدماغ في الجهة المشلولة من الجسم، ولا شك بأن الصراعات العسكرية، وحالة الفوضى التي طبعت هذا القرن من تاريخ الأندلس، والتي تخلق لدى الملوك حالة من التوتر الدائم هي المسؤولة عن هذا المرض،كما يخبرنا ابن أبي أصيبعة عن أبي الحكم عمرو الكرماني (ت 485هـ/1092م) بأنه كان يعالج المرضى بالكيّ والقطع والشق والبط ما يدل على وجود أمراض تعالج بإحدى هذه الطرق[4].

هناك أمراض ظهرت في عصر ملوك الطوائف لم يذكرها المؤرخون بأسمائها ربما لكونها جديدة في تلك الفترة كالمرض الذي تسبب في وفاة عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن أبي عامر حاكم بلنسية، فقد قال عنه ابن بسام " اعتل علة أعيا علاجها، واختلفت نوبها، تطعمه تارة وتؤيسه أخرى، والإرجاف لا يفتر عنه، إلى أن قضت عليه" [5]، وأصيب ذو الوزارتين أبي عامر بن الفرج وزير المأمون بن ذي النون بمرض في الكبد عجز عن إيجاد دواء له، فنصحه البعض باستعمال الخمر القديم[6].

وإلى جانب الأمراض العضوية التي تسبب فيها الصراع العسكري الدائر في الأندلس كان الشعب الأندلسي يعاني من الأمراض العصبية والنفسية، فلا شك بأن القهر الذي مورس عليه من قبل الحكام قد ولد عنده عقدا نفسية خطيرة، ناهيك عن الانتهاكات الخطيرة التي يتعرض لها سكان المناطق التي تقع تحت الغزو حيث يجرّدون من أبسط حقوقهم، فسكان مدينة بربشتر عندما قام الروم باقتحامها إقتسموا

---

[1]- فاضل فتحي محمد والي: المرجع السابق، ص ص 233-234.تنظر ترجمته في الصفحات نفسها.

[2]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 117.

[3]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 483.

[4]- ابن أبي أصيبعة:المصدر السابق، ص 485.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص 250.

[6]- ابن خاقان:مطمح الأنفس ومسرح التانس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكه، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983، ص 188؛ ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص 298.

منازلها بما فيها من المتاع والعباد ثم قاموا باغتصاب النساء أمام أزواجهن وآبائهن وهذا التصرف قد أحدث شروخا عميقة في نفوس المغتصبات والرجال الذين مورست هذه الأفعال الشنيعة أمامهم، وعذب من عذب يومئذ من المسلمين حتى مات بعضهم تحت العذاب[1].

لا شك بأن الشعب الأندلسي في الإمارات الأخرى في هذه الفترة الحرجة قد تعرض لمثل ما حل بأهل بربشتر، ولا شك بأن هذه المحن قد أزمت الإنسان الأندلسي نفسيا، ولم يكن الملوك بمنآى عن هذه الأمراض العصبية والنفسية، فالمقتدر بن هود أصيب بعلة فقد بسببها الإحساس وصار كالمجنون لأنه أصيب في عقله كذلك، فكان ينبح كما تنبح الكلاب، فالمقتدر أصيب بمرضين أحدهما حسي والآخر عقلي وكلا المرضين له علاقة بالأعصاب في جسم الإنسان، فبعضها مسؤول عن الإحساس والبعض الآخر مسؤول عن الحركة، وقد تعطل عنده النوع الأول[2]، أما ابنه المؤتمن(يوسف)، فقد كان احتلال الفونسوا السادس لطليطلة سببا في مرضه ثم موته، فقد سقط عليه خبر طليطلة كالصاعقة، فتأزمت حالته النفسية والعصبية ومات بسبب ذلك[3]، فهذا أثر من الآثار المباشرة للصراعات العسكرية على صحة المؤتمن.

وتأزمت حالة باديس بن حبوس بعد قيام المعتضد بن عباد بقتل عدد من رؤساء الدويلات البربرية في حمام بعد زيارة رسمية إلى اشبيلية، وبسبب هذه الوعكة النفسية كان باديس من حين لآخر تعتريه نوبة من الذهول، تعقبها موجة من الغضب التي يبلغ بها درجة الهيجان، وفي غمرة هذه الحالة تتقاذفه الشكوك والأوهام، وتسيطر عليه الوساوس، وفجاة يركن إلى السكون المبهم الغامض[4]، فهذه الحالة المرضية من إفرازات الصراعات العسكرية بين العرب والبربر في عصر ملوك الطوائف بالأندلس.

وتعرض المعتضد بن عباد بدوره لوعكة نفسية حادة بعد إقدامه على إعدام ابنه اسماعيل الذي كان يسعى للتخلص من أبيه بشتى الوسائل، فقد تسبب ألم الضمير الدائم لديه في اضطرابات نفسية حادة، وهذا أيضا من تبعات الصراع العسكري بين المعتضد وابنه، ففي الوقت الذي استعان فيه اسماعيل بقعطة من الجيش لقتل أبيه وقف المعتضد في وجهه بقطعة أقوى منها وحسم الأمر لصالحه[5]، إلا أن المشاكل النفسية للمعتضد برأي بعض المؤرخين تعود إلى زمن طفولته فعندما كان في السابعة من عمره قدمه أبوه محمد رهينة ليحيى بن حمود كدليل على ولائه له واعترافه بخلافته، حتى يدرأ شره عن اشبيلية،

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 184-185؛ ابن عذاري:المصدر السابق، مج2، ص 460.
[2]- ابن عذاري: المصدر نفسه، مج2، ص 462.
[3]- حميدة منصور حسن أبو شعراية: المرجع السابق، ص 82.
[4]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص ص 135-136.
[5]- دوزي: المرجع نفسه، ص 146.

لكن ذلك التصرف أثر في تفسية المعتضد وجعل منه شخصية عدوانية تعتمد العنف وسيلة للقضاء على المنافسين وحتى المشتبه فيهم[1].

كما يشير الباحثون في هذه الفترة التاريخية المضطربة إلى مرض نفسي آخر أصاب الكثير من حكام الطوائف، ويتعلق الأمر بالسادية وهي اضطراب شديد في الشخصية يجعل صاحبها يتلذذ بإذلاله للآخرين وتعذيبهم[2] وهذا ما لاحظه الباحثون في شخصية المعتضد بن عباد حيث كان شخصية دموية تتلذذ بقتل الآخرين، وقد بلغ به الأمر أن جعل في قصره حديقة للرؤوس يتأملها، ويستمتع بالنظر إليها، فهذا السلوك يَنُمُّ عن خلل في شخصية هذا الرجل، وما من تفسير لهذا السلوك سوى الجزم بأنه رجل مصاب بالسادية، ولم يكن باديس بن حبوس بعيدا عن المعتضد في ذلك، كما أن التمثيل بالجثث بعد قتل أصحابها وقطع الرروس، وحملها على رمح، والطواف بها داخل المدينة له علاقة بمرض السادية الذي انتشر في عصر ملوك الطوائف بشكل رهيب.

هناك مرض نفسي آخر له علاقة وطيدة بالصراعات العسكرية ونعني بذلك العدوانية التي اتسم بها الكثير من الأشخاص الذين يديرون دفة الصراع المسلح في عصر الطوائف والإجرام الذي بلغ حدودا غير مسبوقة، فالدراسات التي تهتم بسلوك الأشخاص تفيد بأن العدوانية تنشأ لدى الشخص بسبب شعوره بالدونية ،والنقص[3]، وقد كان الكثير من ملوك الطوائف عدوانيين وعنيفين.

لا يسلم الجنود المشاركون في الصراعات العسكرية من الإصابات الخطيرة من قبيل الكسور والرضوض في مختلف أنحاء الجسم، وانخلاع الأعضاء من أماكنها، والأمراض العصبية التي يتسبب فيها التحام الجيوش ببعضها، والمشاهد الدموية المروعة التي تكتنف هذه الصراعات العسكرية.

لقد خيب المؤرخون وكتاب التراجم ظني عندما لم يضمنوا كتبهم-التي وقعت تحت يدي- الأخبار التي تتحدث عن الإصابات المختلفة التي تصيب المقاتلين في ساحات المعارك كالكسور والرضوض والأعضاء المبتورة، ولا شك بأن ساحات المعارك قد غصت بمثل هذه الحالات، فلا أدري لماذا أهمل هذا النوع من الأخبار في هذه الفترة الصراعات العسكرية.

أما عن الأدوية، فيسود الاعتقاد إنطلاقا من قول اللمائي في بيت شعري آخر[4]:

لم يبق شيء لم أعالجها به　　طمع الحياة وأين من لا يطمع

---

[1]- أمحمد بن عبود:التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص 57، 242.

[2]- تواتية بودالية: المرجع السابق، ص115؛ PROULEX ,jean .les Meurtiers sexuels ,Edition PUM ,2005 ,p163

[3]- تواتية بودالية: المرجع السابق، 139.

[4]- فاضل فتحي محمد والي:المرجع نفسه، ص 234.

بأن الأدوية التي تعالج الأمراض المختلفة كانت متاحة ما يعني بأن المعرفة الدوائية كانت منتشرة.

ويؤكد صحة هذا الاعتقاد قيام الأطباء والصيادلة في عصر الطوائف بتأليف مؤلفات تتحدث عن الأدوية المفردة ككتاب "**الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية** " لأبي الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت ، فعنوان هذا الكتاب يوحي بأن صاحبه صيدلي وطبيب في آن واحد، فقد صنف في كتابه هذا الأدوية ورتبها على أعضاء الجسم التي تتشابه في الأجزاء وفي الوظيفة، وهذا يعكس معرفته بأعضاء الجسم ووظائفها كذلك.

وفي كتاب " **المخصص**" لابن سيده الذي يقع في سبعة عشر جزء خصص الجزء الحادي عشر وبعض الثاني عشر للنبات حيث تحدث فيه عن أوصافه ومرادفاته ، وقد تميزت المعلومات النباتية الواردة فيه بالدقة والأصالة والتدقيق في التحليل والمقارنة[1]، فوجود معلومات دقيقة عن النباتات وخصائصها وأوصافها ومقارنتها بنباتات أخرى دليل على معرفة ابن سيدة بالأدوية.

الفرع الثاني: **الأطباء والصيادلة** : بداية لا بد من القول بأن الطب والصيدلة وجهان لعملة واحدة، وأنهما مرتبطان ببعضهما ارتباط الدواء بالمرض، فالطبيب يشخص الداء ولكنه في الوقت نفسه يحدد الدواء الملائم الذي يجب أن يعالج به، والصيدلي يحضّر له الدواء ولكن بعد معرفة تامة بالمرض ، وهذا ما يجعل الطبيب في بعض الأحيان صيدليا أيضا والصيدلي طبيبا أيضا، وهذا هو حال الكثير من أطباء وصيادلة عصر الطوائف لذلك تجد الكثير من الأطباء يخصصون للأدوية قسما في مصنفاتهم الطبية، وترتبط الصيدلة ارتباطا وثيقا بعلم النبات من جهة وبعلم الكيمياء من جهة أخرى فالدواء إن لم يكن مصدره نباتي فهو كيميائي ناهيك عن التفاعلات الكيميائية التي يحدثها المزج بين النباتات المختلفة[2].

وقد تتبعت أخبار الأطباء في هذه الفترة من تاريخ الأندلس في مظانها فوجدت أنهم لم يتخصصوا في الطب وحده بل أتقنوا وتفننوا في عدد من العلوم المختلفة وهذه هي السمة البارزة للعلماء المسلمين القدامى وأفضل وصف يصدق عليهم أن يقال عنهم أنهم علماء موسوعيون أخذوا من كل علم بنصيب وافر لذلك عند محاولة رصد أصناف العلوم التي تخصص فيها علماء هذه الفترة تجد الكثير من

---

[1]- عبد السلام محمد النويهي: علم النبات عند العرب، ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، تحرير عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1995، ص ص418-419؛ فريد جحا:التراث العربي الأندلسي في ميدان علم النبات، ضمن كتاب اسهامات العرب في علم النبات، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب من 10-14 ديسمبر 1983،الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط1، 1988، ص 352.

[2]- سيد حسين نصر:العلوم في الإسلام دراسة مصورة، نقله إلى العربية مختار الجوهري، تحقيق النص العربي محمد السويسي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1978، ص 160؛ حسين نصار: كتب النبات عند العرب، ضمن كتاب إسهامات العرب في علم النبات، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب من 10-14 ديسمبر 1983، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط1، 1988، ص46.

الأسماء تتكرر في التخصصات المختلفة وهذا إن دلّ على شيء فإنما يدلّ على الهمة العالية عند الإنسان الأندلسي في طلب العلوم لذاتها وليس لشيء آخر، وقد وصل الاهتمام عندهم بتحصيل العلوم حدّ التفريط في طلب أرزاقهم[1].

والجدير بالذكر أن أبو الحزم ابن جهور اشترط على من يريد مزاولة مهنة الطب المثول أمام لجنة تظم كبار الأطباء في عصره لتقرير ما إذا كان الماثل أمامهم مؤهلا لمزاولة هذه المهنة أم لا[2]، فمن أطباء عصر الطوائف الذين تتبعتهم في كتاب طبقات الأمم لأبي القاسم صاعد بن أحمد الأندلسي القرطبي الذي ولد ومات في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي (419- 462هـ/1028-1070م) أبو مروان عبد الملك، وأبي العلاء زهر بن أبي مروان، وابنه عبد الملك المعروف كذلك بأبي مروان[3]، وأبي القاسم أصبغ بن محمد بن السمح الغرناطي (426هـ/1035) الذي كانت له عناية بالطب بلغت به حد التصنيف فيه إلى جانب نبوغه في علوم أخرى[4] كما اشتغل بالطب في هذه المرحلة أبو الحسن علي بن سليمان الزهراوي وهو غير الزهراوي الجراح صاحب كتاب "**التصريف لمن عجز عن التأليف** "فذاك اسمه أبو القاسم خلف بن عباس مات سنة 404هـ/1013م[5]، وأحمد بن علي الكرماني من أهل قرطبة (458هـ/ 1066م) رحل إلى المشرق واستقر ببلدة حرّان، وعني فيها بطلب الطب والهندسة ثم عاد إلى الأندلس واستوطن مدينة سرقسطة[6]، ويعتقد بعض الدراسين لسيرة الكرماني بأنه قد عاش ما يقارب تسعين سنة قضاها في خدمة العلم، ونشر معارفه في الجراحة الطبية، وقد تخرج على يديه الكثير من العلماء في الطب والجراحة ، كما أنه كان طبيبا عمليّا جرّب الطب والجراحة، وممن اعتنى بالطب في عصر الطوائف محمد التميمي، وكان يلقنه لطلبته بطريقة عملية تجريبية(اكلينيكية)[7] وكذلك أبو مسلم عمر بن أحمد الحضرمي من أشراف اشبيلية (449هـ/1057م) وعلى يديه تخرج الطبيب البارع ابن الصفار.

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 220-221.

[2]- يوسف أشباخ: المرجع السابق، ص 39.

[3]- ترجمة أبي العلاء عند الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص ص596-597.

[4]- ابن ابي أصيبعة: المصدر السابق، ص 483؛ ابن صاعد الأندلسي: طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ع 14، 1912، ص ص 69-70.

[5]- ابن صاعد: نفسه، ص 70؛ الضبي: المصدر السابق، ص 551؛ رقم الترجمة 1224؛ أحمد تيمور باشا: أعلام المهندسين في الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2012 ، ص 30؛ ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 484.

[6]- ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص 484؛ ابن صاعد: المصدر السابق، ص ص 70-71.

[7]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 16.

ومن الأطباء الذين تمرسوا في الطب وكان لهم باع في معالجة المرضى أبو عبد الله محمد بن سليمان الحناط المعروف بالضرير، فقد طبقت شهرته الآفاق حتى سمع به الأعيان والملوك والخاصة، فترددوا عليه للعلاج عنده،و كان الجميع معترفا بتمكنه في الطب ونجاعة علاجاته[1].

وفي هذه الفترة عاش الطبيب أبو الفضل بن شرف (444-534هـ/1052-1139م)، وقد بلغ في الطب مبلغا مكنه من معرفة أسراره وخباياه، فألف في ذلك كتابه المسمى (سرّ البرء)[2].

كما وجد في هذه الفترة، أطباء متخصّصون، فيذكر ابن بسام أن الوزير الحكيم أبي محمد المصري كان متخصصا في طب النّظر، أي طب العيون[3]، وذكر أحمد مختار العبادي أن قرية غافق[4] اشتهر فيها ثلاثة أطباء من أسرة عربية واحدة .

أما أبو مروان عبد الملك بن أبي بكر بن زهر(ت471هـ/1078) أول طبيب في هذه العائلة الأندلسية فقد سافر إلى القيروان لدراسة مبادئ صناعة الطب، وبعد الدراسة النظرية سافر إلى مصر، وعمل طبيبا في مستشفيات القاهرة ثم زار بغداد ومارس الطب فيها ومنها عاد إلى دانية ثم اشبيلية، وصار فيها من مشايخ الأطباء[5]، وقد ورث عنه مهنة الطب ابنه أبو العلاء زهر، فحذق فيه واشتهر به، وفي أيامه دخل المرابطون اشبيلية، فاستوزره يوسف بن تاشفين، وجعله طبيبه الخاص وهذا الطبيب وإن كان قد مات في القرن السادس 526هـ/1132م) إلا أنه معدود في أطباء القرن الخامس الهجري الحادي عشر ميلادية لأنه عاش الجزء الأكبر من حياته فيه ودرس الطب وبرع فيه في هذا القرن[6].

ويذكر المقَّري أنّ أبا مروان قد تولى رئاسة الطب في بغداد ثم بمصر ثم بالقيروان، واشتهر بالتقدم في علم الطب حتى برّ أهل زمانه[7]، ولفرط معرفته بالطب وبأحوال المرضى كان يكتفي في تشخيص أمراضهم بفحص بولهم أو جسّ نبضهم[8] تحدث عنه ابن بسام فقال " **نشأ بشرق الأندلس**

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 438.

[2]- ابن خاقان:قلائد العقيان، م2،ج2، ق4، ص ص 791-792.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 343، أنظر ترجمته في المغرب،ج1، ص 128.

[4]- قرية صغيرة في منطقة فحص البلوط ، وهي من أعمال قرطبة وتقع في شمالها الغربي على مسافة 104كلم أنظر ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 79.

[5]- كمال السامرائي: مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، (د.ط)، 1985، ج2، ص ص 169-170؛ أمحمد بوشريط: ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي 300-460هـ/912-1067م، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي غير منشورة، جامعة وهران، 2011-2012، ص 365.

[6]- مجموعة من المؤلفين: موسوعة الشروق مؤلفة شاملة، دار الشروق، القاهرة-بيروت، (د.ط)، 1994، ص 75.

[7]- المقري:المصدر السابق، مج2، ص 244؛ ابن دحية الكلبي: المصدر السابق، ص 203.

[8]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 517.

والآفاق تتهادى عجائبه والشام والعراق تتدارس بدائعه وغرائبه ومال إلى علم الأبدان فلولا جلالة قدره لقلنا جاذب هاروت طرفا من سحره"[1].

وفي تولي أبي العلاء رئاسة الطب في هذه الأقطار التي تعتبر من حواضر العالم الإسلامي ومراكز إشعاع حضاري دليل دامغ على أن الأندلس في هذه الفترة قد تفوقت على المشرق في صناعة الطب، بل يؤكد هذا التفوق وتجاوز الأندلسيين في عصر الطوائف للمعارف الطبية التي توصل إليها المشارقة إلى معارف جديدة ما فعله أبو العلاء بنسخة فاخرة من كتاب " القانون" لابن سينا جلبها تاجر من العراق ليقوم بإهدائها لأبي العلاء تقربا إليه، فلمّا نظر فيها ذمّها وطرحها ولم يرض أن يجعلها في خزانة كتبه، وجعل يقطع منها الأوراق ويكتب فيها الدواء لمرضاه [2].

وإذا كان ابو مروان قد خصص كتابه " **التيسير في المداواة والتدبير**" لشرح الأمراض وبيان طريقة علاجها وطرق المحافظة على الصحة وختمه بذكر الحميات والأمراض الوبائية، فإن كتابه الثاني قد ألفه في الأغذية، فذكر فيه التغذية الصناعية للمريض عن طريق الفم والشرج ، وله كذلك " **الجامع في الأشربة والمعجونات** " ورسالة في " **تفضيل العسل على السكر**" ، كما أنه درس كتاب القانون لابن سينا وعالج به من قبل[3].

ولم يكن الطب في هذه الفترة حكرا على العرب بل شاركهم فيه اليهود، فنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر يونس بن إسحاق بن بكلارش [4]كان من كبار علماء الأندلس في الطب وله خبرة كبيرة وعناية فائقة في بالأدوية المفردة ألف فيها مؤلفات نفيسة، وخدم في صناعة الطب بدولة بني هود، وكان ماهرا في معرفة الأدوية وتركيبها، وقد ألف كتابا على هيئة جداول تضم أسماء الأدوية المفردة[5]، وبذكر ابن بكلارش نذكر صاحب ملّته مروان بن جناح اليهودي السرقسطي (ت441هـ/1049م) الذي برع في علم الصيدلة وكانت له عناية بالأدوية المفردة، فألف فيها كتابا حسنا سماه "التلخيص" بيّن فيه المقادير

---

[1]- ابن بسام:المصدر السابق، ق2، مج1، ص 220.

[2]- ابن أبي أصيبعة:المصدر السابق، ص ص 517-518.

[3]- إيمان بديع عبد ربه: الصيدلة في التاريخ الإسلامي، من موقعwww.naseemalsham.com الإلكتروني، ص 26؛ عبد السلام محمد النويهي: المرجع السابق، ص 173.

[4]- كان يهوديا من أكابر علماء الأندلس في صناعة الطب وله خبرة واعتناء بالغ بالأدوية المفردة وخدم بصناعة الطب بني هود، وله من الكتب كتاب المجدولة في صناعة الادوية المفردة وضعه مجدولا ألفة بمدينة المرية للمستعين بالله أبي جعفر أحمد بن المؤتمن بن هود.ينظر ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 501.

[5]- ابن أبي أصيبعة: نفسه، ص 501؛ البشري: المرجع السابق، ص 555.

التي يجب مراعاتها في صناعة الأدوية[1]، ومنهم كذلك إسحاق بن قسطار (ت 448هـ/ 1056م) خادم مجاهد العامري وابنه علي إقبال الدولة الذي كان بصيرا بأصول الطب مشاركا في عدد من العلوم[2].

ومن برع في الطب أبو بكر يحي المعروف بابن الخياط (ت 447هـ/1055م) وكان دقيق العلاج[3]، فالعبارة الأخيرة توحي بأن هذا العالم متمّرسا في الطب تمرّسا جعله يشخص المرض بدقة ويصف له الدواء المناسب، وفي مرسية كان أبو عبد الله محمد بن عبد الله البجّائي المعروف بابن النبّاش وقد نقل عنه أبن صاعد أنه كان معتنيا بصناعة الطبّ منتصبا لعلاج المرضى ذو معرفة جيدة بالعلم الطبيعي[4].

وفي طليطلة أيضا عاش الوزير أبو المطرّف عبد الرحمن بن عبد الكبير بن يحي بن وافد اللخمي (ت بعد 460هـ/ بعد 1068م) قرأ كتب جالينوس وأرسطوا وغيرهم من الفلاسفة، وكان ماهرا في علم الأدوية المفردة تعمّق فيها حتى ضبط منها ما لم يضبطه غيره في عصره، وألف فيها كتابا جليلا لا نظير له جمع فيه ماتضمنه كتاب ديوسقوريدوس وكتاب جالينوس من الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب، وكتب فيه أسماء الأدوية وخصائصها، وفصل قواها وحدّد درجاتها، واستغرق ذلك منه عشرين سنة، وله في الطب رأي فريد فهو يرى أن تقديم الأغذية في التداوي أو ما كان قريبا منها على الأدوية ما كان ذلك ممكنا أولى، فإذا تحتم التداوي بالأدوية قدمت المفردة منها على المركبة، فإذا تحتّم التداوي بالمركب عمد إلى الأقل تركيبا منها، وقد سلك ابن وافد هذا المسلك في مداواة المرضى من أجل تفادي الأعراض الجانبية للأوية المفردة والمركبة ، ونقل عنه علاجه وإبرائه من العلل الصعبة والأمراض المخوفة بأيسر العلاج، وقد وصفه المقري بأنه كان آية الله في الطب[5].

ويوحي الوصف الذي وصفه به المقري بأنه كان متفوّقا في صناعة الأدوية المفردة، وهو إلى جانب ذلك طبيب من أطباء العيون وقد ألف في ذلك كتابه " تدقيق النظر في علل حاسة البصر"، وقد بلغ من اهتمامه بالأعشاب والنباتات الطبية أن استأذن المأمون بن ذي النون في إنشاء حديقة تشتمل على جميع أنواع النباتات حتى يتسنى له دراستها عن كثب والتعرف على خصائها العلاجية[6].

1- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 8

2- ابن صاعد: المصدر نفسه، ص 89؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 339.

3- ابن صاعد:المصدر السابق، ص 86.

4- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 497؛ البشري: المرجع السابق، ص 574.

5- ابن صاعد: المصدر السابق، ص ص 83-84؛ المقري: المصدر السابق، ج3، ص 377؛ ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 496؛ أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص 367

6- البشري: المرجع السابق، ص 558.

وقد اعترف له أهل زمانه بإمامته، وتقدمه على غيره في علم الطب والأدوية المفردة، وصحة نظره في ذلك ونجاعة علاجاته، وقد انتفع من بعده بمؤلفه[1]، ويخبرنا سعد البشري بأنه قد اطلع على النسخة المخطوطة من كتاب " الوساد" لابن وافد في مكتبة االإسكوريال، فوجد بأنّ مؤلفه قد بدأ فيه بعرض الأدهان والأشربة المفيدة في تجميل وعلاج الأسنان ، وعندما تحدث عن الشعر وصف له دواء يصيره أسود وآخر يعالج تساقطه ثم ينتقل إلى الحديث عن الدماغ ويذكر الأدوية المقوية له والشافية لأوجاعه، ولا يكتفي بوصفة واحدة لهذه الأمراض بل يضع عدة وصفات[2]، وتوحي الأدوية التي تضمنها كتاب "**الوساد**" بأن الطب وعلم الصيدلة الأندلسيين في عصر الطوائف قد ولجا باب التخصص، فظهر عندهم طب الأسنان والطب الذي يعالج مشاكل الشعر وطب الدماغ واخترع الصيادلة الأدوية والأشربة والمراهم التي تعالج هذه الأمراض، وقد تعمق ابن وافد(ت 467هـ/1074م) في صناعة الأدوية حتى صار يميّز بين ما يصلح منها في زمن ولا يصلح في زمن آخر، فوصف أدوية شتوية، وأدوية صيفية ، كما تحدث في كتابه الوساد عن الأمراض والأوجاع التي تصيب العين وتتسبب في ضعف البصر، فيصف لكل داء من هذه الأدواء العلاج المناسب أو الكحل الملائم وتحدث عن الضمّادات ، وكان كثير الاعتماد في على ماء الورد في علاج العين، وقد أشار في هذا الكتاب كذلك إلى الأمراض التي تصيب الشرايين[3].

وقد تتبع البشري كتاب "الوساد" فوجد بأن ابن وافد(ت 467هـ/1074م) قد تحدث عن أمراض اللثة والفم والأذن والأنف الحنجرة وبعض الأمراض النفسية التي تصيب الإنسان كالاكتئاب والهم والفزع والقلق كما تطرق إلى العلاجات التي تعالج بها أمراض المعدة والكبد والطحال والأحشاء وطرق معالجة أمراض الكلى والمثانة وسلس البول، وكيفية تفتيت الحصى، ويصف لها دواء مركبا ثم ينتقل إلى الأمراض التي تصيب مؤخرة الإنسان، فيذكرها ثم يصف الدواء الناسب لكل حالة ثم يعرج على الأمراض التي تصيب الجهاز التناسلي عند الرجل والمرأة، ثم الأمراض الجلدية، ثم يختم كتابه بالحديث عن كيفية صناعة الأشربة ووالمعاجن من الفواكه المختلفة والبذور[4]، فالناظر في هذا الكتاب يجد بأن ابن وافد(ت 467هـ/1074م) قد ذكر فيه تقريبا جميع الأمراض التي تصيب الإنسان وذكر علاجاتها وهذا إن دل على شيء فإنما يدل على تطور علمي الطب والصيدلة في عصر الطوائف تطورا مذهلا، بل إن كتاب الوساد كما يقدمه فرانشيسكوا فرانكوا سانشث هو عبارة عن بسط لفن الصيدلة ابتدأ فيه صاحبة بصفة متدرجة من الأدوية الخاصة بالرأس وصولا إلى الرجلين، وهذا العمل ينم عن معرفة عميقة بالطب اليوناني

[1]- القاضي عياض بن موسى اليحصبي: ترتيب المدارك، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج2، ص 259.

[2]- البشري: المرجع السابق، ص ص 561-562.

[3]- البشري: نفسه، ص 562.

[4]- البشري: نفسه، ص 563.

القديم، والطب الكلاسيكي الشرقي كما يكشف عن تجربة كبيرة في استعمال بعض الأدوية المركّزة في نباتات من شبه الجزيرة الأيبيرية، فجميع هذه المعارف كانت معروفة جدا في الأندلس في هذه الفترة[1].

وكان ابن وافد من الصيادلة المجربين الذين يقومون باختبار النباتات في أوساط بيئية مختلفة فقد اختبر عددا منها في الحمامات لمعرفة مدى تأقلمها أو تبلّدها، وبناء على ذلك يتم تحديد طبيعة الدواء الذي سيستخرج منها، وقيّد كل ملاحظاته في هذا الشأن في مؤلف يقع في خانة " **علم الحمّامّات**"[2]، وبذلك يكون علم الصيدلة قد دخل مع ابن وافد مرحلة مهمة من مراحله، وهي مرحلة تطبيق المنهج التجريبي على النباتات الذي يعتمد على التجربة وملاحظة نتائجها، وهو إلى جانب ذلك معالج جيد يعالج بالحمامات والينابيع الطبيعية[3].

ولم يكن الطب حكرا على الرجال بل تمرس فيه عدد من الساء وسأكتفي بذكر طبيبة ماهرة نبغت إلى جانب الطب في عدد من العلوم، ويتعلق الأمر بجارية أبي عبد الله المتطبب التي اشتراها حاكم بني رزين صاحب السهلة، فقد كانت متقنة للطب عارفة بتشريح الأعضاء[4].

ومن الصيادلة المرموقين الذين أنجبتهم الأندلس في هذه الفترة وكانت لهم عناية فائقة بصناعة الأدوية المفردة ومعرفة راسخة بالنباتات والأعشاب التي تستخلص منها الجغرافي الشهير أبو عبيد البكري (ت 487هـ/1094م)، وهو من أسرة أخذت بطرف من الملك في عصر الطوائف[5] فهو يفوق غيره في معرفة الأدوية المفردة وقواها ومنافعها وأسمائها ونعوتها وكل ما يتعلق بها، وقد ألف كتابا جليلا في ذلك[6].

ومن الأطباء البارزين كذلك في طليطلة أبو العرب يوسف بن محمد (ت بعد 430هـ/بعد1039م) وصفه ابن صاعد بأنه أحد المتحققين بصناعة الطب الراسخين في علمه وينقل عن ابن وافد الطبيب والصيدلاني المتميز أن أبا العرب كان عارفا بأصول الطب وفروعه يحسن التصرّف في أنواعه، كما أنه أي ابن وافه سمع بالأندلس من العارفين بالطب من يقول لم يكن أحد بعد محمد بن

---

[1]- فرانشيسكو فرانكو سانشث: تطور الطب في الأندلس، تعريب جمعة شيخة – الشاذلي النفطي، المجلة العربية للثقافة، مج14، ع27، سبتمبر 1994، ص193.

[2]- فرانشيسكو: المرجع نفسه، ص193

[3]- عبد الحميد حسين أحمد السامرائي: الصناعات الدوائية الأندلسية، مجلة سر من رآى، مج4، ع11، س4، 2008، ص 144.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 112؛ حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 476.

[5]- ترجمة البكري: سير أعلام النبلاء: ج19، ص35-36، رقم الترجمة 22؛ الصلة: ج1، ص 376، رقم الترجمة 632؛ المغرب ، ج1، ص ص 347-348، رقم الترجمة 249.

[6]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 500؛ البشري: المرجع السابق، ص 547 ؛ فريد جحا: المرجع السابق، ص 352، 354.

عبدون يوازي أبا العرب في قيامه بصناعة الطب ونفوذه فيه غير أنه غلب عليه الخمر في آخر أيام حياته فقلما يكون مفيقا من سكره فحرم الناس من الانتفاع بعلمه[1].

وقبل أن نغادر مملكة طليطلة لا بد من ذكر الطبيب أبو عثمان سعيد بن محمد بن البغونش الطليطلي (ت 444هـ/ 1052م) طلب العلم في قرطبة، فدرس الطب على يد ثلة من البارزين في الطب بها أمثال محمد بن عبدون الجبلي وسليمان بن جلجل وابن الشناعة وغيرهم، كما درس الهندسة والحساب، ثم عاد إلى طليطلة واتصل بإسماعيل بن ذي النون وكان من مدبري دولته ثم لزم داره وترك قراءة العلوم وأقبل على القرآن له كتب في الفلسفة والمنطق ثم ترك ذلك وأقبل على كتب جالينوس جمعا ودراسة وتصحيحا[2].

لقد عرف القرنان الحادي عشر والثاني عشر الميلادي إزدهارا لا مثيل له في الطب والصيدلة حتى سماه م. مايرهوف العصر الذهبي للصيدلة في اسبانيا[3]، وبرأي البعض فإن كتاب **عمدة الطبيب في معرفة النبات لكل لبيب** يمثل أرقى ما وصل إليه الأندلسيون في علمي النبات والصيدلة[4].

وسيأتي معنا عندما نذكر العلماء الموسوعيين تحت عنوان العلوم أن العلامة أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت الذي ولد في دانية عام 460هـ/1068م قد نبغ الطب وبلغ مبلغا فاق فيه غيره[5]، كما أنه كان صيدليا متمكنا عارفا بالأدوية المفردة يشهد بمعرفته لها مؤلفه المسمى "**الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية**"[6]، وقد نسب إليه أحد الباحثين دهنا يستعمل في علاج أوجاع المفاصل وسبعة عقاقير أخرى تستعمل في علاج أمراض مختلفة[7].

وعلى الرغم من أن الطبيب والجراح الكبير أبو القاسم الزهراوي قد توفي في مستهل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي (404هـ/1013م، إلا أن أثره في علم الطب قد ظهر جليا ، فقد أحدث ثورة في علم الطب ونقله نقلة غير مسبوقة عندما اقتحم عالم الجراحة والتشريح، وقام باختراع الكثير من أدواتها التي لا تزال مستعملة في المستشفيات حتى هذه اللحظة، وكتب في الطب كتابه الشهير **التصريف من عجز عن التأليف**" الذي ترجم إلى لغات أخرى وكان المعوّل عليه في المقررات الدراسية في

---

[1]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص ص 82-83؛ البشري: المرجع السابق، ص 555.

[2]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 83؛ ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ص 495-496؛ البشري: المرجع السابق، ص 556-557.

[3]- فرانشيسكو فرانكو سانشث :المرجع السابق، ص 193.

[4]- عبد الحميد حسين أحمد السامرائي: المرجع السابق، ص 135.

[5]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ص 501-502.

[6]- ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ص 514-515؛سيد حسين نصر:المرجع السابق ، ص 162.

[7]- آمنة حميد حمزة الجوراني : الصيادلة والعشابون في الأندلس، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، بغداد،2007 ، ص 323، 327.

الجامعات الغربية لزمن طويل، وقد خصص قسما من هذا الكتاب للجراحة والتشريح وفي الكتاب نفسه خصّص قسما للصيدلة ضمّنه كل الأدوية المرتبطة بالعلاج والشفاء الجراحي[1].

ولو مضينا في تتبع المشتغلين بالطب والصيدلة بالأندلس في عصر الطوائف فلن تتسع أوراق هذا البحث لهم لكثرتهم واشتهارهم لذلك فضّلت الاكتفاء بمن تم ذكرهم وهذا العدد المذكور قد خلف لدينا انطباعا مفاده أن الطب والصيدلة في عصر الطوائف قد ازدهرا ازدهارا كبيرا ولم يتأثرا سلبا بالصراعات العسكرية الدائرة في الأندلس في هذه الحقبة بل نستطيع القول بأن هذه الصراعات قد تركت أثرا إيجابيا على هذين العلمين تمثل في إرغام بعض هؤلاء الأطباء على مغادرة الأماكن التي ولدوا وترعرعوا فيها والانتقال إلى أماكن أخرى كان لهم الفضل في إحداث نهضة طبية وصيدلانية بها، كما يمكننا الجزم بأن أغلب العلماء الذين كانت لهم عناية بعلم النبات يملكون معرفة طبية وصيدلانية، فالذي يعرف أنواع النباتات يعرف بطول الممارسة والتجربة خواصها الطبية والعلاجية والغذائية، وهذا ما أثبته محمد العربي الخطابي لأبي الخير الأشبيلي استنتاجا بعد تأمّله لفصول كتابه "**عمدة الطبيب في معرفة النبات**" حيث قال: " **فتبين لي من خلال تأمل موادّه وفصوله أنّ مؤلفه يجمع بين الاطلاع على مسائل اللغة ومظانها والمعرفة الواسعة بشؤون الفلاحة والغراسة مع المزاولة الفعلية لهما ، بالإضافة إلى معارفة الطبية والصيدلية وتمرّسه بمعاينة الأعشاب في منابتها الطبيعية ومقارنة أعيانها والدقة في التفريق بين مختلف أجناسه**..."[2] وهذا الكتاب كما يفهم من عنوانه وضعه صاحبه ليكون مرجعا يرجع إليه الطبيب للتعرّف على النباتات العلاجية وما تعالج به من أمراض، وهذه المعرفة التي اجتمعت لأبي الخير صرح في ثنايا كتابه أنّه تعلمها من الشيخ أبي الحسن علي بن عبد الرحمن الساعدي الأنصاري الشهير بابن اللونقة(ت 498هـ/1105م)[3]، وأنه كان كذلك على صلة وثيقة بابن بصّال، وهذا الكلام يتردد عند الحديث عن كل مهتم بالفلاحة والغراسة والنبات.

وممن تأثر بالصراعات العسكرية، وأجبر بسببها على مغادرة بلدته ابن بصال، فقد أجبر بعد استيلاء النصارى على طليطلة على ترك بستان ابن ذي النون الذي كان مختبرا حقيقيا يختبر فيه النباتات، ويتعرف على خواصها مع ابن وافد وغيره من علماء النبات الذين اجتمعوا بطليطلة في هذه الفترة ، ولكنه وجد ضالّته بعد انتقاله إلى اشبيلية في بساتين المعتمد بن عباد فزاول المهنة نفسها هناك، أما ابن اللونقة فقد ألجأته الحرب إلى قرطبة وتوفي بها[4].

---

[1]- كمال السامرائي: المرجع السابق ، ج2، ص 163؛ فرانشيسكو: المرجع السابق، ص ص 195-197.

[2]- أبو الخير الأشبيلي: المصدر السابق، ص 18.

[3]- لم أعثر له على ترجمة في كتب التراجم التي وقعت تحت يدي.

[4]- أبو الخير الاشبيلي: المصدر السابق، ج1، ص18.

ويبدوا أن التنافس بين ملوك الطوائف في استقطاب جهابذة العلم في مختلف التخصصات في عصر الطوائف وتشجيعهم على البحث والاجتهاد لإحراز السبق في ميدان الاكتشافات العلمية قد أحدث نهضة علمية هائلة في كافة حقول المعرفة ومنها الطب والصيدلة[1]، فالصراع العسكري تولد عنه تنافس في عدد من المجالات توج بازدهارها.

لقد أصبح الطب في الأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر أكثر تنظيما ومصداقية وصار إجباريا على كل من يريد امتهان الطب أن يخضع لامتحان في هذا المجال لاختبار معارفه ومهاراته وتقرير ما إذا كان هذا الشخص أو ذاك جديرا بممارسة هذه المهنة الشريفة والخطيرة في آن واحد[2].

ويقر الباحثون في التاريخ الأندلسي أن اسبانيا المسلمة وفي طليطلة وأشبيلية ومنذ القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي ظهرت أوائل حدائق النبات الملكية التي كانت حدائق للتجارب والدراسة وحوت أقدم النباتات المجلوبة من الشرقين الأدنى والأوسط، وكان على العالم المسيحي أن ينتظر حتى منتصف القرن السادس عشر الميلادي لينشئ حدائق مماثلة في المدن الجامعية الإيطالية، وكان المأمون بن ذي النون من أكثر الحكام ولعا بكل ما له علاقة بالزراعة والنبات، فجلب علماء النبات والأطباء إلى حديقته التي جلبت إليها النباتات من جميع أنحاء العالم ، وشجعهم على دراسة النباتات دراسة علمية، فازدهر بذلك علم الصيدلة ازدهارا لم يعرفه أي قطر آخر في العالم آنذاك[3].

---

[1]- أنظر بشأن اهتمام المأمون بالعلماء في مختلف التخصصات وتشجيعهم على الإبداع والإكتشاف، وتوفير الإمكانيات الضرورية لذلك عادل محمد علي الشيخ حسين: المرجع السابق، ص 326.

[2]- فرانشيسكو: المرجع السابق، ص 201.

[3]- فريد جحا: المرجع السابق، ص ص326-327، 365.

الفصل الثالث : الآثار الثقافية للصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف

المبحث الأول: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة المعرفية

المطلب الأول: أثر الصراعات العسكرية على الحياة العقلية

المطلب الثاني: العلوم وحركة التأليف والترجمة

المطلب الثالث: أثر الصراعات العسكرية على الحياة التربوية

المبحث الثاني: أثر الصراعات العسكرية على الحياة الأدبية والفنية

المطلب الأول: الحياة الأدبية

المطلب الثاني: الحياة الفنية

المبحث الأول: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة المعرفية

يتضمن هذا المبحث الحديث عن الحياة العقلية والأدبية والفنية في عصر ملوك الطوائف ومدى تأثرها بالصراعات العسكرية التي طبعت هذا القرن.

المطلب الأول:أثر الصراعات العسكري على الحياة العقلية

الفرع الأول: الأديان والمذاهب : بخصوص الأديان، فقد اجتمع بالأندلس في هذه الفترة التاريخية ثلاث ملل وهي الإسلام، وهو الدين الذي يدين به المسلمون الذين يعيشون في الأندلس، واليهودية وهي ديانة الكثير من السكان الأصليين الذين سكنوا طليطلة وقرطبة، وسرقسطة، وغيرها من المدن الأندلسية، والنصرانية وهي دين النصارى في الشمال في ممالك قشتالة وليون وأراغون وبرشلونة ودين النصارى الذين يعيشون في كنف دويلات الطوائف[1]، وقد تعلم أغلبهم العربية فصاروا يعرفون بالمستعربين[2]، ويطلق عليهم لفظ أهل الذمة، وقد حرر ابن الحزم الذي عاش في هذه الفترة العديد من الرسائل في الرد على أباطيلهم ونقض عقائدهم، كما ناظر بعض علماء اليهود علنا وقد فصلت ذلك عندما تحدثت عن ابن حزم كمؤسس لعلم مقارنة الأديان وكذا علم المناظرة أثناء حديثي عن العلوم، والمتتبع للمسائل التي أجاب فيها ابن حزم على ترّهات ابن النغريلة يدرك عقائدهم في هذه المسائل[3].

والفرق بين هذه الأديان الثلاثة سواء على مستوى الشرائع أو على مستوى العقائد مبسوط في مظانه، وفيما يتعلق بالمسيحية فالمذهب السائد في الأندلس إبان عصر الطوائف هو المذهب الكاثوليكي، وعقائد االكاثوليك يمكن الإطلاع عليها في الكتب المتخصصة ببيان الأديان والعقائد وهي كثيرة[4].

أما على صعيد المذاهب الفقهية الإسلامية، فهناك المذهب المالكي السني وهو مذهب عموم الأندلسيين، فقد تعلق أهل الأندلس به وقدموه على غيره من المذاهب حتى قال المقري " ولا مذهب لهم إلا مذهب مالك " [5]، وقال محمود علي مكي " ولعل التاريخ الإسلامي لم يعرف بلدا كانت المالكية فيه

---

[1]- عدنان صالح عبد الله العمودي: المرجع السابق، ص 39.

[2]- يرى بعض الباحثين بأن أعدادا كبيرة من نصارى الأندلس قد استعربوا ثقافيا ابتداء من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أي شاع استعمال اللغة والتقاليد العربية في أوساطهم، بدليل أن هذه التسمية أطلقت عليهم في هذا القرن وليس قبله.ينظر محمد الأمين ولد أن: النصارى واليهود من سقوط الدولة الأموية إلى نهاية المرابطين، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي غير منشورة، جامعة وهران، قسم التاريخ وعلم الآثار، 2012-2013، ص 13.

[3]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 47، 48، 50، 51، 52، 54، 55، 57، 61، 64، 66-70.

[4]- عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص92.

[5]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 221.

عصب الحياة كما عرف ذلك في المغرب والأندلس"[1]، بل إن مكّي في التقديم الذي وضعه للوثائق الثلاثة في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس المستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى لابن سهل أشار إلى أنّ المسلمين الأندلسيين في جميع مراحل وجودهم بالأندلس كانوا يدينون بمذهب فقهي واحد لم يعدلوا عنه أبدا هو المذهب المالكي[2]، حتى سكان الجزائر الشرقية التي تبدوا جغرافيا منفصلة عن الأندلس تعلق حكامها مثل سكانها بهذا المذهب، وهذا ما جعل الحكام يكرمون علماءه[3]، وقد جانب مكّي في ذلك الصواب فإن الأندلسيين كانوا على مذهب الاوزاعي حتى زمن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل[4].

وقد ساعد على رسوخ هذا المذهب المالكي بالأندلس في عصر الطوائف دفاع الفقهاء عنه فكريا من خلال إنتاجهم الضخم لعدد كبير من المؤلفات التي تشرحه داخل الأندلس، وتصنع لع القبول، والتمكين، والرسوخ أكثر في نفوس الناس وعقولهم بل تم ذلك حتى خارج الأندلس من خلال مؤلفات ذات صيتها وسمع بها القاصي والداني،كما عمل الفقهاء في القرن الخامس على إخراج الفقه المالكي من دائرته النظرية إلى دائرة العمل والتطبيق، أي مكّنوه من القيام بمهمته الاجتماعية بذلك أصبحت حياة الأندلسي مؤطرة بأحكام الفقه المالكي وزاد احتكاكهم به، فزاد تعلقهم وتمسكهم به دون غيره[5].

هذا عن المذهب الرسمي لدويلات الطوائف وعموم الشعب الأندلسي أما الخواص من العلماء، فكانوا إلى جانب تعلقهم بالمذهب المالكي يحفظون من سائر المذاهب السنية ما يباحثون به ملوكهم العلماء في مجالسهم[6]، وهذا لا يعني أن الأندلس لا يوجد فيها مذاهب فقهية أخرى، فهناك المذهب الظاهري، ويعرف بالمذهب الحزمي لأن ابن حزم له طريقة خاصة في التعاطي مع علوم الدين، فقد حظى هذا المذهب بأتباع ومؤيدين في الأندلس في هذه الفترة، وخاصة في جزر البليار كجزيرة ميورقة التي بذكرها نذكر الحميدي الميورقي(ت 488هـ/1095م) الذي كان ظاهريا، كما أن الحافظ أبي عمر بن عبد البر كان ظاهريا في البداية ثم صار مالكيا مع ميله إلى فقه الشافعي في مسائل[7].

---

[1]- يحي بن عمر الأندلسي: نص جديد في الحسبة من كتاب أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج4، ع1-2، 1956، ص ص 59-60.

[2]- ابن سهل أبو الأصبغ عيسى الأندلسي: ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة وتقديم محمود علي مكي – مصطفى كامل اسماعيل، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة، ط1، 1981، ص 5.

[3]- عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص 174.

[4]- المقري: االمصدر السابق، مج3، ص 230.

[5]- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 172.

[6]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص221.

[7]- المقري : المصدر نفسه، مج2، ص 113؛ الذهبي: المصدر السابق، ج18، الطبقة 24 ، 25، ص 157.

وقد عانى الظاهرية في عصر ملوك الطوائف من تحرش فقهاء المالكية بهم وعلى رأسهم عميد المذهب في عصره ابن حزم، ويرى خوليان ريبيرا أن المذهب المالكي في عصر ملوك الطوائف قد بدأ في التراجع أمام المذهب الظاهري الذي بدا مقنعا ومتناغما مع روح العصر ومسايرا للمستجدات، وكان بالإمكان أن يحلّ محلّ المذهب المالكي لولا جواز المرابطين إلى الأندلس الذين وجدوا ضالتهم في فقهاء المالكية، فقربوهم وأبعدوا غيرهم[1].

ويشير أمحمد بن عبود إلى حضور المذهب الحنفي والحنبلي بالأندلس خلال القرن الهجري الحادي عشر الميلادي من خلال أتباع لم تبلغ أعدادهم حدا يمكنهم من منافسة المذهب المالكي[2]، كما شهد المذهب الشافعي حظورا محتشما إذ كان له أتباع في ربوع الأندلس لكنهم قليلون ومنهم ابن حزم قبل الانصراف إلى الظاهرية[3].

هذا عن سكان الأندلس أما الوافدون عليه من البلدان الإسلامية المختلفة من أتباع المذاهب السنية المعروفة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي لأسباب متعددة، فنذكر منهم عبد الرحمن بن محمد بن خالد بن مجاهد الرقي ويكنى أبا عمر قدم إلى الأندلس سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة وكان حنفي المذهب[4]، وقبله بعام قدم التاجر عيسى بن محمد بن هارون بن عتاب النسفي الأستاذ ويكنى أبا موسى، ونزل بإشبيلية مع ابنه محمد وكان حنفي المذهب كذلك[5]، وفي سنة 424هـ/1033م قدم للتجارة كذلك أيوب بن نصر بن علي بن المبارك الشامي المقدسي وكنينته أبو العلاء وكان شافعي المذهب[6]، ودخل زيد بن حبيب بن سلامة القضاعي الأندلس سنة ثلاث وثلاثين وأربعمائة وكان شافعي المذهب كذلك[7].

وإلى جانب هذه المذاهب السنية يوجد المذهب الشيعي الذي ينسب إلى الحموديين والصنهاجيين[8]، وتبعهم في ذلك الناس من مختلف طبقات المجتمع كالشاعر أبي عبد الله بن الحناط وغيره[9].

---

[1]- خوليان ريبيرا: المرجع السابق، ص 31.

[2]- أمحمد بن عبود:التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص 127.

[3]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 215.

[4]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 450، رقم الترجمة 757.

[5]- ابن بشكوال: المصدر نفسه، مج2، ص ص 59-60، رقم الترجمة 948.

[6]- ابن بشكوال: نفسه، مج1 ص 172، رقم الترجمة 269.

[7]- ابن بشكوال: نفسه، مج1 ، ص 267، رقم الترجمة 438.

[8]- هشام فوزي عبد العزيز: المرجع السابق، ص47؛ نجيب زبيب: المرجع السابق، ص 211

[9]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 486؛ فاضل فتحي محمد والي: المرجع السابق، ص 133؛ إحسان عباس: المرجع السابق، ص 135؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص 164.

ولم تخل الأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي من أتباع المذهب الإباضي فابن الخطيب يذكر بأن سكان قرمونة كانوا على المذهب الإباضي، وكان زعيمهم محمد بن عبد الله البرزالي وابنه اسحاق يجهران بذلك،كما تذكر سحر السيد عبد العزيز سالم بأن قبيلة مورور البربرية كانت على المذهب الإباضي كذلك[1].

غير أن هذه المذاهب لم يقدر لها أن تنتشر وإن تتلمذ على علمائها الوافدين إلى الأندلس بعض طلبة العلم[2]، لأن هؤلاء كغيرهم لا يسمح لهم بنشر مذاهب فقهية مخالفة للمذهب المالكي لأن البيئة الأندلسية كانت شديدة الحساسية من المذاهب والتيارات الوافدة.

أما المذاهب العقدية فلدينا المذهب الأشعري وهو مذهب أغلب الأندلسيين ، إذ توحي بعض العبارات التي وردت في الرسائل التي تبادلها ابن عبد البر الأندلسي مع بعض الفضلاء والأصدقاء بسيطرة المذهب الأشعري في مجال العقيدة[3].

كما توجد مذاهب عقدية أخرى فابن حزم في كتابه " الفصل في الملل" يشير إلى وجود خوارج، ومعتزلة، ومرجئة، وملحدين ينكرون وجود الله وينكرون النبوة أيضا ويقولون "بتكافؤ الأدلة" يقصدون بذلك استحالة البرهنة على وجود الله تعالى والأنبياء أو صحة أي دين[4].

وفي معرض كلام ابن حزم عن علم الكلام الذي لم يلق ترحيبا في الغرب الإسلامي عموما- رغم حضوره في عصر الطوائف- ذكر أن نفرا من المتكلمين بالأندلس في القرن الخامس الهجري يذهبون إلى الاعتزال[5]، أي يعتقدون في صاحب الكبيرة بأنه ليس مؤمنا ولا كافرا بل في مرتبة بين المرتبتين[6]، فهذا مذهب من المذاهب العقدية التي كان لها أتباع في الأندلس، في هذه الفترة رغم قلتهم، ويعد ابراهيم بن سيار النظام رأسهم وزعيمهم.

---

[1]- ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ج2، ق2، ص 215؛ سحر السيد عبد العزيز سالم: المرجع السابق، ص 380؛ حمدي عبد المنعم محمد حسين: المرجع السابق، ص 5؛ عنان: المرجع السابق، ص 154.

[2]- سعد البشري: المرجع السابق، ص 268.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص194.

[4]- ماريا إيزابيل فييرو: الزندقة والبدع في الأندلس، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2، ص 1242.

[5]- ابن حزم: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، ج2، ص 186.

[6]- ابراهيم التهامي: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة، دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق سوريا- بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص 195.

وقد نشأت داخل المذهب الأشعري نفسه مذاهب عقدية جديدة نتيجة لاختلاف علمائها في النظر إلى مجموعة من المسائل التي تنتمي إلى هذا المجال، كمسألة النبوة، والمعجزة، وكرامات الأولياء، والزهد،والتصوف، وإمكانية اطلاع النبي محمد (ﷺ) على الغيب، وغيرها، وما حدث داخل الأشعرية حدث كذلك عند المعتزلة، وقد عالج ابن حزم نفسه هذه المسائل في كتابه "الفصل في الملل" وأدلى فيها بدلوه، وبين مذهبه فيها[1].

لقد أوردنا في فقرة سابقة عن ابن حزم وجود فرق مختلفة تنتمي إلى مذاهب عقدية شتى ونزيد هنا مذهب من تزندق كابن النغريلة الذي كان يظهر التهوّد ولكن ابن حزم رماه بالزندقة واتهمه باستبطان مذهب الدهريين[2]، أما دوزي فيتهمه بالإلحاد، وأنه لم يكن يؤمن بالأديان السماوية، فقد كان شديدالاحتقار لها[3].

وينسب إلى ابن حزم الاعتقاد بأن كلام الله مخلوق، وهو اعتقاد المعطلة، جاء ذلك في معرض مناقشته لعقيدة النصارى في المسيح، ومحاولة إثباته أن الكلام صفة من صفات الله تعالى، فوقع فيما أراد أن يخرج النصارى منه[4].

ويبدوا بأن فقهاء الملائكة كانوا يتهمون كل من يهتم بالعلوم القديمة بالزندقة وخاصة الفلسفة والتنجيم والمنطق والكيمياء، وبسبب ذلك اتهم الكثير من العلماء بهذه التهمة كابن الإفليلي (ت 441هـ/1049م)، وابن حزم الذي وجهوا إليه رسالة يشجبون فيها اشتغاله بالمنطق وبعض علوم الأوائل من الملحدين، وتسببت معاداته لهم وإصراره على دراسة المنطق في اضطهاده وإحراق كتبه، ومع ذلك فإن هذه العلوم حظيت باهتمام كبير لدى خواصهم لكنهم لا يتظاهرون بها خوفا من العامة التي كانت ترمي بالزندقة كل من يشكون في اشتغاله بها ومن ظبطه العامة متلبسا بمدارستها بادروا برجمه أو حرقه[5] مثل شيخه أبي الوليد هشام بن أحمد الوقشي (ت 489هـ/ 1096م)، ومعاصره الحناط الكفيف (ت 437هـ/ 1045م) ، وقد طال الإتهام بالزندقة والكفر الابتداع بعض أساطين المالكية كأبي الوليد الباجي (474هـ/1081م) الذي رماه فقهاء المالكية بالزندقة والكفر بسبب نقله لحديث المقاضاة الذي جاء فيه

[1]- ينظر بشأن ذلك ماريبيل فييرو: الجدل في كرامات الأولياء وتطور التصوف في الأندلس، تعريب مصطفى بنسباع، ضمن المغرب والأندلس دراسات وترجمات، تقديم وتنسيق مصطفى بنسباع، منشورات كلية كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تطوان، المغرب، ط1، 2010، ص ص 39-66.

[2]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص ص 42-43؛ ينظر بشأن الدهريين الشهرستاني: الملل والنحل، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1992، ج3، ص ص 651-653.

[3]- دوزي: المرجع السابق، ص 163؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403-483هـ، ص 152.

[4]- ابن حزم: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد ابراهيم نصر- عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996، ج1، ص 129؛ خالد بن ناصر بن سعيد الغامدي: المرجع السابق، ص 124.

[5]- المقري : المصدر السابق، مج1 ص 221؛ ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص 31؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1969، ص ص 30-31.

أن النبي – رغم كونه أميا– قد كتب يوم الحديبية[1]، أما ابن حاتم الطليطلي الذي عاش زمن المأمون بن ذي النون وكان من طائفة بني الحديدي التي كانت على علاقة بمجموعة من العلماء درسوا العلوم الإسلامية ثم تحول اهتمامهم إلى علوم الأوائل، فقد اتهم بالزندقة والإلحاد سنة 457هـ/1065م وحكم عليه بالموت، لكن ليس بسبب تعلقه بهذه العلوم وحسب، بل لأنه أنكر هذه المرة زهد النبي (ﷺ) الذي يشكل جانبا من سيرته التي تزايد الاهتمام بها في الأندلس في ظل انتشار الزهد والتصوف[2].

أما أبو عمر الطلمنكي (ت 428هـ/ 1037م) فقد اتهم بالابتداع واعتناق مبادئ شبيهة بمبادئ الخوارج ومخالفة السنة، فقام عليه طائفة من معارضيه وعددهم خمسة عشر فقيها، وشهدوا عليه بأنه حروري، فقدم إلى المحاكمة بسبب ذلك[3].

ولو دققنا النظر في كتابات الشعراء والكتاب لوجدنا بأن الكثير منهم يعتنق مذهبا من المذاهب العقدية المنحرفة التي وجد لها أتباع في كل فترة من فترات التاريخ الإسلامي، فهذا ابن اللبانة (ت507هـ/1113م) كتب بعد سجن المعتمد بن عباد في أغمات، أبياتا يصف فيها تقلب الدنيا يتضح للمدقق فيها أنه يعتنق مذهب الجبرية[4]، إذ يشبه الدهر في تلونه بالحرباء، وبأن الناس في يده كالشطرنج يتصرف فيها كما يشاء،فيفهم من كلامه أن الإنسان في هذه الحياة مسلوب الإرادة لا يختار أفعاله بل تختار له، ويجبر على أدائها[5].

وممن عاش في النصف الأول من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وكان متهما باعتناق مذهب ابن مسرة الذي يجمع بين بعض مبادئ المتصوفة، وبعض أصول الاعتزال، وآراء بعض فلاسفة اليونان في إثبات صفات الله تعالى إسماعيل بن عبد الله الرعيني الذي أحدث في مذهب ابن مسرة أقوالا سبعة، فتسبب ذلك في نفور أصحاب هذا المذهب منه وكفروه إلا قليل منهم، ومن عقائده القول ببعث الأرواح دون الأجساد وأن الحساب بعد الموت إنما يقع على الروح وحدها ثم تصير إلى الجنة أو النار وكان يعتقد كذلك بعدم فناء العالم ولا ينسب الفعل إلى الله بل ينزهه عن ذلك، ويرى بأن العرش هو الذي يدبر العالم، وأن النبوة يمكن أن تكتسب، وادعى معرفة منطق الطير، وتوقع ما سيحدث في المستقبل معتقدات أخرى وآراء غريبة خالف فيها أهل الإسلام، كما أنه أدعى النبوة وهذا ما جعل أتباعه يتخذونه

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج2، ص 68؛ ماريا إيزابيل فييرو: المرجع السابق، ص 1246؛ خالد بن ناصر بن سعيد الغامدي: المرجع السابق، ص ص 56-57.

[2]- ماريا إيزابيل فييرو: المرجع السابق، ص 1251؛ ماريبيل فييرو: المرجع السابق، ص 57.

[3]- الذهبي: المصدر السابق، ج17، ص 568.

[4]- بشأن الجبرية: ينظرالشهرستاني:المصدر السابق، ج1، ص 72.

[5]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 244.

إماما يطيعونه ويؤدون له زكاة أموالهم، وقد كفر المسلمين واستثنى منهم أصحابه ، كما أنه كان يقول بنكاح المتعة[1].

وفي الفترة نفسها أي القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كان محمد بن ابراهيم بن موسى المعروف بابن شق الليل (ت 455هـ/1063م) يعتقد بأن النبي إلياس عليه السلام والخضر كانا على قيد الحياة في عصره[2]، ومذهب ابن مقانا الأشبوني الذي لوى عنق الآية القرآنية، واستدل بها استدلالا قبيحا، وجعل لإدريس بن يحي الحمودي نورا يصدر من نور الله تعالى في قصيدة تسمى النونية[3].

والمتأمل لما كتبه أبو الأصبغ بن أرقم على ردا على ما يعتبره ابن سيده أخطاء وقع فيها أبو الأصبغ عند كتابته لرسالتين وجههما إلى مصر بأمر من علي بن مجاهد العامري نكتشف تنافر اللغويين في مسألة إثبات الصفات ونفيها، وهي مسألة عقدية خطيرة، ففي الوقت الذي يرى ابن سيدة بأن صفات الله توقيفية يرى أبو الأصبغ بأن الاعتماد على الاشتقاق اللغوي في إثبات صفات أخرى لله بصيغ لم ترد في القرآن جائز ويدافع أبوا الأصبغ عن هذا المذهب العقدي ويعتبره مذهب أهل السنة والجماعة ومن قال بخلافه فهو معتزلي ويظهر من كلام أبي الأصبغ أن مذهبه في هذه المسألة هو مذهب أغلب الأندلسيين[4].

وفي اشبيلية سجن المعتمد بن عباد أبا الحسن البغدادي المعروف بابن الفكيك[5] لأنه كان متهما بالإلحاد أو الزندقة، وعلى الرغم من أنه حاول أن يفنّد التهمة التي رُمي بها بآيات من القرآن ضمنها أبياتا حاول أن يستدر بها عطف المعتمد حتى يطلق سراحه إلا أنّه وقع في الشرك عندما رفع المعتمد في الأبيات نفسها إلى مرتبة من أرزاق العباد في يده[6]، وذكر ابن خاقان أن الأديب أبو جعفر بن البني اليعمري، كان ملحدا لا يعتقد الحشر، ولا يصدق بالبعث والنشر[7]، وشبيه به في الاعتقاد الفيلسوف الأديب أبو بكر بن باجّة الذي عاش بعض عمره في القرن الخامس الهجري (ت 533هـ/1139)، فقد أنكر وجود الله ورفض القرآن، ونفى الحساب، ونسب التأثير للكواكب وأن حياة الإنسان لا تختلف عن

[1]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 331؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 33، 37-38؛ ماريا إيزابيل فييرو: المرجع السابق، ص 1253؛ ماريبيل فييرو: المرجع السابق، ص 60.

[2]- ماريبيل فييرو: نفسه، ص 45.

[3]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص ص 26-27؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 214؛ أحمد مختار العبادي: المرجع السابق ، ص 260.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 374.

[5]- تنظر ترجمته عند ابن بسام: المصدر نفسه، ق4، مج1، ص 368.

[6]- فاضل فتحي محمد والي: المرجع السابق، ص ص 284 -285.

[7]- ابن خاقان: قلائد العقيان، م2، ج2، ق4، ص 868؛ ابن خاقان:المطمح، ص ص 369-370 أنظر ترجمته عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 357-358.

حياة النبات ينتهي عندما يكمل دورته، فهو ملحد ودهري وصابئي في آن واحد[1]، رغم محاولة البعض تفنيد هذه الإتهامات، واتهام ابن خاقان بالعمل على تشويه سمعة الرجل وتقويله ما لم يقل لأنه حرمه من العطاء، فلما أرسل إليه بالمال أثنى عليه ثناء حسنا في المطمح[2] فالله أعلم بحاله.

وعلى أية حال فلو قارنا الأندلس في هذه الفترة أو في غيرها من الفترات بغيرها من بلاد الإسلام، فسنجد بأنها لم تشهد سوى حالات قليلة من التعبئة المذهبية لذا يمكننا القول بأن التوترات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية والصراعات العسكرية قد فشلت في إنشاء حركات مذهبية وهذا لا يعني بأن الأندلس كانت في هذه الفترة خالية من الزنادقة والمبتدعين وأصحاب المذاهب الهدامة المنحرفة ولكن كان وجودهم قليلا[3]، وقد تمت ملاحقتهم من قبل الفقهاء والقضاة وقدموا للمحاكمة، فمنهم من تم إعدامه ومنهم من أضطهد حتى هاجر إلى مكان ما ثم أحرقت كتبه كابن حزم، لذلك كان المذهب المالكي هو السائد والمهيمن في الأندلس دائما على الصعيد الفقهي وعلى الصعيد العقائدي سادت الأشعرية التي يعتقد بعض الباحثين أنها دخلت الأندلس على الأرجح منذ القرن الخامس الهجري[4]، وابن حزم يعدهم من المرجئة، ويعتقد إحسان عباس إعتمادا على كلام ابن حزم أن هذا المذهب قد تراجع في أيامه[5].

لقد وقف فقهاء المالكية بالمرصاد أمام كل المذاهب الوافدة من المشرق وتم إلصاق تهمة الزندقة بكل من يأتي بشيء مخالف لمذهبهم. لقد ساهمت الصراعات العسكرية وحالة التوتر المستمرة في الأندلس خلال هذه الفترة في التفاف الشعب حول المذهب المالكي والتشبث به أكثر من أي وقت مضى لاعتبارهم إياه صمام الأمان الذي يحمي المجتمع[6]من التصدع المذهبي، فالكارثة كانت ستكون أعظم لو تسلل إلى المجتمع مذاهب أخرى لأن المجتمع حينئذ سيصاب بمرضين اثنين مرض الطائفية من جهة ومرض المذهبية من جهة أخرى، وهذا الانقسام المذهبي فضلا عن السياسي ستكون له آثاره المدمرة على المجتمع، إذ ستتغذي الحرب السياسية بالنزعة المذهبية وسيصيب الأندلس الآن ما أصاب المجتمعات الإسلامية التي تعددت فيها الطوائف الدينية فقد أصبح الاختلاف المذهبي ذريعة ومسوغا للقتل والإبادة.

---

[1]- ابن خاقان: قلائد العقيان، مج2، ج2، ق4، ص ص 931-932.ترجمته عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 119.

[2]- تنظر هذه الأقوال في مقدمة المحقق للمطمح، ص ص 41-43،44.

[3]- ماريا إيزابيل فييرو: المرجع السابق، ص 1253.

[4]- عبد المجيد تركي: مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي، ترجمة وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين، مراجعة محمد عبد الحليم محمود، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1986، ص 58.

[5]- ابن حزم: رسالة البيان عن حقيقة الإيمان، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج3، ص 193.

[6]- كارل بروكلمان: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس-منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1968، ص 300.

لقد كانت الصراعات العسكرية سببا في تحول بعض المسلمين عن دينهم، وممن فعل ذلك الفقيه أبو القاسم بن الخياط، فقد قرر بعد سقوط طليطلة في يد النصارى أن يترك الإسلام ويعتنق النصرانية فحلق رأسه وشد الزنار[1].

الفرع الثاني: التيارات والأفكار: سنشير هنا إلى مختلف التيارات والأفكار التي نبتت في رؤوس الأندلسيين في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي كالإمامة، التقليد والتجديد، الجمود، الأصالة، المعاصرة، والتصوف، الرد على اليهود والنصارى، الدعوة للمقاومة المد المسيحي، مقاومة البدع، معارضة الأنظمة الحاكمة وغيرها ...، فبخصوص مسألة الإمامة أو الخلافة ، ظهر بالأندلس بعد سقوط الخلافة الأموية تياران يقفان على طرفي تفيض، يحملان أفكارا متضادة، تيار يرى بأن الخلافة ليست حكرا على القرشيين، ولا يجب أن تنحصر فيهم،وآخر يرى بأنها لا تكون إلا فيهم، فممن مال إلى الرأي الأول محمد بن عبد الله البرزالي إذ يرى بأن الأمويين ليسوا أصحاب الأولية في ذلك، فالأولى أن يتولى حكم كل إقليم رئيس من أهلها، فهو بذلك يدعوا إلى عدم الالتفات إلى حديث : " الأمراء من قريش"[2] والخروج عما هو مألوف لدى المجتمع الأندلسي على الأقل[3]، والذي يظهر لي من كلام البرزالي أنه أراد أن يقطع الطريق أمام من يحنّون لعودة الخلافة الأموية في الأندلس، فقد وصف ابن حيان البرزالي بأنه من أشد المتحاملين على الخلافة الساعين لعدم عودتها[4].

ولأبي عمر الطلمنكي (ت 429هـ/1038م) رأي آخر في مسألة الإمامة، فهو يرى بأن الإمام أو الحاكم الذي يحكم المسلمين يجب أن يكون أفضلهم بغض النظر عن نسبه وكأنه هنا يعارض ما درج عليه المسلمون من أن الخلافة لا يجب أن تخرج من القرشيين، فقد تجتمع في غيرهم من الصفات ما يجعلهم أفضل منهم، وقد رجح البعض أن يكون المقصود بالأفضل هنا هو الطلمنكي نفسه لوجود أدلة تدل على أن أتباعه كانوا يعتبرونه إماما للجماعة[5].

---

[1]- الزنار: ما يشده المجوسي والنصراني على وسطه. ينظر ابن منظور الإفريقي: المصدر السابق، ج4، ص330؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 22؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 98.

[2]- ورد بهذا اللفظ عند أحمد في المسند، ج19، ص 318 تحت رقم 12307؛ وفي السنن الكبرى للبيهقي، بلفظ (الناس تبع لقريش في هذا الشأن مسلمهم تبع لمسلمهم وكافرهم تبع لكافرهم)كتاب قتال أهل البغي جماع أبواب الرعاة، باب الأئمة من قريش، ج8، ص 243 تحت رقم 16531 وبألفاظ أخرى وفي البخاري بلفظ " ألا إن هذا الأمر في قريش" البخاري :كتاب الاحكام، باب الأمراء من قريش"، ص 1764، رقم الحديث 7139.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 21.

[4]- عنان: المرجع السابق، ص 36.

[5]- ماريا إيزابيل فييرو: المرجع السابق، ص 1252.

وقد تبني إسماعيل بن ذي النون الرأي نفسه في مسألة توارث الأمويين للحكم إذ يرى عدم أحقيتهم في توريث الملك لأبنائهم، وأن تسليم الناس لهم بذلك كان بسبب إقناع قريش لهم بأن الحكم لا يجب أن يخرج منهم وعدّ ذلك أكذوبة اخترعها القرشيون لاستغلال الناس، واعتبر أنّ الأحق بالحكم من ظفر به بالقوة، وهذا لتبرير خروجه عن الجماعة واستقلاله بإقليم من أقاليمها بعد انقراض ملك العامريين بقرطبة[1].

أما ابن حزم فقد تبنى رأيا يخالف هؤلاء جميعا، فهو يرى بأن الأمويين في الأندلس هم أصحاب الحق الوحيدين والشرعيين لحكم الأندلس دون غيرهم، لأنهم قرشيون والإمامة لا تنبغي لغير القرشيين[2]، فهذه فكرة من الأفكار التي كان ابن حزم يناضل من أجلها في الأندلس في الحقل السياسي ناهيك عن الأفكار الأخرى التي ظهرت لديه في هذه الفترة والتي تنتمي إلى مجالات معرفية أخرى كالفقه، والمنطق، وغيره،والمطلع على كتاب " الفصل في الملل" لابن حزم يدرك حجم الأفكار التي ضخّها هذا المفكر فيه ، والتي تعبر عن مواقفه الفكرية من التيارات التي ضمنها كتابه وخاصة اليهودي ذو الأفكار المناهضة للقرآن والإسلام.

لقد كان للصراعات العسكرية التي تشبت بالأندلس خلال هذه الفترة والتي من نتائجها سقوط الخلافة وظهور دويلات الطوائف الأثر الواضح في نشوء الآراء المختلفة في مسألة الخلافة، ومن هو الأحق بها وحسب رأيي المتواضع فإن الصراعات العسكرية وحالة الفوضى العارمة قد شجعت أصحاب الآراء التي تنتمي إلى تيارات فكرية مختلفة على الظهور والإدلاء بدلوها في المسائل التي ناقشها ابن حزم في كتابه الملل، وبين وجهة نظره فيها ومنها تلك الأفكار الصادرة عن مفكري الديانتين اليهودية والنصرانية، والتي نالت حقها من النقد والرد.

أما بخصوص التيارات الفقهية، فبقليل من التأمل للجدل الحاد الذي دار بين ابن حزم الظاهري وفقهاء المالكية في عصر الطوائف ندرك بأن الطرفين ينتميان إلى تيارين يقفان على طرفي نقيض، فابن حزم ينتمي إلى التيار التجديدي الذي يعتمد على الاجتهاد المتواصل في العلوم الشرعية مستعينا بأفضل ما توصل إليه العقل البشري من العلوم والمناهج من أجل فهم أعمق لشرع الله تعالى، وقد اتخذ ابن حزم المنطق كأداة فعالة لإثبات الأحكام الشرعية كما أن دراسته للمنطق أكسبه عقلية علمية لا تعترف بالتسليم لآراء غيره من المجتهدين في ظنيّ الشريعة ولا تتبنى أدواتهم في التعرف على الحكم الشرعي في مظانّه، فكان من نتائج إعماله للمنطق كأداة جديدة في التعامل مع نصوص الوحي كثرة مصنفاته واهتداؤه

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص143، 144-145.

[2]- ابن عبود: جوانب، ص 182؛ ابن حزم: الفصل في الملل،ج4، ص 180.

إلى مناهج وطرق جديدة في معالجة النصوص وترتيب المادة العلمية وطرق الاستدلال والتمثيل، فكان عميقا فيما يطرحه ملتزما أقصى درجات الموضوعية أثناء دراسته للمسائل التي تعرض عليه[1].

أما التيار الثاني، فيمثله فقهاء المالكية بالأندلس وهو تيار تقليدي يعتمد أصحابه في الفتوى على آراء شيوخه المسجلة في المدونة والمستخرجة ولا يتجاوزونها إلى غيرها من الآراء التي تعالج مشاكل عصرهم، وهذا ما جعل المذهب المالكي يصاب بالجمود لاعتماده كلية على التقليد، وقد أكّد كلّ من الغبريني والونشريسي في حوار دار بينهما أنّه لم يكن بالمغرب كلّه في القرن الخامس مجتهد في الأحكام الشرعية مستقل فيها برأيه[2]، فيما يتبنى التيار الظاهري الاجتهاد ومواكبة التطورات الحاصلة في عصره وهذا ما جعل العلاقة بين التيارين في غاية التشنج ففي الوقت الذي يفتح المذهب الظاهري أمام العقل المسلم آفاقا رحبة للبحث والاجتهاد لإيجاد حلول للنوازل والمستجدات وتجديد الفقه بما يتناغم مع روع العصر وروح الشريعة نفسها يحلق المذهب المالكي دون هذه الآفاق، ويعطل حركة الفكر عندهم وهذا يعنى الوقوف أمام المسائل المستجدة موقف الحائر الذي لا يعرف المخرج.

لذلك اعتبرت هذه المرحلة من أسوإ مراحل المذهب المالكي وهذا ظاهر في جواب عبد الله بن إبراهيم ألأصيلي على سؤال من سأله عن صفة الفقيه المالكي عندهم بالأندلس فأخبره بأنه من يقرأ المدونة وربما المستخرجة فإذا حفظ هذه أو تلك أقبل على الفتوى فرد عليه السائل وهو شرقي بأن العلماء قد أطبقوا على أن من هذه صفته لا يجوز له أن يفتي[3].

يمكننا أن نصف التيار التقليدي الذي يتشبث بالماضي ويقف عند آخر ما أنتجه فقهاء المالكية القدامى من الآراء الفقهية بتيار الأصالة الذي يرى ضرورة التمسك بكل ما هو قديم وتمجيده وعدم الخروج عنه، ففقهاء المالكية في عصر الطوائف يرون بأن آراء شيوخهم القدامى صالحة لعصرهم وأن القول بغير ذلك تمرد ومعاداة لهم وهذا ما لا يؤيده تيار المعاصرة الذي يمثله المذهب الظاهري مجسدا في شخص ابن حزم في عصر الطوائف الذي يرى بأن مسايرة العصر ضرورة ملحة ونبذ التقليد ولو كان لصحابي.

ورغم اتهام الأصيلي لفقهاء المالكية بالجمود في هذه الفترة وعدم صلاحية الكثير منهم للفتوى–وهذا هو رأي الكثير من المؤرخين الأوروبيين منهم ليفي بروفنصال– فإن أمحمد بن عبود يرى بأن

---

[1]- ابن حزم:رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج3، ص ص 23-24.

[2]- الونشريسي: المصدر السابق، ص 278؛ ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص 100؛ أحمد الطاهري: المرجع السابق ، ص 137.

[3]- ابن حزم: المصدر السابق، ج3 ص 21، أحمد الطاهري: المرجع السابق، ص 138.

هؤلاء الفقهاء لم يكونوا على شاكلة واحدة وأن الكتب التي ترجمت لفقهاء المذهب في هذه الفترة تظهر شريحة لا بأس بها اتسمت بالحركية والنشاط وغزارة الإنتاج كمّا وكيفا[1].

لابن حزم رأي مخالف كذلك لرأي المالكية في المصادر التي تستنبط منها أحكام الشريعة، فهو لا يقول بالقياس ولا بالمصادر التبعية كالمصالح المرسلة وسد الذرائع بل يكتفي بالقرآن والسنة وإجماع الصحابة قبل افتراقهم في الآفاق مع الأخذ بظواهر النصوص في الوحيين، ويعتبر بعض الدارسين لشخصية ابن حزم أن إنكاره للقياس مطلقا لا يجعله مخالفا للجمهور فحسب ولكنه مخالف لجماعة من أهل الظاهر كذلك[2].

ويُرجع الباحثون في شخصية ابن حزم وأفكاره السبب في تبنيه للمذهب الظاهري وعدم الأخذ بالقياس إلى اتخاذ الكثير من الفقهاء في المذاهب الأخرى القياس مطية لتبرير ظلم الحكام لشعوبهم وانحرافهم عن شرع الله وهذا ما حدث في القرن الذي عاش فيه ابن حزم[3] ووصفه وصفا دقيقا في رسالته " التلخيص لوجوه التخليص".

ولم يكن ابن حزم من المخالفين للمذاهب الفقهية المعروفة عند السنة فحسب بل خالف شيخ الظاهرية ومؤسس المذهب داود[4] في الكثير من المسائل واعتبره شيخا من شيوخه ورافدا مهما من روافده في الفقه ورفض تقليده في المسائل التي يرى أنه قد حاد فيها عن الصواب، لذلك يعتبر الكثير من الدارسين لشخصية ابن حزم أن ظاهريته منهجية لا مذهبية وأن نظرته الخاصة إلى المسائل الفقهية توجب تسمية اجتهاده الفقهي بالحزمية بدلا من الظاهرية[5].

وفيما يتعلق بالصوفية، فيبدوا من تراجم بعض العلماء في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أن التيار الصوفي كان له أتباع ومؤيدون من أمثال محمد بن شجاع الصوفي (ت بعد 430هـ/1039م) الذي كان على طريقة قدماء الصوفية المحققين وأصحاب السياحة المتجولين رآه الحميدي في حدود 430هـ/1039م[6]، وأبي الحسن علي بن حمزة الصقلي المعدود في الوافدين إلى

---

[1]- ابن عبود: جوانب، ص146.

[2]- حسان محمد حسان : ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت)، ص ص69-70.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 180-181.

[4]- أنظر ترجمة داود الظاهري عند ابن خلكان: المصدر السابق، ج2، ص255.

[5]- حسان محمد حسان: المرجع السابق، ص ص 86-87.

[6]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص 234، رقم الترجمة 1308؛ الضبي: المصدر السابق، ص ص 113-114؛ رقم الترجمة 148؛ الحميدي: المصدر السابق، ص 95، رقم الترجمة 74.

الأندلس[1]، وأبو القاسم اسماعيل بن محمد بن خزرج الأشبيلي (ت 421هـ/ 1030م)، وأبو عمر أحمد بن محمد بن عمر الصدفي الزاهد (ت450هـ/1058م)[2]، وابن العريف الذي ولد سنة 481هـ/ 1088م بألمرية وعاش جزءا من حياته في القرن الخامس الهجري (ت 536هـ1141م)،و كان أهل عصره يعتبرونه إماما في الزهد، وقد عدّت المرية في عصره البؤرة الأولى للصوفية، والزهاد في الأندلس، وكان في المكان نفسه زاهد آخر يدعى محمد بن عيسى ظهر قبل ابن العريف بسنوات،وقد ذهب في الصوفيه مذهبا جعله يعتقد بالوحدة الصوفية بين الله والروح، في دعوة صريحة إلى تأليه الكون[3]، كما عاش في الفترة نفسها أبو عمر أحمد بن عيسى الألبيري (ت 429هـ/1038م)[4] الذي يظهر المنحى الصوفي لديه في القصائد التي كتبها، فأغلبها كان في الحب الإلهي[5].

وفي طليطلة عاش الزاهد عبد الله بن فرج بن غزلون المعروف بابن العسال(ت 487هـ/1094م) الذي تنسب له الكثير من الكرامات، وقد رحل إلى غرناطة بعد سقوط طليطلة في يد النصارى، فمات، ودفن بها ذكر ابن سعيد أن قبره صار مزارا للناس حتى عصره[6].

ويمكن اعتبار أبي عمر الطلمنكي من المحسوبين على التيار الصوفي كذلك كونه حاول من خلال علمه الغزير الذي جمعه من الشرق والغرب الإسلاميين تجديد الإسلام روحيا عن طريق الزهد والتصوف[7]، فكونه يرى بأن الزهد والتصوف مدخل مهمّ وفعّال لتجديد الإسلام وبعث الحياة فيه من جديد فذلك يعكس ميلا واضحا لديه نحوه، ويؤكد هذا الميل دفاعه عن كرامات الأولياء حتى اعتبر ممثل التصوف الشرعي أو المعتدل لرفضه تصوّف ابن مسرة والباطنية، وقد ظهر اسم الطلمنكي في السند الوفي الذي يصل الحسن البصري بابن العريف الصوفي الأندلسي بواسطة الفضيل ابن عياض[8]، وعكف أبو بكر

---

[1]- الحميدي: المصدرالسابق، ص 455، رقم الترجمة 713؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص ص 48-49، رقم الترجمة 922؛ الضبي: المصدر السابق، ص ص 549-550، رقم الترجمة 1218.

[2]- محمد بركات البيلي:الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ط)، 1993، ص 126، 127.

[3]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 246؛ ترجمته عند ابن خلكان: المصدر السابق، م1، ص ص 168-169، رقم الترجمة 68؛ الأعلام: الذهبي، ج1 ص 215؛ ابن الأبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1989، ص 70.

[4]- انظر ترجمته عند ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 847؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 95.

[5]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 200.

[6]- ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 21.

[7]- ماريا إيزابيل فييرو: المرجع السابق، ج2، ص 1252.

[8]- ماريبيل فييرو: المرجع السابق، ص 62.

بن الملح على قراءة كتب التصوف زمنا قبل انصرافه إلى اللهو[1]، أما الفقيه القاضي يونس بن عبد الله بن مغيث قاضي الجماعة بقرطبة (ت 429هـ/1038م)، فقد ألف في التصوف والزهد، وهذا بلا شك يعكس ميلا لديه إلى هذا الاتجاه[2].

ويعتقد بعض الباحثين في التاريخ الأندلسي بأن الصراعات العسكرية والفتن التي طبعت القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي قد دفعت بالكثير من الأندلسيين إلى الزهد، لكن لا يجب أن يغيب عن علمنا بأن البذخ وحياة القصور التي عاشها ملوك الطوائف والتي تعتبر من الإفرازات المباشرة للصراعات العسكرية كذلك دفعت بالناس نحو الزهد، ثم تطور هذا الزهد ليصل إلى حد التصوف[3].

إن القائمة الطويلة من التي أورد فيها بركات البيلي أسماء الزهاد بالأندلس في عصر ملوك الطوائف توحي بأن أتباع هذا التيار كثيرون، ولا شك بأن للصراعات العسكرية وما صاحبه من البذخ والانحراف اليد الطولى في اتساع قاعدتها داخل المجتمع[4].

كما ساهمت هذه الاضطرابات، والتحولات الكبرى، والانفلات الملحوظ على جميع الأصعدة في ظهور التيار المادي الذي يسعى وراء الملذات من أجل تحقيق الإشباع الحسي، ورجحت كفته على التيار الذي كان يجنح إلى التعفف والزهد[5].

لولا وجود الحرية الفكرية ما كان المفكرون الأندلسيون في هذه الحقبة ليدلوا بأفكارهم التي تنتمي إلى مختلف المجالات، ولعل منشأ هذه الحرية الفكرية مرده إلى رغبة الحكام بالنهوض بالعلوم بمختلف أنواعها أو لأنهم منشغلون عن مراقبة الأفكار بما هو أعظم منها وأعني بذلك الصراعات العسكرية وفي نظري للسّببين معا، وبذلك تكون هذه الصراعات قد منحت فرصة لا تعوض للأفكار حتى تزدهر وهذا ما حصل بالفعل، كما أن محاولات التكميم للأفواه والتعتيم على الأفكار التي كان يمارسه بعض ملوك الطوائف يقابله في الأوقات نفسها ترحيب من قبل ملوك آخرين يجدون في تهجّم أصحاب الأفكار على خصومهم سندا وعونا لهم لذلك يقومون باحتضانهم وهذا بحد ذاته تشجيع على إنتاج الأفكار.

إلا أن الحرية الفكرية المتاحة في هذا العصر قد سمحت بظهور بعض الآراء الغريبة والأفكار الهدامة التي سلك فيها أصحابها مذاهب منحرفة، وقد انبرى ابن حزم لمناظرتهم وإبطال أفكارهم فيذكر ابن

---

[1]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 172.

[2]- ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص 289.

[3]- محمد بركات البيلي: المرجع السابق، ص 129، 163، 176.

[4]- البيلي: المرجع نفسه، ص -17، 164.

[5]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 187.

بسام نقلا عن ابن حيان أن ابن حزم كان له مناظرات كثيرة ليس مع اليهود فحسب ولكن مع أصحاب المذاهب المرفوضة كذلك وكان ذلك يحدث في مجالس مفتوحة[1].

ظهر في هذه الفترة تيار يسعى إلى توحيد الأمة الأندلسية، وإيقاظ الهمم والعزائم لمواجهة المد النصراني الذي يسعى لطرد المسلمين من شبه الجزيرة الأيبيرية، وقد مثل هذا التيار في هذه الفترة عدد من الفقهاء المرموقين كأبي الوليد سليمان الباجي، وعبد الله بن يوسف بن عبد البر، والهوزني، وغيرهم، وقد طاف بعضهم بالأندلس محرّضين لملوك الطوائف على الجهاد.

كما شكل فقهاء المالكية في هذه الفترة التيار الذي عمل على محاربة الأفكار الدخيلة على المجتمع الأندلسي، وأعني بها المعتقدات والمذاهب الفقهية التي طرات على الأندلس في هذه الفترة، وقد تم الحديث عنها تحت عنوان المذاهب والأديان.

ونعود مرة أخرى لنقول بأن ابن حزم فضلا عن كونه يمثل التيار التجديدي والمعاصر في مجال الفقه، ورافع لواء التيار المناظر لليهود والنصارى وفقهاء المالكية وأصحاب الأفكار المختلفة، فهو يمثل التيار السياسي المناهض للأنظمة القائمة في الأندلس إذ يعتبرها غير شرعية ولا تستند إلى أساس ديني، لذلك كان شديد الانتقاد لها، وقد تسبب ذلك في اضطهاده.

وفي مجال التعليم نلاحظ وجود تيارين بالأندلس في عصر الطوائف، التيار التقليدي الذي يرى أن الطريقة التقليدية لا مناص لها وإليه ينتمي الباجي وهي الطريقة المهيمنة على التدريس في الأندلس في القرن الخامس الهجري وقد وجدت طريقها للعمل بها منذ زمن طويل[2]، والتيار التجديدي الذي يرى بأن المنهج التقليدي قد عفا عنه الزمن ويقترح طرقا ومناهج جديدة تتناسب مع روح العصر ويمثل هذا التيار ابن حزم وابن العربي وغيرهم[3].

الفرع الثالث: التفاعل (الحوار/ التصادم): إن التفاعل يعني التأثير المتبادل بين عنصرين فأكثر مع الأخذ بعين الاعتبار الاختلاف الواضح بين العناصر المتفاعلة في الخصائص والصفات، ولهذا التفاعل أشكل وصور مختلفة، ومنها الحوار والعنف أو التصادم، ولا شك بأن المرحلة محل البحث قد بلغ فيها التفاعل بين سكان الأندلس أقصى درجاته، كونها مرحلة مليئة بالأحداث فماهي اللغة التي اختارها الأندلسيون للتفاعل فيما بينهم أهي الحوار أم التصادم؟ هذا ما ستجيب عنه هذه الفقرة.

---

[1]- ابن بسام : المصدر السابق، ق1، مج1، ص 170.

[2]- ابن عبود: جوانب، ص 153.

[3]- ينظر بشأن ذلك مناهج التعليم في هذا البحث.

يمكننا أن نتحدث عن هذا التفاعل في مستويين اثنين:

أولا/ **المستوى الرسمي**: ونعني به التفاعل بين ملوك الطوائف فيما بينهم أو مع ملوك النصارى، فلو بدأنا بملوك الطوائف، فنلاحظ تراجعا حادا في المساحة المخصصة للحوار فيما بينهم، ولا أقول غيابه تاما لأن بعض ملوك الطوائف قد آثروا لغة الحوار في بعض الحالات للتفاهم وحل المشاكل العالقة، فيما فضّل معظمهم لغة الصدام، ورفضوا الإنصات لصوت العقل، وممن فعل ذلك المهدي بعد توليه حكم قرطبة ، فقد رفض الانصات إلى صوت العقل والجلوس مع خصومه على طاولة الحوار، فدارت بينه وبين المستعين حروب مفنية، وكان التفاعل هنا سلبيا.

وعندما حرك المعتضد بن عباد جيوشه لغزو لبلة، وعزم على ضمها لإشبيلية استنجد حاكمها محمد بن يحي اليحصبي بالمظفر بن الأفطس، فأجابه، وتحرك في الوقت ذاته بعض حلفائه من البربر لمهاجمة إشبيلية وتخريبها، فلما علم أبو الوليد بن جهور بهذه الواقعة أرسل رسله إلى الأطراف المتناحرة يرغبهم في الصلح ويحذرهم من العواقب الوخيمة للاقتتال، ولكن دعوته لم تجد آذانا صاغية[1]، وعندما مال حاكم لبلة إلى محاورة المعتضد غضب المظفر بن الأفطس من تصرفه وقام بغزوه، فاستنجد هذه المرة بالمعتضد لرد قوات بن الأفطس، واستمرت المعارك بينهما ردحا من الزمن، ولم يملّ ابن جهور من دعوته الأطراف المتصارعة للصلح، وبعد جهود مضنية وخراب طال المملكتين توجت المحاولات المتكررة بصلح لم يدم طويلا[2].

أما باديس بن حبوس فقد فضل التحاور مع زهير العامري بدل القتال عندما زحف هذا الأخير على غرناطة وعزم على ضمها لمملكته، لكن زهيرا رفض الإنصات إلى صوت العقل وقرر أخذها بقوة السلاح، فكان هلاكه في قراره[3].

وبعد هزيمة زهير وقتله وقع وزيره ومحرضه على غزو غرناطة في الأسر مع عدد من العلماء، فأطلق باديس صراحهم وأبقى على ابن عباس لقتله، فتدخل أبو الحزم بن جهور عند باديس بن حبوس، وطلب منه أن يطلق سراحه، لكن باديس صم أذنيه عن سماع ابن جهور، وأبى أن يقبل شفاعته فيه، فتم إعدامه[4]، لتضيق مرة أخرى المساحة المخصصة للحوار ويطغى السلاح على العقل.

وقد عمل على تضييق مساحة العفو والصفح وتعطيل لغة الحوار والتفاهم عبد العزيز بن أبي عامر، فبعد جلوسه مكان زهير في المرية،خاف أن يطلق باديس سراح ابن عباس فيزاحمه على الملك،

---

[1]- عنان: المرجع السابق، ص 41.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 33-34؛ عنان: المرجع السابق، ص ص 41-42.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 657؛ ابن عذاري:المصدر السابق، ج2، ص 422، ابن الخطيب: الإحاطة، مج1، ص 519.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص ص 663-664.

لذلك عمل على إقناع باديس بقتله، وأقنعه برفض كل المساعي التي تسعى لإطلاق سراحه، وقد نجح في ذلك[1].

لم يكن عبد العزيز بن أبي عامر، يعلم بأن مجاهد العامري جادّ في احتواء المرية ، حتى صارت جيوشه قريبة منه، فصارت الحرب بينهما قاب قوسين أو أدنى ، وهذا ما جعل الكاتب أبي عبد الله البزلياني يرسل إليهما وإلى حلفائهما عدد من الرسائل يحثهما فيها على تجنب الصدام المسلح ، وتغليب لغة الحوار، ولكن هذه الرسائل لم تنجح في نزع فتيل الأزمة وتهدئة الأوضاع، فأظلم الأفق من جديد وطغت لغة التصادم على لغة الحوار، فكان التفاعل مرة أخرى سلبيا[2].

وتحمل المصادر التاريخية مجاهد العامري مسؤولية فشل المساعي التي بذلها البزلياني لإجلاس الأطراف المتنازعة على طاولة الحوار، إذ أن عبد العزيز بن أبي عامر بعد سماعه بمسير مجاهد إليه خرج للقائه ومحاورته، لكن مجاهد رفض ذلك وقرر انتزاع المرية منه[3]، فهذا دليل على أن بعض ملوك الطوائف كان يجنح إلى لغة الحوار لفض النزاعات البينية، لكن السواد الأعظم منهم صمّ آذانه عن ذلك وفضل لغة العنف والسلاح.

ويصوّر لنا عبد الله بن بلقين في كتابه المذكرات حالة التصادم والتنافر الشديد بين ملوك الطوائف، ويصفها بالأمر الذي لا يمكن إصلاحه، ويعزوا ذلك إلى ما كان بينهم من التحاسد والتباغض والتنافس على الدنيا[4]، وبذلك نعلم بأن التفاعل بين ملوك الطوائف في أغلب الأحيان كان سلبيّا، وكان لغة التصادم هي المهيمنة على علاقاتهم.

وفيما يتعلق بعلاقة ملوك الطوائف بملوك النصارى، فقد طبعها الودّ أحيانا عند تقاطع المصالح، فيتحالف الطرفان من أجل تحقيق المصالح المشتركة ، والصراع في أحايين كثيرة وهذا عندما تتعارض المصالح فنقرأ حينئذ عن غارات ينفذها ملوك النصارى على الأراضي الإسلامية، ومجازر ترتكب في حق الشعوب الإسلامية كمجزرة بربشتر وبلنسية، أما علاقتهم بالمسلمين المدجّنين، فكانت سيئة للغاية إذ تعرضوا للإضطهاد في المناطق التي استردها النصارى كطليطلة وغيرها، وحرموا من ممارسة شعائرهم الدينية وحوّلت الكثير من مساجدهم على غرار مسجد طليطلة إلى كنائس، وفي بعض المناطق أجبروا على السكنى في جهات معينة من المدينة وارتداء لباس معيّن[5] فعلاقة ملوك النصارى بملوك الطوائف تتأرجح بين

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 667.

[2]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 282.

[3]- ابن بسام :المصدر السابق، ق1، مج2، ص 731.

[4]- عبد الله بن بلقين:المصدر السابق، ص ص106-107 ؛ابن عبود: جوانب، ص 59.

[5]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 416، 417؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 228.

التفاعل الإيجابي والسبي ، أما علاقتهم بالمواطنين المسلمين الذين يعيشون داخل أراضيهم، فيطبعها التصادم والعنف وتختفي فيها لغة الحوار والتفاهم.

ثانيا/المستوى الشعبي: أما فيما يتعلق بالعلاقة بين العناصر المكونة للشعب الأندلسي وهو المستوى الثاني من مستويات التفاعل فقد ساد التفاعل السلبي في قرطبة بين القرطبيين والبربر زمن الفتنة، فصار الكل يتربص بالكل،ثم انقشع ذلك بعد انتقال حكمها إلى بني جهور، فساد التفاعل الإيجابي والحوار مكان التصادم، واستمر التعايش، والتفاهم خلال عصر الطوائف كله بين جميع مكونات الشعب الأندلسي في قرطبة وغيرها، فيذكر ليفي بروفنسال أن سكان جزر البليار والأندلسيين عموما كانوا يحتفلون بعيد يسمى " **يوم المهرجان** " الذي يوافق منتصف السنة الميلادية وهو في الأصل عيد مسيحي إلا أنّ الأندلسيين على اختلاف عقائدهم الدينية كانوا يحتفلون به وكانوا يعدّون في هذه المناسبة أطعمة خاصّة، ويمارسون طقوسا معينة، ويلبسون الملابس الجديدة، ويشترون الحلوى، ويتبادلون الهدايا، وتقام فيه حفلات صاخبة، كما شارك المسلمون النصارى في أعيادهم الأخرى، كعيد المسيح، وعيد العنصرة،وعيد المهرجان، وخميس العهد الذي يسبق عيد الفصح المسيحي بثلاثة أيام،وعيد النيروز، وكان المسلمون في هذه الأعياد المسيحية يشترون الحلوى والفواكه مثلهم، ويتبادلون الهدايا ما يعني بأن أفق المواطنة كان أسمى من الآفاق الإثنية والدينية في هذه الفترة، وأن سكان الأندلس كانوا على درجة عالية من الحوار والتفاعل[1].

فاجتماع الأندلسيين في المناطق التي كانت تحت حكم المسلمين من مختلف العقائد والديانات حول عيد يعد من الأعياد الرسمية في الأندلس وإحياء كل فرد له، دليل على الانسجام التّام والتفاعل الإيجابي بين فئات وطوائف المجتمع الأندلسي وتغليب لغة الحوار على لغة التصادم والعنف والكراهية.

كما يعتبر احتواء مجالس الدرس التي يعقدها العلماء المسلمون على طلبة من أصول يهودية دليلا على التفاعل الإيجابي، وقبول الآخر، فلا يخلوا درس من الحوار بين التلميذ ومدرسه، وسيأتي معنا في هذا البحث ثناء أبي عامر بن شهيد على تلميذ يهودي حضر مجلسه[2].

---

[1]- مارغاريتا لوبيز غوميز: المستعربون نقلة الحضارة الاسلامية في الأندلس، ترجمة أكرم ذا النون، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج1، ص 275؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة على عهد بني زيري البربر، ص248، 249؛ كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف(القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1993، ص ص 85-87 ؛ عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص 111.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 233، 234؛ علي عطية الكعبي: التعايش السلمي بين الأديان السماوية في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دول الطوائف 92-484هـ/711-1091م، دار صفحات، سوريا، دمشق- الإمارات العربية، دبي، ط1، 2014، ص 209.

أما بخصوص المناصب الإدارية والاقتصادية، فقد اعتبر عصر الطوائف عصر الهيمنة اليهودية على هذه المناصب خاصة في غرناطة[1]، وليس أدل على ذلك من تولي اسماعيل بن النغريلة وابنه يوسف منصب الكتابة والوزارة فيها، وكان اسماعيل قبل توليه الوزارة ضابطا مرموقا يخرج مع جيوش غرناطة في حملاتها العسكرية[2]، وقد اجتمعت أزمة الأمور في يد يوسف وصار الآمر الناهي في دولة باديس واستعمل إخوانه من اليهود على الأعمال فلم يعرف ذلة الذمة أبدا[3].

ولا علاقة لمقتل يوسف بن النغريلة على يد عوام البربر بالكراهية العرقية والعنصرية فالسبب في ذلك هو احتكاره للسلطة وأعماله الاستبدادية ومكائده لقلب النظام الحاكم، وقد كان أبوه قبله بعيدا عن هذه الممارسات فحظي باحترام الجميع[4].

كما حوى البلاط الزيري شخصيات يهودية أخرى مؤثرة كالحاخام أبراهام وهذا غير أبراهام بن مهاجر الذي كان في بلاط العباديين في اشبيلية، أما موسى بن عزرا فقد حاز لقب صاحب الشرطة في غرناطة[5]، فالصراعات العسكرية التي يسعى المنخرطون فيها إلى الاستيلاء على عروش غيرهم من آثارها المباشرة في عصر الطوائف إسناد الكثير من الوظائف السامية لليهود.

كما عين الوزير الكاتب أبو الفضل حسداي اليهودي[6]في بلاط المقتدر بن هود في سرقسطة، وتمتع بمنزلة رفيعة، وكان لأبيه يوسف قبله مكانة بها،كما شغل يوسف هذا منصب الوزارة في دولة بني رزين، وحظي الكاتب أبو بكر بن سدراي اليهودي بالمنزلة نفسها والنفوذ نفسه في بلاط أبي مروان بن رزين ملك السهلة، وعين اليهودي أبو الربيع وزيرا للخزانة عند باديس بن حبوس، وظل اليهود يتمتعون بتسامح المسلمين معهم حتى طردهم الموحدون من الأندلس لتعاونهم مع نصارى الشمال ضدهم[7]، وعين اليهودي إسحاق بن قسطار(ت 448هـ/1056) طبيبا شخصيا لمجاهد العامري وابنه علي[8].

---

[1]- علي عطية الكعبي: المرجع السابق، ص 215.

[2]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 12.

[3]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 488؛ الطاهر أحمد مكي:المرجع السابق، ص 61.

[4]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، ص 31.

[5]- ريموند شايندلين: اليهود في اسبانيا المسلمة، ترجمة مريم عبد الباقي، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية ، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج1، ص 304، 305.

[6]- ترجمته عند ابن خاقان: القلائد، ج2، ق2، ص 545؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 441، ابن دحية: المصدر السابق، ص 196.

[7]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص 457؛ السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص ص 180-181؛ هشام فوزي عبد العزيز: المرجع السابق، ص47.

[8]- هشام فوزي عبد العزيز: المرجع نفسه، ص 53.

ولم يجد مسلموا غرناطة ضيرا في تولّيهم هذه المناصب–رغم بعض الأصوات المندّدة– إلا عندما أساءوا السيرة، فنقموا عليهم عندئذ، وهذا لا يعني أن النّصارى لم يكن لهم نصيب من هذه المناصب السامية ، فأبو الربيع النصراني كان كاتب حشم عند باديس بن حبوس، وقد استوزره بعد مقتل يوسف بن النغريلة[1] .

كما خدم عدد من أعيان النصارى وشخصياتها البارزة عددا من ملوك الطوائف[2] أي منحوا وظائف في الدولة ما يعني أن الحكام المسلمين لم يقوموا بإقصائهم وتهميشهم، وفي هذا الصدد يحضرنا اسم أبي عمر بن غنديسالبو الذي شغل منصب رئيس الوزراء في دولة بني هود بسرقسطة، وسيزناندوا دافيديز الذي الذي عاش في دولة المعتمد بن عباد وتولى الوزارة لديه، وهذا دليل كاف على وجود تفاعل بين المكوّن الإسلامي والنصراني في الأندلس[3].

وقد أثر الاحتكاك والتفاعل المستمر بين العناصر السكانية المختلفة في الأندلس على لغاتها فابن حزم يتحدث عن سكان فحص البلوط التابع لقرطبة قائلا:" من سمع لغتهم يقول إنها لغة أخرى غير لغة أهل قرطبة" وعلل ذلك بقوله:" وهكذا في كثير من البلاد ،فإنّه بمجاورة أهل تلك البلدة بأمة أخرى تتبدّل لغتها تبديلا لا يخفى على من تأمّله" في إشارة واضحة إلى التأثير والتأثر نتيجة المجاورة والاحتكاك والتفاعل المستمر[4]، وفيما يتعلق بالأزياء واللباس لم يعد هناك فرق بين النصارى والمسلمين في اللباس منذ القرن التاسع للميلاد حتى صار من العسير التمييز بين المسلم والنصراني[5].

وفي الجزر الشرقية للأندلس عاش اليهود والنصارى حياة طبيعية مع المسلمين في هذه الأماكن، وتمتعوا بكافة حقوقهم[6]، ما يعنى أنّ هذه المكونات البشرية رغم اختلاف دياناتها كانت تتفاعل فيما بينها وتتحاور ولا يوجد بينها تنافر واختلاف يفضي إلى اضطهادهم.

أما جزيرة ميورقة تحديدا، فقد احتضنت المناظرات الفقهية التي جرت بين فقهاء المالكية والفقيه الظاهري ابن حزم، وكان ذلك يحدث تحت رعاية أميرها أحمد بن رشيق، وأشهرها المناظرة التي حدثت بين ابن حزم وأبي الوليد الباجي المالكي[7]، فهذا الجدل والتفاعل إيجابي من جهة وسلبي من جهة أخرى، فهو

---

[1]- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403–483هـ، ص 160، 161؛ عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص 160.

[2]- بير غيشار: المرجع السابق، ص 972.

[3]- مارغاريتا لوبيز غومين: المرجع السابق، ص 271، 279.

[4]- ابن حزم الأندلسي: الإحكام في أصول الأحكام، تقديم احسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط2، 1983، ج1، ص 31.

[5]- ماريا لوبيز غوميز: المرجع السابق، ص ص 270–271.

[6]- عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص 466.

[7]- ابن الأبار: المصدر السابق، ج2، ص 128؛ المقري: المصدر السابق، مج2، ص 68.

إيجابي كونه تم عن طريق الحوار المتبادل وأثمر تراثا فقهيا غزيرا، وكان سببا في ظهور فئة المتكلّمين الذين أجبرهم جو التفاعل على ابتكار طرق في الكلام للدفاع عن مذهبهم وبيان القصور الذي يكتنف المذهب المنافس، وسلبي لأن هدفه الأساس هو إخلاء الساحة الفقهية من المذاهب المخالفة وعلى رأسها المذهب الظاهري، فاكتنفته الكثير من الرعونة، ويعزوا محمود مكي هذا التصلب لدى الأندلسيين وعم تسامحهم مع المذاهب الأخرى بل مع كل وافد جديد إلى كون الأندلس أبعد الثغور الإسلامية في الغرب وهي رأس حربة الإسلام المغروسة في القارة الأوروبية وقد طبع الصراع الدائم مع النصارى وجودهم في هذه المنطقة فصاروا يعادون كل ما من شانه أن يهدد استقرارهم السياسي لذلك تشبثوا بمذهب واحد لأن تعدد المذاهب برأيهم يشتت كلمة المسلمين وصفوفهم هناك[1].

كما تعتبر المناظرات التي حدثت بين علماء المسلمين وعلماء اليهود والنصارى، والردود المختلفة مظهرا من مظاهر التفاعل والحوار، واحترام الرأي المخالف، والرد عليه بأسلوب راق فيه الكثير من التسامح[2].

ويبدوا من اختلاف المسلمين أنفسهم في زيهم ولباسهم وعدم إنكار بعضهم على بعض هذا الاختلاف أنهم كانوا على درجة عالية من التفاهم والحوار والتفاعل والتسامح، فمثلا كانت عادة القاطنين بغرب الأندلس وضع العمائم على رؤوسهم، أما القاطنون بشرقه، فكانت عادتهم المشي برؤوس حاسرة فشوهد العالم والأمير بدون عمامة[3].

وقد شارك المسلمون النصارى في ألمرية وغرناطة، وغيرها من مناطق الأندلس في يوم عطلتهم الأسبوعية التي كانت في الأحد من كل أسبوع فكان الجميع يركن للراحة، والمتتبع لأحوال السكان المسلمين والنصارى في مملكة المرية في القرن الخامس سيجد تأثرا تاما في مختلف نواحي الحياة بين الطرفين وهذه قمة التفاعل بين مكونات هذه المدينة.

ويذكر السيد عبد العزيز سالم بأن المسيحيين المستعربين الذين أقاموا بين المسلمين طوال العهد الإسلامي بالأندلس تمتعوا بحرية العقيدة والتسامح التام بل منحوا حرية قرع النواقيس في كنائسهم رغم ما تسببه من إزعاج للمسلمين، وقد بات أبو عامر بن شهيد(ت 426هـ/1035م) بكنيسة، فذكر

[1]- ابن سهل أبو الأصبغ عيسى الأندلسي: ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع، ص 7.

[2]- خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي: المرجع السابق، ص 63، 68.

[3]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 222؛ سحر عبد العزيز سالم: ملابس الرجال في الأندلس، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، 1995، مج 27، ص 164؛ محمد بشير العامري: المرجع السابق، ص 208.

ذلك، ولم تتقلص هذه الحرية حتى زمن المرابطين[1]، ما يعني أن الصراعات العسكرية بين ملوك الطوائف وملوك النصارى في الشمال لم تؤثر على وضع أهل الذمة في دويلات الطوائف، ولم تقلص هامش الحرية الممنوحة لهم بل زادته، ربما من أجل ضمان ولائهم للدويلات الطائفية التي يعيشون فيها وليس للممالك النصرانية في الشمال، ففتحت أمام المقتدرين منهم الوظائف في مختلف أجهزة الدولة، ومنحوا الحرية الكاملة في ممارسة شعائرهم الدينية، وجعلت لهم محكمة خاصة لفض نزاعاتهم،وقاض يحكم فيهم بشرعتهم، وممثل يشرف على شؤونهم يسمى الكونت[2]، ورغم تسامح المسلمين مع النصارى إلا أنهم وقفوا في كثير من الصراعات العسكرية مع أصحاب ملتهم.

ويذكر أمحمد بن عبود بأن التفاعل بين المجموعات الدينية المختلفة في الأندلس قد وصل إلى حد الزواج، فلم يكن اختلاف الدين عائقا يمنعهم من الارتباط ببعضهم، لذلك مورس الزواج المختلط على نطاق واسع[3]، وهذا دليل على التفاهم والانسجام بين عناصر الأندلس السكانية، وعدم التأثر بالحزازات والصراعات التي اندلعت في الأندلس وطبعت العلاقة بين الحكام.

أما بخصوص التقاضي فكان لليهود والنصارى مؤسساتهم القضائية التي تقوم بحل مشاكلهم وقضاة من ملّتهم، وقد منحوا حرية المثول امام القضاة المسلمين للفصل في نزاعاتهم لكن وفق ما جاء في كتبهم، فالنصارى مثلا يحكم بينهم بما جاء في كتابهم المسمى القوانين الذي تمت ترجمته إلى العربية[4].

لكن اتسمت علاقة الكنيسة الكاثوليكية المتواجدة على الأراضي النصرانية في الشمال خاصة ليون وقشتالة بعدم التفاعل والحوار مع كنائس المستعربين المتواجدة على الأراضي الإسلامية، إذ تعتبرها كنائس غير شرعية، فتم بموجب هذا القرار إغلاق قنوات الحوار والاتصال والتفاعل مع هذه الكنائس وحلت القطيعة محل التواصل، وهذا سلوك بلا شك عدواني فيه الكثير من التحيز والإقصاء والتهميش لشريحة اجتماعية لها وزن في المشهد الأندلسي[5]، والسبب في هذا القرار هي الصراعات العسكرية التي قسمت المنطقة إلى دار إسلام ودار مسيحية.

إلا أن النصارى الذين كانوا يعيشون بين المسلمين قد تأثروا بالحملات العسكرية التي قادها ملوك النصارى ضد المسلمين، فكثيرا ما كانوا ينخرطون فيها ويقدمون الدعم لأبناء دينهم للفتك

---

[1]- ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص 194؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 525؛ السيد عبد العزيز سالم : في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص ص 176-177.

[2]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 92، 163، 165.

[3]- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 30.

[4]- عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص 89.

[5]- ابن عبود: المرجع السابق، ص 119.

بالمسلمين، من ذلك ما حدث في مأساة بربشتر، فقد انضمت جموع من سكانها النصارى إلى النورمنديين المهاجمين[1].

المطلب الثاني: العلوم وحركة التأليف والترجمة

الفرع الأول: العلوم :

نظر المسلمون في هذه الفترة في نوعين من مصادر العلوم والمعارف فأنتجوا صنفان منها العلوم التي مصدرها الوحي والعلوم التي مصدرها الكون(العالم) وقد استعملت لإنتاجهما نوعان من الأدوات هما العقل والحواس فتقسيم العلوم إلى عقلية ونقلية برأيي غير دقيق وغير منهجي ينمّ عن خلل في أساس التقسيم إذ كان الأولى- حسب رأيي المتواضع- أن يكون أساس التقسيم هي المصادر التي أخذت منها المعرفة وهي الوحي والكون فيقال علوم الوحي وعلوم الكون، أما العقل فهو إلى جانب الحواس الأداة التي وظفت في كلا المصدرين، فتم إنتاج المعرفة بها[2].

يخبرنا عبد الله عنان بأن العلوم لم تكن مزدهرة في كافة ممالك الطوائف فبعضها كان خاليا من أدنى نشاط علمي أو أدبي كما هو حال بعض الممالك البربرية كغرناطة، وقد قابل هذا الخمول في بعض الممالك نشاط أدبي وعلمي كبير في أخرى كإشبيلية التي كان حكامها أهل علم وأدب وقاموا باحتضان العلوم، فغص بلاطهم بأقطاب العلم، وازدهرت عندهم العلوم الأدبية، وكذلك كانت بطليوس[3].

إن القول بأن بعض دويلات الطوائف كانت خالية من أي نشاط علمي مجازفة خطيرة، فالمقلّب لصفحات المصادر والمراجع يحس بنشاط علمي ما في كل دويلة، وهذا ما لمسته أثناء قراءتي لتاريخ هذه الدويلات، ولو قال عنان بأنّ بعضها متفوق على بعض لكان محقّا، ولو قلنا كذلك بأن بعض الممالك غلب عليها نوع معين من العلوم لكان ذلك صحيحا.

فطليطلة طغى فيها الاهتمام بالمواد العلمية التي تعتمد على التجريب كالفلك والطب والفلاحة والصيدلة على غيره من التخصصات[4]، ودانية طغى عليها الاهتمام بالدراسات القرآنية على غيره من الدراسات، أما سرقسطة فتفوقت في الرياضيات والفلك[5]، ويخبرنا المقري بأن الاهتمام بالعلوم المختلفة

---

[1]- حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 509.

[2]- يذهب إلى هذا التقسيم الدكتور فتحي حسن ملكاوي، أنظر كتابه منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2011، ص ص 209- 212.

[3]- عنان: المرجع السابق، ص 62؛ فطيمة عابد: المرجع السابق، ص 41، 42.

[4]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 16.

[5]- فطيمة عابد: المرجع السابق، ص 41، 42.

من قبل الأندلسيين في عصر الطوائف قد بلغ حد التفريط في الأرزاق،وأنهم كانوا يطلبون العلم لأجل العلم وليس لشيء آخر، فنتج عن هذا الاهتمام علماء لهم حظ من كل علم وبالتعبير الحديث علماء موسوعيون[1].

ولا شك بأن حكام الطوائف كانت لهم اليد الطولى في إيجاد الأجواء المناسبة التي تشجع على طلب العلم وازدهار العلوم، فالصراع العسكري والتنافس على مناطق النفوذ قد ولّد تنافسا شديدا في استقطاب الكفاءات من خلال المكافآت المجزية، والتفوق العسكري على الأرض صاحبته رغبة ملحّة لدى ملوك الطوائف في التفوق العلمي والمعرفي، فقدم العلماء من كل حدب وصوب حتى غصت بهم بعض البلاطات كأشبيلية وسرقسطه وبطليوس وطليطلة ودانية، والمرية[2]، ولا شك أن اجتماعهم في مكان واحد وبأعداد كبيرة سمح بتلاقح الأفكار وتبادل المعلومات وإيجاد جو ملائم للإبداع في المجالات المختلفة وهذا ما حدث بالفعل.

إنّ ما فعله ملوك الطوائف أنذاك يشبه تماما ما تفعله الدول المتقدمة اليوم حين تستقطب العقول المبدعة من دول العالم المتخلف من خلال الحوافز والإغراءات والإمتيازات اللامحدودة التي تضعها تحت تصرفهم.

لكن يجب ألا يغيب عن علمنا بأن انتقال العلماء من الأماكن التي ولدوا فيها إلى أماكن صارت حواضر علمية لاحقا لم يكن دائما بسبب الامتيازات والحوافز التي اعتمدها ملوك الطوائف، ولكن كان ذلك في أحايين كثيرة بسبب الصراعات العسكرية العسكرية المندلعة في أوطانهم، أو بسبب احتلال النصارى لها، وقد تكرر ذلك كثيرا في عصر الطوائف، فخرج علماء قرطبة منها أيام الفتنة[3]، وغادر عدد من العلماء طليطلة بعد احتلال الفونسوا السادس لها، وإلى هذه الصراعات العسكرية يرجع الفضل في توزيع العلوم المعروفة في قرطبة على مختلف المناطق بالأندلس من خلال هجرة العلماء وهجرة الكتب معهم.

فبسبب استقرار عدد من علماء القراءات القرطبيين في دانية والجزائر الشرقية ازدهر هذا النوع من العلوم فيها وبزّت غيرها من دويلات الطوائف في ذلك، وأشهر هؤلاء العلماء المقرئ الشهير"عثمان "أسس خلالها مدرسة كبرى للقراءات تجاوزت شهرتها الأندلس وتخرج منها أغلب القراء المعروفون في هذه

[1]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 220-221.

[2]- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 336؛ خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي: المرجع السابق، ص 23؛ سعد البشري: المرجع السابق، ص 130.

[3]- محمد عبد الوهاب خلاف: المرجع السابق، ص ص314-315.

الحقبة[1]، وهاجر الزرقالي إلى طليطلة فانتشرت فيها العلوم الفلكية، واستقر ابن بصال وابن وافد في اشبيلية بعد سقوط طليطلة فازدهر فيها علم الفلاحة، وهكذا.

أولا– علوم الوحي:وهي العلوم المنبثقة من القرآن والسنة النبوية كالتفسير والفقه والأصول والحديث والقراءات وغيرها، وقد حظيت في القرن الخامس باهتمام أسر بأكملها في جميع دويلات الطوائف كأسرة ابن الحديدي بطليطلة، وبني الباجي، وبني مسلمة في بطليوس، وبيت بني حزم في قرطبة، وبيت بني عبد البر ببطليوس، وبيت بني جحاف ببلنسية، وبيت بني حزم بقرطبة وبيت بني صمادح التجيبيون بألمرية وبيت، بني طاهر بمرسية، وبيت مجاهد العامري بدانية وغيرها من البيوتات التي نبغت في العلوم الشرعية ناهيك عن العلوم الأخرى[2].

وممن نبغ في علوم الوحي كذلك في القرن الخامس الهجري أبو عمرو الداني المعروف بابن الصيرفي(ت 444هـ/1052م) وهو عالم القراءات المشهور ومحدث ومفسر كذلك، والمفسر الكبير اللغوي ابن عطية[3] الذي ولد في الأيام الأخيرة من عصر الطوائف أي سنة 481هـ/1088م وأبي عمر يوسف بن عبد البر (ت 460هـ/1068م)[4]الذي كان فقيها ومحدثا كما برع في القراءات في آن واحد وأبو عمرالطلمنكي (ت 429هـ/1038م) وابن سيده(ت458هـ/1066م)[5]. هذا غيض من فيض من تخصص في هذا النوع من العلوم بالأندلس في هذه الفترة وقد بلغوا كلهم درجة التخصص فيها.

ثانيا–علوم الكون: وهي العلوم التي استنبطها علماء هذه الفترة من العالم الذي يعيشون فيه عن طريق إعمال عقولهم وحواسهم فيه.

1–علم الفلك:

يخبرنا ابن صاعد بأن سوقه كانت نافقة حتى عصره فاشتهر في طليطلة أبو بكر يحي بن المعروف بابن الخياط (ت 447هـ/1055م) وكان خدم سليمان المستعين زمن الفتنة واستقر في بلاط المأمون يحي بن ذي النون[6]، وقد اشتهر من علماء الفلك في عصر الطوائف أربعة عشر عالما وصلوا فيه

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص22؛ عصام سالم سيسالم: المرجع السابق، ص 468، 469، 470؛ ابن فرحون المالكي: الديباج المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، 1972، مج،1 ص 36.

[2]- ينظر بشأن البيوتات الأندلسية وإسهاماتها في علوم الشريعة أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص ص 390-419.

[3]- ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص 61.

[4]- ترجمته في بغية الملتمس، ص 659 وما بعدها، رقم الترجمة 1447 ؛ الزركلي: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002، ج8، ص240.

[5]- انظر الزركلي: المرجع نفسه، ج4، ص 263.

[6]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 86.

حد الإتقان[1] أشهرهم الرياضي والفلكي أبو إسحاق إبراهيم بن يحي التجيبي النقاش المعروف بابن الزرقالة أو الزرقالي(480هـ/1087م) وقد ولد في قرطبة ثم انتقل إلى طليطلة بعد الفتنة وفيها تلقى العلوم التجريبية ونبغ في الرياضيات والفلك، وكان يعمل نقاشا فعرف بالنقاش وهو أول من قاس البحر الأبيض المتوسط قياسا دقيقا وأول من قال بدوران الكواكب في مدارات بيضاوية ومن ابتكاراته " الصحيفة الزرقالية" وهو نوع متطور من الإسطرلابات وقام بـ402رصد ليعين البعد الأقصى للشمس، وكان يرقب الأفلاك بآلات اخترعها بنفسه ووضع جداول عن الكواكب وقد عرفت بالزيج الطليطلي[2]، وقد كانت في فترة الطوائف مركزا من مراكز الإشعاع الحضاري قصده الطلاب من جهات مختلفة[3].

ويذكر خوسي مارية مياس بييكروسا بأن طليطلة في القرن الحادي عشر الميلادي اكتنفها جو علمي هائل وفيها تم التأسيس للثقافة العلمية حتى عندما كانت الغارات المسيحية تهددها، فكان بها كبار العلماء في التخصصات المختلفة وخاصة علم الفلك التي تأسست بها اكبر مدرسة آنذاك، وهذا نتيجة الاهتمام البالغ من قبل المأمون بالعلم والعلماء ،فعناية أسرته بالفتوحات العلمية كان أعظم من عنايتها بالانتصارات العسكرية[4].

2-**علم الفلاحة:** فيكفي أن نذكر العالم الجليل ابن بصّال الذي كان رائدا في علم النبات، واشتهر بتجاربه المتنوعة في العلوم الزراعية، وتتلمذ على يده الكثير من المشاهير في هذا العلم ومع ذلك لم تحض شخصيته بالاهتمام البالغ من طرف المترجمين والباحثين لذلك لم يعرف عنه الكثير حتى تاريخ ميلاده ووفاته وكل ما ذكر عن شخصه مجرد شذرات في مصادر مختلفة ففي مخطوطة للعشاب أسين تعود إلى سنة 476هـ/1083م عبارات تفيد بأن صاحب المخطوطة قد تراسل مع ابن بصال الذي كان في قرطبة أو اشبيلية بعد سقوط طليطلة يصفه فيها بأنه عارف بالفلاحة علما وعملا مجربا خبيرا بالزراعة ، ويذكر أنه شاهد نباتا في بستان السلطان زرعه ابن بصال، كما تذكر الأبحاث أنه اعتنى ببستان المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة الذي أقامه على نهر التاجه وعهد برعايته إلى صديقه الطبيب ابن وافد وأنشأ للمعتمد بن عباد حديقة ملكية بعد انتقاله إلى اشبيلية عقب سقوط طليطلة[5]، وقد ذكر ابن بصّال تلميذه أبو عبد الله

---

[1]- كريم عجيل حسين- نوفل حامد عبد الرحمن: أعلام الرياضيات والفلك في الأندلس، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج20، ع7، 2013، ص 239.

[2]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص75؛ غوستاف لوبون: المرجع السابق، ص 477.

[3]- إبراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص 182

[4]- خوسي مارية :المرجع السابق، ص 15.

[5]- محمد أمشين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1995، ج5، ص 165؛ فريد جحا: المرجع السابق، ص 363.

محمد بن مالك المعروف بالطغنري الغرناطي(كان حيا سنة 480هـ/1087م) في كتابه " **زهرة البستان**"[1].

ويذكر أحد الباحثين بأن تراث العرب الأندلسي في الفلاحة كان مزدهرا في القرنين الخامس والسادس الهجريين الحادي عشر والثاني عشر الميلاديين في مدن قرطبة، وطليطلة ، وغرناطة، والمرية[2]، وهذا يدلّ بشكل لا خفاء فيه على أنّ اهتمام علماء الأندلس بعلم الفلاحة والنّبات في هذه الفترة لم يعكّر صفوه الصراعات العسكرية.

3- **علم الجغرافيا**:برع فيها الأندلسي أبو عبيد البكري (ت 487هـ/1094م) كغيره من علماء عصره في عدد من العلوم، فقد كان إلى جانب اهتمامه بالجغرافيا عناية بالأدب والشعر والتاريخ والصيدلة والسيرة النبوية والحديث سمعه منه ابن عبد البر وأجازه، كما كان عارفا بالأنساب،لكنه برأي دوزي أكبر جغرافي عرفته الأندلس[3]، وبذكر البكري يذكر أحمد بن عمر بن أنس العذري المعروف بابن الدلائي (ت 487هـ/1094)، فهو أيضا إلى جانب كونه مؤرخا ومحدثا جغرافي من الطراز العالي[4].

4- علم التاريخ: فقد تصدى لكتابته في هذه الفترة مؤرخون من الطراز العالي نذكر منهم أبي مروان بن حيان (ت 469هـ/1076م) وهو شيخ مؤرخي الأندلس وعميدهم وابن حزم (ت 456هـ/1064م)، الذي أرخ لتاريخ الاديان، وأنساب العرب، والخلفاء، وأبي عمر يوسف بن عبد البر(ت 463هـ/1071م)، ومحمد بن عيسى بن مزين(ت 470هـ/1077م)، وأبو عبد الملك بن غصن(ت453هـ/1061م)، وأحمد بن سعيد بن أبي الفياض(ت458هـ/1066م) مؤلف كتاب" العبر"، وأبي بكر الطرطوشي صاحب كتاب (سراج الملوك) الذي ولد في طرطوشة سنة 451هـ/1059م، وكتابه هذا يحتوي في جزء منه على التاريخ، وهو ككتاب المظفري فيه جزء مخصص للتاريخ، وعبد الله بن بلقين الذي كان كتابه تاريخا محضا صاحبه عاصر المرحلة وشهد عليها فدون مشاهداته ومسموعاته، وابن صاعد الطيطلي صاحب كتاب "طبقات الأمم"، وغيرهم، فهؤلاء تركوا بصمة واضحة في ميدان التاريخ وإن غلب على ابن عبد البر الحديث وعرف بين العلماء بحافظ المغرب، وغلب على ابن حزم الفقه فكان صاحب مذهب فريد، ومع ذلك كتب عنه محمد عبد الله عنان مقالا في مجلة العربي العدد 68، 1964، ص 85

[1]- فرشوخ: المرجع السابق، ص 166.

[2]- فريد جحا: المرجع السابق، ص 362.

[3]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 500؛ الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص ص 35-36؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 376، بالنثيا:المرجع السابق، ص ص 309-311.

[4]- ينظر الذهبي: السير،ج18، ص ص 567-568؛ الحميدي: المصدر السابق، ص195، رقم الترجمة 237؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص ص 110-111؛ الضبي: المصدر السابق، ص ص 242-244.

عنوانه: ابن حزم الفيلسوف الأندلسي الذي أرخ لمجتمع الطوائف، وجمع الحميدي بين الفقه والحديث والأدب[1] .

6- **الدرس اللغوي والنحوي**:بدأ في النضج والاستقلال عن المشرق منذ بداية القرن الخامس الهجري، ففيه بدأ الأندلسيون يتخلون عن التتلمذ على يد المشارقة لأنهم بلغوا الغاية فيه، وفاقوهم واستدركوا عليهم، فظهر في هذه الفترة عدد غير يسير منهم نذكر على سبيل المثال لا الحصر ابن الإفليلي (ت 441هـ/1049م) وابن سيده (458هـ1066م) والأعلم الشنتمري (ت 476هـ/1083م) وابن السيد البطليوسي (ولد سنة444هـ/1052م) وعمل في دولة عبد الملك بن رزين صاحب السهلة وابن الباذش الغرناطي (ولد بغرناطة سنة 444هـ/1052م) وأبدع في علم النحو وأبو الحسين بن الطراوة المالقي ولد بمالقة سنة 438هـ/1046م وهو تلميذ الأعلم تفرد بآراء في النحو[2]، وأبو الحسن علي بن إسماعيل بن سيده الأعمى(458هـ/1066م) وقد عني بعلوم المنطق عناية كبيرة وألف فيه مؤلفا كبيرا ولكنه عد من أعلم أهل الأندلس بالنحو واللغة والأشعار وله فيها تواليف جليلة[3].

7-علم التراجم: ولم يغفل علماء هذه الفترة عن الترجمة لأمرائهم ووزرائهم وقضاتهم وعلمائهم، فتخصص في هذا العلم علماء كثيرون كالحميدي(ت488هـ/1095م)، وابن خاقان الذي مات في القرن السادس الهجري ولكن ولادته كانت في القرن الخامس الهجري سنة(480هـ/1087م) شأنه في ذلك شأن ابن بسام الذي ولد سنة (450هـ/1058م) والذي حوى كتابه الأدبي الذخيرة عددا لا يستهان به من التراجم، وابن صاعد (ت462هـ/1070م)، وأبو جعفر أحمد بن عبد الرحمن بن مطاهر الانصاري(ت 489هـ/1096) الذي ألف كتابا عن تاريخ رؤساء وفقهاء وقضاة طليطلة، ولا شك بأنه ترجم لهؤلاء الأعلام لذلك نقل منه ابن بشكوال وجعل منه منتخبا[4]، وهناك كتب ترجم فيها أصحابها لأسرة حاكمة بعينها كالكتاب المعنون بـ(المكنون في ترجمة ذي النون) الذي ترجم فيه صاحبه لابن ذي النون بطليطلة أورده حاجي خليفة ولم يذكر اسم مؤلفه[5] وغيرهم.

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج2، ص 113.

[2]- محي الدين سالم: تطور الدرس اللغوي في الأندلس، مجلة الآداب، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، ع14، 2014، ص ص 300-303.

[3]- ابن صاعد:المصدر السابق، ص 77؛ رحاب خضر عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام في النحو واللغة والفقه، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993، ج3، ص ص 171-173.

[4]- ابن الخطيب:الإحاطة في أخبار غرناطة: مج1، ص83؛ حسين مؤنس:تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، ط1، 1986، ص24.

[5]- حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ج1، ص 329.

8-علم مقارنة الأديان أو تاريخ الأديان: وضع لبنته الأولى أبو محمد علي بن حزم وسبق به أوروبا النصرانية بعدة قرون[1]، فوجود اليهود والنصارى في الدويلات الإسلامية كمكون من مكونات هذه الدويلات، وطعن الكثير من علمائهم في الإسلام كما فعل يوسف ابن النغريلة[2] جعل ابن حزم يتصدى لهم ويرد عليهم، ويعتبر كتابه " الفصل في الملل" الذي خص فيه الديانتين اليهودية والنصرانية بنقد لاذع أفضل مثال لعلم مقارنة الأديان في عصره[3].

ولم يكن ابن حزم العالم المسلم الوحيد في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي الذي ناظر اليهود والنصارى في عقائدهم، وجادلهم، ورد عليهم بل فعل ذلك أبو الوليد الباجي(474هـ/1081م)، وأبو جعفر أحمد بن الدودين البلنسي (لقيه ابن بسام سنة 477هـ/1084م)، وأبو الطيب عبد المنعم القروي (ت 493هـ/1100م)، وكلاهما اشتهر برده على أبي عامر أحمد بن غرسية من نصارى البشكنش الذي ذاع عنه أنه أسلم[4].

9-**علم الطب**: وقد ازدهر الطب وبلغ الذروة في عصر الطوائف على يد عدد من العلماء أمثال أبي القاسم خلف الزهراوي(ت427هـ/1036)، وابن وافد، وأبي العلاء زهر بن عبد الملك[5]، وأبيه أبو مروان عبد الملك وابنه عبد الملك بن أبي العلاء، وكوكبة كبيرة من الأطباء[6].

10- **علمي الحساب والهندسة**:برع فيهما جم غفير من العلماء وسنكتفي هنا بذكر عالمين أحدثا ثورة في هذا المجال وهما أبو زيد عبد الرحمن بن سيد البلنسي، فقد وضع أسسا جديدة لعلم الهندسة، وقدّم إضافات في دراسة المنحنيات الملتوية والمستوية، أما الثاني فهو ابن معاذ الجياني (ت470هـ/ 1077م)، وتكمن إضافاته الرياضية في كتاباته حول نظرية النسبة، وإدخاله الطابع التوافقي في حل بعض القضايا الفلكية، ووتطبيق الرياضيات في العلوم الطبيعية،إضافة إلى مساهمته في مجال حساب المثلثات، وقد وصل عدد العلماء البارزين في الرياضيات في عصر الطوائف اثنان وعشرون عالما[7].

---

[1]- بالنثيا: المرجع السابق، ص14.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص766.

[3]- ابن حزم: الفصل في الملل، ج1، ص 4.

[4]- خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي: المرجع السابق، ص ص 84-86.

[5]- اشتغل بالطب أيام المعتضد والمعتمد ابني عباد، له علاجات مختارة تدل على قوته في صناعة الطب واطلاعه على دقائقها، ينظر ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 517.

[6]- تنظر ترجمة هؤلاء الثلاثة عند ابن أبي أصيبعة: المصدر نفسه، ص ص 517-521.

[7]- محمد إبلاغ: الرياضيات في الأندلس ما بين القرن 3و9هـ(10-15م)، ق3، ضمن الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق3، الحضارة والعمارة والفنون، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1996، ص 36 ،37 ، 38؛ كريم عجيل حسين، نوفل حامد عبد الرحمن: المرجع السابق، ص 239.

11- علم الحيل(الميكانيكا):وممن برع في هذا العلم أمية بن الصلت بن عبد العزيز بن أبي الصلت، فقيامه برفع المركب الذي غرق في ميناء الإسكندرية باستعمال ثقل مواز وبالاعتماد على بكرات متعددة وخيوط الحرير المبرومة مع بعضها تجزم باتساع باعه في هذا العلم [1]، وفي طليطلة الزرقالي (480هـ/1087م) في صناعة الآلات الفلكية التي كان يراقب بها الأفلاك ، كما صنع ساعات دقاقة أعجب بها الناس في طليطلة غاية الإعجاب[2]، ويذكر سكوت أن الفلكيين الأندلسيين وعلى رأسهم ابن الزرقال صنعوا كذلك ساعات تتحرك بواسطة الماء والرمل والكرات الحديدية[3]، فكل من الساعات والاسطرلابات تقوم على علم الحيل.

ومثل الزرقالي محمد بن خلف المرادي(ق5هـ/11م) الذي نجح في اختراع عدة ساعات مائية تعمل بدقة متناهية، وقد استعمل الزئبق للتحكم في الحركة الميكانيكية لهذه الساعات[4]، ولم تقتصر ابتكارات الزرقالي في علم الحيل على الاسطرلاب والساعة بل تعدتهما إلى صناعة حوضين في بيت مجوف في جوف النهر الأعظم خارج طليطلة يمتلئان وينحسران مع زيادة القمر ونقصانه[5].

وفي بجانة يذكر العذري أن شاعرا تنسك في آخر عمره فلما مات عثر في بيته على ثلاث آلات ومخترعات الأولى تتمثل في عصا كان إذا كثرت البراغيث في بيته ألقاها في وسط البيت فتجتمع إليها فيحملها ثم يلقيها في الخارج فتنتثر عنها، والثانية رحى كانت عند رجلي سريره يركضها برجله فتطحن مدة، فإذا توقفت ركضها مرة أخرى فطحنت ما يريد طحنه، والثالثة كانون يطبخ به قدره وخبزه معا بنار واحدة في زمن واحد [6].

12-علم الفيزياء: وفي هذا الإطار يسعنا أن نذكر اسم العالم الموسوعي ابن باجَّة الذي توفي في بداية العقد الثاني من القرن السادس الهجري وإن كنا لا نعرف كم سنة عاشها ابن باجة في القرن الخامس الهجري إلا أننا متأكدون من أنه تلقى تكوينه العلمي في هذا القرن وقد عرف إسهام ابن باجة في علم

[1]- عمر فروخ: تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ط)، 1970، ص ص 228-229.

[2]- غوستاف لوبون: المرجع السابق ، ص477.

[3]- البشري:المرجع السابق، ص 623.

[4]- خوان فيرنيه: العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز الراسات العربية، بيروت، ط2، 1999،ج2، ص 1302.

[5]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص ص 206-207؛ مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، ص ص 93-94؛ الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر: كتاب الجغرافية، محمد حاج صادق، مكتبة القافة الدينية، بورسعيد، (د.ط)، (د.ت)، ص ص 83-84 ؛ حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج1، ص 479.

[6]- العذري: المصدر السابق، ص 87؛ البشري: المرجع السابق، ص ص 225-226.

الفيزياء لدى الغربيين باسم (ديناميكا ابن باجه) وقد اعتمد غاليلي على آرائه في انتقاده لنظرية أرسطوا ، كما قدم ابن باجَّة على غرار عدد من العلماء المسلمين آراء مهمة أثناء دراستهم للجاذبية[1] .

كما نسبت لابن حزم آراء في الفيزياء كذلك فتحت عنوان الطبيعيات يقول عمر فروخ : "ولابن حزم في الطبيعيات (في الفيزياء وعلم الحياة خاصة) ملاحظات بعضها خطأ وبعضها صواب واضح، أما فيما يتعلق بالفيزياء فله في المناظر (البصريات) أشياء تؤخذ من علم الطبيعة ومن علم النفس في وقت معا"[2]، وتحدث عن الحركة(الديناميكا) فقسمها إلى نوعين ما هو زماني منها وما هو مكاني ففي الحركة المكانية تحدث عن حركة الأجرام السماوية وفي الحركة الزمانية تحدث عن نمو الأشياء بالتدرج وببطء[3] .

13:**علم المناظرة**: شهدت الأندلس في عصر الطوائف أنواعا منها مناظرة العلماء من المذاهب الفقهية لبعضهم ومناظرة فقهاء المذهب الواحد بعضهم في مسائل مذهبهم وهذا شائع وكثير في القرن الخامس الهجري إشتهرت في النوع الأول مناظرة سليمان لباجي المالكي لأبي محمد علي بن حزم الظاهري في مجلس ابن رشيق، وقد أشرنا إليها في موضع آخر في هذا البحث ، أما من النوع الثاني فنذكر مناظرات الفقيه أبو المطرف بن الحصّار(ت 433هـ/1042)[4]، أما مناظرتهم لمن يخالفهم في الدين كاليهود والنصارى وهنا تبرز شخصية ابن حزم الذي كان مشهورا بمناظرة المخالفين له في المذهب وفي الدين كذلك[5] .

ولم يكن ابن حزم وحده في هذا المضمار بل شاركه فيه عدد من علماء الأندلس الذين كانوا يناظرون علماء غير المسلمين ويبينون عور دياناتهم وممن شغف بذلك محمد بن محمد بن لب الكناني، وكان يحب التطواف في أرض النصارى ويخالط أساقفتهم ويناظرهم في دينهم فكان يتغلب عليهم دائما[6]، كما أن ابن رشيق القيرواني(ت 456أو463هـ/1064أو1071م) يخبرنا بانه عندما حل مع والده بمدينة مرسية رد على جماعة من القساوسة والرهبان[7].

يسعنا القول بأن الأندلسيين في عصر الطوائف قد برعوا في جميع العلوم التي كانت معروفة آنذاك حتى تلك التي كانت محظورة منذ زمن المنصور بن أبي عامر وأعني هنا العلوم القديمة كما يسميها ابن حزم

1- سيد حسين نصر: المرجع السابق، ص 120.

2- عمر فروخ: ابن حزم الكبير، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980، ص 210.

3- فروخ: نفسه، ص 211.

4- خالد بن ناصر الغامدي:المرجع السابق، ص 452.

5- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 168.

6- ابن الخطيب: الإحاطة، مج3، ص 80.

7- خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي: المرجع السابق، ص 94.

أو علوم الأوائل بتعبير ابن صاعد كالفلسفة والمنطق وعلم التنجيم، فهذه العلوم قد رفع عنها الحظر زمن ملوك الطوائف، وأقبل الناس على مدارستها،ثم خف الإقبال مرة أخرى بعد ظهور حركة الاسترداد المسيحي في الشمال لانشغال الناس عنها[1]، أما علم الكلام، فكان من العلوم الممجوجة في هذه الفترة، وقد عدّ العلماء من يشتغلون به مبتدعا حتى زعم ابن عبد البر حصول الإجماع في ذلك[2]، ومع ذلك كان بالأندلس من اشتغل به، ويعد ابن حزم أكثر المشتغلين به وكتابه الملل دليل على ذلك.

إن نظرة بسيطة في تراجم العلماء الذين عاشوا في عصر الطوائف تجعلك تدرك بأنهم علماء موسوعيون فأسماؤهم تتكرر في جميع التخصصات، وأعدادهم في الأندلس كبيرة جدا ما ساعد على إحداث نهظة علمية شاملة.

لكن لا يجب أن يغيب عن علمنا بأنه إلى جانب هجرة العلماء من قرطبة إلى أنحاء مختلفة من الأندلس هناك عوامل أخرى ساعت على حدوث هذه النهضة العلمية، ومنها تحرير الكم الهائل من الكتب التي كانت في المكتبة المركزية بقرطبة، ومكتبة ابن فطيس (ت 402هـ/1011م)، وبذلك أصبح الكتاب العلمي في متناول الجميع[3]، يضاف إلى هذين العاملين تشجيع حكام الطوائف للعلم فمعظمهم كانوا من أهله فابن خلدون يذكر بأن مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية رباه المنصور بن أبي عامر وعلمه مع مواليه القراءات والحديث والعربية فبلغ في ذلك درجة الإتقان[4] بل عده ابن حيان أديب ملوك عصره لمعرفته الواسعة بالعربية ورسوخه في علم القرآن وكان مشتغلا بذلك منذ صغره حتى صار آية في المعرفة وجمع من المؤلفات والكتب الكثير حتى ملأ بها الخزائن وقصده العلماء من الأقاليم المختلفة واجتمع عنده من طبقات علماء قرطبة وغيرها جملة وافرة[5].

كما كان المعتصم بن صمادح من أهل الأدب والمعارف[6]، وكان يعقد في بلاطه مجالس للعلم والذكر والمحاضرة، ويخصص يوم الجمعة من كل أسبوع للمناظرة بين الفقهاء في كتب التفسير والحديث، أما ابن رشيق فقد كان عالما فذا مستوعبا لعدد من العلوم، لذلك كان يجتمع مع العلماء ويعقد مجالس للمناظرات أشهرها تلك التي جرت بين علي بن حزم وأبي الوليد سليمان الباجي[7]، وكان المظفر بن الأفطس يحضر العلماء للمذاكرة فيفيد ويستفيد، وله مؤلف ضخم يسمى المظفري ضمنه عددا من العلوم

1- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 67.

2- ابراهيم التهامي: المرجع السابق ، ص 196.

3- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 67؛ خوليان ريبيرا: المرجع السابق، ص 127.

4- ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص 211.

5- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 23؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 412.

6- ابن عذاري: نفسه، مج2، ص 421.

7- ابن خاقان: قلائد العقيان، م1،ج1، ق1، ص 146؛ ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص82، 128.

والفنون استغرقت خمسين مجلدا[1]، ومثله أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية كان من أهل العلم والأدب تقدم أرباب البيان والبلاغة في عصره راوية للحديث وكان مثل إسماعيل بن عباد يكتب رسائله عن نفسه بنفسه[2]، أما علي بن مجاهد العامري فكان يؤثر العلوم الشرعية ويكرم أهلها ما يعني أنه لم يكن لديه ميل كبير إلى العلوم العقلية[3].

أما المتوكل بن الأفطس فقد كان شاعرا عالما أديبا وبلاطه كان جامعة أدبية أكثر منه قصرا مملوكيا فكانت بطليوس في مدته دار أدب ونحو وشعر وعلم[4]، وفي غرناطة كان الحاكم المؤرخ عبد الله بن بلقين، وفي سرقسطة لمع نجم المقتدر بن هود وابنه يوسف في الرياضيات والفلك والفلسفة، ألف في هذا العلم عددا من المؤلفات منها الاستهلال والمناظر[5]، كما كان حكام اشبيلية العباديين من أهل العلم والأدب حماة للعلوم والفنون والآداب[6].

ولئن كان ملوك الطوائف في هذه الفترة قد شغلوا بمقارعة بعضهم عن مقارعة المشتغلين بالعلوم القديمة[7]، فإن فقهاء المالكية لم يدّخروا جهدا في فعل ذلك، فقد وجهوا إلى ابن حزم عددا من الرسائل ينكرون عليه فيها اشتغاله ببعض هذه العلوم ويعتبرون الخوض فيها ضربا من الإلحاد كعلم المنطق والهندسة لأن المنتجين لهذه العلوم ملاحدة، ومع ذلك فقد برع وبرز عدد كبير من العلماء في الصنفين.

فانظر كيف خدمت الصراع العسكري العلوم في فترة الطوائف ، فبسببها فتحت المكتبات أما الدارسين وتنقل الكتاب بحرية تامة فعادت العلوم القديمة إلى الساحة، وأنشئت مكتبات في مختلف أنحاء الأندلس، وبسببها أيضا خرج العلماء من أوطانهم ونشروا العلوم في أماكن أخرى صارت منارات للعلم فيما بعد، ولولا فوضى الصراعات لما تمتع العلماء بهذا القدر من الحرية الفكرية التي أطلقت الأفكار من عقالها، وأحدثت انفجارا علميا مس جميع حقول العلم والمعرفة[8].

1- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 467-468؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس، ج2، ص 26؛ بالنثيا: المرجع السابق، ص 118.

2- ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص ص 118-119؛ ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص ص 24-25.

3- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 61.

4- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص 120؛ عنان: المرجع السابق، ص 88.

5- ابن خلدون: المصدر السابق، ج4، ص209؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 441؛ بالنثيا: المرجع السابق، ص 454؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون،: المرجع السابق، ص 339.

6- عنان :المرجع السابق، ص 62.

7- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 340.

8- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 67؛ ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص 71؛ بالنثيا: المرجع السابق، ص13؛ ابن عبود: جوانب، ص 218.

فالصراعات العسكرية وإن كانت قد أرغمت الكثير من العلماء في مختلف التخصصات على الهجرة من قرطبة وحرمتها من عقولها المبدعة إلا أنها نفعت بها جهة أخرى من الأندلس ،إلا موت الكثير من العلماء بأسلحة المتصارعين عسكريا قد أثر في كثير من الأحيان على الحياة العلمية والمعرفية، وقد مات عدد كبير منهم في الفتنة القرطبية[1].

لقد تأملت النشاط العلمي والفكري في عصر الطوائف فوجدته قد قطع أشواطا كبيرة وفتح آفاقا جديدة وتأملت نشاط العلماء، فوجدته لم يفتر أبدا وقد تركوا بصمات واضحة في جميع العلوم التي عرفها البشر حتى ذلك الوقت، فالصراعات التي كانت تموج بها الأندلس آنذاك لم تثن عزائمهم ولم تستطع إخماد جذوة العلم في نفوسهم، بل كانت في كثير من الأحيان سببا في انتعاش العلوم وانتشارها، ولم يقل نصيب النساء الأندلسيات من العلوم عن نصيب الرجال فإخبار ابن حزم عن نفسه بأنه تلقى القرآن والمبادئ الأولى للقراءة والكتابة على أيدي نساء القصر أكبر دليل على ذلك،كما أن اتقان القيان اللواتي كان محمد بن الحسن الكتاني المتطبب يشرف على تعليمهن لجملة من العلوم كالمنطق، والفلسفة، والهندسة، والموسيقى، والفلك،والأدب، والخط، والعروض يعكس مدى مساهمتهن في العلوم[2] لذلك اعتبر القرن الخامس الهجري العصر الذهبي للعلوم بالأندلس[3].

الفرع الثاني: حركة التأليف والترجمة:

أولا:التأليف: بعد الإطلاع على العلوم التي حظيت باهتمام العلماء في الأندلس خلال هذه الفترة، وبعد الوقوف على العدد الهائل من العلماء الذي نبغوا في مختلف المجالات المعرفية، وجدنا بأن هؤلاء العلماء لم يتركوا هذه المعارف تذهب سدى بل قاموا بصبّها في كتب تحفظها من النسيان، وهذا ما تبوح به الكثير الدراسات والبحوث في هذا الإطار[4].

تحيلنا الدراسات التي كتبت عن الفكر الأندلسي في هذه الفترة على عدد كبير جدا من المؤلفات ربما لا يوجد له مثيل في الفترات الأخرى من تاريخ الأندلس. لقد ألف علماء الاندلس في عصر الطوائف في جميع العلوم التي كانت معروفة آنذاك، وبما أنهم يشاركون في عدد من العلوم، فقد كانت مؤلفاتهم متنوعة، ولأن اوراق البحث لا تتسع لذكر كل ما ألف في هذه الفترة فسيتم التركيز على مؤلفات العلماء المشاهير الذين أطبق الناس على تبحرهم في العلم في تخصصات مختلفة.

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 428؛ عمر راجح شلبي: المرجع السابق، ص 266، 272.

[2]- ابن بسام:المصدر السابق، ق3، مج، ص 320؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص 172.

[3]- خوان فيرنيه: المرجع السابق، ص 1301

[4]- ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية، ص 58.

لا يسعنا ونحن نعدد أسماء هذه المؤلفات في عصر الطوائف أن نغض الطرف عن كتب أبي محمد علي بن حزم الظاهري، فقد ألف الكثير من المؤلفات في مختلف العلوم والفنون حتى وصفه ابن بسام بالمكثر من التأليف والتصنيف[1].

لقد تفرغ ابن حزم بعد مقتل الخليفة المستظهر بالله الأموي واضطهاده من قبل ملوك الطوائف وإعلان الحرب عليه من قبل فقهاء المالكية والدعوة إلى اعتزاله وعدم حضور دروسه للتأليف في ضيعة أسرته في قرية من قرى لبله، وبعضها ألفها قبل ذلك[2]، فتنوعت مؤلفاته تنوع معارفه التي تكوّن شخصيته وتعبر عن التقلبات التي مر بها في حياته، فقد كان أديبا وفقيها ومؤرخا وشاعرا، فألف في الأدب " **طوق الحمامة**" سنة 417هـ/1026م، وفي دراسة ومقارنة الأديان والمذاهب والفرق " **الفصل في الملل والأهواء والنحل**" وفي الأنساب كتاب " **جمهرة أنساب العرب**" الذي تتبع فيه الأسر العربية والبربرية والإسبانية التي عاشت في الأندلس، وفي التاريخ كتاب " **نقط العروس في تواريخ الخلفاء**" وكتاب "**رسالة الأخلاق والسير**" التي يطرح فيها تجاربه الشخصية في الحياة، ويحث فيه الناس على التقوى والورع وكتاب"**الصادع والرادع**" و " رسالة في فضل الأندلس" [3] ومجموعة من الرسائل كانت أجوبة على أسئلة وجهت له وبعضها الآخر ردود كالتي رد فيها على يوسف بن النغريلة اليهودي الذي ألف كتابا يزعم، نه ضمنه التناقضات التي يحويها القرآن، وكتب أخرى كثيرة، وقد وصل إنتاجه الفكري خلال فترة ليست بالطويلة إلى أربعمائة مجلد تتضمن ثمانين ألف ورقة[4].

وبذكر ابن حزم نذكر الباجي(ت474هـ/1081) الذي لا يقل علما عنه، فقد ألف أبو الوليد عددا كبيرا من المؤلفات تحت عناوين مختلفة في الأصول، والفقه، والتوحيد ، والجدل والمناظرة، والفقه، وعلم الحديث، والتفسير وغيرها[5].

وفي الفترة نفسها ألف المؤلف الضخم المسمى بالمظفري، أو"التذكرة" ألفه المظفر بن الأفطس وجاء في خمسين مجلدا ضمّنه الأخبار والسير والآداب المتخيرة والطرف والنكت والغرائب الملوكية واللغات الغريبة[6]، فهذه المؤلفات توحي بنشاط حركة التأليف ما يعني أن الحروب والصراعات العسكرية التي نشبت بين ملوك الطوائف لم تتأثر بها حركة التأليف.

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 169.

[2]- ابن بسام: نفسه، ق1، مج1، ص ص 168-169.

[3]- المقري: المصدر السابق، مج2، ص 79؛ مجموعة من المؤلفين: موسوعة الشروق، ص ص 73-74.

[4]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج،2، ص 31؛ حسان محمد حسان: المرجع السابق، ص 53.

[5]- تنظر أسماء مؤلفاته عند المقري: المصدر السابق، مج2، ص 69.

[6]- المقري: المصدر نفسه، مج1، ص 442؛ مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس،ج2، ص ص 26-27.

ويمكن اعتبار الردود العلمية التي كتبها أبو الأصبغ ابن الأرقم على الملاحظات التي سجلها ابن سيدة على الرسالتين اللتين كتبهما أبو الأصبغ بأمر الملك إقبال الدولة علي بن مجاهد إلى مصر – وأفاض في بيان صحة كل كلمة أثبتها فيهما وساق الشواهد على صحة ذلك من الشعر العربي القديم ومن المعاجم اللغوية المعتبرة– يمكن اعتباره هذه الردود من المؤلفات التي ألفت في هذ المرحلة وفق منهج علمي دقيق حيث تنوعت المواضيع التي كتبت فيها الردود من عقدية إلى مسائل في اللغة كالصرف والمجاز وغيرها[1].

وقد يعزى جهل ابن سيده ببعض مسائل اللغة إلى كونه قد ولد ضريرا ومع ذلك عده العارفون بخبايا العربية وعلومها آية في ذلك، وليس أدل على ذلك من المؤلفات التي ألفها في هذا المجال ونذكر منها "المخصص" و" المحكم والمحيط الأعظم" و"الأنيق" الذي شرح فيه ديوان أبي تمام و" شرح ما أشكل من شعر المتنبي " وكتب أخرى في المنطق[2]، وهو كغيره من علماء هذا العصر الذين تركوا خلفهم مؤلفات في مجالات مختلفة كلها توحي بأن حركة التأليف في هذه المرحلة لم يتأثر بالصراعات العسكرية التي كانت تدور رحاها في الأندلس.

أما حافظ الأندلس أبو عمر يوسف بن عبد البر فقد جملة من المؤلفات والتصانيف الجليلة في هذه الفترة مثل " **التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد**" يتألف من سبعين جزء ، وكتاب " **الاستذكار لمذاهب علماء الأمصار لما تضمنه موطأ مالك من معاني الرأي والآثار**"، وكتابا في أسماء الصحابة رضي الله عنهم، وكتاب " **جامع بيان العلم وفضله وما ينبغي في روايته وحمله**" وكتاب" **بهجة المجالس وأنس المجالس...**" **وكتاب "العقل والعقلاء**"، وكتاب " **اختلاف أصحاب مالك**" أربعة وعشرين جزء ، وكتاب " الكافي في الفقه على مذهب أهل المدينة" ستة عشر جزء ، وكتاب " **أخبار أئمة الأمصار**" سبعة أجزاء وتواليف أخرى[3]، ونحن إن كنا لا ندري بالتدقيق متى ألفت هذه المصنفات لأن ابن عبد البر عاش جزء من حياته في القرن الرابع لكن الذي يغلب على ظننا أنه ألفها في القرن الخامس الهجري لأن طلبه للعلم كما قال الذهبي كان بعد التسعين وثلاثمائة، لكنه كما وصفه ابن بشكول كا موفقا في التأليف معانا عليه[4].

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 372 وما بعدها؛ ترجمة أبي الأصبغ ينظر: ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1995، ج3، ص 87، رقم الترجمة 212 ؛ المقري: المصدر السابق، مج3، ص498.

[2]- أنظر ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص 33، رقم الترجمة 892 ؛ الحميدي: المصدر السابق، ص452، رقم الترجمة 710، وفي أسفل هذه الصفحة عدد كبير ممن ترجم لهم.

[3]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص 327.

[4]- الذهبي: المصدر السابق، ج18، الطبقة 24، 25، ص 154؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص ص326- 327.

وألف أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي عددا من المؤلفات تتأرجح بين الهندسة وعلم الحساب ومنها كتاب" **المدخل إلى الهندسة في تفسير كتاب إقليدس**" وكتاب "**ثمار العدد**" المعروف بالمعاملات، وكتاب " طبيعة العدد" ، وكتابه الكبير في الهندسة، وكتابان عن الإسطرلاب أحدهما جعله للتعريف به والثاني في كيفية العمل به وبيان فوائد العمل به، وقد جاء في مائة وثلاثين بابا، وكتاب في جزأين يحتوي جداول فلكية على مذهب السند هند[1]، ولا شك بأن هذه المؤلفات متخصصة في مجالها تكشف عن موسوعية هذا العالم وتمكنه في هذه العلوم الدقيقة.

وقد عرفت الفترة نفسها الكثير من العلماء المتخصصين في الهندسة والحساب وعلم الفلك، وقد ألفوا فيها المؤلفات النفيسة كأبي القاسم بن عبد الله بن عمر المعروف بابن الصفار (ت 426هـ/1035م)[2]، وأحمد بن علي الكرماني (ت 458هـ/1066م)[3]، وفي عصر المعتضد ابن عباد ألّف له الأديب واللغوي المسمى الأعلم عددا من المؤلفات منها شرح الأشعار الستة ، وشرح الحماسة وغيرها[4].

وألف أبو العلاء زهر بن أبي مروان الذي بدأ بالاشتغال بالطب وهو صغير أيام المعتضد بن عباد عددا من الكتب في الطب والصيدلة منها (الأدوية المفردة) و(الخواص) و (حل شكوك الرازي)[5]، وفي نفس التخصص ألف ابن وافد كتبه " **تدقيق النظر في علل حاسة البصر**" و" **الوساد** و" **مجربات في الطب**" و" **المغيث**"[6]، وفي هذا العصر كذلك ألف العالم الرياضي ابن صاعد كتابه المسمى " طبقات الأمم"، كما أهدى المؤرخ الكبير ابن حيان كتابه الضخم في التاريخ للمأمون بن ذي النون[7].

وألف الجغرافي الأندلسي المعروف أبو عبيد البكري (ت 487هـ/1094م) عددا من المؤلفات القيمة تنتمي إلى مجالات معرفية مختلفة، فألف " **السالك والممالك**" وهو كتاب جغرافي، وهو أضخم مؤلفاته، وكتاب "**معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع** " وهو كسابقه كتاب جغرافي، وفي الأدب واللغة كتاب" **الإحصاء لطبقات الشعراء**"، وكتاب " **اشتقاق الأسماء**" وكتاب " **التنبيه على أغلاط أبي علي في أماليه**" وكتاب " **سمط اللآلي في شرح أمالي القالي**" ، وفي ميدان الصيدلة ألف

---

[1]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ص 483-484.

[2]- ابن بشكوال: المصدر السابق، ج1، 81، رقم الترجمة 85.

[3]- ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص ص 484-485.

[4]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص502. تنظر ترجمته عند الزركلي: المرجع السابق، ج8، ص 233.

[5]- ترجمته عند الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص 596؛ ، ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص 521.

[6]- ابن أبي أصيبعة، المصدر نفسه، ص 496.

[7]- عنان: المرجع السابق، ص 106.

كتابه " **أعيان النباتات والشجريات الأندلسية**" وكتاب " **النبات**" وكتاب " **أعلام نبوة نبينا محمد عليه السلام**" وكتب أخرى[1].

وذكر ابن عذاري أن مجاهد العامري لما كان من أهل العلم قصده العلماء والفقهاء من المشرق والمغرب وألفوا له تواليف مفيدة في سائر العلوم وقضى مدة حكمه لدانية والجزائر الشرقية مهتما بالعلم والعلماء وجمع من دفاتر العلوم خزانة جمة [2].

وفي دانية والجزائر الشرقية ألف المقرئ الشهير أبو عمرو الداني[3] نحو مائة مؤلف ومنها كتابه في علم القراءات المسمى " التيسير" وكتاب " المقنع" في الرسم القرآني وكتاب في طبقات المقرئين وغيرها[4]، وألف ابن بطّال (ت 444هـ/1052م) كتابه الذي شرح فيه صحيح البخاري في عدة أسفار[5].

وألّف إسماعيل بن النغريلة مؤلفات بالعربية والعبرية معا، فألف في الرياضيات كتابه المسمى " **السجيح في علوم الأوائل الرياضية**"، وكتب بالعبرية رسالة رد، فيها على أبي مروان بن جناح اليهودي كما كتب مقدمة للتلمود بالعبرية أيضا تناولت منهجه ومصطلحاته، وعددا من المؤلفات حذا في تأليفها حذو المزامير مثل " بن تحليم" والأمثال " بن مشلي" والجامعة " قوهلت"، كما كتب اثنين وعشرين مؤلفا في النحو ربما باللغة العبرية أيضا، وكان قد وظّف نساخا ينسخون المشنا والتلمود ليقدمها مجانا لمن لا يستطيع شراءها من طلاب العلم اليهود داخل الأندلس وخارجها[6].

والمتامل لكلام المراكشي عن المحنة التي ألمت بأبي بكر بن عمار، يجد بأن السجناء في ذلك الزمان أي زمن ملوك الطوائف يؤذن لهم بالكتابة داخل السجون وتوفر لهم أدوات الكتابة[7]، ما يعني أن كثيرا من مؤلفات ذلك العصر قد ألّفت داخل السجون.

وفي طليطلة ألّف الفلكي والرياضي إبراهيم بن يحي الزرقالي كتابا سماه " **العمل بالصحيفة الزيجية**" يشرح فيه طريق العمل بالاصطرلاب الذي قام باختراعه, وكتاب " **التدبير**" وكتاب " **المدخل**

[1]- ابن ابي أصيبعة:المصدر السابق، ص 500؛ الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص ص 35-36؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 376، بالنثيا: المرجع السابق، ص ص 309-311؛ فريد جحا: المرجع السابق، ص 354.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص ص 411-412.

[3]- أنظر ترجمته عند الضبي: المصدر السابق، ص 538، رقم الترجمة 1189.

[4]- الضبي: نفسه، ص 583، رقم الترجمة: 1189، الحميدي: المصدر السابق، ص 445، رقم الترجمة 703؛ ابن خلدون: المصدر السابق، ج1، ص ص552-553.

[5]- الذهبي: المصدر السابق، ج18، ص 47، رقم الترجمة 20؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص ص 29-30.

[6]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 10، الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 57.

[7]- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 97.

إلى علم النجوم" وهي مؤلفات فلكية لأن هذا العالم كان مهتما بعلم الفلك[1]، وقد طغى في طليطلة التأليف في الفلك والرياضيات والطب والصيدلة، وفي سرقسطة لقيت العلوم نفسها ذات الاهتمام، فقد كان المقتدر والمؤتمن من بني هود من أنصار العلوم، وقد نالت الرعاية اللازمة في وقتيهما وخاصة الفلسفة والرياضيات والفلك، وفي هذا الاخير ألف المؤتمن كتابا علق عليه موسى بن ميمون[2]، وفي غرناطة القرن الخامس نجد العالم أبو القاسم أصبغ بن محمد بن السمح (426هـ/1035م) كان متخصصا في علم العدد، والهندسة، والفلك، وكان معتنيا بالطب كذلك[3]، ولا شك بأنه قد دون هذه المعارف.

وألّف أبو الصلت أمية بن عبد العزيز بن أبي الصلت تواليف جمة في تخصصات مختلفة، فمن كتبه الرسالة المصرية التي يمكن اعتبارها مثل كتب الرحالة حيث ذكر فيها كل ما شاهده في مصر خلال إقامته بها، وكتاب" "**الأدوية المفردة على ترتيب الأعضاء المتشابهة الأجزاء والآلية** "، وكتاب " **الانتصار**"، وكتاب " **حديقة الأدب**"، وكتاب " **الملح العصرية من شعراء أهل الأندلس والطارئين عليها**"، وديون شعري ، ورسالة في الموسيقى، وكتاب في الهندسة، ورسالة في العمل بالاسطرلاب، وكتاب " **تقويم منطق الذهن**"، وتواليف مفيدة في الطب وهو الغالب عليه وفي الأدب، والعروض، والتاريخ[4].

وممن ألف المصنفات المفيدة في اللغة وعلومها والمنطق أبو الحسن بن سيده(ت 458هـ/1066) ففي اللغة ألف " **المحكم و المحيط الأعظم** مرتب على حروف المعجم وكتاب "**المخصص**" مرتب على الأبواب ، وكتاب " **شرح إصلاح المنطق" و" شرح كتاب الحماسة**"[5].

وفي علم الفلاحة تشير الدراسات الإسبانية أن علماء المسلمين ألفوا فيه مؤلفات على درجة عالية من الكمال يذكر فيها أصحابها تجاربهم في الفلاحة، وخصائص النباتات، ومقارنة الأصناف الزراعية ببعضها ومن هذه المؤلفات التي تعود لعلماء عصر الطوائف كتاب " **الزراعة**" لابن بصال[6] وهو كتاب كبير

---

[1]- غوستاف لوبون: المرجع السابق، ص 477.

[2]- بالنثيا: المرجع السابق، ص ص 16-17؛ خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 340.

[3]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص ص 69-70.

[4]- ابن ابي أصيبعة: المصدر السابق، ص ص514-515 ؛ ابن الأبار:المقتضب من كتاب تحفة القادم، ص ص56-57.

[5]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 77.

[6]- هو أبو عبد الله محمد بن إبراهيم بن بصال الطليطلي من أهل القرن الخامس الهجري، من أعظم النباتيين المسلمين قام برحلات طويلة زار فيها المغرب ومصر وطقيلية، وأنشأ في اشبيلية بستانا رزع فيه ما جمعه من أصناف النبات في رحلاته سماه بستان السلطان يرجح أنه للمعتمد بن عباد، لم تكشف المصادر سوى عن معلومات يسيرة عن حياته.ينظر ابن بصال:كتاب الفلاحة، نشر وترجمة خوسيه ماريا مياس بييكروسا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج5، ع1-2، 1957، ص 280؛ محمد البركة: ابن بصال الطليطلي (ت499هـ/1106م)حياته العلمية وآثاره التجريبية، مجلة عصور الجديدة، ع14-15، جامعة وهران، صيف-خريف أكتوبر 1435هـ/2014، ص ص 127-129.

يضم خمسة عشر بابا ضمنه آخر ما توصل إليه العقل الأندلسي في علم الزراعة، ولا أدري هل هو الكتاب نفسه الذي ألّفه للمأمون بعد عودته من الحج وسماه " **ديوان الفلاحة**" ضمنه ملاحظاته لبلاد كثيرة مرّ بها في رحلة الحج ثم اختصر هذا الكتاب الضخم تحت عنوان " **كتاب القصد والبيان**"[1]، وكتاب " **المقنع**" لأبي عمر أحمد بن محمد بن حجاج الذي ألفه حسب ابن العوّام سنة 466هـ/1074م، وكتاب " **زهرة البستان ونزهة الأذهان**" لأبي عبد الله محمد بن مالك الطغنري الغرناطي[2] تلميذ ابن بصال، والجزء الحادي عشر وبعض الثاني عشر من كتاب " **المخصص**" لابن سيده الذي ضم أبوابا كاملة تحدث فيها عن الأرض ونعوتها وما يتعلق بها من خصب، وجدب، وحرث، وإنبات، ثم أفرد أبوابا للشجر وأنواعها وأثمارها وعيوبها، وأثمار النبات وغيرها من المعلومات الفلاحية التي تضمنها هذين الجزئين من هذا المؤلف، أما الجزأين التاسع والعاشر فقد خصصهما لأسماء المياه والأسقية والبحار والانهار والآبار والحياض والأراضي ما يصلح منها للنبات وما لا يصلح[3].

ومما يدل على ازدهار حركة التأليف والترجمة في عصر ملوك الطوائف تلك الخزانة الجليلة التي عثر عليها في بيت يوسف بن النغرالة اليهودي بعد مقتله على يد سكان غرناطة مع عدد كبير من اليهود عام 459هـ/ 1067م احتوت عددا كبيرا من الكتب في شتى العلوم الإسلامية، وقد اتخذ لنفسه وراقين ينسخون له الكتب بالمرتبات، ولا شك بأن النسخ قد تم من العربية إلى العبرية لأن ابن النغريلة كان يتقن اللغتين، وإلا فلا فائدة منه إذا كان من العربية إلى العربية[4]، وهذا ما أكده محمد ماهر حمادة في كلامه عن الأدب حيث ذكر بأن ازدهاره قد نتج عنه نشاط منقطع النظير في حركة التأليف[5].

كما يدل العدد الكبير من الكتب التي جمعها أحمد بن عباس وزير زهير العامري في بيته وعدد الدفاتر التي يرجح أنه كتبها بيده -لأنه كما قال ابن حيان "كاتبا حسن الكتابة، مليح الخط،...غزير الأدب، قوي المعرفة" على أن حركة التأليف كانت ظاهرة عامة في الأندلس في عصر الطوائف، ففي خزانة ابن عباس هذا كما يروي ورّاقه أربعمائة ألف كتاب، بل اجتمع عنده منها ما لم يجتمع عند ملك، أما الدفاتر المحزومة فلم يقدر على عدها لكثرتها[6].

---

[1]- فريد جحا: المرجع السابق، ص 363.

[2]- كان على عهد عبد الله بن بلقين.

[3]- محمد أسين فرشوخ: المرجع السابق، ج5، ص ص 165-166؛ فريد جحا: المرجع السابق، ص 352؛ حسين نصار: المرجع السابق، ص 75.

[4]- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 73؛ ابن عذاري: المصدر السابق، ج2، ص 496؛ ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج1، ص440.

[5]- ماهرحماده: الوثائق السياسية والإدارية، ص 58.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص664، 665؛ ابن الخطيب: الإحاطة، مج1، ص 259.

لا أريد أن استرسل في الحديث عن التأليف والمؤلفات في القرن الخامس الهجري لأن ذلك يحتاج إلى مجلدات، لذا سأكتفي بهذا القدر لانتقل إلى حركة الترجمة.

ثانيا:الترجمة: أما ازدهار الترجمة في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي، فيعزوه البعض إلى وجود كمّ هائل من العلماء والأدباء المسلمين يتقنون عددا من اللغات الأجنبية في مختلف دويلات الطوائف، فنذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر عبد الدايم بن مروان بن جبر اللغوي في المرية (ت462هـ/1070م)، ومحمد بن موسى بن فتح الأنصاري في بطليوس (ت 460هـ/1068م)، وهشام بن محمد بن هشام بن محمد القيسي المعروف بابن الصحفي في قرطبة(ت440هـ/1048م)، ويوسف بن عيسى بن سليمان النحوي في شنتمرية الغرب(ت 476هـ/1083م)[1]، ففي كل صقع بالأندلس في عصر ملوك الطوائف يوجد علماء متقنون للغات مختلفة ما جعل عملية الترجمة نشطة.

كما أنّ ولع القساوسة والرهبان النصارى بمناظرة العلماء المسلمين جعلهم يقبلون على ترجمة مختلف العلوم الإسلامية بهدف نقدها، واستمالة غير المتمكنين منهم لإدخالهم في ديانتهم، وهذا ما لاحظه ابن رشيق القيرواني(ت456هـ/1064م) عندما وفد مع أبيه على مرسية حيث ناظرهم وتمكن من إفحامهم[2].

ثمة سبب آخر جعل الترجمة تزدهر في عصر الطوائف، ويتعلق الامر بإعجاب الكثير من اليهود باللغة العربية وإقبالهم على دراستها ما جعلهم يترجمون الكثير من مؤلفاتها إلى العبرية، ومن ذلك المؤلفات التي ترجمها الفيلسوف اليهودي سلومون ابن يهوذا بن جبرول.(ت462هـ/1070م)[3].

وفي بلاط الفونسوا السادس يوجد عدد من الأدباء المسلمين واليهود الذين يتولّون كتابة خطاباته إلى ملوك الطوائف، ويتخذ منهم سفراء إليهم، كما كان يصطحب عددا منهم في حملاته العسكرية[4]، ولا شك بأن هؤلاء الأدباء يتقنون إلى جانب اللغة العربية لغة الفونسوا السادس فيقومون أثناء الحملات العسكرية بترجمة كلامه لملوك الطوائف، كما أنهم يترجمون كلامه أثناء كتابتهم للرسائل، فهو يمليها بلسانه وهم يكتبونها مترجمة للعربية، فانظر كيف ساهمت الصراعات العسكرية في ازدهار حركة الترجمة، فلولا الصراع بين ملوك النصارى وملوك الطوائف لما كان لاصطحاب الفونسوا للمترجمين في حملاته فائدة.

1- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص ص 452-453.

2- خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي: المرجع السابق، ص ص 94-95.

3- بالنثيا:المرجع السابق، ص ص 493-494.

4- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 452.

ويفهم من قول ابن حيان عن يوسف بن إسماعيل بن النغرالة اليهودي " ناهيك من رجل كتب بالقلمين واعتنى بالعلمين وشغف باللسان العربي" أن يوسف كان يجيد اللغتين العربية والعبرية معا ويكتب بهما وهذا ما رشحه إلى جانب عوامل أخرى ليكون كاتبا ووزيرا في دولة باديس بن حبوس[1]، وفي حقيقة الأمر ثمة جمّ غفير من اليهود في مختلف التخصصات أنعشوا حركة الترجمة بسبب اتقانهم إلى جانب العبرية العربية، والقشتالية، واللاتينية، واليونانية[2].

إن وصف ابن حيان يوسف بن النغريلة بأنه يكتب بالقلمين يوحي بأن الرجل كان يقرأ المؤلفات باللغتين العربية والعبرية ولا شك بأنه ترجم الكثير من علوم العربية إلى لغته الأم، وفي الحقيقة توجد الكثير من القرائن التي تنطق بازدهار حركة الترجمة في عصر الطوائف، وانتشارها على نطاق واسع في الأندلس[3].

وبالحديث عن الترجمة تستوقفني عبارة مهمّة استعملها أمحمد بن عبود أثناء حديثه عن تطور الشعر في عصر الطوائف إذ يرى بأن الشعر قد تطور تطورا ملحوظا في إطار" **عملية التعريب التي وصلت إلى درجة جد متطورة في القرن الخامس الهجري**"[4] والتي اتخذت وسيلة لنشر الشعر العربي في المجتمع الأندلسي على أوسع نطاق، فكلمة التعريب التي تعني هنا نقل ما كتب بالعربية إلى غيرها من اللغات المنتشرة بالأندلس إبان القرن الخامس الهجري وليس العكس تدل بوضوح لا خفاء فيه أن ترجمة التراث العربي خاصة الشعر إلى اللغات الأخرى كانت على قدم وساق، فهل كان ذلك قاصرا على الأشعار أم أن العلوم المعروفة آنذاك قد طالتها عملية الترجمة كذلك؟

ثمة قرائن تدل على أن العلوم المختلفة كانت تحت طائلة الترجمة كذلك إلى مختلف اللغات المعروفة بالأندلس آنذلك، فقد كان قسطنطين اليوناني(ت480هـ/1087م)، أشهر مترجم للمؤلفات العربية الطبية في هذه الفترة إلى اللغة اللاتينية ، فهو نصراني عاش في قرطبة، ثم خرج منها وأصبح قسا لدير كاسينوا في أوروبا النصرانية سنة 447هـ/1055م، وقد أثرت الترجمات التي قدمها للعلوم العربية في دراسة العلوم في جنوبي ايطاليا[5].

---

[1]- ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، مج1، ص 438.

[2]- ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص 103.

[3]- علي عطية الكعبي: المرجع السابق، ص 177.

[4]- ابن عبود:جوانب من الواقع الأندلسي، ص 153.

[5]- حامد الشافعي دياب: الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998، ص 51؛ علي عطية الكعبي: المرجع السابق، ص 179.

وبالرجوع إلى كتاب طبقات الأمم الذي ترجم فيه صاحبه لجم غفير من علماء الأندلس في القرن الخامس الهجري نجد عبارات صريحة تدل بجلاء واضح على أن عملية الترجمة كانت حاضرة في هذه الفترة حيث ذكر ذكر أسماء عدد ممن قاموا بتأليف مؤلفات تفسر كتاب إقليدس كأبي القاسم أصبغ بن محمد بن السمح المهندس الغرناطي(ت 426هـ/1035م [1]، كما أن تأليفه لكتاب في الجداول الفلكية على مذهب السند هند دليل على اطلاعه على المؤلفات المكتوبة باللغة الهندية والتأليف على منوالها، ولم يكن ابن السمح وحده من ألف على هذا المذهب بل فعل ذلك الكثير من معاصرية كابن الصفار(ت 426هـ1035م)، أما عبد الله بن أحمد السرقسطي، فقد كتب رسالة إلى أبي مسلم بن خلدون الإشبيلي يبين له فيها فساد مذهب السند هند في حركات الكواكب[2].

وتفيد حكاية عابرة لابن حزم بأن علماء قرطبة قد واصلوا ما بدأه علماء " بيت الحكمة" معهد الترجمة العباسي في بغداد ، فنقلوا على مراحل علوم الإغريق والشرق إلى الغرب واستمر هذا العمل في طليطلة بعد سقوطها في يد المسيحيين[3]، ما يفيد بأن عملية الترجمة لم تتوقف حتى في الفترات التي تسودها الفوضى كفترة ملوك الطوائف، بل إن الباحث المغربي محمد إبلاغ يرى بأن عصر ملوك الطوائف قد شهد ازدهارا كبيرا في عملية نقل العلوم من العربية إلى العبرية واللاتينية، وأن المدن الإسلامية الأندلسية التي تسقط بيد النصارى قد تحولت إلى مراكز مهمة للترجمة[4]

وقد لعبت الأديرة دورا لا يستهان به في هذه العملية، ومنها انبثقت مدرسة لوران التي ينتسب إليها الراهب هرمان كونتراكتو(404-446هـ/1013-1054م) التي عنيت بهذا الشان، ولم تكن هذه المدرسة الوحيدة في مجال الترجمة بل حوت الأندلس خلال هذه الفترة أماكن أخرى كبرشلونة خاصة في مدن طرسونة، وشقوبية، و وليون، وهذه البؤر هي التي مهدت لظهور مدرسة طليطلة التي سطع نجمها في الترجمة بعد ذلك[5].

إن هذا الكمّ الكبير من المؤلفات التي ألفها علماء الأندلس في مختلف التخصصات في هذه الفترة يعكس المستوى العلمي المتقدم لهؤلاء العلماء في مختلف العلوم، وإقبالهم على تدوين ما تعلموه، وحرصهم على نشر هذه العلوم على نطاق واسع، وجعلها في متناول الجميع، كما أن اهتمام الحكام بفئة

---

[1]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 69؛ ابن أبي أصيبعة: المصدر السابق، ص483.

[2]- ابن صاعد: المصدر السابق، ص ص 72-73.

[3]- روبرت هيلنبراند: "زينة الدنيا" قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، ضمن كتاب الحضارة العربية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج1، ص 195.

[4]- محمد إبلاغ: المرجع السابق، ص 36.

[5]- جمعة شيخة: دور مدرسة الترجمة بطليطلة في نقل العلوم العربية إلى أوروبا، ضمن الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات ، ق3، الحضارة والعمارة والفنون، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1996، ص131.

العلماء وتشجيعهم على الإنتاج العلمي، وتوفير الأجواء المناسبة كشكل من أشكال التنافس مكّن الأندلسيين من إحداث نهضة علمية في فترة خيّم عليها الانقسام السياسي والاستبداد، كل هذه المؤشرات تجعلنا نجزم بأن الصراعات العسكرية التي جعلت من الأندلس منطقة متوترة قد دفعت بالعلوم إلى الأمام ولم تكن حجر عثرة في طريقها وكانت الترجمة وجها من وجوه ازدهارها.

ثمة عامل آخر ساعد على ازدهار عملية التأليف ويتعلق الأمر بالكمّ الهائل من النساخين الذين حفلت بهم هذه المرحلة، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر حمام بن أحمد الأطروش من أهل قرطبة كان قويا على النسخ ينسخ في اليوم الواحد نيفا وعشرين ورقة[1]، ولم تكن مهنة النسخ قاصرة على الكبار أو النساء بل شاركهم فيها الصبيان، فقد مرّ أبو بكر بن اللبانة يوما بصبي في بطليوس نسخ ما تحار فيه العقول فقال[2]:

أبصرت أحمد ناسخا فرأيت ما أغمى وأعيا أن يحدَّ ويوصفا.

يضاف إلى العامل السابق عامل آخر مهم دفع بحركة التأليف إلى الأمام ويتعلق الأمر بالطلب الكبير والمتزايد من قبل طلاب العلم على مؤلفات شيوخهم التي كانت بمثابة مقررات دراسية ومراجع يرجعون إليها[3]، لذلك فاقت هذه الفترة غيرها من فترات التاريخ الأندلسي في حجم المؤلفات التي ألفت فيها[4].

وهذا الازدهار لحركة التأليف والترجمة في القرن الخامس الهجري لا يعني أنها لم تتأثر بالصراعات العسكرية البتة، فقد تسببت في كثير من الأحيان في حرق وإتلاف الكثير من المصنفات والمكتبات أثناء المداهمات، وتسبب القتل الذريع للعلماء خلال هذا القرن في وأد الكثير من الأفكار قبل صبها في مؤلفات تنفع الأمة.

وأخيرا يمكن اعتبار المكانة التي صنعها بعض الملوك لأنفسهم في قلوب الأندلسيين من خلال الانتصارات المتكررة على خصومهم في الصراعات العسكرية قد جعلت بعض المؤلفين يعجب بهم ويهدي لهم مؤلفاته، كما فعل أبو عامر بن مسلمة مع المعتضد بن عباد فقد أهدى له كتابه المسمى " حديقة الارتياح في وصف حقيقة الراح" ، وفعل المؤرح اابن حيان مع المأمون بن ذي النون الشيء نفسه فأهداه

---

[1]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 220.

[2]- ابن خاقان: قلائد العقيان، م2،ج2، ق4، ص 790.

[3]- حامد الشافعي دياب: المرجع السابق، ص ص 59-60.

[4]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 239.

مصنفه في التاريخ[1]، وتوافد العلماء على مجاهد العامري في دانية فألفوا له المؤلفات النفيسة في مختلف العلوم[2]، فهذا من الآثار البعيدة نوعا للصراعات العسكرية على حركة التأليف.

المطلب الثالث: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة التربوية

الفرع الأول: المدارس والمدرسون:

سنحاول هنا رصد الآثار المحتملة للصراعات العسكرية على أماكن الدرس وعلى المدرسين كذلك في عصر ملوك الطوائف.

أولا/ المدارس: سنتتبع هنا الأماكن التي اتخذها الأندلسيون مكانا للدرس في هذه الفترة.

1/-المساجد: لم يكن للأندلسيين في عصر الطوائف مدارس مستقلة قائمة بنفسها بل كان المسجد المؤسسة الأولى التي يتعلم فيها المسلمون مختلف العلوم، وهذا مايؤكده إحسان عباس إذ يجزم بأن الأندلسيين في هذه الفترة لم تظهر عندهم مدارس خاصة تلقّن فيها العلوم المختلفة بل ظلّ المسجد هو المكان المخصص والمفضل للتدريس وتلقّي جميع العلوم من العلماء والمدرسين[3]، وهذا ما سنراه لاحقا عند الحديث عن المدرسين، ففي جميع دويلات الطوائف كان المسجد هو مكان الدرس، ولم تظهر المدارس المستقلة عن المساجد لتدريس العلوم المختلفة إلا في عصر بني الأحمر[4]، ولا شك بأن خبر إحسان عباس عن المدارس قد أخذه من كتاب النفح، فالمقّري يذكر صراحة بأن الأندلسيين لم تكن عندهم مدارس خاصة تعينهم على طلب العلم بل يقرءون جميع العلوم في المساجد بأجرة ويطلبون العلم من أجل العلم وليس لشيء آخر[5].

وقد تأثرت حلقات الدرس في المساجد بأعمال العنف التي كانت تعصف بالمدن والحواضر الأندلسية طوال عصر الطوائف، فكانت تتعطل حتى تنقشع الفوضى ويعود الأمن، وهذا ما حدث في قرطبة خلال الفتنة ألمت بها حيث يذكر ابن حيان بأن معركة قنتيش التي هزم فيها المهدي قتل فيها أكثر

1- عنان: المرجع السابق، ص 106.

2- حتاملة: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، ص 466.

3- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 38.

4- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس ، ص 283.

5- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 220؛ مروان سليم أبو حويج: الثقافة والتربية في الأندلس من ابن عبد ربه إلى ابن خلدون خلاصة المحتوى وتقويم المنهج، رسالة دكتوراه في الأدب العربي غير منشورة، 1983، ص 214.

من ستين مؤدبا فخلت مجالسهم منهم، وتوقف الصبيان عن الدرس[1]، وفي بطليوس عندما خربها المعتضد بن عباد وتعطل فيها كل شيء، وفي بلنسية عندما دخلها الكمبيطور ونشر الرعب في أرجائها، وفي بربشتر عندما غزاها النورمان، لأن المساجد بعد احتلال النصارى للكثير من المدن الأندلسية كانت تحول إلى كنائس فتفقد وظيفتها الروحية والتربوية، كمسجد طليطلة الذي حوله الفونسوا إلى كنيسة ومسجد بلنسية وغيرها.

إنّ اعترافنا بأنّ المسجد هو المدرسة الأولى التي يتلقى فيها الأندلسيون العلوم والمعارف لا يعني أنه ليس هناك أماكن تمارس عملا مكمّلا لعمل المسجد، إذ تحيلنا المصادر التاريخية على عدد من الأماكن نذكرها على التوالي:

2/القصور الملكية:وفيها يدرس أبناء الملوك، وأبناء الوزراء وكبار موظفي الدولة، فقد كانوا حريصين على استقدام كبار المؤدبين والعلماء إلى بيوتهم وقصورهم لتعليم أبناءهم، فاعتنى مجاهد العامري بتعليم ابنه عليّ العلوم العربية والإسلامية بعد قضائه ستة عشر سنة في الأسر في بلاط الإمبراطور الألماني هنري الثاني، وكان مدرسوه في الحديث والفقيه والقراءات المحدث ابن عبد البر وفي اللغة والنحو ابن معمر وابن سيده وعلماء آخرون اجتمعوا في بلاط مجاهد العامري[2]، وإذا كان مجاهد قد حرص على تعليم ابنه علي ما ينفعه من العلوم فإن المعتمد بن عباد وابنه الراضي قد تعلما الغناء والموسيقى[3].

ويفهم من قول عبد الله بن بلقين " وقد كنا – معشر أهل بيت المملكة- نرى من آكد ما نتأدب به إعمال السياسة في طلب الرياسة والسعي لها بكل الوجوه وإحضار الأذهان ما لو أن المفرط في بعض ذلك منا يكون أفقه الناس في سائرها من العلوم لكان عندنا ناقصا لا يصلح لهذا الشأن حتى وقع التنافس على ذلك، وقتلناها نحن علما لرياضة أنفسنا لها وما أجرانا عليه آباؤنا وبصرونا فيه من أول نشأتنا ، وتلك صناعة وجب تعلمها لضرورة الحال كسائر الصنائع ..."[4] أن الملوك كانوا حريصين على تعليم أبنائهم العلوم المهمة وفي مقدمتها علم السياسية التي بدونها لا يوفق الحاكم في تسيير شؤون المملكة ورعاية مصالح الرعية، وقد أثبت التاريخ أن الحكام الذين لم يتعلموا شيئا من علم السياسية قد وقعوا في الكثير من الأخطاء.

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 44؛ خالد حسن حمد الجبالي: الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92-422هـ)، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، 2004، ص 153.

[2]- عصام سالم سيسالم : المرجع السابق، ص ص 162-163.

[3]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 217.

[4]- عبد الله بن بلقين:المصدر السابق، ص 11؛ البشري: المرجع السابق، ص 239.

وجلب اسماعيل بن النغريلة المعلمين والأدباء الممتازين من كل ناحية بالأندلس إلى بيته الذي كان بالقصر طبعا لتعليم ابنه يوسف وتأديبه، وجلس في حياة أبيه مكانه في المدرسة العبرية التي تدرس التلمود[1].

وتلقى ابن حزم المبادئ الاولى للقراءة والكتابة وتعلم القرآن في القصر على يد نساء القصر، فدل ذلك على أن أبناء الوزراء ورجال الدولة لم يكونوا يتعلمون ذلك في مكان آخر بل في القصور.

ولم تسلم مجالس الدرس التي كانت تقام في القصور من الحروب الدائرة بالأندلس في عصر الطوائف، إذ أنها كانت تتعطل عند احتلال النصارى لعاصمة من العواصم، كما حدث لطليطلة وبلنسية، وعواصم أخرى، وكذا عند انتزاع بعض ملوك الطوائف للملك من يد إخوانهم، كما فعل المعتضد بن عباد مع دويلات البربر في جنوب الأندلس حيث منع أبناء ملوك هذه الدويلات من مزاولة دراستهم في القصور التي انتزعت منهم، وكما فعل ابن عمار مع ابن طاهر في مرسية، والمعتمد مع عبد الملك بن جهور في قرطبة وهكذا.

3/منازل بعض الشيوخ: من لم يكن له من الشيوخ مجلس خاص في المسجد يدرّس فيه اتّخذ من داره التي يسكن فيها مكانا للتدريس وبث العلوم، فكان بعضهم يستقبل أعدادا كبيرة منهم تصل إلى أربعين طالبا، حتى اشتهر عن المدرسين في عصر الطوائف تخصيصهم غرفة في سكناتهم للتدريس، وممن فعل ذلك ابن حزم وأبوه وأخته[2]، وبعضهم اتخذ سطح منزله مكانا مناسبا للتعليم عندما يكون الجو لطيفا[3]، وكان أبناء هؤلاء الشيوخ وبناتهم في مقدمة المتمدرسين، فأغلب العلماء نقلوا معارفهم إلى أولاهم بهذه الطريقة.

4/مجالس المناظرة: بعض العلماء المسلمين الذين اشتهروا بمناظرة غيرهم كانوا يعقدون مجالس لذلك، فيحضرها النابغون من طلبة العلم والمشايخ المشهورين بالعلم والفقه، فيقوم الشيخ أو أحد الحظرين بطرح مسألة من مسائل العلم أو حديثا نبويا ثم يدور النقاش حوله، فهذا مكان آخر للدرس، وتعلم العلوم، وممن اشتهر بهذه الطريقة في عصر الطوائف أحمد بن عثمان(ت 418هـ/3027م)،والفقيه فرج بن أبي الحكم(ت 448هـ/1056م) الذي كان مجلسه يغص بطلاب العلم[4].

---

[1]- رسائل ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 13؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 61.

[2]- خالد حسن حمد الجبالي: المرجع السابق، ص 153.

[3]- بولعراس: المرجع السابق، ص 133.

[4]- خالد بن ناصر بن سعيد الغامدي: المرجع السابق ، ص 449.

5/المدرسة المفتوحة أو الحرة: يطرح أمحمد بن عبود نوعا جديدا من المدارس في هذه الفترة يمكن أن نطلق عليها اسم المدارس الحرة أو المفتوحة التي لا جدران لها وهي خاصة بأصحاب الدراسات الأدبية أو بالشعراء تحديدا، فيرى بأن الشعر لم يكن يدرّس بالمساجد التي اضطلعت بدور المدرسة بل كان المهتمون به بعد تلقيهم المبادئ الأساسية في النحو واللغة في المساجد يتابعون دراستهم بطريقة حرة إما بالاعتماد على أنفسهم أو مع مجموعة من أصدقائهم، وقد رجح أن يكون الأدب ومنه الشعر قد انتشر في هذه الفترة عن طريق المشافهة لا عن طريق الدرس، وهذا النوع من المدارس يشبه مدرسة الفلاسفة المشائين[1].

6/ الدكاكين والحوانيت: بعض أصحاب الدكاكين من العلماء في عصر الطوائف كانوا يبذلون العلم لطلابهم تماما كما يبذلون السلع للزبائن، وممن فعل ذلك أحمد بن محمد بن عفيف بن عبد الله بن مريوال الأموي (ت 420هـ/1029م) كان يعظ الناس بمسجده بحوانيت الريحاني بقرطبة ويعلم القرآن فيه، وقد مكنته تجربته في مجال الدرس والتعليم من تأليف كتاب في آداب المعلمين يتكون من خمسة أجزاء[2].

إلا أن هذه المدارس وأماكن الدرس قد تأثرت جميعها بالصراعات العسكرية التي كان الأندلس مسرحا لها، فمنها ما كان يختفي ثم يستأنف نشاطه[3]، وبعظها يتوقف ولا يعود، وهذا أثر سلبي للصراعات العسكرية على المدارس، لكن من آثارها الإيجابية أنها كانت سببا في فتح مدارس أخرى في أماكن أخرى بعد هجرة المدرسين والعلماء إليها كدانية التي كانت راعية للعلوم وغيرها من مدن الأندلس[4].

ثانيا/المدرسون: تحيلنا تراجم القرن الخامس الهجري على عدد رهيب من العلماء في مختلف التخصصات مارسوا عملية التدريس خاصة في المساجد التي كانت المدرسة الأولى للأندلسيين، وبما أن أوراق البحث لا تتسع لذكر هؤلاء المدرسين فسأكتفي بذكر بعضهم.

فلو بدأنا بطليطلة فسيتبادر إلى الذهن اسم العلامة الرياضي ابن سعيد حيث كان يلقي دروسه في مسجد طليطلة الجامع[5]، وكان لأحمد بن قاسم بن محمد بن يوسف التجيبي المعروف بابن ارفع رأسه (ت 403هـ/1012م) حلقة بالجامع نفسه يلقي فيه الدروس في الفقه والحديث، ويعلم الناس أمور

1- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 153.

2- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص ص 76-77.

3- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 335

4- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص ص22-24.

5- عنان: المرجع السابق، ص 106.

دينهم[1]، أما ابراهيم بن لبّ بن إدريس التجيبي(ت 454هـ/1062) من قلعة أيوب، فقد كان من كبار علماء اللغة العربية استوطن طليطلة، وكان يعلم الأدب والنحو في سقيفة جامع طليطلة كما أقرأ فيه علم الهندسة[2]، وهكذا الجوامع والمساجد في سائر انحاء الأندلس يدرس فيها المدرسون مختلف العلوم.

ومن علماء هذه الفترة الذين كانوا يلقون دروسه في المسجد في جامع قرطبة أبو محمد علي بن حزم، ولما منع من ذلك بسبب آرائه في الفقه وميولاته السياسية غادر قرطبة وطاف بعدد من المدن الأندلسية ثم انتهى به المطاف إلى قرية أسرته ببادية لبلة، وفيها كان طلاب العلم يترددون عليه، فكان يدرّسهم[3].

وعمل أحمد بن قاسم بن عيسى بن فرج المقرئ الأقليشي بعد انتقاله إلى طليطلة بعد الفتنة القرطبية مدرسا، وداوم على ذلك حتى توفي سنة 410هـ/1019م، ولا شك بأنه قام بذلك في مسجد طليطلة الذي كان المكان المحبب إلى العلماء لإلقاء الدروس المختلفة[4].

وجلس أبو الفتوح الجرجاني (ت 421هـ/1030) للدرس في غرناطة، فكان يقدم دروسا عن الشعر القديم وعن كتاب "الحماسة" على وجه الخصوص[5]، وجلس أبو الوليد سليمان بن خلف الباجي للتدريس بعد عودته من رحلته العلمية من المشرق، فدرس في كل من سرقسطة، وبلنسية، ومرسية، ودانية[6]، بل جلس للدرس في مساجد الأندلس كل من عاد من رحلة طلب العلم من المشرق، وهم كثر[7].

ومن المدرسين الذين نقلوا معارفهم إلى أبنائهم في بيوتهم ابن زيدون[8]، فعنه تلقى ابنه الوحيد أحمد مبادئ المعرفة في السنوات الأولى من حياته، ولما مات أبوه وعمره يومئذ أحد عشر سنة، كفله جده لأمه أبو بكر محمد بن إبراهيم بن سعيد القيسي المعروف بابن الهداهيد، وكان عالما وفقيها، فأفاض من علمه على أحمد[9]، وكذلك فعل ابن عبد البر الجد ثم الابن، فكل واحد من هؤلاء نقل علمه الذي اجتمع عنده

[1]- ابراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة ، ص 188.

[2]- ابن الأبار:التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص118.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق ، ق 1، مج 1، ص ص 168-169؛ خالد بن ناصر بن سعيد الغامدي: المرجع السابق، ص 51.

[4]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 68.

[5]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 108؛ دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 69.

[6]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 452

[7]- ينظر بشأن هؤلاء علياء هاشم المشهداني: انتقال المعرفة من بلاد الشام إلى الأندلس، مجلة التربية والعلم، مج19، ع3، الموصل، 2012، ص 97، وينظر بشأن من جلس للتعليم في اشبيلية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي أمحمد بن عبود: التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، ص ص202-203.

[8]- أنظر ترجمته عند الحميدي: المصدر السابق، ص 188، رقم الترجمة 225.

[9]- فاضل فتحي محمد والي: المرجع السابق، ص ص153-154.

إلى ابنه[1]، كما أن أبا العلاء زهر بن عبد الملك الطبيب قد أخذ الطب عن أبيه[2]، وكذلك فعل أبو الحسن علي بن اسماعيل المعروف بابن سيده، فقد اخذ العلم عن أبيه، وكان ضريرا مثله[3]، وأخذ كل من عبد الرحمن بن محمد بن عتاب (433-520هـ/ 1042-1126م)، وأخيه عبد العزيز بن محمد بن عتاب(ت491هـ/ 1098م) العلم عن أبيهما، ومثلهما وليد بن محمد بن وليد من بني جمرة[4] (ت440هـ/1048م) أخذ العلم عن والده، وأفراد هذه الأسرة كان الإبن يأخذ العلم عن والده مباشرة[5].

ولم يقتصر طلب العلم على يد الأولياء على الذكور فالفتيات كنّ كذلك يأخذن العلم عن آبائهنّ أو أمهاتهن، فابنة فايز القرطبي (ت 466هـ/1074م) أخذت العلم عن أبيها، وأكملت دراستها على يد زوجها عبد الله بن عتاب[6].

ويبدوا من قول ابن بسام عن أسرة الوزير الكاتب أبي بكر عبد العزيز بن سعيد البطليوسي بأنهم أخذوا العلم أولا عن آخر[7]، أن ذلك كان سائدا في هذه الفترة، فكل أسرة يتوارث أفرادها العلم كابرا عن كابر، ولم يأل أحمد بن سعيد بن حزم جهدا في نقل معارفه إلى ابنه أبو محمد علي بن حزم[8].

وهنا لا يجب أن يفوتنا ذكر المدرّسات من النساء اللائي كن يدرسن ويؤدّبن أبنا الملوك والوزراء وكبار رجال الدولة، وكان أبو محمد علي بن حزم في صغره واحدا من تلاميذهن، فعنهن تعلم القرآن والخط وحفظ الكثير من الأشعار وفي ذلك يقول: " ولقد شاهدت النساء وعلمت من أسرارهن ما لا يكاد يعلمه غيري ، لأني ربيت في حجورهن ونشأت بين أيديهن، ولم أعرف غيرهن ، ولا جالست الرجال إلا وأنا في حد الشباب وحين تفيل وجهي ، وهن علمنني القرآن ، وروينني كثيرا من الأشعار، ودربنني في الخط "[9]، ويرى المؤرخ علي مكي بأن ابن حزم قد تعلم إلى جانب القراءة والكتابة أشياء ليست أقل نفعا ولكنها

1- ابن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 161.

2- كمال السامرائي: المرجع السابق، ج2، ص 170.

3- بالنثيا: المرجع السابق، ص 190.

4- ترجمة جدّهم الأول عند ابن الأبار: التكملة لكتاب الصلة، ج1، ص 285، رقم الترجمة 978.

5- أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص 103، 105.

6- فايزة حمزة عباس: صور من إسهامات المرأة الأندلسية في الحياة الثقافية في عصر الطوائف، مجلة أبحاث كلية التربية الأساسية، الموصل، مج3، ع3، 2005، ص162.

7- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج2، ص 753 وترجمة أبي بكر بإيجاز أسفل هذه الصفحة.

8- خالد عبد الحليم عبد الرحيم السيوطي: المرجع السابق، ص 14.

9- ابن حزم: طوق الحمامة، ج1، ص 166؛ حسان محمد حسان: المرجع السابق ، ص40.

مؤذية في سن الطفولة ، لقد اطلع في سن مبكرة على أسرار الحياة الجنسية ، ومناورات القصور، وحيل النساء ، فنشأ صبيا سريع التأثر كثير المرض ملحوظ العصبية متوقد الذكاء سيء الظن بالمرأة[1].

كما تحفظ المصادر التاريخية أسماء الكثير من المدرسات اللائي عملن كمعلمات للنساء فنذكر على سبيل المثال لا الحصر ولادة بنت المستكفي (ت482هـ/ 1089) التي كانت أستاذة مهجة بنت التياني القرطبية[2]، ومريم بنت أبي يعقوب الفصولي الشلبي الحاجة (توفيت بعد الأربعمائة) أديبة وشاعرة جزلة كانت تعلم النساء الأدب[3].

لكن المدرس والمعلم في عصر الطوائف لم يكن يفعل ذلك بالمجان بل كان يتقاضى أجرة على ذلك، وكانت هذه الأجرة تأتيه إمّا من ولي التلميذ أو من الأحباس والأوقاف التي أوقفها أصحابها على المساجد والكتاتيب[4]، أو من الحاكم، ولا شك بأن مؤدبي أبناء الملوك والوزراء ورجال الدولة كانت أجرتهم تأتيهم من القصر، وإذا استثنينا أجرة المدرسين في القصور، فإن أجرة غيرهم في الأماكن الأخرى كانت متواضعة[5].

أما مدرسوا ومعلموا القيان في هذه الفترة –وهم كثر– فلم تكن لهم أجرة معلومة بل كان المدرس يشتريها ثم يعلمها عددا من العلوم ليبيعها لاحقا بثمن باهظ للملوك أو رجال الدولة، او بعض الأثرياء، وممن اشتهر بذلك في عصر محمد بن الحسن الكتاني المتطبب(ت420هـ/1029م)، ففي فصل من رسالة له أوردها ابن بسام في كتابه يذكر فيها وجود أربع روميات عنده، كن بالأمس جاهلات، فأصبحن عالمات، منطقيات، فلسفيات، هندسيا، موسيقيات، اسطرلابيات، نجوميات، نحويات، عروضيات، أدبيات، خطاطات[6]، فالصراعات العسكرية سببا في ظهور هذا النوع من المدارس والمدرسين، فالسعي للظهور والتفوق في كل المجالات ألقى بظلاله على هذا النوع من النشاط.

لقد كان المدرسون الأندلسيون في هذه الفترة العصيبة أساتذة لكل الأندلسيين بغض النظر عن دينهم أو عرقهم، وهذا ما يفهم من قول أبي عامر بن شهيد: " جلس إليّ يوما يوسف بن إسحاق

---

[1]- حسان محمد حسان: المرجع السابق، ص 42.

[2]- ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص ص 143-144.

[3]- الحميدي: المصدر السابق، ص ص 600-601، رقم الترجمة 687؛ الضبي: المصدر السابق ، ص ص 729-730، رقم الترجمة 1591.

[4]- ممّن حبس داره على طلبة العلم في القرن الخامس الهجري فرج بن أبي الحكم (ت 448هـ/1057م). ينظر ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص 82، رقم الترجمة 986؛ محمد عبد الحميد عيسى: تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1982، ص277، 461.

[5]- أمحمد بن عبود: جوانب من الواقع الأندلسي، ص 161.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 320؛ محمد بشير العامري: المرجع السابق، ص 211.

الإسرائيلي، وكان أفهم تلميذ مرّ بي"[1]، ما يعني أن الصراعات العسكرية لم تنجح في العزف على وتر العنصرية والعرقية والإثنية.

وهذا لا يعني أن اليهود لم يكن يسمح لهم بمماسة مهنة التدريس، فقد منهم الأساتذة والمعلمون في مختلف التخصصات العلمية، وكهنة يدرسون تعاليم اليهودية لصبيانهم وكبارهم، فإسماعيل بن النغريلة درس التلمود بقرطبة على الكاهن "حنوك"[2]، وقد أمر ابن النغريلة هذا أبناءه وهم صغار بجمع دواوينه الشعرية التي ضمنها أهم الأحداث السياسية والعسكرية التي عاصرها إلى جانب مشاعره الشخصية معتبرا ما سيقوم به الأبناء جزء من العملية التعليمية التي تمكنهم من الاطلاع على الآداب والسلوك عند علية القوم من اليهود[3].

لقد نجحت الصراعات العسكرية في تهجير أعداد كبيرة من العلماء والمدرسين من أماكن الحرب والنزاع المسلح إلى أماكن آمنة، وبذلك حرمت مدنهم الأصلية من الإستفادة من هذه الكفاءات، كما تسببت في إغلاق مجالسهم التي كانوا يدرسون فيه، لكن في المقابل ساهمت في إيجاد حلقات للدرس في المدن التي هاجروا إليها كحلقة القراءات التي يتزعمها المقرئ الشهير " عثمان بن سعيد" المعروف بابن الصيرفي في مملكة دانية، وحلقات أخرى في ميورقة يشرف عليها علماء قدموا من قرطبة فرارا من الحرب[4].

لقد كانت الصراعات العسكرية سببا في موت الكثير من المدرسين لا سيما عند خروجهم من مدنهم فرارا من الحرب، أما بعضهم فقد لقي حتفه أثناء مشاركته في القتال،وقد طال ذلك علماء قرطبة في زمن الفتنة.

وعلى صعيد الرحلات العلمية لم تنجح الصراعات العسكرية في كبح رحلة الأندلسيين إلى المشرق لطلب العلم، وربما كانت هذه الرحلة وجها من وجوه الفرار من هذه الصراعات ، فكتب التراجم تحفظ أسماء جمّ غفير من الأندلسيين الذين خرجوا للعلم،أو عادوا منه، أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر أبا الوليد الباجي(474هـ/1081م)، حيث رحل إلى المشرق سنة 426هـ/1035م، ومكث هناك ثلاثة عشر سنة يطلب العلم عن علمائه المرموقين حيث أقام مع أبي ذر الهروي بمكة ثلاث سنوات فخدمه في هذه المدة وأخذ عنه العلم[5]، أما في العراق فقد أخذ العلم عن رئيس الشافعية فيها أبي الطيب طاهر الطبري وأبي اسحاق الشيرازي الشافعي وإمام الحنفية القاضي أبي عبد الله الصيمري ثم أقام بالموصل عاما

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 233؛ علي عطية الكعبي: المرجع السابق، ص 209.
[2]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 9.
[3]- ريموند شايندلين: المرجع السابق، ج1، ص 308.
[4]- عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص468، 471.
[5]- خالد بن ناصر بن سعيد الغامدي: المرجع السابق، ص 54.

كاملا يدرس الفقه على أبي جعفر السمناني، وببغداد ثلاث سنوات،[1] ورحل العذري إلى مكة سنة 407هـ/1016م فطلب العلم بها[2]، وممن عاد من المشرق بعد دراسته على يد عدد من علمائه عبد العزيز بن علي الشهرزوري (427هـ/1036م) الذي عاد إلى الأندلس سنة 426هـ/1035م بعدما حضر دروس الباقلاني والأبهري وأبي تمام والأدفوي[3]، كما عاد الشارقي (ت 456هـ/1064م) من أهل طليطلة من رحلته المشرقية بعد سماعه من الشيرازي وأخذه العلم عنه كما أنه كان يجلس للناس في مسجد طليطلة يعلمهم أحكام الوضوء والصلاة وجميع الفرائض التي فرضها الله عليهم[4].

الفرع الثاني: مناهج التعليم:

إن التعرف على المنهج المتبع في التدريس ومضامين هذا المنهج إنما يتم بإخبار عالم من علماء الأندلس الذين ولدوا ودرسوا في عصر الطوائف، وقد وجدنا في كلام الفقيه المالكي الكبير أبو بكر بن العربي الذي ولد في اشبيلية سنة 468هـ/1075م ما يميط اللثام عن ذلك ، فقد بدأ مسيرته العلمية والدراسية بالقرآن الكريم حفظا ودراسة وتم له ذلك في التاسعة من عمره بعدها اختار له أبوه ثلاثة مدرسين الأول يدرسه القراءات والثاني اللغة العربية والثالث الحساب وما يتصل به من علم الفلك، وقد استغرق ذلك من حياته سبع سنوات استطاع خلال هذه المدة أن يتقن القراءات العشر إلى جانب إتقانه لعلم التجويد وتحصليه قدرا لا بأس به من اللغة العربية وعلم الحساب مع دراسة كتاب إقليدس كاملا، وفهم الكثير من مسائل علم الفلك ، ولم يقدم ابن العربي الحجم الساعي لكل مادة من هذه المواد لكنه أوضح بأن المدرّسين الثلاثة كانوا يتعاقبون على تدريسه من صلاة الصبح حتى صلاة العصر[5]، ولا شك بأن هذه المدة تتخللها أوقات للراحة مثلما ما هو شائع في المؤسسات التعليمية حتى يتمكن الطالب من التقاط أنفاسه والإقبال على الدرس الموالي بنفس جديد ، وبعملية حسابية بسيطة يمكن القول بأن المتمدرس في عصر الطوائف يقضي كل يوم من سبع إلى ثماني ساعات في دراسة هذه المواد الثلاثة.

وقد انتقد ابن العربي الطريقة التي درس بها، وهي الطريقة السائدة بالأندلس في عصر الطوائف، وقدم بعد عودته من المشرق منهجا بديلا يقوم على تقديم اللغة العربية والشعر على سائر العلوم ثم يليه

---

[1]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص ص 276-278، رقم الترجمة 453؛ خالد بن ناصر بن سعيد الغامدي: المرجع السابق، ص 55.

[2]- عبد المجيد تركي : المرجع السابق، ص 74؛ علياء هاشم المشهداني: المرجع السابق، ص 93.

[3]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج1، ص 473، رقم الترجمة 803.

[4]- ابن بشكوال: المصدر نفسه، مج1، ص 365، رقم الترجمة 609.

[5]- إبراهيم الوافي: الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1، 1999، ص 13؛ البشري: المرجع السابق، ص 240؛ سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1987، ص 187.

الحساب فإذا أخذ المتعلم بقسط وافر من هذه العلوم حفظ له القرآن بعد ذلك فيتيسر عليه فهمه بما حصّله من علوم قبل ذلك[1].

ويذكر بعض الباحثين بأن المتعلم بالأندلس في عصر الطوائف يمر بثلاث مراحل يراعي في تقسيمها سن المتعلم، فالمتمدرس الجديد يبدأ مسيرته الدراسية في المرحلة الأولى بحفظ القرآن الكريم، وتعلم القراءة والكتابة وبعض مبادئ اللغة العربية والشعر[2]، وفي المرحلة الثانية يتلقى تعليما أوسع، فيدرس القراءات والتفسير والحديث والفقه، وفي المرحلة الثالثة يصل إلى مرحلة الانتقاء والتخصص في علم من العلوم إلى جانب دراسة بعض علوم الكون[3]، وهذا المنهج الذي طرحه الباحث وإن كان مختلفا قليلا في عن المنهج الذي تحدث عنه ابن العربي الذي شهد هذه المرحلة وتتلمذ فيها وعن المنهج الذي أثنى عليه الباجي الذي شهد المرحلة كذلك إلا أن الجميع متفقون على أن بداية الحياة الدراسية تكون بالتركيز على حفظ كلام الله تعالى وتعلم القراءة والكتابة ويختلفون قليلا في مرحلة ما بعد القرآن وهذا حسب رأيي المتواضع راجع لاختيارات الأولياء، فولي التلميذ في الغالب هو الذي يختار المواد التي يجب أن يدرسها الولد بعد حفظه للقرآن الكريم وهذا ما فعله والد ابن العربي تماما.

أما العالم الفذ ابن حزم الذي ماس التعليم والتدريس في حياته وخبر أحوال المتعلمين جيدا فيقترح منهجا تعليما يعتقد أنه خليق بالاهتمام قسمه إلى سبع مستويات:

المستوى الأول: تعلم القراءة والكتابة بداية من العام الخامس للطفل[4].

المستوى الثاني: تعلم النحو واللغة.

المستوى الثالث: علم العدد.

المستوى الرابع: المنطق والعلوم الطبيعية.

المستوى الخامس: علم الأخبار.

المستوى السادس: الماورائيات.

المستوى السابع: علوم الشريعة.

---

[1]- محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق، ص ص 238-240؛ ابراهيم الوافي: المرجع السابق ، ص 14.

[2]- مروان سليم أبو حويج: المرجع السابق، ص 202.

[3]- محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق، ص ص211-213؛ بولعراس: المرجع السابق، ص 144.

[4]- يسود الاعتقاد لدى بعض الباحثين في تاريخ التعليم بالأندلس بأن الأطفال كانوا يلتحقون بالكتاب في سن السادسة أو السابعة من أعمارهم .ينظر محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق، ص ص 226،227.

وهو إذ يقترح هذه المستويات يرشح كذلك لكل مستوى – عدا المستوى الأول–كتبا بعينها مع الإشارة إلى المواضيع التي يجب على المتعلم أن يتحاشاها في مواد معينة، ويعتقد بعض الدارسين لهذه المسألة عند ابن حزم أن هذا الأخير باقتراحه للكتب التي يجب أن يدرسها طالب العلم يفضّل التعلّم الذاتي عن طريق مطالعة الكتب[1]، وهذا الاعتقاد صحيح وخاصة إذا علمنا بأن ابن حزم قد طلب العلم بالطريقة نفسها.

فهو يعتقد أن العلوم يرتبط بعضها ببعض وأن طلبها يكون بالتدرج من البسيط إلى المعقد وعلى المتعلم أن يختار لكل مرحلة عمرية العلوم والمعارف المناسبة لها وأن يقدم منها أثناء طلبها ما يوصله إلى علوم أرفع منها[2].

ويظهر من المنهج الذي اقترحه ابن حزم أن الكثير من علماء الأندلس في هذه الفترة قد ضاقوا ذرعا بالمنهج التقليدي، وأصبحوا ينظرون إليه على أنه منهج قد تجاوزه الزمن ولا يواكب التطور الحاصل في مجال العلوم، كما أنه يتجاهل القدرات والاستعدادات الفردية للمتعلمين وهذا ما عبر عنه أبو بكر العربي لاحقا.

أما العالم الجليل أبو الوليد الباجي فقد أثنى على المنهج التقليدي في التدريس والذي يقوم على تلقين المتلقي القرآن وحفظه جيدا ثم معرفة الصحيح من غيره من كلام رسول الله (ﷺ) ودراسة أصول الفقه حتى يمتلك الأدوات التي تمكنه من النظر والاجتهاد في نصوص الوحيين تدريبه على الطريقة السليمة للمناقشة والنقد الصحيح لمسائل العلم دليلا على انتشار هذا المنهج وتقديمه في الأندلس[3] وهذا كله لا يتأتى إلا بعد الإمساك بناصية اللغة العربية، وبعد ذلك يسمح لطالب العلم ان يبحر في التخصص الذي يريده، وهذا ما يجعلنا نجزم بوجود تيارين في الأندلس في مجال التعليم التيار التقليدي الذي يرى أن الطريقة التقليدية لا مناص لها وإليه ينتمي الباجي وهي الطريقة المهيمنة على التدريس في الأندلس في القرن الخامس الهجري وقد وجدت طريقها للعمل بها منذ زمن طويل[4]، والتيار التجديدي الذي يرى بأن المنهج التقليدي قد عفا عنه الزمن ويقترح طرقا ومناهج جديدة تتناسب مع روح العصر ويمثل هذا التيار ابن حزم وابن العربي وغيرهم.

---

[1]- ابن حزم : رسالة مراتب العلوم ، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1983،ج4، ص 65 وما بعدها؛ أحمد شبشوب: منزلة العلم والتعليم بالأندلس من خلال رسالة مراتب العلوم لابن حزم، ضمن كتاب الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق3، الحضارة والعمارة والفنون، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ط1، 1996، ص 8.

[2]- ابن حزم: المصدر السابق، ج4، ص 62؛ محمد شبشوب:المرجع السابق، ص 8.

[3]- محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق، ص 233؛ البشري: المرجع السابق، ص 242.

[4]- ابن عبود: جوانب من الواقع الاندلسي، ص 153.

وفي مجال الدرس اللغوي تمكن اللغويون في الأندلس من استيعاب منهج المشارقة في ذلك ثم تجاوزه فأنتجوا منهجا خاصا بهم يقوم على اختيار الأرجح في المسائل النحوية أو الخروج برأي يخالف المدرستين الكوفية والبصرية إضافة إلى استدراكات على النحاة المتقدمين واعتماد الحديث النبوي وأشعار المولدين[1] مصدرا للإستشهاد في اللغة والنحو، وقد امتازت هذه الفترة بكثرة الردود والجدل بين النحاة. مثل ما حدث بين ابن سيده وابن الأصبغ [2].

إن وجود مثل هذه الأفكار وهذا الجدل حول مناهج التدريس في الأندلس يجعلنا نجزم بأن عملية التدريس كانت نشطة في هذه الحقبة وهذا النشاط قد أثمر خبرة لدى المدرسين تجلت في إبداعهم لمناهج جديدة في التدريس، وإن لم تجد هذه المناهج طريقها إلى التطبيق ، فالعملية التعليمية لم تأبه بتلك الصراعات العسكرية التي كانت تدور بين ملوك الطوائف وإنما كان جلّ اهتمامها كيف تعلم الإنسان الأندلسي.

أما في مجال الدراسات القرآنية، فيذكر بعض الباحثين أن أهل الأندلس كانوا ينهجون نهج المشارقة في الدراسات القرآنية[3]، كما كان تدريس الفقه والحديث والعربية هو الغالب على جماهير المدرسين والمؤدبين في الأندلس وفي عملية التدريس يعتمدون على الكتاب المشرقي، ولما كان المنهج المتبع بين المشرق والمغرب واحدا، فقد سهل ذلك على الأندلسيين الانتقال إلى المشرق للدراسة، وسهل عملية انتقال كتب المشارقة إلى الأندلس[4]، وكثرت رحلات الأندلسيين في هذه الحقبة إلى المشرق لطلب العلم ما يعني الصراعات العسكرية في الأندلس لم تمنع التواصل العلمي والثقافي بين المشرق والمغرب الإسلاميين ولم تأت في مجال التدريس بمناهج جديدة.

ومن المناهج المتبعة في التعليم أن يحبس المعلم كتبه التي يملكها في خزانته على طلبة العلم كما فعل محمد بن عيسى بن فرج بن أبي العباس المغامي(ت 485هـ/1092م)[5].

وفيما يتعلق بمنهج نقل المعلومة من الأستاذ إلى الطالب فهناك طريقة الإقراء وهي الشائعة في الأندلس وحقيقتها أن يمسك المعلم كتابا ويقرأ منه، ويقوم الطلبة بالتسجيل في كراريسهم، او يقرأ الطالب

---

[1]- المولدون كما يرى الباحث دوفورك هم طبقة من المسلمين الجدد الذين لم ينصهروا تماما في نسيج المجتمع العربي الإسلامي، وهم نتاج الزواج بين المسلمين والسكان الأصليين. محمد الأمين ولد أن: المرجع السابق، ص24؛ Dufourcq C.E, la vie qotidienne dans l'Europ, Médiévale sous Domination Arabe, Biarritz,1981,P20.

[2]- محي الدين سالم: المرجع السابق، ص ص 300-303.

[3]- عصام سالم سيسالم :المرجع السابق، ص 470.

[4]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 38.

[5]- ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص 190.

من الكتاب والباقي ينسخون والمعلّم يصوب، والطريقة الثانية هي الإملاء وتكون في الغالب من الذاكرة، وهي الغالبة على أهل الأندلس فيتحلق الطلاب حول مدرسهم، ويدوّنون، وهذا ما تنطق به أبيات الأديب عبد الملك بن زيادة الله الطبني(ت مقتولا بعد 450هـ/1058م) حيث يقول وقد عاد من المشرق:

إني إذا احتوشتني ألف محبرة   يكتبن حدثني طورا وأخبرني

نادت بعقوتي الأقلام معلنة   هذي المفاخر لا قعبان من لبن[1]

وطريقة المناظرة والحوار، وكان الطلبة يلازمون أساتذتهم ولا يفارقونهم إلا عند الضرورة حتى تتم عملية نقل المعارف بسرعة من أجل الانتقال إلى استاذ جديد، وعلى الطالب أن يحفظ ما ينقله حفظا جيدا خاصة العلوم الشرعية[2]، أما عن هيئة مجالس العلم، فقد كان المعلم يسند ظهره إلى شيء كأسطوانة المسجد أو جدار في بيت المعلم ثم ينشئ حلقة تبدأ منه وتنتهي عنده[3].

هذا عن مناهج تدريس عموم الأندلسيين أما خواصهم كأبناء الخلفاء والوزراء، فكان آباؤهم يتدخلون لتحديد المواد التي تجب دراستها، والطريقة المناسبة لذلك، خاصة تلك التي لها علاقة بإدارة الدولة[4]، ولم أعثر في المؤلفات التي تحدثت عن التعليم في الأندلس في عصر ملوك الطوائف ما يوحي بأن الصراعات العسكرية قد أثرت على المناهج التربوية التي درج عليها الأندلسيون منذ زمن بعيد، بشكل من الأشكال، إلا أن هجرة المدرسين كابن حزم من منطقة إلى أخرى بسبب الصراعات العسكرية ومزاولتهم لهذه المهنة في المناطق التي ينزلون بها وفق المنهج والطريقة التي يحبذونها والتي لا تتفق مع المنهج السائد في تلك المنطقة قد أثار غضب المدافعين عن المنهج القديم، وهذا يمكن عده من الإفرازات البعيدة للصراعات العسكرية بالأندلس في هذه الفترة.

[1]- ابن بشكوال المصدر السابق: مج1، ص ص457-459؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص 92.

[2]- محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق، ص 347، 348، 349، 350، 351.

[3]- مروان سليم أبو حويج: المرجع السابق، ص 215؛ محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق، ص 354؛ فطيمة عابد: المرجع السابق، ص 31.

[4]- محمد عبد الحميد عيسى: المرجع السابق، ص 440.

المبحث الثاني: أثر الصراعات العسكرية في عصر ملوك الطوائف على الحياة الأدبية والفنية

المطلب الأول: الحياة الأدبية

الفرع الأول: اللغات :من المعلوم لدى المجميع أن اللغة هي القناة التي يتواصل من خلالها البشر مع بعضهم، ويكون التواصل سهلا عندما تكون اللغة واحدة أما عندما تكون متعددة، فإن التواصل يعسر أو ينعدم.

في أندلس القرن الخامس الهجري لم تكن لغة السكان واحدة بل كانت لغات مختلفة ومتنوعة تنوع أصولهم، فكانت فيها اللغة الجرمانية وهي لغة القوط الغربيين واللغة الرومانسية (الإسبانية القديمة) وهي لغة السكان الأصليين ثم اللغة العربية الفصحى واللغة البربرية واللغة العبرية انصهرت هذه اللغات، وشكلت لغة جديدة سميت بلغة المولدين وهي عامية أندلسية غلبت عليها ألفاظ اللغة العربية والعجمية الإسبانية وقد سماها ابن حزم اللطينية وهي غير اللغة اللاتينية، وهناك من يرى بأن اللغة العجمية الأندلسية هي مزيج من اللاتينية والعربية والبربرية، وتسمى كذلك الرومنثية[1].

لقد فرض هذا التنوع اللغوي على سكان الأندلس في عصر الطوائف كما في العصور التي قبله أن يتعلموا لغة بعضهم -خاصة دويلات الطوائف التي لها حدود مع الممالك النصرانية -حتى تكون عملية التواصل سهلة وسلسة هذا على مستوى العامة، أما على المستوى الرسمي، فكانت اللغة المستعملة في إصدار المراسيم والقرارات وإنفاذ الرسائل والمكاتبات هي العربية الفصحى في جميع دويلات الطوائف[2].

وعلى المستوى الأكاديمي كانت لغة العلم والدرس هي اللغة العربية الفصحى، وفي حدود اطلاعنا لم يكن في الأندلس في هذا القرن مدارس أو أماكن متخصصة تدرس اللغات للراغبين في ذلك، لكن العارفين باللغات من العلماء موجودون في عصر الطوائف أذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر العالم الجليل عبد الله بن محمد بن السيد البطليوسي ولد (444هـ/1052م)، فقد قال عنه المترجمون له أنه كان عالما بالآداب واللغات متبحرا فيهما، مقدما في معرفتهما وإتقانهما[3]، كما كانت هناك مبادرات شخصية قام بها بعض العلماء في عصر الطوائف لتحقيق أهداف محددة كالإطلاع على كتب المخالفين في

---

[1]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 421؛ محي الدين سالم: المرجع السابق، ص 293؛ عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص 115.

[2]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 142؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 455.

[3]- ابن خلكان: المصدر السابق، ج3، ص ص 96-98، رقم الترجمة 347؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص 385؛ ابن خاقان: القلائد، ص 708.

العقيدة من أجل مناظرتهم وبيان الخلل فيها ويأتي في مقدمة أصحاب هذا النوع من المبادرات العالم الفقيه أبو محمد علي بن حزم (ت 456هـ/1064م).

ربما يكون ابن حزم قد أتقن اللغة العبرانية حتى يتمكن من الإطلاع على نصوص التوراة في مصادرها الأصيلة، فتحقق له ذلك حيث قرأ أسفارها الخمسة التي كتبت بالعبرية، كما اطلع على شروح علماء اليهود لهذه الأسفار، وإن كان إحسان عباس يرى بأنه قد اطلع على كتب اليهود المترجمة إلى العربية، فإنني أميل إلى الاعتقاد بأن التحريف الذي طال التوراة يجعل ابن حزم مجبرا على الاطلاع عليها في مصادرها الصحيحة حتى يتمكن من إظهار الخلل الذي وقع فيها[1].

كما يعرف ابن حزم اللغة اللاطينية كونه ينكر في كتابه جمهرة انساب العرب على قبيلة **بلّي** بفتح الباء وكسر اللام المشددة القضاعية عدم معرفتهم باللغة اللاتينية واقتصارهم على اللغة العربية ما يعني أن الحديث باللاتينية في الأندلس كان شائعا، بل يجزم بعض الباحثين بأن اللاطينية هي اللغة العجمية أو العامية المشتركة التي كان أهل الأندلس يتخاطبون بها[2]، وهذا ما جعل ابن شهيد (ت 426هـ/1035) يعيب على أهل عصره الحديث بها وهجر العربية الفصحى[3].

في اسبانيا عصر الطوائف-كما في الفترات السابقة- توجد الكثير من اللهجات المحلية المكونة للرومنسية (اللغة الإسبانية القديمة)، وكان العرب على اطلاع على الكثير منها لا سيما الخلفاء والقضاة الذين يجدون انفسهم أحيانا أمام متقاض لا يعرف العربية، ويذكر العبادي كدليل على أن الخلفاء كانوا يتكلمون باللغة الرومنسية أن الشاعر الوزير ابا القاسم بن لبّ هجا الوزير عبد الملك بن جهور بأمر من الخليفة عبد الرحمن الناصر قال فيها:

قال أمين الله في خلقه	لي لحية أزرى بها الطول
وابن عيير قال قول الذي	مأكوله القرطيل والفول
لولا حيائي من إمام الهدى	نخست بالمنخس "شو قول"

---

[1]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص ص15-17.

[2]- ابن حزم: جمهرة أنساب العرب، ص 443؛ موسوعة الشروق: ص 73؛ سحر السيد عبد العزيز سالم : الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، (دراسة سياسية أدبية اجتماعية)، ضمن كتاب الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى (ندوة)، تنسيق محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1995، ص 39.

[3]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 455.

فكلمة "شو قول" يقول العبادي هي الكلمة الإسبانية su culo التي تعني الإلية أو أسفل الظهر، كما أن كلمة " القرطيل برأي بشار عود معروف محقق البيان المغرب هي الكلمة الإسبانية cardillo التي تعني الشوك[1]، فهذا مثال على معرفة العرب الأندلسيين قضاة وخلفاء باللغة الإسبانية القديمة التي تطورت عنها اللغة الإسبانية الحديثة، وقد استمر على ذلك في عصر الطوائف[2].

بل إن الباحثة لوسي بولنس في بحث لها حول الطبيخ الأندلسي خلال القرنين الخامس والسابع الهجريين تذكر بأن الإنسان الأندلسي كان يميل إلى المؤاكلة والمنادمة والضيافة للتغلب على القلق والضجر والحذر القائم بين مجموعات لا تتكلم نفس اللغة[3]، فنفهم من هذا الكلام بأن هذه المجالس التي يعقدها الأندلسيون تضم أشخاصا لا يتكلمون لغة واحدة بل لغات مختلفة ولا شك بأن الجلوس إما أنهم يفهمون لغات الجالسين كلها أو أنهم يتخاطبون بلغة نتجت عن هذه اللغات كلها، وأعني بها اللطينية، وقد أشرنا إلى ذلك عند بداية حديثنا عن اللغات، وسواء صحّ الاحتمال الأول أو الثاني، فما نستطيع الجزم به هو تعدد اللغات المتداولة في هذا الصقع من العالم الإسلامي، وتمتع سكانه بالحرية اللغوية، فلم نعثر في كتاب من الكتب التي أرخت لأحداث الأندلس ما يفيد بأن الصراعات العسكرية قد أثرت على هذه اللغات بشكل من الأشكال كأن يجبر أهل لغة ما بقوة السلاح على ترك لغتهم والتحدث بلغة غيرها.

وفي الشمال النصراني توجد قرائن تدل على أن بعض ملوكها يتقنون اللغة العربية أو على الأقل يفهمونها ، فتذكر بعض الدراسات أن ألفونسوا السادس عندما لجأ إلى مملكة طليطلة بسبب النزاع بينه وبين أخويه على الحكم، سمع قادتها يتشاورون في كيفية الدفاع عنها وطريقة استسلامها، فعلم أن الفرصة مواتية لغزوها، ما يعني أن الفونسوا كان يفهم اللغة العربية[4]، وهذا يرجح فرضية أن يكون أبناء ملوك النصارى يعلّمون أبناءهم هذه اللغة لحاجتهم إليها في تعاملهم مع البلاطات الإسلامية، ويؤيّد هذا الافتراض ما ورد في بعض الدراسات من أن الكثير من أذكياء الجلالقة، والقشتاليين والليونيين، والنافاريين كانوا يتعلمون اللغة العربية حتى يتمكنوا من العمل في الإدارات المختلفة عند ملوك الطوائف، كما كان ملوك النصارى يطلبون العلماء المسلمين لتأديب ابنائهم[5].

1- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص210؛ أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 1972، ص 371.

2- مريم قاسم طويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص 67.

3- لوسي بولنس: الطبيخ الأندلسي فن من فنون الحياة (القرن 5هـ/11م- 7هـ/13م)، تقديم سهام الدبابي الميساوي، مجلة دراسات أندلسية، تونس، ع6، جوان 1991، ص 68.

4- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 430.

5- المرجع نفسه، ص 451، 452.

وهذا ما فعله الفونسوا السادس حيث جلب مؤدبين عرب من قرطبة لتاديب ابنه شانجه، ولا شك بأن هؤلاء المؤدبين كانوا يتقنون لغة الفونسوا الأم، كما أنّ بلاطه كان يحوي عددا من العلماء والأدباء المسلمين واليهود المستعربين الذين يتولون كتابة رسائله إلى ملوك الطوائف، ويتولون إيصالها إليهم، ولم تكن حملاته العسكرية خالية منهم، وبما أن ملوك النصارى كانوا حريصين على جلب مؤدبين عرب لأبنائهم، فقد أتقن الكثير منهم اللغة العربية، وممن نقل عنه ذلك السيد الكمبيطور[1] .

لم يكن إتقان لغات النصارى في الشمال حكرا على الرجال المسلمين واليهود بل يشاركهم في ذلك النساء، فقد أتقنّ لغات مختلفة كالقطلونية، والقشتالية، واللاطينية، كما تشير بعض الدراسات إلى شيوع التعامل باللغة العربية حتى من قبل المعاهدين، فقد صاروا يتقنونها على حساب لغتهم الأم عدا بعض المثقفين منهم[2] .

والمتأمل لفن الموشحات الذي اخترعه الأندلسيون وكان حاضرا بقوة في عصر الطوائف يجد بأنه عبارة عن مقطوعات شعرية لا تلتزم بنظام القافية الموحدة بل تعتمد قواف متعددة، وهذه المقطوعات تتكون من أغصان وأقفال ويسمى القفل الأخير منها الخرجة، فهذه الخرجة من شروطها أن تكون إما باللغة اللاتينية أو باللغة العامية الأندلسية (الدارجة)[3] .

وغير بعيد عن الموشحات الأزجال التي كانت تنظم باللغة الدارجة ولا تلتزم بقواعد اللغة العربية مع ازدحامها بألفاظ من أصل بربري أو اسباني، وقد ازدهر فن الأزجال في القرن الخامس الهجري في الأندلس خاصة في اشبيلية[4] .

ولو عرّجنا على اليهود في عصر الطوائف لوجدنا بأنهم كانوا يتكلمون إلى جانب لغتهم الأم اللغة العربية ولغات أخرى، وفي هذا الصدد نذكر اسماعيل بن النغريلة الذي يزعم دوزي أنه يتقن سبع لغات، وترى مريم قاسم طويل أنه يتقن إلى جانب العبرية والعربية الآرامية واللاتينية والبربرية والرومنثية[5]، أما

[1]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 452.

[2]- المرجع نفسه، ص 455؛ عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص117.

[3]- أحمد مختار العبادي: في التاريخ العباسي والأندلسي: ص 371؛ يوسف شحدة الكحلوت: الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، رسالة دكتوراه في الأدب والنقد غير منشورة، جامعة القرآن الكريم، السودان، 1999، ص 76.

[4]- صلاح خالص: المرجع السابق، ص 87.

[5]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 43؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403-483هـ، ص 110، 114؛ عبادة كحيلة: المرجع السابق، ص 49.

الطاهر أحمد مكي فيذكر بأن ابن النغريلة يتقن كذلك الكلدية، وهذا ما أهله إلى جانب مزايا أخرى ليكون وزير باديس بن حبوس[1].

وقد شارك ابن النغريلة في هذه الخصيصة ابن جناح اليهودي (441هـ/1049م) المعروف بين المسلمين بأبي الوليد بن جناح وعند النصارى باسم يونا أي يونس[2]، وغيره من اليهود متعددي اللغة، وقد طور اليهود في هذه الفترة نوعا جديدا من اللغة حيث قاموا بكتابة الكثير من مؤلفاتهم باللسان العربي ولكن بالخط العبري، إلى جانب إتقانهم للغة اللاتينية[3].

وتذكر بعض البحوث أن اليهود والنصارى كانوا يشتكون من إقبال أهل ملّتهم على تعلّم اللغة العربية، وأن العرب قد تركوا الحديث باللغة العربية الفصحى ووطنوا أنفسهم على الحديث باللاطينية أي الدارجة التي هي مزيج من العربية واللغات الأخرى في الاندلس، وقد عاب عليهم ابن شهيد(ت 426هـ/1035م) ذلك[4].

وكذلك الصقالبة الذين جلبوا صغارا من البلدان الأوروبية المختلفة صاروا بعد ذلك يتقنون اللغة العربية ويكتبون بها[5] إلى جانب لغتهم الأصلية التي يتذكرها الكثير منهم ويرفض نسيانها، ولم تكن لغتهم واحدة بل كانت متعددة تعدد الأماكن الأوروبية التي جلبوا منها، هذا دون أن ننسى الجواري اللائي يجلبن من حين لآخر كغنيمة حرب من وإلى دويلات الطوائف لبيعهن في الأسواق أو ليتسرى بهن الملوك في القصور فهؤلاء حافظن على لغاتهن، ولقنها لأولدهنّ من المسلمين أو النصارى، فصار المولود المسلم والنصراني يتقن اللغتين لغة أمه ولغة أبيه، وكانت الجارية التي أهداها مجاهد العامري للمعتضد بن عباد وتعرف بالعبادية تتقن عددا من اللغات[6].

فلا شك بأن الأندلس في هذه الفترة قد شهدت تنوعا لغويا يمليه التنوع العرقي لسكان الأندلس، فالسكان الأصليون حافظوا على لغتهم الأم كما أن العرب تمسكوا بعربيتهم وصارت تمثل عصب الحياة العلمية في الأندلس ولم يكن البربر ليتخلوا عن لغتهم بل تعلم الأمازيغية بعض العرب الذين

[1]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 10؛ مارغاريتا لوبيز غوميز: المرجع السابق، ص 2281، الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 55.

[2]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 489؛ ابن صاعد: المصدر السابق، ص 89.

[3]- ريموند شايندلين: المرجع السابق، ص 309؛ رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 411.

[4]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع نفسه، ص 455.

[5]- المقري: المصدر السابق، مج3، ص 82.

[6]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 43.

عاشوا بين البربر طويلا كالحموديين[1] هذا إلى جانب اللغة التي يتحدث بها الصقالبة الذين جلبوا من أنحاء مختلفة في أوروبا، وقد تعلم غير العرب العربية، لأنها اللغة الرسمية، وتعلم بعضهم لغات أخرى، فظاهرة ازدواج اللغة وتعددها في هذه الحقبة ملحوظة .

أما على صعيد المؤلفات العلمية فقد ألف الصيدلي اليهودي ابن بكلارش في مملكة بني هود كتابا على هيئة جداول يتضمن أسماء الأدوية المفردة وله أسمين " المجدولة" و" المستعيني" نسبة للمستعين أحمد بن المؤتمن بن هود الذي خلف أباه المؤتمن في الحكم بعد وفاته سنة (478هـ/1087)، فقابل الأسماء العربية لهذه الأدوية بالأسماء الفارسية واليونانية والسريانية واللاطينية، أي العجمية الاندلسية[2]، وكتابته للأدوية بهذه اللغات دليل على معرفته بها.

وفي القرن نفسه ألف أبو الخير الأشبيلي كتابه " عمدة الطبيب في معرفة النبات" فأورد فيه أسماء عدد كبير من الأعشاب باليونانية واللاتينية والفارسية والإسبانية والأمازيغية والنبطية، كما يذكر كثيرا من الأسماء المحلية الدارجة لهذه الأعشاب والنباتات في عدد من الأقطار لا سيما بالأندلس والمغرب[3]، فإيراد أبي الخير لأسماء هذه الأعشاب والنباتات الكثيرة بهذه اللغات كلها دليل على أن معرفته بها بلغت حد الإتقان، وهذا دليل كاف على اهتمام العلماء المسلمين في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي بدراسة اللغات لحاجتهم إليها في مختلف العلوم، كما أن معرفته بها مكنته من النظر في المؤلفات التي ألفت بهذه اللغات وتصحيح الأخطاء التي وقع فيها أصحابها والاستدراك عليهم في بعض المسائل، ولم يكن ذلك حكرا عليه بل شاركه في هذه المنقبة عدد كبير من العلماء المطلعين على كتب القدامى كابن بصال وابن وافد وغيرهم.

كما تفيد تراجم الكثير من العلماء بأنهم كانوا يطلعون على كتب قدماء اليونان لا سيما في الهندسة والطب فالطبيب ابن وافد مثلا عني عناية بالغة بقراءة كتب جالينوس وتفهمها ومطالعة كتب أرسطاليس وغيره من الفلاسفة، وجمع في كتاب له في الأدوية المفردة ما تضمنه كتاب ديوسقوريدوس وكتاب جالينوس[4]، ومثله (عاش في القرن 5هـ/11م) أبو الحسن عبد الرحمن بن خلف بن عساكر اعتنى بكتب جالينوس عناية بالغة، فقرأ كثيرا منها على غيره[5]، كما أن استعمال ابن صاعد عبارة:" المشرفين

1- أحمد مختار العبادي : في تاريخ المغرب والأندلس، ص 256.

2- عبد الرحمن بدوي : دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1981، ص 34 ؛ سيد حسين نصر: المرجع السابق، ص 162.

3- أبو الخير الاشبيلي: المصدر السابق، ص 27.

4- ابن صاعد: المصدر السابق، ص 84.

5- ابن صاعد: المصدر نفسه، ص85.

على كتب الأوائل والأواخر" عند حديثه عن عالم من علماء عصره توحي بأن المتحدث عنه مطلع على الكتب الأصلية لعلماء اليونان وغيرهم.

ومن محتويات كتاب المظفري الضخم الذي ألفه المظفر بن الأفطس(ت 460 أو 461هـ/1068أو1069م) اللغات الغريبة[1]، وقد ذكرها ابن عذاري بصيغة الجمع لا بصيغة الإفراد، فيفهم من هذا الكلام أن المظفر كان لديه اطلاع على بعض اللغات المهجورة في الأندلس ، ولم يكن ليتقن هذه اللغات ويفهمها لولا وجود أساتذة يدرسونها ويعملون على إفهامها لتلاميذهم ، فالمظفر قطعا لم يكن الوحيد في هذا المجال بل هناك أشخاص يقاسمونه الاهتمام باللغات.

وعلى صعيد التجارة تذكر دراسة حول الرقيق في المغرب والأندلس في القرنين 4و5هـ/10و11م أن اليهود قد استحوذوا على هذا النوع من التجارة، وكانوا يتنقلون باستمرار بين مختلف البلدان الأوروبية والآسيوية والحواضر الإسلامية، فمكّنهم ذلك من إتقان عدّة لغات كالإفرنجية والفارسية وغيرها[2]، فلا شك بأن الصراع العسكري بين ملوك الطوائف قد كان سببا في تنافس هؤلاء الملوك في شراء الرقيق لتعزيز جيوشهم بالمقاتلين منهم تماما كما صرف أصناف منهم لتعزيز مجالات أخرى في كل مملكة، وبذلك تعززت الأندلس بلغات جديدة.

لا شك بأن الاحتكاك الحاصل بين مكونات الشعب الاندلسي أثناء الصراعات العسكرية قد مكَّن المحتكّين من الاطلاع على اللغات المنتشرة بالأندلس، وربما خلق ذلك فضولا لدى البعض في تعلمها، أما المناطق الإسلامية التي سقطت بيد النصارى، فهؤلاء لم يجدوا مناصا من تعلم لغة أسيادهم الجدد، حتى يسهل التواصل بين الطرفين[3].

لقد لفت انتباهي التغير المستمر للخارطة اللغوية للأندلس في عصر الطوائف بسبب الصراعات العسكرية المزمنة، لا سيما في النصف الثاني من القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي،أي بعد انتعاش حركة الاسترداد المسيحي، فقد قامت ملوك النصارى بعد احتلالهم عددا من المدن الإسلامية بإفراغها من سكانها،وإحلال النصارى محلهم، فعلى سبيل المثال لا الحصر قام فرناندوا الأول بعد احتلاله لمدن بازوا ولاميجوا وقلمرية بإخلاء المناطق الواقعة بين نهري دويرة ومينو(منديغوا) من السكان المسلمين[4]، كما أن المدن التي سلمها ملوك الطوائف لملوك النصارى بمقابل او بدون تفرغ من

---

[1]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 468.

[2]- عيوني محمد: المرجع السابق، ص 60.

[3]- ليفي بروفنسال: المرجع السابق، ص87.

[4]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 270؛ صلاح خالص: المرجع السابق، ص 131.

أهلها وتعمر بالنصارى وفق روية ابن حزم المعاصر لهذه المحنة[1]، وفي جميع المناطق التي قام النصارى باستردادها، أجبر الكثير من المسلمين على الرحيل، وحل مكانهم المستعربون الذين كانوا يعودون مع الحملات العسكرية النصرانية، أو ينزحون من المناطق الشمالية[2].

لم أعثر في المصادر التي أرخت لهذه المرحلة ما يفيد بأن الصراع العسكري بين ملوك الطوائف قد أثرت سلبا على اللغات واللهجات المتداولة داخل هذه الممالك إذ لم يجبر هؤلاء الملوك أحدا على تغيير لغته الأم، بل نستطيع الجزم بأن الصراعات العسكرية القائمة في المنطقة والعلاقات المتوترة بين ملوك الطوائف وملوك النصارى قد ولدت لدى المسلمين مخاوف من تعاطف اليهود والمستعربين مع الممالك النصرانية، لذلك منحوا مزيدا من الحريات ومنها حرية الكلام مع غيرهم باللغة الرومانية[3].

الفرع الثاني: **الشعر**: لقد نفقت سوق الشعر في هذا العصر وتنوعت أغراضه تنوع الحياة، فقد أنشد الأندلسيون الشعر في كل شيء،وذخيرة ابن بسام، وقلائد ابن خاقان ومطمحه وغيرها من المصادر تنطق بذلك، فبلغ الشعر في هذا العصر حدا لم يبلغه في عصر آخر وأصبح ظاهرة عامة إذ لم يكن حكرا على فئة دون أخرى، فقد برع فيه الأندلسيون من مختلف فئات المجتمع، وفي بعض مدنه كشلب قلّ أن تجد فيها من لا يرتجل الشعر[4]، وقد حصل هذا الازدهار بسبب تضافر مجموعة من العوامل نذكر منها:

- كون الكثير من الحكام والوزراء والكتاب شعراء مجيدين كالمعتضد بن عباد والمعتمد ومجاهد العامري وابن زيدون وابن عمار وابن عبدون وغيرهم فاهتمام الكثير من الحكام بهذا اللون الأدبي ورعايتهم له وانخراطهم جعلهم يجتهدون في جمع أكبر قدر ممكن من الشعراء في بلاطهم واتخذ منهم الكتاب والوزراء والحجاب منهم.

-اتساع دائرة الحرية الممنوحة للشعراء وتجاهل الكثير من القيود الدينية التي تمنع تمجيد المحرمات كالخمر، والعلاقات الغرامية، والتغزل بالغلمان وغيرها لذلك نسجت الكثير من القصائد في وصف الخمر ومدحها تعرف بالخمريات، وأنشد الكثير من الشعراء أشعار في الغزل وربما كان ابن زيدون الذي تغزل بولادة بنت المستكفي عميد الشعراء في هذا اللون الشعري وبذكر ابن زيدون يذكر ابن شهيد وابن سهل كذلك وةغيرهم.

---

[1]- ابن حزم: التلخيص لوجوه التخليص، ج3، ص 176.

[2] -CHapman A: op cit, pp84,85.

[3]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 163.

[4]- عائشة إبراهيم موسى سلامة محسن : صورة المرأة في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف وبني الأحمر، رسالة دكتوراه في الأدب غير منشورة، جامعة أم درمان، معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، 2007-2008، ص 20؛ ياقوت الحموي: المصدر السابق، ص ص 357-358؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 77.

– ضعف التدين عند الكثير من الحكام واستهتارهم بأحكام الشريعة وانخراطهم في مجالس اللهو والطرب التي لا تخلوا من المجاهرة بشرب الخمور وارتكاب الفواحش[1]، فأصبح الشعر يصف ما يحدث في هذه المجالس ويمجده بل أصبحت تلك المجالس ميدانا يتبارى فيه الشعراء ويقدمون فيها أقصى ما يستطيعون.

يضاف إلى الأسباب السابقة دعوة الملوك للشعراء إلى بلاطاتهم حسب رأيي المتواضع لتبديد مخاوفهم وأحزانهم، وتهوين المصائب والنكبات في أعينهم، بأبيات تبعث الأمل في نفوسهم وتبشرهم بغد أفضل، فهذه التوترات التي عاشتها المنطقة طوال هذا القرن انعكست سلبا على نفوسهم، وجعلت أغلبهم يعيشون قلقا مفرطا لا يخفض من حدته سوى الشعراء، لذلك كانوا يتنافسون في تبديد هذه الهموم فغصت بلاطات الحكام بالشعراء وازدهر الشعر، وكانت الدعوة التي يرسلها الملك للشاعر أبيات من الشعر، والجواب عليها قبل الحضور كان بالشعر كذلك[2].

وقد ربط البعض بين ازدهار الشعر في القرن الخامس الهجري وبين الانقسام السياسي، فرآى بأن الحكام الذين اتخذوا الصراع المسلح وسيلة لتقسيم الاندلس وإقامة كيانات مستقلة احتاجوا بعد ذلك إلى شعراء مقتدرين لتبرير هذا العمل وشرعنته، فتنافسوا فيه تنافسا عجيبا أفضى إلى ازدهاره[3]، كما أن الرغبة في التفوق العسكري لدى بعض الملوك وإخضاع الخصوم رافقته رغبة ملحة في التفوق في مجال الشعر وهذا ما يوحي به الحرص على استقدام الشعراء المرموقين من قبل حكام هذه الدويلات.

ولو تاملنا بناء القصيدة الشعرية في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي لوجدنا بأنها قد تأثرت بالصراعات العسكرية والاضطرابات القائمة أيما تأثر حيث ضمن الشعراء قصائدهم ألفاظا تدل على العنف والسجال وعدم الاستقرار مثل: الطعن، الغدر، الخيانة، العداوة، الوشاية، القتل ، الأسر، النهب، السجن، الدمار، الرعب، وقد كثر ذلك في شعر هذا القرن.

كما وثق الكثير من الملوك والشعراء الذين كانوا ضمن الحملات العسكرية ما دار في تلك المعارك، من ذلك القصيدة التي وثق فيها اسماعيل بن النغريلة قائد الجيش الغرناطي الحرب التي دارت بين جيشه وجيش زهير العامري والتي كان فيها هلاك هذا الأخير، وفي الحقيقة إنّ جزءا لا بأس به من أشعار اسماعيل تتصل بأحداث الأندلس في القرن الخامس الهجري[4].

---

[1]- خليل ابراهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص ص 338، 430-431.

[2]- توفيق عمر ابراهيم: المرجع السابق، ص ص 266-267.

[3]- توفيق عمر ابراهيم: المرجع نفسه، ص 300.

[4]- ابن حزم: رسالة في الرد على ابن النغريلة، ج3، ص 12.

لقد كان الشعر ظاهرة عامة بالأندلس في القرن الخامس الهجري فلا تخلوا مملكة من شعراء مجيدين ولا نعدم شعراء مرموقين في بلاطات ملوك الطوائف جميعا، وقد فاقت عناية العباديين فيه كل عناية[1].

ويرى عنان بأن النهضة الأدبية والشعرية قد ساهم فيها بشكل واضح وفعال ثلاث بلاطات العباديون في اشبيلية، وبنوا الأفطس في بطليوس، وبنوا صمادح في المرية، وساد التنافس في مضمار الشعر بين شعراء القصور الثلاثة، وحضرت معركة القوافي إلى جانب المعركة المسلحة[2]، أما بالنثيا فيرى بأن شعراء بلنسية ومرسية قد فاقوا غيرهم من أهل العلم والأدب في دول الطوائف الأخرى وذكر عددا من الشعراء المرموقين فيهما كعبد الجليل بن وهبون المرسي ، وأبو عيسى بن لبون ، والوقشي، وابن خفاجة[3]، وحسب رأيي المتواضع فإن البلاط الحمودي أيام إدريس بن يحي بن علي بن حمود(434-438هـ/1042-1046م) قد كان بلاطا أدبيا بامتياز، فالرجل كان محبا للشعر مقربا للشعراء، ما جعل الأدب يزدهر بمالقة في هذه الفترة[4]، أما غرناطة فلم يكن لدى حكامها اهتمام بالشعر والشعراء، لذلك لم يفكّر أي من الشعراء الكبار في الارتحال إليها[5].

أما مجاهد العامري فيذكر ابن حيان أنه مع كونه أديبا فذّا إلا أنه كان يترفع عن قول الشعر وينكره على قائله وهذا ما جعله يتعقبه على من ينشده كلمة كلمة، فيبين لصاحبة مواطن الخلل وما طاش منه من كلمات وما تمت سرقته من قصائد الآخرين، فولد ذلك لدى مجاهد ملكة النقد للنصوص الشعرية، فكان ناقدا فذا[6].

كما يذكر ابن حيان أيضا أن المعتضد بن عباد قبل انصرافه إلى السلطان كان عارفا بالشعر قرض قطعا منه بلغت حد البراعة واقتبسها الأدباء، وقد وقف له الحميدي على سفر متوسط يحوي أشعاره التي تنوعت أغراضها بين الفخر والغزل والوصف وغيرها ولعل الحميدي هنا يشير إلى السفر الذي ذكر ابن بسام أن ابن أخ المعتضد إسماعيل قد جمع فيه أشعاره[7].

[1]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 87؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 52؛ سعد البشري: المرجع السابق، ص 133.

[2]- عنان: المرجع السابق، ص 424.

[3]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 17.

[4]- لويس سيكو دي لوثينا: المرجع السابق، ص43.

[5]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 64.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 23؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 412.

[7]- ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص 42، 57؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 447 ؛ الحميدي : المصدر السابق، ص 430، رقم الترجمة 673.

وبرأي عنان فإن براعة المعتضد في الشعر ما هو إلا قبس من تراث أسرته التي اشتهرت بالأدب والشعر في الأندلس وأن ابنه المعتمد قد فاقه في ذلك وبلغ أسمى المراتب فيه، وبسبب شغف المعتضد بالشعر والأدب إتخذ عددا من الكتاب والشعراء وزراء له كابن زيدون والبزلياني ويوسف بن عبد الله بن عبد البر وابن عمار الذي توطدت علاقته بعد ذلك بالمعتمد وصار من خواصه، وقد اعتبر راعي شعراء الأندلس أجمعين، وكان يهدف من خلال هذه الأشعار إلى تخليد بطولاته وانتصاراته العسكرية، وهنا يتجلى أثر الصراعات العسكرية على الشعر[1].

أما بني المظفر في بطليوس فيرى صاحب المعجب بأنهم كانوا ملجأ أهل الآداب وكان المتوكل شخصية شعرية فذة أما أبوه المظفر، فكان من أشد الناس حرصا على جمع الآداب خاصة الشعر وفي قصرهم كان الكاتب البارع والشاعر المجيد بن عبدون[2].

وإذا كان بعض الباحثين يعتقدون بأن بلاط بن ذي النون لم يكن فيه للشعر دولة زاهرة رغم اختيار الكثير من كبار العلماء والشعراء العيش فيه كشاعر المأمون ابن ارفع رأس صاحب الموشحات المشهورة[3]، فإن المجالس التي كان المأمون بن ذي النون يعقدها للشعراء في بلاطه وبساتينه ودعوتهم لمعارضة بعضهم بعضا بالشعر وإغداقه للأموال عليهم وتخصيص بعضهم برواتب محترمة قد جمع له الشعراء من ربوع الأندلس، ما جعل الشعر يزدهر في طليطلة ، وفي هذه الفترة بالذات ظهر شعر النكبات فيها[4].

ولم تكن مجالس الشعر حكرا على الرجال بل شهد هذا العصر شاعرات من الطراز الرفيع مثل ولادة بنت المستكفي التي كان لها مجلس خاص للشعر يحضره الأفذاذ من الرجال، وكانت شاعرة مجيدة كما كانت اعتماد الرميكية تحضر مجالس الشعر والأدب التي تعقد في بلاط زوجها المعتمد بأشبيلية[5]، وقد أنجبت الرميكية من المعتمد بنتا اسمها بثينة سطع نجمها في سماء الشعر وهي شابة وقد عثر على أبيات لها توجهت بها إلى أبيها وهو في الأسر في أغمات تطلب إذنه في الزواج من ابن تاجر اشبيلي اشتراها وأهداها له[6]، وهناك عدا من ذكرنا الكثير من شاعرات عصر الطوائف الموهوبات من الجواري والحرائر اللائي خلدن

1- عنان: المرجع السابق، ص ص56-57، 64؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 236؛ صلاح خالص: المرجع السابق، ص 151.

2- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 61-62؛ بالنثيا: المرجع السابق، ص 16؛ خليل ابر اهيم السامرائي وآخرون: المرجع السابق، ص 337.

3- عنان: المرجع السابق، ص106.

4- ابراهيم بن عطية السلمي: تاريخ مدينة طليطلة، ص ص 193-194،195.

5- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 429.

6- المقري: المصدر السابق، مج4، ص 284؛ عائشة إبراهيم موسى سلامة محسن: المرجع السابق، ص 211؛ عبد الوهاب عزام: المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2010، ص ص 130-131.

أسماءهن بأشعار بقيت بعد رحيلهن ودلت على تمكنّهن كالشاعرة التي تعرف بالعبادية عرفت بحضور البديهة وارتجال الشعر وقد عاشت في بلاط العباديين، والشاعرة حفصة بنت حمدون الحجارية[1]، والغسانية البجانية ذكر الضبي أنها شاعرة مشهورة تمدح الملوك[2]، ومريم بنت أبي يعقوب الفصولي الشلبي الأديبة الشاعرة التي كانت تعلم النساء الأدب[3]وغيرهن من المجيدات، وهن كثيرات في هذه الفترة وقد ذكرت منهن ما يكفي للدلالة على مشاركتهن للرجال في هذا الفن.

ولما كان الشعر مرآة تعكس ما يحدث في المجتمع، فقد عكس الصراعات العسكرية التي دارت رحاها بالأندلس في هذه الفترة العصيبة، ذلك لأن الكثير من الملوك والوزراء والقادة كانوا من فحول الشعراء.

لقد تأثر الشعر بالصراعات العسكرية، فجعل من أحداثها مواضيع له، وبعبارة أخرى لقد رافق الشعر الصراعات العسكرية، وكان حاضرا عند خوض المعارك، وفتح الحصون، وصدّ العدو، ودكّ الحصون، وسحق الخصوم، والتغني بالبطولات، فأنشأ قصائد تناولت هذه الأحداث كلها، فمن الأشعار التي دبجت في فتح الأقاليم القصيدة التي نظمها المعتضد بن عباد في فتح الأقاليم الجنوبية للاندلس، ومنها إقليم رندة وفيه يقول[4] :

لقد حصنت يا رندة فصرت لملكنا عقدة

أفادتناك أرماح وأسياف لها حده

وأجناد أشداء بهم تنتهي الشده

كما أتخذ الشعر من قبل بعض القادة وسيلة للاعتذار من أصحاب القرار، عند الهزيمة ومطية لتبرئة ساحتهم من تهمة التفريط، وهذا ما فعله المعتمد بن عباد عندما انهزم مع جيشه في مالقة، حيث علم أن أباه المعتضد قد غضب منه،ورماه بالتفريط والاستهانة بخصومه، فكتب إليه أبياتا يمتصّ بها غضبه ، وينفي عن نفسه تهمة التقصير قال فيها[5] :

لم أوت من زمني شيئا ألـذ فلست أعرف ما كأس ولا وتر

---

[1]- المقري: المصدر السابق، مج4، ص 285؛ ترجمتها عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص ص 37-38، رقم الترجمة 357.

[2]- ترجم لها الضبي: المصدر السابق، ج2، ص 730، رقم الترجمة 1592؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 192، رقم الترجمة 447.

[3]- الضبي: المصدر السابق، ج2، ص 729، رقم الترجمة 1591.

[4]- بالنثيا: المرجع السابق، ص ص 87-88.

[5]- بالنثيا: المرجع نفسه، ص 98.

ولا تملكنـــي دل ولا خفـــر   ولا سبا خلدي غنج ولا حور

رضاك راحة نفسي لا فجعت به   فهو العتاد الذي للدهر أدخر

ثمة نوع آخر من الشعر له علاقة وطيدة بالخراب الذي ألحقته الصراعات العسكرية بالمدن الأندلسية،عرف بشعر رثاء المدن، فهذا النوع من الشعر كما يقول الباحث الطاهر أحمد مكي ولد في خضم الأحداث المتلاحقة، والصراعات العسكرية المستمرة بين ملوك الطوائف، وبينهم والنصارى، فالخراب الذي كانت تلحقه الصراعات العسكرية من حين إلى آخر بالمدن الأندلسية،ساهم في انتعاش هذا اللون من الشعر خلال عصر الطوائف[1].

و ممن رثى المدن المخربة في هذه الفترة ابن خفاجة، فقد رثى بلنسية بعد إضرام الفونسوا السادس النار في جنباتها بقصيدة طويلة مطلعها[2]:

عاثت بساحتك الضبا يا دار   ومحا محاسنك البلى والنار

إلا أن رثاء الوقشي(ت479هـ/1086م) لها في مرثية رائعة ضاعت ولم يعثر لها على أثر عدا ترجمة قشتالية ركيكة الأسلوب والمعنى أفضل وأشمل ما كتب عن مأساة بلنسية[3].

وتألم الوقشي مرة أخرى للخراب الذي ألحقة الكمبيطور ببلنسية فصاغ على عجل قصيدة نقل فيها المشهد كما هو[4]، فكان بمثابة الصحفي الواقف في جبهة من جبهات القتال ينقل التطورات بعدسته.

وتأثر الفقيه أبو حفص الهوزني (460هـ/1068م) بغزو النورمان لبربشتر عام 456هـ/1064م، وبحجم الانتهاكات التي ارتكبت بحق سكانها، فكتب قصيدة يستنفر فيها المعتضد بن عباد لاسترداده وطرد الغزان منها مطلعها[5]:

أعباد جل الرزء والقوم هجع   على حالة من مثلها يتوقع

وله قصائد أخرى يستنفر بها حكام المسلمين للجهاد.

---

[1]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص ص 204، 205؛ حميدة منصور حسن أبو شعراية: المرجع السابق، ص 192.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 100؛ الطاهر أحمد مكي:المرجع السابق، ص 251.

[3]- الطاهر أحمد مكي: المرجع نفسه، ص ص 251 -260.

[4]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 17.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 83؛ أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص ص 223-224.

أما الفقيه الزاهد ابن العسال فقد آلمته مشاهد القتل والخراب الذي أحدثه النورمان ببربشتر، فصورها في قصيدة معبّرة[1]، وأخبر ابن حزم (456هـ/1064) الذي خرج من قرطبة بعد الحرب التي نشبت فيها بين البربر والقرطبيين عن حجم الخراب الذي طال منازل بني حزم ببلاط مغيث في الجانب الغربي منها، فتحركت لواعج نفسه وأنشد[2]:

لكن كان أظمانا فقد طالما سقى وإن ساءنا فيها فقد طالما سرا

ووقف الشاعر خلف بن فرج السميسر(ت قريبا من 459هـ/1067) يوما على أطلال الزهراء التي دمرتها الحرب، فتذكر أيام عزها، ومجدها، وأثرت مشاهد الخراب والدمار الذي أتى على كل شيء فيها في نفسه، فأنشد قصيدة مطلعها[3]:

وقفت بالزهراء مستعبرا معتبـــرا أنـدب أشتاتـا

فقلت: يا زهراء ألا فارجعي قالت: وهل يرجع من ماتا

ولم يكتف الشعراء برثاء المدن بل رثي كذلك القتلى بسبب هذه الصراعات العسكرية، فمن ذلك رثاء المعتمد بن عباد ابنيه المأمون والراضي المقتولين أثناء الصراع مع اللمتونيين حيث يقول[4]:

يقولون صبرا لا سبيل إلى الصبر سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري

نرى زهرها في مأتم كل ليـــلة يخمشن لهفا وسطه صفحة الـــبدر

وفي بطليوس رثى الشاعر محمد بن عبدون المتوكل بن الأفطس وولديه بعد إعدام اللمتونيين لهم بقصيدة مطلعها[5]:

الدهر يفجع بعد العين بالأثر فما البكاء على الأشباح والصور

ثمة نوع آخر من الشعر في الأندلس كان للصراعات أثر في انتعاشه، ويتعلق الأمر بشعر الحنين، فالكثير من الشعراء الذين ذاع صيتهم في هذه الفترة أرغمتهم الصراعات المسلحة على مغادرة أوطانهم، والانتقال إلى أماكن آمنة، فكانوا يحنون من حين لآخر إليها، فتفيض قرائحهم بقصائد وأشعار يشكون

---

[1]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 143.

[2]- ابن حزم:طوق الحمامة،ج1، ص 228.

[3]- الطاهر أحمد مكي:المرجع السابق، ص 218.

[4]- ابن خاقان: قلائد العقيان، م1،ج1، ق1، ص 69.

[5]- ابن خاقان: المصدر نفسه، م1،ج1، ق1، ص 123؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 246.

فيها ألم الغربة والبعد عن الديار، فمن الشعراء الذين تجرعوا مرارة الغربة وحنوا إلى ديارهم ابن دراج القسطلي(ت 421هـ/1030)حيث غادر قرطبة بعد الفتنة، وتردد على عدد من البلاطات،لكنه تذكرها يوما بسرقسطة، فحنّ فؤاده إليه، وأنشد قصيدة جاء فيها[1]:

واجنح لقرطبة فعانق تربتها   عني بمثل جوانحي وترائبي

حيث استكانت للعفاء منازلي   وهوت بأفلاذ الفؤاد ركائبي

ومثل ابن دراج ابن حزم الذي أجبرته الأحداث على مغادرة قرطبة، وتنقل كثيرا داخل الأندلس فحنّ إليها يوما وأنشد يقول[2]:

فيا دار لم يقفرك منا اختيار   ولو أننا نستطيع كنت لنا قبرا

ولكن أقدارا من الله أنفذت   تدمرنا طوعا لما حل أو قهرا

ويا دهر بلغ ساكنيها تحيتي   ولو ساكنوا المروين أو جاوزوا النهرا

وهكذا ابن خفاجة وغيره من الشعراء في عصر ملوك الطوائف الذين أثرت فيهم الغربة والبعد عن ديارهم وحنوا إلى مضاربهم فكتبوا أشعار في ذلك.

كما استعمل الشعر لوصف لحظات انهيار الممالك، وإنزال الملوك عن عروشهم، واقتيادهم إلى السجون أو إعدامهم، من ذلك القصيدة التي نظمها ابن اللبانة(ت507هـ/1113م) في المعتمد بن عباد بعد هزيمته أمام اللمتونيين، ووقوعه في الأسر، وقد أركب مع أسرته في السفينه لنفيه إلى أغمات، مطلعها[3]:

تبكي السماء بمزن رائح غاد   على البهاليل من أبناء عباد

على الجبال التي هدت قواعدها   وكانت الأرض منهم ذات اوتاد

ووأصيب الفقيه أبو محمد عبد الله بن العسال (ت 487هـ/1094م) بالإحباط بعد عجز أاهل طليطلة عن حمايتها وسقوطها في يد الفونسوا السادس فنظم أبياتا وهو متّجه إلى غرناطة يحث فيها

---

[1]- ابن دراج أبو عمر أحمد بن محمد القسطلي الأندلسي : ديوانه، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط1، 1961، ص ص 72-73.

[2]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص ص214- 215؛ إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 140.

[3]- ابن خاقان: قلائد العقيان، م1،ج1، ق1، ص 90؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 242.

المسلمين على مغادرة الأندلس كلها،لاعتباره سقوط طليطلة بداية نهاية الوجود الإسلامي بشبه الجزيرة الأيبيرية مطلعها[1]:

يا أهل أندلس حثوا مطيّكم   فما المقام بها إلا من الغلط

أما معاصره أبو حفص الهوزني، فقد كتب قصيدة بعد فادحة بربشتر يستنهض بها همم المسلمين في كافة أنحاء الأندلس للجهاد، ويحث ملوك الطوائف على قتال النصارى، من أبياتها[2]:

فثبوا واخشوشنوا واحزئلوا   كل رزء سوى الدين قل

وليست قصيدة الهوزني الوحيدة في هذا الغرض في عصر ملوك الطوائف بل نظم شعراء الأندلس في هذه الفترة الحرجة الكثير منها لكن أوراق البحث لا يتسع لذكرها، فتأمل جيدا كيف أثرت هذه اللحظة في شخص هذا الشاعر فوثقها، فقد كانت قصائد الشعراء التي وثقت هذه اللحظات التاريخية بمثابة العدسة المصوّرة التي تنقل الأحداث بتفاصيلها الدقيقة.

ولم يغفل الشعراء في عصر الطوائف عن وصف الجحافل عندما تتهيأ للخروج إلى ساحات المعارك، فيصف الشاعر أسلحتها، ولباسها وأعدادها الكبيرة، وأصنافها وبأسها، كما وصفوا الأساطيل عندما تتحرك للغزو، وممن اضطلع بهذا الدور أحمد بن دراج القسطلي حيث دبَّج قصيدة في وصف بأس وقوة جيش المستعين بالله الأموي جاء فيها[3]:

وقد لمعت حوليك أسنة   تخيل أن الحزن والسهل نيران

أسود هياج ما تزال تراهم   تطير بهم نحو الكريهة عقبان

وله من أخرى يصف فيها أسطول خيران العامري وهو متجه إلى سرقسطة لحربها سنة 407هـ/1016م جاء فيها[4]:

إليك شحنا الفلك كأنها   وقد ذعرت عن مغرب الشمس غربان

على لجج خضر إذا هبت الصبا   ترامى بنا فيها ثبير وثهلان

---

[1]- الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 227.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 89.

[3]- ابن بسام: المصدر نفسه، ق1، مج1، ص ص70-71.

[4]- أمحمد بوشريط :المرجع السابق، ص 210.

ووصف فصولا من معركة قنتيش التي وقعت بيت المستعين بالله ومحمد بن هشام بن عبد الجبار الملقب بالمهدي، ومشاركة جيوش النصارى فيها فقال[1]:

دلفوا إلى شهباء حـان حصـادهـا   وطلى رؤوس الدارعين حصيدهـا

وشعاب قنتيش وقد حشرت لهم   أمم بغاة لا يكف عديدها

تركوا بها ظهر الصعيد وقد غدا   بطنا وأجساد العداة صعيدها

وكتائب الأفرنج إذ كادتك في   أشياعها والله عنك يكيدها

ومن الأشعار التي وثقت لحظات الانتصار في المعارك قصيدة للفقيه أبي عمر يوسف بن جعفر الباجي[2]يشيد فيها باتنصار المعتمد بن عباد على جيوش ابن ذي النون، واسترجاعه حصن المدوّر[3]، وسيطرته على حصن غافق، وفي هذه القصيدة وصف شجاعة المعتمد وضخامة جيشه[4].

ولم يكتف الشعراء بتسجيل المعارك التي خاضها ملوك الطوائف ضد بعضهم بل وثقوا من خلال هذه الأشعار المعارك التي قارعوا فيها جيوش النصارى وألحقوا بهم الهزائم، فألفوا في ذلك الدوواوين الضخمة كديوان أحمد بن دراج القسطلي الذي سجل فيه بعض المعارك التي خاضها بعض ملوك الطوائف مع الفرنجة، ومنه قصيدة في حرب دارت بين منذر بن يحي التجيبي والفرنجة[5]، وتذكّر المعتمد بن عباد في منفاه معركة خاضها ضد الأفرنج، فكتب أبيات تنقل القارئ لها إلى ساحة المعركة، فذكر الطبول وقرعها، وتكبير الجنود عند هجومهم على أعدائهم[6]، ووصف الشاعر محمد بن عبادة المعروف بابن القزاز بسالة المعتمد في هذه المعركة بقوله[7]:

وقالوا كفه جرحت فقلنا   أعاديه تواقعها الجراح

وما أثر الجراحة ما رأيتم   فتوهنها المناصل والرماح

ولكن فاض سيل البأس منها   ففيها من مجاريه انسياح

---

[1]- ابن بسام : المصدر السابق، ق1، مج1، ص ص 68-69.

[2]- ترجمته عند ابن بسام: المصدر نفسه، ق2، مج1، ص 186؛ ابن سعيد: المصدر السابق،ج1، ص 405.

[3]- ALMODAVAR بينه وبين قرطبة ستة عشر ميلا. المقري: المصدر السابق، مج1، ص 165.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 197.

[5]- ابن دراج القسطلي: المصدر السابق، ص ص 392-394.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 77.

[7]- ابن خاقان: القلائد، مج1،ج1، ق1، ص 71.

ولابن وهبون قصيدة رائعة في وصف معركة الزلاقة واستبسال ابن تاشفين في قتال النصارى جاء فيها[1] :

تألقت الوحوش عليه شتى فما نقص الشراب ولا الطعام

كما وثق الشعراء تلك الهجومات التي قام بها بعض ملوك الطوائف لفك الحصار على بعض حصونهم أثناء حصار النصارى لها،كالهجوم الذي قام به المقتدر بن هود على روذمير ملك نافار وأراغون عندما حاصر بعض حصون سرقسطة، فطرده حتى اقتطع منه بعض حصونه سنة 462هـ/1070م، فوثق الأديب الشاعر أبي عبد الله محمد بن أحمد بن الحداد ذلك في أبيات له وصفت ما حدث في تلك الواقعة، وأثارت الصراعات العسكرية مشاعر القلق والخوف من المستقبل لدى الشعراء فنظموا ذلك شعرا[2].

ولا يجب أن ننسى الكثير من الأشعار التي بعث بها شعراء الأندلس يستحثون بها ملوك الطوائف على جهاد العدو، كقصيدة أبي حفص الهوزني التي استنفر بها كواف البلاد للجهاد ومقارعة النصارى من أبياتها[3]:

فثبوا واخشوشنوا واحزئلوا كل رزء سوى الدين قل

ومن شعر التهنئة على النصر في المعارك القصيدة التي وجهها ابن زيدون إلى المعتضد بن عباد يهنئه فيها بانتصار ابنه اسماعيل على ابن المظفر بن الأفطس جاء فيه[4]:

دعوت فقال النصر لبيك ماثلا ولم تك كالداعي يجاوبه الصدى

لقد اختلطت الصراعات العسكرية بمظاهر الحياة، فصار الشاعر يراها في كل شيء، فهذا ابن دراج مرة أخرى يصف الربيع وأزهاره، فيشبه الرياض بأرض عدو يجب اقتحامها، وأزهار السوسن بمعاقل يجب دكّها بالمجانيق[5].

[1] – ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 245.

[2] - ابن بسام: المصدر نفسه، ق1، مج2، ص 727؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 223؛ تنظر ترجمة ابن الحداد عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص ص 143-144؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج5، ص ص 41-42.

[3] - ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 89.

[4] - ابن بسام: نفسه، ق1، مج1، ص 385؛ سحر السيد عبد العزيز سالم: تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، ج1، التاريخ السياسي، ص402.

[5] - أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص 211.

ومن الآثار السلبية للصراعات العسكرية أنها كانت سببا في فساد العلاقة بين الملوك المتصارعين، وكان من إفرازاتها الخطيرة سعي بعضهم لتشوية صورة خصومه،على المستويين الرسمي والشعبي، فأشعل هذا التصرف حربا كلامية بين الملوك المتصارعين، كان الشعر لغة الخطاب فيها، من ذلك القصائد التي تبادلها المعتمد بن عباد والمعتصم بن صمادح في هذا الإطار[1].

ومن إفرازات هذه الصراعات العسكرية كذلك قيام الملوك بسجن أقارب خصومهم نكاية فيهم، فكان السجين يتواصل مع أبيه عبر أبيات من الشعر كتلك التي أرسل بها عز الدولة بن صمادح إلى أبيه المعتصم بعد سجن يوسف بن تاشفين له، فجاوبه أبوه شعرا[2]، وفي السياق ذاته نذكر شعر الاستعطاف الذي يوجهه بعض الانفصاليين إلى ملوكهم بعد فشل عملية الانفصال لاستدرار عطفهم، من ذلك الأبيات التي كتبها ابن عمار إلى المعتمد بن عباد من سجنه.

وفي الحقيقة لقد تتبعت الأشعار التي تصور الصراعات العسكرية التي دارت رحاها بالأندلس في عصر الطوائف فوجدت أن المجال يضيق لإيرادها، لذلك أوردت منها لمعا وأعرضت عن الكثير منها.

لقد ارتبط الشعر بالصراعات العسكرية التي كانت دائرة بالأندلس ارتباطا وثيقا كونها وسيلة دعائية بالغة الأهمية لذلك لقيت اهتماما بالغا ودعما كاملا من قبل الحكام حيث تنافس الملوك في استقطابهم بالمال، ولم يتوان كبار الشعراء في اللحاق بأكبر البلاطات طمعا في المكافآت المجزية من جهة وتقلد المناصب الرفيعة من جهة أخرى[3].

وفي ختام هذه الفقرة أقول: رغم ازدهار الشعر في هذه الفترة إلا أن الفاقة التي أصابت بعض الشعراء كابن دراج، وابن شهيد وغيرهما توحي بكساد سوق الشعر وتدني مكانة الشاعر على الأقل في جزء من عصر الطوائف، وهذا التدني سببه الأحوال المضطربة في الأندلس، فهذا من الآثار المباشرة السلبية للصرعات العسكرية على الشعر والشعراء[4].

الفرع الثالث:النثر: إن النثر هو شقيق الشعر فكما كان بالأندلس شعراء مجيدون في عصر الطوائف كان هناك كذلك كتاب مرموقون ينثرون اللغة العربية نثرا جيدا، وإذا كان الشاعر في العصور القديمة يؤدي دور وسائل الإعلام في الدول المعاصرة فإن الناثر أو الكاتب المتمرس هو لسان حال الدول

[1]- ينظر ذلك عند ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص 85؛ ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية، ص 236.

[2]- ماهر حمادة: نفسه، ص ص 237-238.

[3]- كارل بركلمان: المرجع السابق، ص 308.

[4]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر سيادة قرطبة، ص 275؛ عمر ابراهيم توفيق، ص222.

ذلك لأنه هو الذي يصوغ قرارات الحاكم ويكتب عنه رسائله وأوامره وخطاباته وهو المعبر عن سياسات الدولة وعلاقاتها بأسلوب لبق راق[1].

انقسم النثر في الأندلس إلى قسمين نثر علمي تأليفي[2] ونثر فني، فأما النوع الأول، فتعبر عنه المؤلفات الكثيرة التي ألفت في عصر الطوائف في مختلف العلوم والفنون والتي تشهد بتمكن الطبقة المتعلمة من لغة الضاد، وقد ذكرت غيضا من فيض تلك المؤلفات في هذه الرسالة تحت عنوان " التأليف والترجمة" ولا بأس بالإشارة إلى بعضها، فنذكر منها على سبيل المثال لا الحصر " طبقات ابن صاعد الاندلسي (ت 462هـ/1070م)، و" والمخصص" لابن سيده (ت 458هـ/1066م)، و " طوق الحمامة " لابن حزم (ت 456هـ/1064م)، وقد تفنن عدد من الأندلسيين في الأسلوب والعبارة التي يستعملونها في مؤلفاتهم لا سيما كتب التراجم والتاريخ تفننا كاد يستجلب لها خصائص الكتابة الفنية وهذا ما نجده عند الفتح بن خاقان في المطمح والقلائد، وعند ابن بسام في الذخيرة[3]، ومهما يكن من أمر فإن النثر العلمي التأليفي في عصر الطوائف كان مزدهرا ومن كان لديه أدنى شك في ذلك فلينظر إلى حجم المؤلفات التي ألفت فيه ونوعها.

أما النوع الثاني من النثر أو الكتابة، فهو النثر الفني أو الأدبي وهو البرهان الساطع والدليل الدامع على الإجادة في التعبير والإبداع في الكلام وبراعة الكاتب ومقدرته على التصرف في مناحي القول وتمكنه من أساليب الكلام وفنون البلاغة وسحر البيان[4]، ونعني بهذا النوع من النثر الرسائل بأنواعها المختلفة: الديوانية وتسمى كذلك السلطانية، والرسائل الإخوانية، والرسائل الوصفية، والرسائل الاجتماعية ، والوصايا، والمناظرات والمقامات وغيرها من مواضيع النثر[5].

لقد تفطن ملوك الطوائف للدور الكبير والخدمات الجليلة التي يمكن أن يقدمها الكاتب الفذ للدولة، فحرصوا على استقدام الأفذاذ منهم، وتنافسوا في ذلك، وبذلوا من أجله الأموال والامتيازات، ويبدوا من الوهلة الأولى بأن هذا التنافس بين ملوك الطوائف في استجلاب الكتاب الأفذاذ من إفرازات الصراع العسكري الدائر في هذه المنطقة الذي يسعى المنخرطون فيه للتفوق في جميع الميادين.

---

[1]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين ، ص 15.

[2]- عبد العزيز محمد عيسى :الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، مصر، (د.ط)، 1945، ص 64.

[3]- عبد العزيز محمد عيسى، المرجع نفسه، ص 69،70.

[4]- عبد العزيز محمد عيسى: المرجع نفسه، ص 73.

[5]- البشري: المرجع السابق، ص 390 نقلا عن مصطفى الشعكة : الأدب الأندلسي، ص 210؛ مجموعة كتاب (ق5و6هـ/11و12م): رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت)، ص 11 ،20، 24 ، 28.

لقد كثر كتاب الدواوين في عصر الطوائف كثرة بالغة بسبب كثرة الإمارات التي انبجست من الخلافة الأموية، فقد صار في كل بلاط أو قصر أو دار حكم في مدينة كتّاب، وأصبح السجع في رسائل الكتاب أشبه بقانون عام في الرسائل الديوانية[1]، ومن هؤلاء الكتاب الذين ذاع سيطهم في بلاطات الحكام في هذا العصر احمد بن دراج القسطلي(ت 421هـ/1030) الذي ذكره ابن حيان معجبا من أخباره معربا عن جلالة قدره مخبرا بأن الفتنة القرطبية قد أجبرته على الرحيل منها، فتنقل بين عدد من بلاطات ملوك الطوائف[2]، وابن برد الأصغر(كان حيا سنة 440هـ/1048) الذي كان كاتبا معن بن صمادح أمير المرية وقد أثنى ابن بسام عليه ووصفه بأوصاف تدل على علو كعبه في النثر فقال :"كان أبو حفص بن برد الأصغر في وقته فلك البلاغة الدائر، ومثلها السائر، نفث فيها بسحره ، وأقام من أودها بناصع نظمه وبارع نثره" إلى آخر كلامه الذي يدل على تمكن ابن برد في الكتابة الفنية[3].

وفي اشبيلية كان أبو محمد عبد الله بن عبد البر(ت 474هـ/ 1081م) كاتبا في بلاط المعتضد بن عباد، ويظهر من كلام ابن بسام عنه أن ابن عبد البر عندما سطع نجمه بالأندلس امتدت إليه أعناق ملوك الطوائف، فظفر به ابن عباد، وبعد خروجه من اشبيلية اشتغل كاتبا لعدد من الملوك، وقد أمره المعتضد عندما كان كاتبه أن يكتب رسالة للمقتدر بن هود يشرح له فيها أسباب قتله لابنه اسماعيل، فارتجلها بمحضر الوزراء والكتاب، وكانت آية في البلاغة، فاعترف الكتاب يومئذ لابن عبد البر بتفوقه في مجال الكتابة وأنه آية في ذلك[4]، وقد اجتمع معه في نفس القطر أبو الوليد بن زيدون، وكان قبل فراره من قرطبة إلى اشبيلية من خواص ووزراء أبي الوليد بن جهور، وكان ابن زيدون من أشد المنافسين لأبي محمد بن عبد البر في بلاط المعتضد، وقد ضاق به ذرعا ودبر له مكيدة للتخلص منه[5]، وفي نفس البلاط عمل الكاتب الوزير أبو الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم[6].

وفي بلنسية سكن محمد بن سعيد أبو عامر التاكرني الكاتب وهو من أهل الأدب والبلاغة والشعر، فخدم صاحبها عبدالعزيز بن الناصر بعد الأربعمائة[7].

وفي قرطبة ولد ومات الكاتب البارع الفذ أبو عامر بن شهيد (ت 426هـ/1035م) وصفه صاحب المطمح بقوله: " عالم بأقسام البلاغة ومعانيها حائز قصب السبق فيها لا يشبهه أحد من أهل

1- محمد رضوان الداية: المرجع السابق، ص220.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 60.

3- ابن بسام: المصدر نفسه، ق1، مج1، ص 486؛ محمد رضوان الداية: المرجع السابق ، ص 220.

4- ابن بسام: المصدر السابق، ق 3، مج1، ص ص 125، 137؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 473.

5- ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 420؛ وتنظر ترجمة ابن زيدون في الجزء الأول منه ص 63 فما بعدها.

6- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 112-113؛ الضبي: المصدر السابق، ص 138، رقم الترجمة 204.

7- الحميدي: المصدر السابق، ص 93، رقم الترجمة: 68؛ الحموي: المصدر السابق، ج2، ص ص 6-7.

زمانه ولا ينسق ما نسق من در البيان وجمانه "[1]، وهذه العبارات كافيه للحكم على ابن شهيد بأنه ممسك بناصية اللغة ومع ذلك بلغ مرتبة الوزارة ولم يبلغ مرتبة الكتابة في الديوان لثقل في سمعه .

أما في طليطلة فيذكر ابن سعيد أن المأمون بن ذي النون قد اجتمع عنده من الكتاب والوزراء ما لم يجتمع عند غيره من الملوك [2]، ومن أرباب الكتابة والنثر في هذا العصر الوزير الكاتب أبو المغيرة عبد الوهاب بن حزم قال عنه ابن خاقان:"وأبو المغيرة هذا في الكتابة أوحد، لا ينعت ولا يحد ، وهو فارس المضمار، حامي ذلك الذمار، وبطل الرعيل أسد ذلك الغيل، نسق المعجزات ..."[3] إلى آخر العبارات التي تدل على طول باعه في الكتابة، وفي الحقيقة عصر الطوائف يعج بالكتاب من طراز عبد الوهاب ابن حزم وبحثنا هذا لا تتسع أوراقه لذكر هؤلاء الأفذاذ جميعا لذلك اكتفينا بذكر بعضهم.

وقد حفظ لنا ابن بسام في كتابه الذخيرة أنواعا من الرسائل، فالمقلب لصفحات هذا المصدر المهم يجد منها:

1- الرسائل السلطانية[4]: وتسمى كذلك الديوانية والسياسية،وتصدر عن ديوان الخليفة وقد تمرس الكثير من اليهود الذين عاشوا في بلاطات الملوك في هذا النوع من الرسائل، ومنها الرسائل المتبادلة بين الملوك[5].

وقد تأثر هذا النوع تأثرا بالغا بالصراعات العسكرية والأحداث الدامية التي ألمت بالأندلس، فالكثير من مضامين هذه الرسائل يدور حول تلك الاحداث والتطورات، وبعضها عبارة عن أوامر وتعليمات توجه بها الملومك إلى قادتهم الميدانيين في ساحات المعارك، وقد عرف أحمد بن رشيق(ت 446هـ/1054م) عامل مجاهد على جزيرة ميورقة ببروزه في فنّ الرسائل[6].

ويمكن أن ندرج تحت هذا النوع الرسائل والمكاتبات التي جرت بين ملوك الطوائف وملوك النصارى، وتعددت مواضيعها من ذلك رسائل الصلح، لا سيما في الفترة التي اشتدت فيها حروب الاسترداد المسيحي، فقد شاعت هذه الرسائل في هذه المدة، ولما كانت الغاية منها تهدئة الأوضاع، ودفع التشنج بين الأطراف، بحث ملوك الطوائف عن كتاب مقتدرين لها، وتنافسوا في استقدامهم، لم يكن ذلك

---

[1]- ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص 189.
[2]- ابن سعيد: المصدر السابق، ج2، ص 12.
[3]- ابن خاقان:المصدر السابق، ص 202.
[4]- ينظر تعريفها عند أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص 253.
[5]- ريموند شايندلين: المرجع السابق، ص 308.
[6]- ابن الأبار: الحلة السيراء، ج2، ص 128.

حكرا على ملوك الطوائف بل شاركهم فيه ملوك النصارى، فكان تأثير الصراعات العسكرية على هذا النوع إيجابيا، أذكر على سبيل المثال لا الحصر الرسائل التي تبادلها فرناندوا سنة 459هـ/1067م مع سكان طليطلة[1] وقد ألحقت نماذج من هذه الرسائل في آخر البحث.

كما لا يفوتنا هنا أن نذكر الإتفاقيات التي تكتب عند تسليم المدن والحصون بعد المعارك الطاحنة، من ذلك الوثيقة التي تضمنت شروط تسليم طليطلة لألفونسوا، والوثيقة التي تضمنت شروط تسليم بلنسية للسيد الكمبيطور[2]، فهذا النوع من الوثائق النثرية كثير في عصر الطوائف، لارتباطه ارتباطا مباشرا بالصراعات العسكرية.

هناك كذلك رسائل التهديد والوعيد التي يرسلها الملوك إلى بعضهم، ويكون الغرض منها حمل المرسل إليه على توقيف اعتداءاته، أو دعوته للاستسلام والدخول تحت طاعته، والنوع الأخير شاع بعد شروع ملوك النصارى في احتلال دويلات الطوائف[3]، فقد أرسل الفونسوا السادس إلى المعتمد بن عباد بعد استيلائه على طليطلة رسالة يدعوه فيها للاستسلام والدخول تحت طاعته، فجاوبه المعتمد برسالة يرفض فيها طلبه، ويتحدّاه أن يقترب من اشبيلية، كما بعث الفونسوا رسالة أخرى إلى حاكم بطليوس يهدده ، ويطلب منه التنازل عن بعض حصونه ودفع جزية سنوية، ولا شك بأن المتوكل قد أجابه كذلك برسالة، وقد بعث يوسف بن تاشفين رسائل مماثلة إلى عدد من الحصون في غرناطة يطلب فيها من قادتها الدخول تحت طاعته أو الاستعداد للحرب، وهناك رسالة أخرى وجهها الفونسوا إلى المعتمد وقد غزا إشبيلية واستقر قبالة قصره هدفها استفزازه واستدراجه للحرب عقابا له على قتله لليهودي وزير الفونسو، فجاوبه المعتمد على ظهر رسالته[4].

ويبدوا بأن عبد الله بن بلقين قد تلقى رسالة مماثلة من الفونسوا السادس عن طريق رسوله وقائد جيوشه البرهانس[5]، وكان محتوى الرسالة أن يدفع له جزية ثلاث سنوات متتالية، وإن لم يفعل فسيعلن عليه الفونسوا الحرب[6].

كما تحتفظ المصادر التاريخية بالرسائل التي وجهها عدد من ملوك الطوائف إلى يوسف بن تاشفين في العدوة المغربية يطلبون منه فيها الجواز إلى الأندلس لمحاربة النصارى، والإجابات على هذه

1- ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية، ص 246.

2- ماهر حمادة: نفسه، ص 247.

3- فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص185.

4- عبد الله بن بلقين: المصدر السابق، ص 148؛ ماهر حمادة:المرجع السابق، ص ص 248-251، 267.

5- هو ابن أخ السيد القمبيطور ،كان من كبار قواد الفونسوا السادس. ينظر ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص 86.

6- ماهر حمادة: المرجع السابق، ص 252.

الرسائل أذكر منها رسالة المعتمد بن عباد، ورسالة المتوكل بن الأفطس، ولم تنس المصادر رسائل الفونسوا إلى ابن تاشفين سواء تلك التي كتبت إليه قبل الجواز أو بعده وكان مضمونها الدعوة للقتال والحرب، وفي كل مرة كان يوسف يجيب على هذه الرسائل بما يناسب المقام والمقال[1].

ولا يجب أن ننسى كذلك الرسائل الرسمية التي ترد من جبهات القتال إلى البلاطات وهي بمثابة تقارير مفصلة يقدما القادة الميدانيون للملوك، وهنا تحضرني الرسالة التي بعث بها المعتمد بن عباد من معركة الزلاقة إلى ابنه الرشيد في اشبيلية يخبره بانتصار المسلمين على النصارى، وأخرى بعث بها ابن تاشفين إلى العدوة المغربية للغرض نفسه، ورسالة قائده سير إليه بعد عودته إلى المغرب يخبره بالضروف التي يقاتل فيها جيشه العدو، وجوابه على تلك الرسالة[2].

2-الرسائل الإخوانية وهذا النوع يتبادلها الإخوان والأصدقاء وتتعدد أغراضها من التهنئة إلى التعزية إلى العتاب إلى الاعتذار ، إلى الاستعطاف إلى الشوق ...الخ ، وكتاب الذخيرة يعج بهذا النوع من الرسائل، ويوجد في هذا النوع عدد من الرسائل التي كان الخراب والدمار الذي أحدثته الصراعات العسكرية بالمدن الأندلسية في عصر الطوائف سببا في إنشائها ومنها رسالة أبي عبد الرحمن بن طاهر سنة 488هـ/1095م التي كتبها إلى بعض إخوانه بعد اقتحام الكمبيطور لبلنسية وإحداثه بها أمورا يندى لها جبين البشرية[3].

ومنها كذلك الرسائل التي هنأ فيها الكتاب ملوكهم بانتصارهم في معاركهم على خصومهم، أو وجهها الكتاب على لسان رؤسائهم إلى ملوك آخرين يهنئونهم بانتصاراتهم، كالرسالة التي بعث بها أبو العلاء صاعد البغدادي إلى مجاهد العامري يهنئه فيها بانتصاره على خيران العامري في موقعة بحرية[4].

ورسالة أبي عبيد البكري يهنئ فيها المعتمد بن عباد بالنصر على النصارى في معركة الزلاقة، ورسالة ابن القصيرة عن المعتمد بن عباد إلى المعتصم بن صمادح يخبره بحصار المسلمين لجند النصارى في حصن لييط وهلاك الكثيرين منهم، ويهنئه بذلك[5]، ورسائل أخرى كثيرة تعج بها كتب الأدب الأندلسي لأن المرحلة محل الدراسة هي سلسلة من المعارك والانتصارات، فالكتاب واكبوا بأقلامهم هذه الأحداث ودونوا ما يجب تدوينه في حينه.

1- ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية ، ص ص 254-258.

2- ماهر حمادة: نفسه، ص 259، 266-267.

3- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص ص 149-150.

4- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 11؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص 155.

5- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 235-236؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص ص 191-192.

ورسالة ابن حيان إلى المعتمد بن عباد كذلك يهنئه فيها بظهوره على المأمون بن ذي النون، ويزين له صنيعه، ويعتبر ذلك أمرا لا بد منه لأن المأمون أساء السيرة، وفي الرسالة نفسها يصف جحافله، واستبسالهم،وتنكيلهم بخصومهم[1] .

ومن الرسائل الإخوانية رسائل الرثاء لأشخاص قتلوا في ساحات المعارك، خاصة أبناء الملوك، وكبار رجال الدولة، وهذه تجمع إلى جانب الرثاء تعزية من وجهت إليهم، أو كتبت في رثاء مدن سقطت في يد النصارى، وكتاب الذخيرة يحوي عددا من هذه الرسائل.

ومنها كذلك رسائل الاستعطاف والاعتذار أذكر منها الرسالة التي كتبها أبو الوليد بن زيدون إلى ابن جهور من سجنه يستجلب مودته ويعتذر له متبرئا مما نسب إليه يقول في مطلعها : " يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتدادي به ، واعتمادي عليه أبقاك الله ماضي حد العزم ..."[2] إلى آخر الرسالة.

وقد حوى كتاب ابن بسام الذي عاش نصف قرن من حياته في القرن الخامس الهجري الكثير من الرسائل الإخوانية.

3- الرسائل الوصفية: يصف فيها كاتبها شيئا رآه الكاتب فترك أثرا في نفسه كالقحط أو نزول الغيث وغيرها ومن هذا القبيل رسالة أبي حفص بن برد (كان حيا سنة 440هـ/1048) " **السيف والقلم والمفاخرة بينهم"**[3] وقد وصف ابن برد كذلك المداد، والقلم، والألفاظ، والقرطاس والدواة، والعقل والعلم فقال: " المداد كالبحر، والقلم كالغواص، والألفاظ كالجوهر ، والقرطاس كالسلك، والدواة كالقلب ،و....العقل أب، والعلم أم ، والفكر رأي..."[4]، غير أن البعض يجعل رسالة السيف والقلم ضمن رسائل **"المناظرات والمفاضلات"** لأن مضمونها عبارة عن مناظرة بين السيف والقلم أيهما أحق بالزعامة[5] ويمكن اعتبار هذه الرسالة أثرا من آثار الصراعات العسكرية إذ أنّ حاجة الملوك إلى المقاتلين في ساحات المعارك جعلتهم يقدمون أصحاب السيف على الكتّاب، ما جعل الكاتب يكتب رسالة يبين فيها أن حاجة الممالك إلى الكتاب لا تقل شأنا عن حاجتها للمقاتلين.

[1]- ابن بسام :المصدر السابق، ق1، مج2، ص ص 578-579، 580؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص 156.
[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، ج1، ص 340.
[3]- ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص ق1، ص 207.
[4]- عبد العزيز محمد عيسى: المرجع السابق، ص83.
[5]- شاهر عوض الكفاوين: المرجع السابق، ص 211؛ أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص 269.

وقد انتقل الاهتمام والإشادة بأصحاب السيف من الملوك إلى أصحاب الأقلام أنفسهم، فقد كتب أبو بكر الطرطوشي(ت520هـ/1126) رسالة يبين فيها فضل المقاتلين على الكتاب[1].

وهذا الاهتمام يرى فيه البعض هضما لدور الكتاب في الممالك ما دفع بهم إلى كتابة رسائل يُساوون فيها بين دور الكاتب ودور الجندي وقد تجلى ذلك بوضوح في رسالة أبي حفص بن برد حول " **السيف والقلم**"[2] كما أسلفنا، ومن الرسائل التي تقع في هذا الإطار أي المفاضلة والمناظرة تلك التي كتبت على ألسنة الورد والزهر والتوابل والبهارات، وقد كتب منها الكثير، وانتقلت عدوى الوصف عند الكتاب إلى الحلواء والبهارات، كتب أبي عامر بن شهيد رسالة في الحلواء[3].

لكن حسب رأيي المتواضع لم يكن هدف الكتاب من وصف الحلواء أو البهارات أو الورد أو غير ذلك هو إبراز الجانب الجمالي فيها بل التنبيه على الخلل الحاصل في مجتمع عصر الطوائف في المناصب والوظائف، فقد رفع من لا يستحق الرفع وخفض من حقه الرفع وهذا هو حال ابن شهيد، فهذا لون أدبي تأثر بهذه الأوضاع التي تسببت فيها الصراعات العسكرية.

ولأبي الوليد إسماعيل بن محمد الملقب بحبيب الكاتب بإشبيلية السابق ذكره رسالة في وصف الربيع قال فيها : " فصل الربيع آرج وأبهج ، وآنس ، وأنفس ، وأبدع ، وأرفع..."[4] قال عنه المقري :"وكان وهو ابن سبع عشرة سنة ينظم النظم الفائق، وينثر النثر الرائق "[5]، كما ألف الوزير أبو عامر بن مسلمة لمحمد بن اسماعيل بن عباد بن عباد كتابا سماه " حديقة الارتياح في صفة حقيقة الراح" ضمنه وصف الخمر والرياحين والبساتين والنوار[6]، ويرى علي إبراهيم كردي بأن المؤلفات المختصة في صف الورود والأزهار التي تنبت في الأندلس في فصل الربيع كانت شائعة في عصر ملوك الطوائف[7]، وحسب رأيي المتواضع فإن إجراء الكتاب للحديث على ألسنة البهارات والورود والحلواء ربما كان تقليدا لكتابات الجاحظ عندما أجراها على ألسنة الحيوانات ولكن الهدف واحد هو لفت الانتباه إلى أوضاع مزرية والرغبة في إصلاحها.

---

[1]- ترجمة الطرطوشي عند الضبي: المصدر السابق، ج1، ص175، رقم الترجمة 296؛ ابن بشكوال: المصدر السابق، مج2، ص 210، رقم الترجمة 1269؛ الذهبي: المصدر السابق، ج19، ص 490، رقم الترجمة 285؛ ابن خلكان: المصدر السابق، ج4، ص 262، رقم الترجمة 605.

[2]- شاهر عوض الكفاوين: المرجع السابق، ص 224.

[3]- ابن شهيد الأندلسي: المصدر السابق، ص ص 119-120.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 125.

[5]- المقري:المصدر السابق، مج3، ص 428.

[6]- ابن بسام: المصدر السابق، مج2، مج1، ص ص 105-106؛ ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص ص 96-97.

[7]- أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر الحميري : البديع في فصل الربيع، تحقيق علي ابراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1997، ص5.

وقد عرف الأندلس في هذه الفترة نوعا آخر من الكتابة ويتعلق الأمر بالكتابة الخيالية: ونعني بها ما كان الغرض منها التفكه والترفيه عن النفس حيث يقوم الكاتب بإنشاء قصص من خياله في أسلوب ممتع يستهوي القارئ أو إظهار الحقائق الأدبية في أسلوب قصصي يقصد به تحقيق اللذة الفنية[1].

فمن الكتابة الخيالية التي كان غرضها بيان حقائق أدبية في أسلوب ممتع رسالة " **الزوابع والتوابع**" لأبي عامر بن شهيد أرسلها إلى أبي بكر بن حزم يستعرض فيها أحوال الأدب معرضا بمعاصريه الذين طعنوا فيه وقللوا من شأنه مبديا فيها تفوقه على الأدباء السابقين واعترافهم له بالفضل بأسلوب هزلي كما يسميه ابن بسام[2]، وقد سار ابن شهيد في هذه الرسالة على طريقة الحكايات العربية القديمة التي تروي بأن العرب كانوا يقابلون الجن ويحتكمون إليهم في تفضيل الشعراء، وزعمهم بأن لكل شاعر شيطان يمده بالشعر ويجريه على لسانه ، ولكن خياله كان أوسع من خيال القصاصين العرب القدامى ولم يقتف فيها أثر غيره.

وهناك نوع آخر من الكتابة الخيالية لا يقصد صاحبها بيان حقيقة أدبية بل إظهار براعته ومقدرته إنطاق ما لا يعقل منه النطق مثل الفصول التي كتبها أبو حفص بن برد الأصغر في تفضيل الورد وتقديمه على غيره من الأزهار بأسلوب طريف يدل على سعة خياله وهذه الرسالة خاطب بها أبا الوليد بن جهور ومما جاء فيها"يا سيدي ومن انا أفديه ، فإنه ذكر بعض أهل الأدب المتقدمين فيه ، وذوي الظرف المعتنين بملح معانيه ، أن صنوفا من الرياحين، وأجناسا من أنوار البساتين، جمعها في بعض الأزمنة خاطر خطر بنفوسها، وهاجس هجس في ضمائرها ..." إلى آخر كلامه في الرسالة ثم يعقد حوار بين أنواع الورد وجعل لها لسانا تكلم به بعضها[3].

وقد رد أبو الوليد بن اسماعيل الملقب بابن حبيب(ت قريبا من 440هـ/1048م) على رسالة أبي حفص بن برد الأصغر برسالة خاطب بها المعتضد بن عباد وفضل فيها البهار على الورد ، فيصور اجتماعا لبعض النواوير ، واتفاق طائفة من الزهور على تقديم الورد وتفضيله، ومضى يصور الأزهار واورود كأنها أشخاص تتحدث وتكتب وتتصرف كالبشر تماما وختمها بمبايعة الأزهار للبهار[4]، ولا بأس بذكر مثال أخير من هذا النوع من الرسائل كتبها الوزير الكاتب الأديب أبي حفص عمر بن الشهيد على لسان الديك (شاهده الحميدي في حدود 440هـ/ 1048م بالمرية)[5] فكان مما جاء فيها " فقال لهم الديك :

1- عبد العزيز محمد عيسى: المرجع السابق، ص 86.

2- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج1، ص 245 وما بعدها.

3- ابن بسام: المصدر نفسه، ق2، مج1، ص ص 127-130.

4- ابن بسام: المصدر نفسه، ق2، ج1، ص ص130-132؛ الحميري: البديع، ص ص 63-64.

5- تنظر ترجمته عند الحميدي: المصدر السابق، ص ص 438- 439؛ الضبي: المصدر السابق، ص 532.

أيها السادة الملوك فيكم الشاب متع بالشباب ... وقد صحبتكم مدة، وسبحت الله على رؤوسكم مرارا عدة ، أوقظكم بالأسحار، وأؤذن بالليل والنهار وقد أحسنت لدجاجكم سفادا، وربيت لكم من الفراريج أعدادا..."[1] وقد وجدت في كتابي " البديع في فصل الربيع" لأبي الوليد الحميري و" الذخيرة" لابن بسام ما يدل على انتشار هذا النوع من الرسائل في عصر الطوائف، والهدف الغير معلن لهذا النوع من الكتابة هو نقل الصورة القاتمة والاوضاع المضطربة التي خيمت على الأندلس في هذه الفترة بسبب الصراعات العسكرية، والإنكار على ملوك الطوائف استقلالهم بالأقاليم بالقوة دون الرجوع إلى الناس لمبايعتهم، وهذا ظاهر في إنكار ابن حبيب على ابن برد أن تكون الأزهار والرياحين قد بايعت الورد وجعلته رئيسا، بل بايعت البهار[2]، كما يعكس إرسال كل كاتب لرسالته إلى ملك معين ميله إليه، واعتباره الأحق بالخلافة، فابن برد بعث بها إلى أبي الوليد بن جهور صاحب قرطبة، وابن حبيب كتبها للمعتضد بن عباد.

وأما رسالة أبي عمر الباجي[3] إلى المقتدر بن هود(ت 474هـ/1081م) على لسان البهار يشتكي إليه اعتداء الورد عليه وانتزاع الرئاسة منه[4]، فالذي يغلب على ظني أنه ينكر عليه بطريقة غير مباشرة انتزاءه على ملك علي بن مجاهد العامري وانتزاع ملكه منه.

أما الوزير الكاتب أبو الفضل حسداي اليهودي[5]، فكتب رسالة ينتصر فيها للنرجس لا على صنف من الأزهار او الرياحيين أو البهار ولكن على شخص من خواص المقتدر بن هود ثم ذكر افتخار النرجس بنفسه، وشكواه من حساده، فقد يكون النرجس هو الكاتب نفسه، ينقل إلى الملك مضايقة بعض خواصه له في بلاطه[6].

وهذا النوع من الكتابة يطلق عليه أيضا المقامات وقد ذكر ابن بسام عددا منها كمقامة الوزير الكاتب أبي الوليد محمد بن عبد العزيز المعلم المذكور آنفا ذكر ابن بسام منها فصولا للتدليل على علو كعب هذا الكاتب وتمكنه في مجال هذا النوع من النثر[7]، وقد غلب السجع على الفصول التي ساقها ابن بسام بل غلب ذلك على رسائل الكتاب في عصر الطوائف.

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص 679 ؛ عبد العزيز محمد عيسى: المرجع السابق، ص ص 93-94.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 127-131؛ شاهر عوض الكفاوين: المرجع السابق، ص230.

[3]- ترجمته عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص 405؛ ابن خاقان: القلائد، ج1، ق2، ص 300.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 194؛ شاهر عوض الكفاوين: المرجع السابق، ص206؛ أمحمد بوشريط: المرجع السابق، ص 271.

[5]- ترجمته عند ابن خاقان: القلائد، ج2، ق2، ص 545؛ ابن سعيد:المصدر السابق، ج2، ص 441،؛ ابن دحية: المصدر السابق، ص 196.

[6]- عوض الكفاوين: المرجع السابق، ص 232.

[7]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص113-117.

وتبادل أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية عددا من الرسائل مع الشاعر ابن عمار كلها توحي بتمكنهما في اللغة ونثر الكلام[1]، كما أن الأسرة العبادية قد نبغ معظم أفرادها في النثر والنظم ثم يذكر أن عبد الله بن يوسف بن عبد البر ولد أبي عمر قد اتخذه المعتضد بن عباد كاتبه ولسانه لدى الرؤساء لأنه اشتهر بين الناس برائق نثره وروعة أسلوبه، فالرسالة التي ارتجلها على لسان المعتضد إلى رؤساء الأقطار يبرر فيها قتله لابنه إسماعيل كانت آية في البلاغة[2]، وللمتوكل بن الأفطس قدم راسخة في النثر فضلا عن الشعر[3].

والمتأمل للرسائل التي ينشئها الكتاب عن حكامهم يجد أن عددا لا بأس بها تسبب في كتابتها الصراعات العسكرية بين ملوك الطوائف، فكم من رسالة كتبها حاكم من حكام الطوائف بعد نكبته وإنزاله عن كرسي الحكم واعتقاله كابن عمار، وعبد الرحمن بن طاهر صاحب مرسية، وكثيرة هي المراسلات التي كتبها قادة الجيوش من ساحات المعارك إلى حكامهم يطلعونهم على التطورات الحاصلة أولا بأول، كما كتب عدد من الرسائل إلى جهات مختلفة قصد إطلاعها على حجم الدمار الذي أحدثته الصراعات العسكرية في مدن أو قرى أندلسية، طلبا لنصرتها وإنقاذها من براثن العدو كالرسالة التي وجهها عبد بن عبد البر إلى عموم المسلمين يستنفرهم لنصرة بربشتر[4].

وإذا كان الأدب شعره ونثره مرآة يعكس الواقع الذي يعيش فيه الأديب بكل أبعاده السياسية والاجتماعية والثقافية و...، فبإمكاننا القول بأن الانهيار السياسي الذي شهده الأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي وتجزأه إلى دويلات متناحرة، وسياسة البطش، والقمع التي سلكها بعض الملوك ضد شعوبهم قد ساهم في ازدها أدب الرسائل، فقد اتخذ من الأحداث السياسية التي طبعت هذه المرحلة مادة له، فظهرت رسائل تتحدث عن الصراعات العسكرية والحروب الطاحنة بين ملوك الطوائف، وما تخلفه من دمار وخراب، وخسائر في الأرواح، وأخرى يدعوا فيها أصحابها هذه الأطراف المتصارعة إلى الوحدة لمجابهة الخطر الصليبي، خاصة بعد سقوط عدد من المدن الأندلسية في أيديهم كبربشتر، وبلنسية، وغيرهما،كرسالة البزلياني وزير ابن عباد عن أمير إلى مبارك ومظفر العامريين يدعوهما فيها إلى نبذ الخلافات، وتوحيد الصف لمواجهة الصليبيين[5]، وقد كثرت الرسائل التي حاول فيها أصحابها جمع الشمل، وشحذ الهمم، وإيقاظ العزائم، والتحذير من التعاون مع النصارى ضد المسلمين، خاصة بعد سقوط طليطلة بيد

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 29-30.

[2]- ابن بسام: المصدر نفسه، ق3، م1 ص ص 136-137؛ ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص 473؛ عنان : المرجع السابق، ص ص50-51.

[3]- عبد الواحد المراكشي: المصدر السابق، ص 62.

[4]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 145.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق1، مج2، ص ص 637-638؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص ص 158، 177.

الفونسوا السادس[1]، كما واكب فن الرسائل –وهو فن نثري– مظاهر البؤس، والظروف النفسية الصعبة التي عاشها الشعب الأندلسي بسبب الصراعات العسكرية، وأعمال العنف التي تمارس ضد الشعب خلال عمليات المداهمة للمدن والقرى[2].

فمن الرسائل التي أرخت للاحداث السياسية في القرن الخامس على سبيل المثال لا الحصر رسالة أبي بكر بن القصيرة على لسان المعتمد بن عباد إلى رؤساء الأندلس يخبرهم فيها بعودة قرطبة إليه وقتله ابن عكاشة[3]، ورسالة أخرى لابن القصيرة عن المعتمد يتحدث فيها عن عدد من معاركه خاضها ضد خصم من خصومه، وطالت عددا من مدنه، فقتل وهدم وأحرق، وقد قدمت هذه الرسالة تفاصيل دقيقة عن هذه المعارك وما دار فيها[4]، وهناك رسالة كتبها عبد الله بن عبد البر عن المعتضد بن عباد إلى رؤساء الأندلس يخبرهم فيها بإعدامه لابنه اسماعيل، ويشرع فيها أسباب ومبررات ذلك الإعدام[5].

وقد ظهر في عصر الطوائف نوع جديد من الرسائل مرتبط غاية الارتباط بالصراعات العسكرية ويعرف برسائل النكبات التي يكتبها الكتاب إلى الملوك يصفون فيها غزو النصارى لبلاد المسلمين وفعلهم الأفاعيل بأهلها كرسالة ابن طاهر إلى المعتصم بن صمادح يصف له فيها حصار فرناندوا الأول لقلعة أيوب، وغرسية لسرقسطة، وردمير لوشقة، ولابن عبد البر رسالة كتبها على لسان أهل بربشتر يصف فيها مأساتهم بعد سيطرة النصارى عليها ويستنفر المسلمين لتحريرها، وقد أثارت حادثة بربشتر مشاعر الحزن عند أبي حفص الهوزني فكتب رسالة إلى المعتضد يحثه على نصرتها[6].

ومجمل القول حول النثر في هذه الفترة، أن التحولات العميقة التي حدثت في الأندلس، والفوضى العارمة قد شكلت مادة دسمة للكتاب حيث كتبوا في مختلف الأغراض النثرية، وكتاب الذخيرة لابن بسام يحوي عددا كبيرا من الرسائل التي كانت الصراعات العسكرية سببا في إنشائها.

---

[1]- فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص ص 143-144.

[2]- فايز عبد النبي فلاح القيسي:المرجع نفسه، ص ص 143-144.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص ص 272-273.

[4]- ابن بسام: نفسه، ق2، مج1، ص ص 281-282؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص 153.

[5]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 136-142.

[6]- فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص ص 178، 180.

المطلب الثاني: الحياة الفنية

الفرع الأول: الفنون السماعية: وأعني بها هنا الموسيقى والغناء تحديدا، فتخبرنا المصادر التي أرخت لملوك الطوائف بأنهم كانوا يميلون إلى حياة اللهو والترف والمجون لذلك تنافسوا في شراء الآلات الموسيقية والمغنيات الملهيات[1].

كنت أعتقد قبل الإطلاع على أخبار هؤلاء الملوك المتصارعين بأن وقتهم لا يتسع لاستقدام الموسيقيين والمغنيين، بسبب انشغالهم بالحروب، إلا أن هذا الاعتقاد اصطدم بصخرة الإصرار الشديد لديهم في شراء وامتلاك أكبر قدر من المغنيات ومن الآلات الموسيقية، فصاحب السهلة كما تقول المصادر قد فاق ملوك الطوائف جميعا في اكتساب الآلات وشراء المغنيات، وبذل من أجل ذلك أموالا جليلة، حتى بذل في مغنية مالا أبى أن يبذله فيها غيره من ملوك الطوائف، ويبدوا بأن المغنية تستحق المال الذي الجزيل الذي بذل فيها، فهي تتقن الكثير من المواهب ومنها موهبة الغناء، والعزف على الآلات،وكتابة الأغاني، كما اشترى الكثير من المغنيات ذوات الأصوات الجميلة من مناطق مختلفة بالأندلس، حتى اشتهرت السهلة بين دويلات الطوائف بالغناء والموسيقى، وليس بشيء آخر[2].

لم يكن يفضل السهلة في ذلك سوى بلنسية، فالجميع فيها كان مهتما بالغناء والموسيقى حكاما ومحكومون، وقد وصفهم العذري الذي عاصر المرحلة بأنهم مطبعون على اختلاف طبقاتهم على قلّة الهمّ، وأن تجارها قد اتخذوا ما يدخل السرور على أنفسهم ويشعرهم بالرّاحة، فما من أحد من سكانها يقدر على شراء مغنية أو أكثر إلا فعل، وكانوا يتنافسون في ذلك ويتفاخرون بكثرة الأغاني قال العذري: " يقولون عند فلان عودان وثلاثة وأربعة وأكثر من ذلك وقد أخبرت أن مغنية بلغت في بلنسية أكثر من ألف مثقال طيبة وأما دون الألف فكثيرات"[3]، وهذا ما أهّل بلنسية لتكون من أهم مراكز الغناء والموسيقى في عصر الطوائف[4]، ويذكر ابن حيان نقلا عن رجل لم يذكر اسمه أنه دخل على عهد مبارك ومظفر العامريين إلى دار رجل في بلنسية يسمى مؤمّل القشتالي فرآى فيها من مظاهر البذخ ما لم يشاهد في دار الإمارة بقرطبة وكان مما شاهده يومئذ الآلات الموسيقية ومجلس الغناء تردد فيه أعذب الألحان[5].

---

[1]- فايز عبد النبي فلاح القيسي:المرجع السابق، ص 31.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 112؛ الطاهر أحمد مكي: المرجع السابق، ص 52.

[3]– العذري : المصدر السابق، ص18.

[4]–كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، ص 247؛ خالد حسن حمد الجبالي: المرجع السابق، ص 148.

[5]– ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 18.

وفي مالقة تعددت مجالس اللهو والطرب، فشمل ذلك القصور والمنيات،وضفاف الأنهار والمنتزهات، فاشتهر في زمن إدريس العالي المغني ابن الحمامي، وفي زمن باديس بن حبوس عتيق المهدوي، وكانت هذه المجالس لا تخلوا من الرقص وشرب الخمور[1].

وكانت أيام المرية على مدار العام أعراس وأعياد، يغنّون فيها ويرقصون ويستمعون إلى أعذب الألحان، يفعلون ذلك في الحقول عندما يقومون بجني محصول العنب، وعند الانتصار على أعدائهم في الحروب، وفي حفلات الزواج، كما كان لأهل المرية عيد سنوي يسمى **"عيد العصير"** يحتفلون فيه باتنهائهم من عصر محصول العنب[2].

وفي طليطلة لم تخل الإعذارات الذنونية من اللهو والموسيقى، فابن حيان يخبرنا بأن المأمون بن ذي النون عندما ختن حفيده أقام له حفلا أسطوريا دعا إليه الأمراء وكبار الموظفين، فصنع لهم وليمة ضخمة، وبعد فراغهم من الطعام انصرفوا لاستماع الموسيقى، فجيء بالمغنيين زمرة بعد زمرة، وتفنن الموسيقيون في العزف على الآلات الموسيقية، فجاءوا بأنغام طرب لها الحاضرون[3]، أما قصور العباديين في اشبيلية فكانت الموسيقى والغناء تملأ أرجاءها، إذ كانوا في كل ليلة يملأون المكان بالخمر والقيان وتعزف المقاطع بعدالمقاطع، ويغني على صوت تلك الآلات مغنيين ومغنيات[4]، وما ذاك إلا لأن ملوك اشبيلية كانوا يميلون إلى اللهو وسماع الغناء والموسيقى، فالمعتمد كان يميل للراحات وسماع المغنيات، وقد شغف بذلك وتعلق قلبه بها حتى جعل بإشبيلية مصنعا للآلات الموسيقية[5] وهذا ما جعل الفيلسوف ابن رشد لاحقا يقول :" إذا مات عالم بإشبيلية فأريد بيع كتبه حملت إلى قرطبة وإذا مات مات مغن بقرطبة فأريد بيع آلاته حملت إلى اشبيلية"[6]، ولا شك بأن ابن رشد لا يتحدث عن حال قرطبة وإشبيلية في عصره بل عن سيرة تمتد إلى عصر الطوائف، وكان أهل غرناطة كغيرهم من سكان الأندلس شغوفون بسماع الموسيقى والغناء حكامهم ومحكوموهم، ولا تكاد تجد فيها مكانا يخلوا من ذلك[7].

[1]- كمال السيد أبو مصطفى: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف، ص ص 89-90.

[2]- مريم قاسم طويل: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح، ص ص 67-68؛ فايزة بنت عبد الله الحساني: المرجع السابق، ص 201.

[3]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص ص 135-136؛ السيد عبد العزيز سالم: صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج، ص 64.

[4]- عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 142.

[5]- مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، ص 263؛ يوسف أحمد حوالة: المرجع السابق، ص 387.

[6]- هذا كلام أبي الوليد بن رشد وجهه إلى الطبيب أبي بكر بن زهر خلال مناظرة جرت بينهما بين يدي ملك المغرب المنصور يعقوب.ينظر المقري، المصدر السابق، مج1، ص155.

[7]- مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة على عهد بني زيري البربر، ص 256، 257.

إن أفضل عبارة يمكن أن تلخص لنا علاقة ملوك الطوائف بالغناء والموسيقى هي عبارة الفونسوا السادس الذي كان معاصرا للمرحلة وشاهدا عليها حيث يقول: " واعتكفوا على المغاني والعيدان"[1]، فلفظ الاعتكاف[2] يوحي بإقبالهم على مجالس الغناء والموسيقى سائر أوقاتهم، وعدم مفارقتهم لها إلا عند الضرورة، وهذا ما جعل الكثير منهم فريسة سهلة لأعدائه، فقد قتل ابن عكاشة عباد بن المعتمد في قرطبة بسهولة لأنه كان منشغلا في داره بجوار يغنين ويرقصن له[3].

لم تكن مجالس اللهو والطرب في عصر الطوائف منحصرة في القصور الملكية، بل امتدت إلى أماكن أخرى كضفاف الأنهار، والمنتزهات، والسفن، فكان الملوك عند خروجهم إلى هذه الأماكن يصطحبون معهم الموسيقيين والمغنيات والراقصات، وممن كان يفعل ذلك المستعين بالله أحمد بن يوسف بن هود حاكم سرقسطة حيث كان يخرج مع ثلة من أصحابه في مركب عبر النهر مصطحبا معه أنواعا من الآلات الموسيقية العجيبة التي تعزف أعذب الألحان وكانت الزواق تحيط بمركبه في مشهد يأخذ الألباب[4]، وفي كنف ابن هود هذا عاش أبو بكر بن باجه صاحب التلاحين المعروفة الذي ساهم في ازدهار الموسيقى بسرقسطة[5].

كما كان ملوك بني عباد يخرجون للتنزه في الوادي الكبير في موكب يفوق موكب بني هود فيصحبون معهم الموسيقيين والمغنيين، وتذكر المصادر أن الوادي الكبير يمتاز عن غيره بكونه لا يخلوا من مسرّة، وجميع أدوات الطرب وشرب الخمر فيه غير منكرة[6].

لقد كان الاهتمام بالغناء والموسيقى بالأندلس في القرن الخامس الهجري ظاهرة عامة، فالكل يطلب الأنس واللهو، وهذا ما جعل الطلب على القينات اللائي يحسن الغناء والعزف على الآلات الموسيقية يتعاظم شيئا فشيئا داخل القصور وخارجها ما دفع بالمتخصصين في هذا المجال من الرجال إلى تنظيم دورات لتكوين قينات يحملن المواصفات المطلوبة، وهو ما يخبرنا به فصل من رقعة لمحمد بن الحسن

---

[1]- ابن الكردبوس: تاريخ الأندلس، ص89؛ ماهر حمادة: الوثائق السياسية والإدارية، ص 61.

[2]- الفراهيدي: المصدر السابق، ج3، ص 209.

[3]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص ص 231-232.

[4]- ابن خاقان: قلائد العقيان، م1، ج2، ق2، ص 55؛ المقري:المصدر السابق، مج1، ص 942؛ عمر ابراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 158.

[5]- حميدة منصور حسن أبو شعراية: المرجع السابق، ص 206.

[6]- السيد عبد العزيز سالم: صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج، ص 64.

الكتاني المتطبب له أوردها ابن بسام في كتابه يذكر فيها وجود أربع روميات عنده يتقن الموسيقى إلى جانب إتقانهم لجملة من العلوم والمعارف[1].

ولم تكن ساحة الغناء قاصرة على القينات فالرجال أيضا كان لهم نصيب من ذلك، فاشتهر منهم محمد بن الحمامي عند بني حمود، وأبي بكر الأشبيلي عند بني عباد، وفي كل بلاط يشتهر مغن أو مغنية حتى صار لكل أمير ووزير مجلس خاص للغناء والموسيقى، وقلما تمر ليلة دون ذلك، ثم شمل ذلك العامة فصارت لهم مجالس لهو مماثلة[2]، وهذا ما دعا بعض العلماء للتأليف في هذا المجال فألف ابن الحداد القيسي عدة مؤلفات في ذلك منها كتابه " المستنبط في علم الأعاريض المهملة عند العرب" مزج فيه بين الانحاء الموسيقية والآراء الخليلية، وأبو الصلت أمية بن عبد العزيز الأشبيلي الذي لحن الأغاني الإفريقية[3].

ومن فنون السماع التي شهدت ازدهارا في عصر ملوك الطوائف فن الموشّحات، ويعزو البعض ظهور هذا النوع من الشعر في الأندلس في هذه الفترة إلى انتشار الغناء فالأندلسيون احتاجوا إلى نظم يتسم بالسهولة والانسجام مع الموسيقى، فقاموا باختراع هذا الضرب من الشعر، فاشتهر في اشبيلية أبو بكر بن اللبانة الداني وفي طليطلة أيام حكم المأمون بن ذي النون أبو عبد الله بن أرفع رأسه، وفي دولة المعتصم بن صمادح اشتهر شاعره محمد بن عبادة القزاز صاحب الموشحات الكثيرة[4]، فبانتشار الموشحات انتشرت الموسيقى لأنه لا تغنى بدونها.

وهذا ما جعل الكثير من الباحثين يعتبرون عصر الطوائف من أزهى العصور في الموسيقى والغناء بل اعتبره البعض عصر الغناء بحق لارتباطه بالبذخ والترف الذي كان السمة الغالبة لبعض البلاطات وهذا لا يعني أن الطبقة الشعبية في هذه الفترة كانت بعيدة عن اللهو وسماع المعازف بل كانت لها مجالس استماعها أيضا[5].

ويروي ابن بسام نقلا عن ابن حيان عن بعض من كاتبه ابن حيان إبان مأساة بربشتر أن رجلا من تجار اليهود جاء إلى بربشتر يرغب في فدية بنات لبعض وجهاء بربشتر الناجين أسرهن النصارى، فدار بين اليهودي وبين نصراني استولى على بيت وجيه بما فيه، وكان من مشمولات ذلك البيت بنت صاحب

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، م1، ص 320.

[2]- إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، ص 43.

[3]- فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص44.

[4]- بالنثيا: المرجع السابق، ص 157؛ السيد عبد العزيز سالم : في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص 154، 300 ،301؛ عمر إبراهيم توفيق: المرجع السابق، ص 282.

[5]- كمال السيد أبو مصطفى : تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي، ص247؛ فايز عبد النبي فلاح القيسي: المرجع السابق، ص 43.

البيت وجواريه، إدى تلك الجواري كانت مغنية عذبة الصوت تتقن العزف على العود، وقد طلب النصراني منها أن تسمع اليهودي عزفها وغناءها ففعلت وهي تبكي مأساتها[1].

هذه هي حال بيوت الأثرياء في الأندلس إبان عصر ملوك الطوائف لا يكاد يخلوا بيت ثري فيه من قينات يتقن الغناء والعزف على الآلات الموسيقية.

إن الصراع العسكري على مناطق النفوذ، والرغبة في التفوق،كان سببا في انتعاش الفنون السماعية، فملوك الطوائف كانوا يرون بأن التفوق العسكري يجب أن يصحبه تفوق في الغناء والموسيقى، لذلك كانت عنايتهم باستقدام المغنيين والموسيقيين بالغة، بل جعلوها ضمن أولوياتهم، يدل على ذلك ما ذكره ابن عذاري من أن أبي الوليد بن جهور في قرطبة استقبل في يوم واحد عددا كبيرا من رسائل ملوك الطوائف يطلبون فيها منه أن يرسل إليهم جارية تتقن العزف على العود أو النفخ في المزمار، بينما طلب منه سواجات البرجواتي صاحب سبتة أن يرسل قارئا يتقن تلاوة القرآن، وقد أثار ذلك دهشة أبي الوليد بن جهور فقال: " جاهل يطلب قارئا وعلماء يطلبون الأباطيل"[2].

إن هذه الحادثة تكشف بوضوح لا خفاء فيه بأن عناية ملوك الطوائف بالفنون السماعية، وتحديدا الغناء والموسيقى كانت أعظم من عنايتهم بكتاب الله تعالى، ما يعني بأن هذه الممالك التي كانت في حرب دائمة تسعى إلى التغطية على هذه الصراعات العسكرية بهذه الحفلات ، وإقناع شعوبهم بأن الأوضاع في غاية الاستقرار، وهذا ما تنطق به رواية أخرى عن المتوكل بن الأفطس مفادها أنه فرح عندما سمع بورود مغنّ يسمى أبو يوسف على بطليوس، فأرسل إليه مركوبا ورسالة يطلب منه فيها الحضور إليه على عجل[3]، فهذا الحرص من المتوكل على استقدام هذا المغني إلى قصره يدل على شغفه بالغناء والموسيقى، وأن ذلك كان ديدنه، وفي اعتقادي أن الصراعات العسكرية لما خيمت على الأندلس وملأت حياة ملوكها عملوا على تبديد ظلالها بمجالس الغناء والموسيقى، وتلطيف الأجواء المشحونة بالعنف بها، فكانت الصراعات العسكرية سببا في ازدهار الغناء والموسيقى في عصر ملوك الطوائف،وهذا أثر من آثارها الإيجابية.

وهناك رواية ثالثة تخبرنا بأن المعتمد بن عباد كان يصحب معه في حملاته العسكرية الموسيقيين والمغنيين[4]، فلا شك بأن الطلب المتزايد على المغنيين والموسيقيين في جبهات القتال قد ساهم في ازدهار

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 186-188.

[2]- ابن عذاري: المصدر السابق، مج2، ص ص 477-478.

[3]- ابن خاقان: قلائد العقيان، ج1، ق1، ص ص 137-138؛ ابن الأبار، الحلة السيراء، ج2، 106؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 663.

[4]- عدنان صالح عبد الله العمودي: المرجع السابق، ص 44.

هذه الفنون، أما المعتضد بن عباد فعند إحساسه بدنو أجله دعا مغنيا من الصقلب وطلب منه الجلوس عند رأسه وأن يغنيه بما شاء فتغنى بأبيات لحنها في حينه[1]، فهذه الروايات كلها تؤكد ما ذهبنا إليه من أن ملوك الطوائف استأنسوا بالمعازف والقينات لتلطيف الأجواء المشحونة بالعنف والصراع، فخدموا الغناء والموسيقى من حيث يدرون أو لا يدرون.

لقد انتشر الغناء في عصر الطوائف انتشارا جعل الفقهاء يفترقون في حكمه، فحرمه بعضهم، وأحله واستحسنه الكثير منهم، وممن قال بالجواز ورد الاحاديث التي تحرمه أبو محمد بن حزم وألّف في ذلك رسالته المشهورة[2] لذلك لم يجد حرجا في حضور مجلس أنس لملك من ملوك الطوائف، حضره رجال الدولة وكبار موظفيها، فيه عدد من الجواري ذكر أنهن جميعا يتقن الغناء، وبينهن جارية تتقن الضرب على العود[3].

إن انصراف الجميع في عصر الطوائف إلى مجالس الغناء والموسيقى أثر سلبا على بيوت العبادة، فقد كانت هذه الأماكن في كثير من الأحيان فارغة من روادها، خاصة يوم الجمعة وهذا ظاهر من اتهام الفقهاء في اشبيلية للرميكية زوجة المعتمد، فقد حملوها مسؤولية فراغ المساجد من المصلين يوم الجمعة، لأن زوجها كان يقيم مجالس اللهو الحافلة بالمغنيات والموسيقيين نزولا عند رغبتها، فيحتشد الناس فيها ويتركون المساجد[4].

وإجمالا نقول :بأن فني الغناء والموسيقى قد ازدهرا في عصر الطوائف، وتعددت مراكزهما، وأن ملوك الطوائف قد أحاطوا أنفسهم بمشاهير المغنيين والمغنيات[5]، وأن الاهتمام بذلك قد امتد إلى عموم الناس، إلا أن هذا القطاع كغيره من القطاعات تأثر بالصراعات العسكرية، إذ أجبرت هذه الأخيرة الكثير من الموسيقيين والمغنيين على مغادرة مدنهم، إلى أماكن آمنة، فاختار الكثر منهم الممالك النصرانية في الشمال، وقد ساهم الإقبال الشديد للنصارى على الغناء والموسيقى العربيين في انتعاش وازدهار الفنيين معا في هذه المناطق[6].

---

[1]- دوزي: ملوك الطوائف ونظرات، ص 182.

[2]- ابن حزم: رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج1، ص 421؛ مريم قاسم طويل: مملكة غرناطة على عهد بني زيري البربر، ص 256؛ خالد حسن حمد الجبالي: المرجع السابق، ص 148.

[3]- ابن حزم: طوق الحمامة،ج1، ص 135.

[4]- دوزي: المرجع السابق، ص 208.

[5]- السيد عبد العزيز سالم: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس، ج2، ص 100.

[6]- رجب محمد عبد الحليم: المرجع السابق، ص 434.

الفرع الثاني: فنون التشكيل والزخرفة: لما كان كل ملك من ملوك الطوائف يدعي أنه الراعي الرسمي للخلافة والممثل الشرعي لها بعد الفتنة القرطبية اتخذوا قصورا تتناسب مع الدور الذي تقمّصوه، والمكانة التي اشرأبّت إليها أعناقهم[1].

وقد تفنن الملوك في بناء وتشييد هذه القصور حتى تبقى آية على مر العصور وكر الدهور ، فملأوها بأنواع الزخارف وشكلوها بأشكال مختلفة، ففي مملكة طليطلة وفي قصورها الفاخرة يوجد مجلس المأمون بن ذي النون المشهور المسمى (المكرم) الذي كان آية في الروعة والبهاء، فقد نقل ابن حيان عن بعض من حضر فيه حفلا للمأمون أن المكان ممتلئ بالستائر والأفرشة المزخرفة أما أسفل المجلس فقد زخرف بالمرمر الرفيع الأبيض المسنون المطعم بالعاج وقد خرمت صور البهائم والعصافير والأشجار الممتلئة بالثمار والحيوانات متعلقة بأفنانها ملونة بألوان زاهية تحبس الأنظار[2].

وقد بالغ المأمون في تزيين مجلسه المسمى المكرم بقصر الناعورة فزين الجهة السفلى منه بإزار من المرمر الأبيض الرقيق نقشت فيه صور حيوانات بين أشجار والطيور فوق ثمارها، ويفصل هذا الإزار عمّا فوقه نقوش كتابية عريضة محفورة في الرخام تتضمن أشعارا قيلت في مدح المأمون تحيط بالمجلس، وفوقه أفاريز من الفسيفساء المذهبة عليها صور حيوانات وطيور وأشجار، أما أرضية هذه الأفاريز فمكسوة بتوريقات مذهبة وملونة[3].

ولم تتوقف عناية المأمون بمجلسه عند هذا الحد فقد أحدث فيه بحيرتان تقف عليها أسود مصنوعة من الذهب الخالص يخيل للناظر إليها أنها غاضبة فاتحة أفواهها ينساب منها الماء نحو البحيرتين وفي قعر كل بحيرة حوض من رفيع المرمر غريب الشكل كبير الحجم يسمى المذبح نقشت فيه نقوش بديعة ورسمت على جنباته صور الحيوانات والأشجار وغرزت في قعر كل حوض شجرة من فضة فيندفع الماء من الحوض في أفنانها ويحدث نغمات كألحان موسيقية عذبة ثم يسقط على أفنان الشجرة كالرذاذ[4].

وقد كان استعمال الرخام وزخرفته شائعا في مملكة طليطلة إضافة إلى الغرانيت وكثرت فيها الدور المزخرفة لا سيما في القصور وبيوت الأثرياء[5]، كما عثر فيها على قلة ضخمة من الفخار تغطيها

---

[1]- جيريلين دودز: المرجع السابق، ص 872.

[2]- السيد عبد العزيز سالم: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، ص ص 196-197.

[3]- السيد عبد العزيز سالم: نفسه، ص 196.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق4، مج1، ص 134؛ المقري: المصدر السابق، مج1، ص 493؛ عنان: المرجع السابق، ص ص 104-105.

[5]- مانويل جوميث مورنيو: الفن الإسلامي في سبانيا، ترجمة السيد عبد العزيز سالم- لطفي عبد البديع، راجعه جمال محمد محرز، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1968، ص 237.

النقوش العربية[1]، وفي الحقيقة لقد استعمل الخط العربي في طليطلة في زخرفة تيجان الأعمدة الرخامية وقواعدها وقطع العاج وعلى شواهد القبور المتخذة من الرخام أو الحجر الأسطواني ، ويبدوا أن الرخام في مملكة طليطلة لا يستعمل في مكان ما إلا تمت زخرفته، فقد عثر عليه على أفواه الآبار والأحواض مزخرفا وقد تفنن المشتغلون بالزخرفة في استعمال الخط العربي، فكتبوه بأشكال هندسية وخطوط مقوسة أما الفراغات بين الخطوط فقد ملئت بالأزهار والأغصان الخفيفة[2].

وفي قصر الجعفرية بسرقسطة الذي بناه المقتدر بن هود أحاطه بسور مستطيل الشكل وجعل فيه أبراجا بعضها أسطوانية الشكل والبعض الآخر مستقيما وهو اختيار مقصود وليس عشوائيا لأن الأبراج بنيت للدفاع عن القصر الملكي، أما في الداخل فقد رتب غرفا حول صحنه، وهذا الصحن يفضي إلى مسجد صغير فيه محراب على شكل حدوة فرس، وهو أول محراب خارج قرطبة بني على الطراز القرطبي ، أما القوس الذي جعل في المدخل، فمرصع بنقوش قليلة النتوءات وهي ميزة النقوش القرطبية، وفي الحقيقة لقد نالت الزخرفة القرطبية إعجاب حكام سرقسطة فشجعوه في مملكتهم، وفي القصر نفسه فصل المعماريون الأقواس المتشابكة عن بعضها حتى صار كل قوس كأنه نموذج من الخط العربي وجعلوا لها رؤوسا مخروطية وجعلت فيها تيجان بأشكال أوراق النباتات مزخرفة ومتداخلة كما جعلت في الأقواس فصوص بها طنف ونتوءات، وقد زخرف هذا القصر بالخط العربي، فوجد في حافة المرمر الذي يزين أسفل الجدران في الغرف الرئيسية وفي تيجان الأعمدة التي يرى فيها اسم المقتدر بالله واضحا مع وجود سعفات النخيل وزهرة محورة وفي قاعدة تيجان الأعمدة أدعية كتبت بأشكال بديعة تملأ الفراغات التي بينها أزهار، واللافت للنظر في مصلّى الجعفرية وفي قاعته الشمالية هو الخط التذكاري المتطور الذي كتب إمّا بشكل مستدير أو مدبّب وخطوط منحنية وتنتهي الحروف بنهايات عريضة مقعرة وتحت الكتابة سيقان نباتات مقوسة متعرجة لولبيّة علقت عليها الزهور المحوّرة وسعفات النخيل وأكواز الصنوبر[3].

فهذه الأشكال التي بني بها كل جزء من أجزاء القصر الملكي في سرقسطة دليل على ازدهار فنون التشكيل وتمتع المهندسين بخيال واسع في ميدان تشكيل الأبنية أما الزخرفة الجصية، فتوحي بوجود نزعة قوية في سرقسطة نحو هذا النوع من الفنّ، وهذا ما يؤكده نقش جصّي من قصر الجعفرية محفوظ في متحف الآثار الوطني بمدريد، كما انتشرت في هذه الفترة الزخرفة المقولبة التي تتحد في نقطة واحدة كالدوامة في إشارة إلى الفن الأسطوري[4].

---

[1]- عبد الكريم خيطان الياسري: المرجع السابق، ص 519.

[2]- أنتونيو فرنانديز بويرتاس: المرجع السابق، ص ص 926-927.

[3]- أنتونيو فرنانديز بويرتاس: المرجع نفسه، ص925؛ بولعراس: المرجع السابق، ص 197.

[4]- جيريلين دودز: المرجع السابق، ص 872.

لقد برز في عصر الطوائف نوع جديد من فنون الخط يقوم على أرضية من النباتات المزهر أو مشكل بشكل هندسي خال من التعقيد يتخذ شكل شريطين يشتبكان ثم ينتهيان بنهاية مفتوحة[1]، كما طالت الزخرفة والتشكيل الحصون التي بنيت لأغراض عسكرية كقصبة مالقة التي شيدت عام 432هـ/1041م ففيها الرواق ذو الأقواس الثلاثة المشكلة على شكل حدوة فرس بفصوص ثلاثية ، كما انتشر في هذا العصر النّحت على الحجارة، وقد وجدت في بعض الإمارات منحوتة على شكل نافورة من الرخام مزخرفة بتماثيل أسود تهاجم قطعانا من الغزلان، وتعد نافورة شاطبة تحفة فنية مدهشة مغطاة بنقوش غامضة تعبر عن قصة ما[2].

وفي غرناطة قام المعماريون بزخرفة جدران قصورها بزخارف وصور تعبر عن المملكة وضرورة حمايتها[3]، أما المرية ففي عهد زهير العامري تمت زخرفة محراب مسجدها الجامع وتتمثل الزخارف في عقود مدبّبة صماء تزين اللوحات الوسطى، أما المحارات المطبقة على الجوفات والمسانيد الملفوفة والأفاريز الزخرفية الصغيرة ذات التشابكات القائمة على الخطوط المستقيمة والدوائر، فقد تمت في عصر المعتصم بن صمادح[4]، وفي قصر المرية مجلس يقع في قبلته بالغ المعتصم في نقشه وإتقانه ، ويليه في القبلة منه دار كبيرة أتقنت بأنواع التذهيب وغرائبه بشكل جعل الأبصار تحار فيه، ويليه في قبلته مجلس عظيم مقرنس بالرفوف المزوّقة المنقوشة المنزول فيها الذهب الطيب مفروش بالرخام الأبيض وقد أزر بالرخام المنقوش المنزل فيه بغرائب الإنزال وقد كتب في ذلك النقش تاريخ بناء ذلك البناء ومن أمر ببنائه ويليه صحن يقابله أبواب عليها شراجب يطلع منها إلى جميع مدينة المرية وإلى بحرها ، وفي شرقها دار للحكم متقن جدا[5].

وقد اعتنى بنو صمادح بزخرفة مجالسهم، فجعلوا فيها الرفوف المنقوشة المفروشة بالرخام الأبيض واشتهر المعتصم بتنميق قصوره بزخارف غريبة[6]، وقد فضل بنوا صمادح الحرف الكوفي الأنيق ذو الخطوط المتناسبة الأبعاد والنهايات المائلة مع ملء الفراغات التي بينها بالأزهار لتزيين القصور والنقود وشواهد القبور[7].

وعلى صعيد الخطوط استعمل الخط العربي في هذه المرحلة لزخرفة المصاحف، فاشتهرت إشبيلية بنوع خاص من الخطوط سمي بالخط الأشبيلي يشبه نوعا ما الخط الكوفي كما استعمل الخط لزخرفة

[1]- أنتونيو فرنانديز بويرتاس: المرجع السابق، ص925.

[2]- جيريلين دودز: المرجع السابق، ص 872.

[3]- جوميث:المرجع السابق، ص303

[4]- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ مدينة المرية الاسلامية ، ص ص 147-148.

[5]- العذري: المصدر السابق ، ص 85.

[6]- بولعراس: المرجع السابق، ص 198.

[7]- أنتونيو فرنانديز بويرتاس: المرجع السابق، ص927.

جدران القصور، ففي قصر الجعفرية بسرقسطة اتخذ الخط القريب من الكوفي أشكالا هندسية عجيبة تقوم على أرضية من النباتات ذات الأزهار، وفي طليطلة اهتم بنو ذي النون بنقش الخطوط على الأعمدة الرخامية، فأبدعوا في ذلك غاية الابداع ، وفي المرية بنو صمادح امتزج الخط الكوفي مع رسوم نباتية في مشهد يأخذ الألباب زينت به جدران القصور وشواهد القبور والنقود المعدنية[1].

ولم تقتصر الزخرفة وفن التشكيل على الأبنية والجدران والمعادن والشمع بل تجاوزت ذلك كله إلى زخرفة الحلويات وتشكيلها بأشكال تأخذ الألباب، فنصارى الأندلس كانوا يصنعون الحلوى عند احتفالهم بعيد النيروز على شكل أبنية ومدن جميلة حتى تنال استحسان الضيوف وكان الشعراء يتبارون في وصفها[2].

وقد نالت زخرفة الصناديق العاجية التي تحفظ فيها الأغراض في زمن الطوائف حظها من الاهتمام كما عثر على زجاجة عطر مزخرفة تعود لهذه الحقبة تنتهي فيها الزخرفة بحيوان صغير يعبر عن الأساطير التي كانت شائعة في هذه المرحلة[3].

كما زينت باحات القصور ومجالسها وبيوت الأثرياء بالمجسمات والتحف الفنية التي أخذت أشكالا مختلفة ففي مملكة بلنسية مثلا زين ملوكها مجالسهم بمجسمات لنواعير المصنوعة من الفضة الخالصة بأشكال وهيئات حيرت عقول من شاهدها في أفنية قصورهم[4]، وهذا دليل على أن الصراعات العسكرية لم تؤثر على هذا النوع من الفنون على الأقل في هذه المملكة ونظيراتها التي شهدت أوضاعا متشابهة وفي بعض الفترات من هذه الحقبة المليئة بالصراعات، أو أنها كانت السبب في التسابق المحموم بين ملوك الطوائف لإحداث هذه الطفرة العمرانية الرائعة.

لقد حظيت فنون التشكيل باهتمام كبير من قبل ملوك الطوائف لتزيين مجالسهم وباحات قصورهم، ثم توسع الأمر فصاروا يأمرون الصناع بتشكيل تحف فريدة من الذهب او الفضة أو من الحلواء أو من الشمع لإهدائها في المناسبات، ومنها الشمعة التي جعلت على هيئة مدينة لها أسوار يعلوها الحراس كانت غاية في الإبداع والإتقان أهديت للمعتمد بن عباد ووصف حسنها الوزير الأديب أبو القاسم بن

[1]- انطونيو فرنانذز بويرتاس :المرجع السابق، ص 909، 925، 926،927.

[2]- المقري: المصدر السابق، ج4، ص 63.

[3]- جيريلين دودز: المرجع السابق، ص 873.

[4]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 18.

مرزقان مولى المعتمد في أبيات من الشعر[1]، وفي النفح أن المعتمد بن عباد أمر الحرفيين بصناعة غزال وهلال من ذهب فأهدى الغزال إلى ابنة مجاهد العامري والهلال لابنه الرشيد[2].

ويعتقد بعض الدارسين لحقبة ملوك الطوائف بأنها حاسمة في ميدان الخط العربي بسبب ظهور أنماط متنوعة منه في الممالك المختلفة، فلأول مرة حاول الممتهنون للزخرفة بالخط العربي تشكيل نسق هندسي من خلال إطالة خطوط الحروف كما كان الخط متضافرا بشريط هندسي مستقل عنه، أما التزهير فقد اقتصر على أعلى الحروف كما ملئت به الفراغات دون الوصول به إلى حد التشابك، ورغم قصر فترة الطوائف إلا أن التطور الذي شهدته الزخرفة بالخط فيها كان له أثره الإيجابي على فترات ما بعد الطوائف ويعود الفضل في تطور الخط العربي في هذه المرحلة إلى أربعة أسر: بنوا عباد بإشبيلية وبنوا هود بسرقسطة وبنو ذي النون بطليطلة وبنوا صمادح بألمرية[3].

وفي إشبيلية بني عباد وجد الخط على حجارة الأساسات وشواهد القبور وحواف الأواني الخزفية وعلى المسكوكات الذهبية والفضية وهو شبيه بالخط الكوفي يراعي فيه الانسجام والتناغم مع المادة التي تزخرف به كما استعمل الخط في هذه الفترة في اشبيلية للإشارة إلى الآمر بصناعة آنية من الأواني أو بناء بناء ما واسم القائم بذلك والخازن كالمأذنة التي أمر المعتمد بن عباد بترميمها سنة 472هـ/1079م ووجد فيها اسمه واسم الخازن واسم عامل الرخام [4].

كما اشتهر الأندلسيون في عصر الطوائف بزخرفتهم لجدران الحمامات بمختلف الصور التي كانت غاية في الإتقان حتى فتن الكثير منهم بها، فنقل عن شخص عشق صورة في حمام، وآخر عشق كفًّا في حائط[5]، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على ازدهار الزخرفة الحائطية في هذه الفترة.

وقد وجدت عند المقري قصائد لابن حمديس الصقلي (ت484هـ/1091م) يصف فيها عددا من التحف الذهبية والفضية التي شكلها أصحابها بأشكال مختلفة بديعة، فذكر بركة ماء عليها أشجار من ذهب وفضة يخرج الماء من فروعها، وعلى حواف البركة أسود تقذف الماء من أفواهها، وبركة أخرى فيها طيور وزرافات وأسود ينبعث الماء من أفواهها[6]، وما قاله ابن حمديس من الأشعار هنا إنما كان في محتويات

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص520، المقري: المصدر السابق، مج4، ص 124، انظر ترجمة مرزقان عند ابن سعيد: المصدر السابق، ج1، ص 266، رقم الترجمة 193.

[2]- ابن بسام: المصدر السابق، ق2، مج1، ص 521؛ المقري: المصدر السابق، مج3، ص 614.

[3]- أنتونيو فرنانديز بويرتاس: المرجع السابق، ص 923.

[4]- أنتونيو فرنانديز بويرتاس: نفسه، ص ص924- 932.

[5]- ابن حزم: طوق الحمامة،ج1، ص 116.

[6]- المقري: المصدر السابق، مج1، ص 493، 395.

قصر أو قصرين في الأندلس، فهذا إن دل على شيء فإنما يدل على أن فن التشكيل لا يخلوا منه قصر من القصور المشيدة في هذه الفترة، وهذا كما أسلفت جزء من السباق المحموم بين ملوك الطوائف والتي تعتبر من إفرازات الصراعات العسكرية.

ولما كانت زينة مجالس الملوك وقصورهم لا تكتمل إلى بوجود ستائر وأفرشة مزخرفة ومطرزة ومنمقة بشكل متقن وبديع، فقد تفرغ لزخرفتها وتشكيل رسوم وأشكال بديعة فيها جمّ غفير من الصناع المهرة، فأبدعوا في ذلك غاية الإبداع، فلا يخلوا منها قصر أو بيت ثري من أثرياء الأندلس في هذه المرحلة، وهذا ما شاهده الرجل الذي دخل إلى مجلس مؤمل القشتالي حيث وقعت عينه على أفرشة مطرزة تسلب الألباب[1].

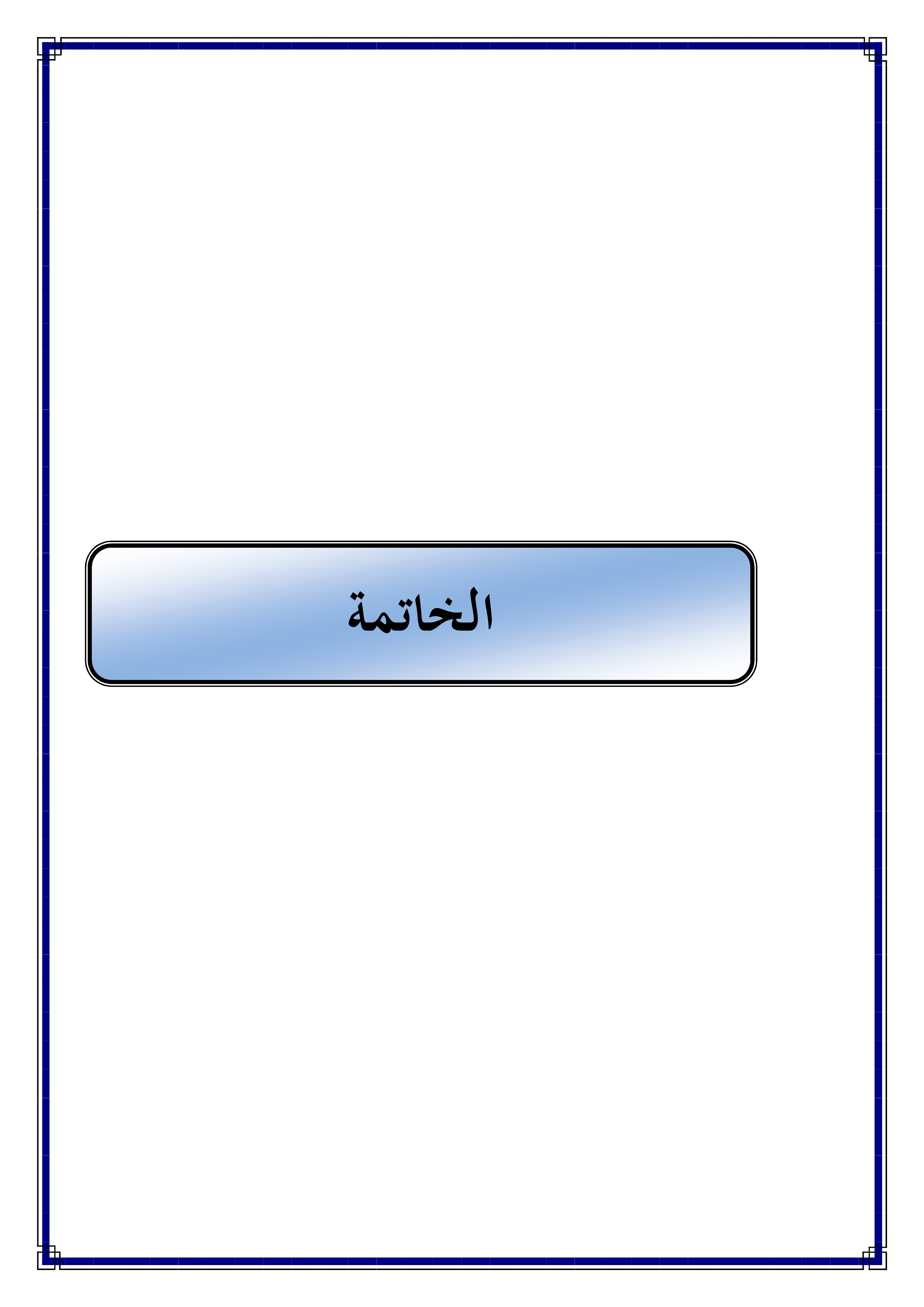
أما تشكيل الخشب بأشكال مختلفة، وزخرفتها فقد حظي هو الآخر باهتمام الملوك والأثرياء، كونه يشكل جزءا مهما من عمارة القصور والمنازل، إذ أن الأسقف كانت تغطى به، فكان النجارون يحدثون زخارف وأشكالا هندسية بديعة على الأخشاب التي تغطى بها أسقف القصور، وقد لقيت الأبواب والنوافذ الاهتمام نفسه، وبإمكاننا الاطلاع عليها في بعض القصور التي بقيت واقفة بالأندلس حتى هذه اللحظة[2].

ومما سبق نعلم بأن فن الزخرفة والتشكيل كان مزدهرا هو الآخر في هذه الفترة وهو جزء من السباق المحموم بين ملوك الطوائف في مجال العمران الذي كان الهدف منه هو تخليد آثار ملوكها من خلالها، فنفقت سوق الزخرفة والتشكيل وتم استقطاب المتخصصين في هذه الفنون من كل مكان.

---

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص 18.

[2]- ينظر بشأن الزخرفة على الخشب باسيليون بابون مالدونادو: العمارة الإسلامية في الأندلس، عمارة القصور، عصر الخلافة وعصر ملوك الطوائف، القرن10و11م، مج1، ص ص 277-279.



الخاتمة

الخاتمة:

بعد دراستي لموضوع الآثار الحضارية للصراعات العسكرية في الأندلس إبان عصر ملوك الطوائف (ق5هـ/11م) توصلت إلى مجموعة من النتائج والتوصيات هي كما يلي:

أولا: النتائج:

1- كان للصراعات العسكرية بالأندلس في القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي اليد الطولى في تمزيق الأندلس إلى كيانات تحكمها أنظمة ديكتاتورية قمعية استأثر فيها الحكام بكل السلطات، فكثرت الدسائس والمؤمرات، وحاول البعض احتواء البعض، فظهرت الأحلاف العسكرية، وشغل الصراع ملوك الطوائف عن جهاد النصارى فانتعشت حروب الاسترداد.

2-إن الصراعات العسكرية التي طبعت هذه المرحلة لم تسمح بإنشاء دول حقيقية بل مجرد كيانات سياسية أقرب إلى وحدات الإقطاع وأسر تستند في حكمها على العصبية القبلية.

3-استفاد الأرستقراطيون من الأوضاع المضطربة فضاعفوا ثرواتهم وعاشوا حياة البذخ والترف، و ملأو خزائنهم بالأموال التي جمعت من الضرائب المجحفة وأكلتها جزية النصارى والإنفاق العسكري .

4- أثرت الصراعات العسكرية سلبا على حركة التجارة والأسواق، ومنعت أي نوع من التعاون أو التكامل الاقتصادي بين دويلات الطوائف،باستثناء بعض الفترات القصيرة جدا، والحالات العابرة، فانضاف التمزق الاقتصادي إلى التمزق السياسي.

5-تعطلت حلقات الدرس بسبب الصراعات العسكرية في بعض الأماكن وبعض الفترات، وأغلقت إلى الأبد بعض مجالس الدرس، وفتحت مجالس جديدة في الأماكن التي نزح إليها المدرسون هربا من الحرب.

6-ساهمت الصراعات العسكرية في خلق مراكز إشعاع حضاري جديدة من خلال تحكمها في تنقل العلماء وتوزيعهم داخل جغرافيا الأندلس، لكنها حالت دون تحقيق تكامل علمي ومعرفي، فغلب على كل دويلة تخصص معين.

7-على صعيد الحياة الاجتماعية قسمت الصراعات العسكرية مجتمع الطوائف إلى طبقات، وتسببت في انتشار الفقر والمجاعات وانتهاك الحقوق الشخصية للأفراد والجماعات كما قامت باستنزاف الخزان البشري ومزقت حروب الإخوان والأعداء النسيج الأسري، وأجبرت الناس على الهجرة بحثا عن الأمان وصاحبت الفوضى العسكرية فوضى في الأخلاق والآداب.

8-على صعيد التأليف والترجمة كان التأليف غزيرا، وكانت عملية الترجمة نشطة، لكن أعمال الشغب التي صاحبت الصراعات العسكرية دمرت الكثير من المكتبات، وحال القتل في كثير من الأحيان بين العلماء وبين التأليف، كما أزهقت أرواح الآلاف من العلماء.

9- لقد كانت الصراعات العسكرية بين ملوك الطوائف والسعي للوصول إلى قمة المجد سببا مباشرا في إحداث نهضة عمرانية غير مسبوقة، وصاحب هذا الازدهار العمراني ازدهارٌ في فنون التشكيل والزخرفة والغناء والموسيقى لارتباط هذه المجالات ببعضها، وفي الوقت نفسه تعرض العمران لعمليات هدم وتخريب ممنهجة، وأصيبت طرق المواصلات بالشلل التام في بعض الفترات،من جراء الغارات والاعتداءات المتكررة، وكان الصراع العسكري سببا في هجرة الكثير من المغنيين والموسيقيين إلى الممالك النصرانية.

10- على صعيد الطب والصناعة الصيدلانية عرف القرنان الحادي عشر والثاني عشر الميلادي إزدهارا لا مثيل له في الطب الإسلامي وهذا ما جعل م. مايرهوف يطلق عليه العصر الذهبي للصيدلة في اسبانيا، وقد كان للصراعات العسكرية يد في هجرة الأطباء وتلاقيهم والاستفادة من أفكار بعضهم.

11-تسبب الحصار المتكرر للمدن وقطع الإمدادات الغذائية في ظهور الأوبئة والأمراض، وفشا الطاعون في المناطق التي شهدت قتلا ذريعا بسبب الأشلاء المتراكمة.

12-ساهمت الصراعات العسكرية في تفتتيت الجهد العلمي من خلال التحكم في توزيعه مثلما تحكمت في توزيع الصناعات والمهن والحرف التي ازدهر بعضها في بعض الدويلات فقط.

13- لقد رافق النثر والشعر الصراعات العسكرية طوال عصر الطوائف، فبفضل توثيق الكتاب والشعراء لها تمكنّا من معرفة ما حدث في هذه الفترة المهمة من تاريخ الأندلس.

ثانيا: التوصيات:

1-لا زال موضوع الصراعات العسكرية وآثارها خصبا يحتاج إلى مزيد من البحث والتنقيب في أساساته لمعرفة المزيد عنه، فأهيب بالباحثين في التاريخ الأندلسي أن يضطلعوا بهذا الدور.

2- أوصي الباحثين بدراسة آثار الصراعات العسكرية على النظامين الإداري والقضائي.

3-تعتبر أشعار الشعراء في القرن الخامس الهجري رافدا مهما من روافد البحث في موضوع الآثار العسكرية.

الملاحق

ملحق رقم(1)

طرف من رسالة ابن عبد البر على ألسنة أهل بربشتر إلى كواف البلاد يستنفرهم للجهاد ودفع النورمان عنها[1]

من الثغور القاصية، والأطراف النائية، المعتقدين للتوحيد، المعترفين بالوعد والوعيد، المستمسكين بعروة الدين، المستهلكين في حماية المسلمين، المعتصمين بعصمة الإسلام، المتآلفين على الصلاة والصيام، المؤمنين بالتنزيل، المقيمين على سنة الرسول، محمد نبي الرحمة، وشفيع الأمة، إلى من بالأمصار الجامعة، والأقطار الشاسعة، بجزيرة الأندلس من ولاة المؤمنين، وحماة المسلمين، ورعاة الدين، من الرؤساء والمرؤوسين، سلام عليكم، فإنا نحمد الله إليكم، حمد من أيقن به ربا، وجعله حسبا، ولي المؤمنين، وغياث المستغيثين، مجري الفلك في البحر بأمره ﴿... ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه...﴾ الحج: 65 ونصلي على المصطفى من أصفيائه، محمد خاتم أنبيائه، المبتعث بأنواره الساطعة، وحجاجه القاطعة، على حين عفت رسوم الدين، وخوت نجوم اليقين، فجلا الشك، وأدحض الإفك، فعليه من السلام أفضل سلام، ما وحد الرحمن، وثني الفرقدان.

أما بعد حرسكم الله بعينه التي لا تنام، فإنا خاطبناكم مستنفرين، وكاتبناكم مستغيثين، وأجفاننا قرحى، وأكبادنا حرّى، ونفوسنا منطبقة، وقلوبنا محترقة، على حين نشر الكفر جناحيه، وأبدى الشرك ناجذيه، واستطار شرر الشر، ومسنا وأهلنا الضر، أحسن ما كنا بالأيام ظنا، وملتنا ظاهرة، وفئتنا متناصرة، لا تشل لنا يد، ولا يفل لنا حد، حتى انقلبت العين، وبان الصبح لذي عينين.

[1]- ابن بسام: المصدر السابق، ق3، مج1، ص ص 173-174.

ملحق رقم (2)رسالة الفونسوا السادس إلى المعتمد بن عباد يطلب منه تسليم أعماله[1]

من الكنبيطور ذي الملتين الملك المفضل الأذفنش بن شانجه إلى المعتمد بالله سدد الله آراءه وبصره مقاصد الرشاد سلام عليك من مشيد ملك شرفته القنا ونبتت في ربعه المنى فاعتز اعتزاز الرمح بعامله والسيف بساعد حامله وقد أبصرتم ما نزل بطليطلة وأقطارها وما صار بأهلها حين حصارها فأسلمتم إخوانكم وعطلتم بالدعة زمانكم والحذر من أيقظ باله قبل الوقوع في الحبالة ولولا عهد سلف بيننا نحفظ ذمامه ونسعى بنور الوفاء أمامه لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده ووصل رسول الغزو ووارده لكن الإنذار يقطع الأعذار ولا يعجل إلا من خاف الفوت غيما يرومه أو يخشى الغلبة على ما يسومه وقد حملنا الرسالة إليكم القرمط البرهانس وعنده من التسديد الذي يلقى به أمثالك والعقل الذي يدبر به بلادك ورجالك مما اوجب استنابته فيما يدق ويجل وفيما يصلح لا فيما لا يخل وأنت عندما تأتيه من آرائك والنظر بعد هذا من ورائك والسلام عليك يسعى بيمينك وبين يديك

[1] - مؤلف مجهول: الحلل الموشية، ص ص38-39.

ملحق رقم(3) رد المعتمد على رسالة الفونسوا السادس[1]

من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله أبي عمرو بن عباد إلى الطاغية الباغية أذفنش بن شانجة الذي لقب نفسه بملك الملوك وسماها بذي الملتين قطع الله دعواه سلام على من اتبع الهدى أما بعد:

فإنه أول ما نبدأ به من دعواه أنه (ذو الملتين) والمسلمون احق بهذا الإسم لأن الذي تملكوه من أمصار البلاد وعظيم الاستعداد ومجبي المملكة لا تملكه قدرتكم ولا تعرفه ملتكم وإنما كانت سنة سعد أيقظ منها مناديك وأغفل عن النظر السديد جميل مباديك فركبنا مركب عجز نسخه الكيس وعاطيناك كؤوس دعة قلت في أثنائها : ليس ولا تستحي أن تامر بتسليم البلاد لرجالك وإنا لنعجب من استعمالك برأي لم تحكم انحاؤه، ولا حسن انتحاؤه، وإعجابك بصنع وافقتك فيه الأقدار، واغتررت بنفسك أسوأ الاغترار، أما تعلم أنا في العدد والعديد، والنظر السديد، ولدينا من كماة الفرسان، وجيل الانسان، وحماة الشجعان، يوم يلتقي الجمعان، رجال تدرعوا الصبر، وكرهوا الكبر، تسيل نفوسهم على حد الشفار، وتنعاهم الهام في القفار، يديرون رحى النون بحركات العزائم، ويشفون من خبط الجنون بخواتم العزائم، قد أعدوا لك ولقومك جلادا، رتبه الاتفاق، وشفارا حدادا شحذها الإصفاق، وقد يأتي المحبوب من المكروه، والندم من عجله الشروه، نبهت من غفلة طال زمانها، وأيقظت من نومة تجدد أمانها، ومتى كانت لأسلافك الأقدمين مع أسلافنا الأكرمين يد صاعدة، أو وقفة متساعدة إلا ذل تعلم مقداره، وتتحقق مثاره، والذي جرأك على طلب ما لا تدركه قوم كالحمر ﴿... لا يقاتلونكم جميعا إلا في قرى محصنة او من وراء جدر...﴾ ظنوا المعاقل تعقل ، والدول لا تنتقل، وكان بيننا وبينك من المسالمة ما اوجب القعود عن نصرتهم، وتدبير امرهم، ونسأل الله سبحانه المغفرة فيما أتيناه في أنفسنا وفيهم، من ترك الحزم وإسلامهم لأعاديهم، والحمد لله الذي جعل عقوبتنا توبيخك وتقريعك بما الموت دونه، وبالله تستعين عليك ولا تستبطئ في مسيرتنا إليك ، والله ينصر دينه الكريم ﴿... ولو كره الكافرون...﴾والسلام على من علم الحق فاتبعه واجتنب الباطل وخدعه.

---

[1]- مجهول: الحلل الموشية، ص ص 39-41.

ملحق ر قم (4) رسالة ابن عباد إلى يوسف ابن تاشفين يدعوه فيها للجواز للاندلس لقتال ألفونسوا السادس من إنشاء أبي بكر بن الجد [1]

إلى الملك المؤيد بفضل الله أمير المسلمين، وناصر الدين، وزعيم المرابطين، أبي يعقوب يوسف بن تاشفين، نور الله به الآفاق، وجمع به الجيوش والرفاق.

من الملك المفضل بنعمة الله، المستجير برحمة الله، المعتمد على الله، محمد بن عباد، سلام على حضرة تجرد إيمانها، واشتهر امانها، أما بعد: -

فإن الله أيد دينه بالتفاق والائتلاف، وحرم مسالك الشتات، ودواعي الاختلاف، وأنعم على عباده بامير جديد ((وقوم أولي بأس شديد)) وتطول علينا بمعلوم جدك، ومشهور جدك، وقد جعلك رحمة يحيي غيثها ربوع الشريعة، وخلقك سلما إلى الخير وذريعة، وقد طرأ على الإسلام حادث أنسى كل هم، وهمت النكبات وهم، وذلك عدو اطمعه في البلاد شتات وبين، واختلاف سببه لم تطرف له في الدعة عين، يقوى ونضعف، ويتفق ونختلف، وننام مطمئنين من آفات الزمان، وتناسخ الأمان، وقد جاءنا ابراقه وإرعاده، ووعده وإيعاده، لنسلم له المنابر والصوامع، والمحارب والجوامع، ليقيم بها الصلبان ، ويستنيب بها الرهبان، ومما يطمعه استمالته إيانا بالدعة، وإملاؤه في الرحب والسعة، استجرارا لما أبطنه، وإهجاما علينا وطنه.

وقد وطد الله لك ملكا شكر الله عليه، جهادك، وقيامك بحقه واجتهادك، ولك من نصر الله خير باعث، يبعثك إلى نصر مناره، واقتباس نوره وناره، وعندك من جنود الله من يشتري الجنة بحياته، ويحضر الحرب بآلاته، فإن شئت الدنيا، فقطوف دانيةوجنات عالية، وعيون آنية، وإن اردت الأخرى فجهاد لا يفتر، وجلاد يحز الغلاصم ويبتر، هذه الجنة ادخرها الله لظلال سيوفكم، واجمال معروفكم، نستعين بالله وملائكته، وبكم على الكافرين كما قال الله سبحانه وهو أكرم القائلين: ((قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين)).

والله يجمعنا على كلمة التوحيد ننصرها ، ونعمة الإسلام نشكرها، ورحمة الله نتحدث بها وننشرها، والسلام الموصول الجزيل على أمير المسلمين، وناصر الدين، ورحمة الله وبركاته.

[1]- مجهول: الحلل الموشية، ص ص 47-48.

ملحق رقم (5) دويلات الطوائف منتصف القرن الحادي عشر للميلاد.[1]



[1] - من موقع : www.pinterest.com

ملحق رقم (6) دويلات الطوائف نهاية القرن الحادي عشر للميلاد.[1]



---

[1]- من موقع: www.yabeyrouth.com

ملحق رقم (7) دويلات الطوائف مرقمة حسب تاريخ انفصالها[1]



[1] – السويدان: المرجع السابق، ص 257

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم برواية حفص

كتب الحديث النبوي الشريف

البخاري أبي عبد الله محمد بن إسماعيل(ت 256هـ/870م): الصحيح، دار ابن كثير، دمشق-بيروت، ط1، 2002.

البيهقي أبو بكر أحمد بن الحسين بن علي(ت 458هـ/1066م): السنن الكبرى، تحقيق محمد عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط3، 2003، ج8.

أولا: المصادر العربية

1. ابن أبي أصيبعة أبو العباس أحمد بن القاسم بن خليفة بن يونس السعدي (ت 668هـ/ 1269م): عيون الأنباء في طبقات الأطباء، شرح وتحقيق نزار رضا، دار مكتبة الحياة، بيروت،(د.ط)،(د.ت).
2. ابن أبي زرع علي الفاسي(ت726هـ/1326م): الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط،(د.ط)، 1972.
3. ابن الأبار أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن أبي بكر القضاعي(ت 658هـ/1260م): التكملة لكتاب الصلة، تحقيق عبد السلام الهراس، دار الفكر، بيروت، لبنان، (د.ط)، 1995، ج3.
4. ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق على حواشيه حسين مؤنس،دار المعارف،القاهرة،ط2، 1985، ج2.
5. ابن الأبار: المقتضب من كتاب تحفة القادم، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط3، 1989.
6. ابن الأثير عز الدين (ت 630هـ/1233م): الكامل في التاريخ، راجعه وصححه محمد يوسف الدقاق، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1987، مج8.
7. ابن الخطيب لسان الدين أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن سعيد الغرناطي(ت 776هـ/1374م): أعمال الأعلام، تحقيق سيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1 ، 2002، ج1 و ج2.
8. ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، حقق نصه ووضع مقدمته وحواشيه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1983، مج1،مج2، مج3.
9. ابن الخطيب: معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار، تحقيق ودراسة محمد كمال شبانة، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 2002.

10. ابن الدلائي أحمد بن عمر بن أنس العذري (ت 478هـ/ 1085م): نصوص عن الأندلس من كتاب ترصيع الأخبار وتنويع الآثار، والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى جميع الممالك، تحقيق عبد العزيز الأهواني، منشورات معهد الدراسات الإسلامية، مدريد، (د.ط)، (د.ت).
11. ابن العماد عبد الحي بن أحمد بن محمد(ت 1089هـ/1679م): شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق عبد القادر الأرناؤوط–محمود الأرناؤوط، دار ابن كثير، دمشق– بيروت، ط1، 1989، ج6.
12. ابن الكردبوس أبي مروان عبد الملك بن الكردبوس التوزري (6هـ/12م): الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق صالح بن عبد الله الغامدي، الجامعة الإسلامية المدينة المنورة، المملكة العربية السعودية، ط1، 2008.
13. ابن بسام الشنتريني أبو الحسن علي(ت 542هـ/1147م): الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان،ط 1997،ج1، 2،3، 4.
14. ابن بشكوال أبو القاسم خلف بن عبد الله بن عبد الملك (ت 578هـ/1183م): الصلة في تاريخ أئمة الأندلس وعلمائهم ومحدثيهم وفقهائهم وأدبائهم، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، تونس،ط1، 2010، مج1، 2.
15. ابن بلقين عبد الله (ت 487هـ/1094م): المذكرات، نشر وتحقيق ليفي بروفنصال، دار المعارف، مصر، ط1955.
16. ابن حزم أبو محمد علي بن أحمد(ت 456هـ/1064م): الإحكام في أصول الأحكام، تقديم احسان عباس، دار الآفاق الجديدة، بيروت،ط2، 1983، ج1.
17. ....: التلخيص لوجوه التخليص، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج3.
18. ....: جمهرة أنساب العرب، تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون، دار المعارف، القاهرة، ط 5، 1982،ج1.
19. ....: ذكر أوقات الأمراء وأيامهم بالأندلس، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2.
20. ....: رسالة البيان عن حقيقة الإيمان، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج3.
21. ......: رسالة في الرد على ابن النغريلة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج3.

22. ......:رسالة في الغناء الملهي أمباح هو أم محظور، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج1.

23. ......: رسالة في فضل الأندلس وذكر رجالها، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2.

24. ......: رسالة مراتب العلوم، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1983، ج4.

25. ....: رسالتان له أجاب فيهما عن رسالتين سئل فيهما سؤال تعنيف، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج3.

26. ......: طوق الحمامة، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج1.

27. ....: الفصل في الملل والأهواء والنحل، تحقيق محمد إبراهيم نصر- عبد الرحمن عميرة، دار الجيل، بيروت، ط2، 1996، ج1.

28. ....: ملحقات، شذرات من الروايات التاريخية ، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2.

29. ....: نقط العروس في تواريخ الخلفاء، تحقيق إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط2، 1987، ج2.

30. ابن حمديس عبد الجبار (ت 447هـ/ 1055م): ديوان ابن حمديس، صححه وقدم له إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).

31. ابن حيان أبو مروان حيان بن خلف(ت469هـ/1076م): من نصوص من كتاب المتين ، جمع ودراسة وتحقيق ومقارنة عبد الله محمد جمال الدين، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، 1997.

32. ابن خاقان أبو نصر الفتح بن محمد بن عبيد الله القيسي(ت 528هـ/1140م): قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، حققه وعلق عليه حسين يوسف خريوش، مكتبة المنار، الأردن، ط1، 1989، ج1،ج2.

33. ....: مطمح الأنفس ومسرح التانس في ملح أهل الأندلس، دراسة وتحقيق محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1983.

34. ابن خلدون: عبد الرحمن بن محمد(ت808هـ/1406م): تاريخ ابن خلدون المسمى ديوان المبتدأ في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر، بيروت، لبنان، ط2000، ج1، 4، 7.

35. ابن خلكان أبو العباس شمس الدين أحمد محمد بن أبي بكر(ت681هـ/ 1282): وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط 1977، ج1، 2، 3، 4، 5.
36. ابن دحية أبو الخطاب عمر بن حسن الكلبي(ت 633هـ/1235م): المطرب من أشعار أهل المغرب، تحقيق إبراهيم الأبياري-حامد عبد المجيد- أحمد أحمد بدوي، راجعه طه حسين، دار العلم للجميع، بيروت، ط1955.
37. ابن درّاج أبو عمر أحمد بن محمد القسطلي الأندلسي(ت 421هـ/1030م): ديوان ابن دراج، تحقيق محمود علي مكي، منشورات المكتب الإسلامي بدمشق، ط1، 1961.
38. ابن سعيد أبو الحسن علي بن موسى بن محمد بن عبد الملك المغربي (ت 685هـ/ 1286م): المغرب في حلى المغرب، تحقيق شوقي ضيف، دار المعارف، القاهرة، ط4، 1119، ج1، 2.
39. ابن سهل أبو الأصبغ عيسى الأندلسي (ت486هـ/ 1093م): ثلاث وثائق في محاربة الأهواء والبدع في الأندلس مستخرجة من مخطوط الأحكام الكبرى، دراسة وتحقيق محمد عبد الوهاب خلاف، مراجعة وتقديم محمود علي مكي –مصطفى كامل إسماعيل، المركز العربي الدولي للإعلام، القاهرة، ط1، 1981.
40. ابن شهيد، أبو عامر أحمد بن عبد الملك بن شهيد(ت 426هـ/1035م)، رسالة الزوابع والتوابع، تحقيق بطرس البستاني، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1967.
41. ابن صاعد الأندلسي أبو القاسم صاعد بن أحمد (ت 462هـ/1070م): طبقات الأمم، المطبعة الكاثوليكية للآباء اليسوعيين، بيروت، ع 14، 1912.
42. ابن عبد الحكم: فتوح افرقية والأندلس، حققه وقدم له عبد الله أنيس الطباع ، مكتبة المدرسة –دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1964.
43. ابن عبدون محمد بن أحمد (ت 527هـ/ 133م)- ابن عبد الرؤوف- الجرسيفي: ثلاث رسائل أندلسية في آداب الحسبة والمحتسب، تحقيق ليفي بروفنسال، المعهد العلمي الفرنسي للآثار الشرقية، القاهرة، (د.ط)، 1955.
44. ابن عذاري المراكشي أبو العباس أحمد بن محمد(توفي بعد 712هـ/ بعد 1312م): البيان المغرب في اختصار أخبار ملوك الأندلس والمغرب، حققه وضبط نصه وعلق عليه بشار عواد معروف- محمود بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2013، ج2،ج3.
45. ابن فرحون المالكي إبراهيم بن علي بن محمد برهان الدين اليعمري (ت 799هـ/1396م): الديباج المذهب، تحقيق وتعليق محمد الأحمدي أبو النور، دار التراث للطباعة والنشر، القاهرة، (د.ط)، 1972، مج1.

46. أبو الخير الأشبيلي (ق6هـ/12م): عمدة الطبيب في معرفة النبات، قدم له وحققه محمد العربي الخطابي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، ط2، 1992، ج1.
47. أبي الفداء عماد الدين إسماعيل بن محمد بن عمر(ت 732هـ/ 1341م): تقويم البلدان، تحقيق رينود- ماك كوكين ديسلان، دار صادر، بيروت، ط1850.
48. أحمد بن حنبل(ت241هـ/855م): المسند، تحقيق شعيب الأرنؤوط-عادل مرشد، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1997، ج19.
49. الإدريسي الشريف أبو عبد الله محمد (ت 558هـ/1163م): نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، (د.ط)، 2002، مج1.
50. البكري عبد الله بن عبد العزيز(ت478هـ/1094م): المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن و أندري فيري، دار الغرب الإسلامي، (د.م)، (د.ط)، 1992، ج2.
51. الحموي شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله(ت 627هـ/ 1230م): معجم البلدان، دار صادر، بيروت، (د.ط)، 1977، ج4، 7.
52. الحميدي أبو عبد الله محمد بن فتوح بن عبد الله(ت488هـ/1095م): جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق بشار عواد معروف- محمد بشار عواد، دار الغرب الإسلامي، تونس، ط1، 2008.
53. الحميري أبو الوليد إسماعيل بن محمد بن عامر(ت 440هـ/1048م): البديع في فصل الربيع، تحقيق علي ابراهيم كردي، دار سعد الدين، دمشق، ط1، 1997.
54. الحميري أبو عبد الله محمد بن عبد المنعم(ت 726هـ/1326م): الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، ط2، 1984.
55. ....: صفة جزيرة الأندلس منتخبة من كتاب الروض المعطار في خبر الأقطار، عني بنشرها وتصحيحها وتعليق حواشيها إ. لافي بروفنصال، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1988.
56. الذهبي شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان(ت 478هـ/ 1374م): سير أعلام النبلاء، حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه شعيب الأرنؤوط، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط1، 1984،ج1، 17، 18، 19.
57. الزهري أبو عبد الله محمد بن أبي بكر(ت بعد 541هـ/1154م): كتاب الجغرافية، محمد حاج صادق، مكتبة القافة الدينية، بورسعيد، (د.ط)، (د.ت).
58. السقطي أبو عبد الله محمد بن أبي محمد المالقي الأندلسي: كتاب آداب الحسبة، تحقيق ج.س. كولان-إ.ليفي بروفنسال، باريس، المطبعة الدولية، ط1931.
59. الشعبي أبو المطرف عبد الرحمن: الأحكام، تقديم وتحقيق الصادق الحلوي، بيروت، ط1992.

60. الشهرستاني أبو الفتح محمد بن عبد الكريم(ت 548هـ/1153م): الملل والنحل، صححه وعلق عليه أحمد فهمي محمد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 1992،ج1، ج3.
61. الضبي أحمد بن يحي بن أحمد بن عميرة (ت 599هـ/ 1202م): بغية الملتمس في تاريخ رجال الأندلس، تحقيق إبراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط1، 1989.
62. عياض القاضي أبو الفضل بن موسى(ت 544هـ/1149م): ترتيب المدارك، ضبطه وصححه محمد سالم هاشم ، طبعة دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ج2.
63. القزويني زكريا بن محمد بن محمود (ت 682هـ/1283م): آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، (د.ط)، (د.ت).
64. القلقشندي أبو العباس أحمد (ت821هـ/1418م): صبح الأعشى، المطبعة الأميرية، القاهرة، ط1915، ج5.

65. الماوردي أبو الحسن علي بن محمد بن حبيب البصري (ت 450هـ/1058م): الأحكام السلطانية، تحقيق احمد جاد، دار الحديث، القاهرة، ط2006.
66. مجموعة كتاب (ق5و6هـ/11و12م): رسائل ومقامات أندلسية، تحقيق فوزي سعد عيسى، منشأة المعارف، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت).
67. المراكشي، عبد الواحد بن علي (ت 647هـ/ 1249): المعجب في تلخيص أخبار المغرب، شرحه واعتنى به صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت، ط1، 2006.
68. المقري أبو العباس أحمد بن محمد (ت 1041هـ/ 1631م): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، (د.ط)، مج1، 2، 3، 4.
69. مؤلف مجهول (ق8هـ/ 16م): الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، تحقيق سهيل زكار وعبد القادر زمامة، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، ط1، 1979.
70. مؤلف مجهول (ق8هـ/14م): مفاخر البربر، تحقيق عبد القادر بوباية، دار أبي رقراق للطباعة والنشر، الرباط، ط1، 2005.
71. مؤلف مجهول: أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها رحمهم الله والحروب الواقعة بينهم، تحقيق ابراهيم الأبياري، دار الكتاب المصري، القاهرة- دار الكتاب اللبناني، بيروت، ط2، 1989.
72. مؤلف مجهول: أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، ترجمة حسن حبشي، دار الفكر العربي، مصر، ط1، 1998.

73. مؤلف مجهول: تاريخ الأندلس، تحقيق عبد القادر بوباية، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2007.

74. مؤلف مجهول: ذكر بلاد الأندلس، تحقيق وترجمة لويس مولينا، المجلس الأعلى للأبحاث العلمية- معهد ميغل أسين، مدريد، 1983، ج1.

75. النويري شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب (ت733هـ/1342م): نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق عبد المجيد ترحيني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2004، ج23.

76. الونشريسي أحمد بن يحي (ت 914هـ/1508م): المعيار المعرب والجامع المغرب عن فتاوي أهل إفريقية والأندلس والمغرب، خرجه جماعة من الفقهاء بإشراف محمد حجي، نشر وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية للمملكة المغربية، الرباط،(د.ط)، 1981، ج7، 8.

ثانيا: المراجع العربية والمعربة:

77. أبو الفضل محمد أحمد: تاريخ مدينة المرية الأندلسية في العصر الإسلامي منذ إنشائها حتى استيلاء المرابطين عليها (344-484هـ/955-1091م)، تصدير السيد عبد العزيز سالم، الهيئة المصرية العامة للكتاب، (د.ط)، 1981.

78. أبو مصطفى كمال السيد: تاريخ مدينة بلنسية الأندلسية في العصر الإسلامي (95-495هـ/ 714-1102م)، دراسة في التاريخ السياسي والحضاري، مركز الإسكندرية للكتاب، (د.ط)، (د.ت).

79. ....: دراسات في تاريخ وحضارة المغرب والأندلس، مركز الإسكندرية للكتاب، (د.ط)،1997.

80. ....: مالقة الإسلامية في عصر دويلات الطوائف(القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي) دراسة في مظاهر العمران والحياة الاجتماعية، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1993.

81. أدهم علي: المعتمد بن عباد، مكتبة مصر، (د.ط)، (د.ت).

82. أرزقي فراد أحمد: القوى المغربية في الأندلس خلال عهد ملوك الطوائف القرن الخامس الهجري الموافق الحادي عشر الميلادي، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، (د.ط)،1991.

83. أرسلان شكيب:الحلل السندسية في الأخبار والآثار الأندلسية، المكتبة التجارية الكبرى، فاس، المغرب، ط1، 1936،ج1، ج2.

84. أرشيبالد لويس: القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط(500-1100م)، تحقيق أحمد محمد عيسى، مراجعة وتقديم محمد شفيق غربال، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

85. أشباخ يوسف: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمه وعلق عليه محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط2، 1996، ج1.

86. باسيليون بابون مالدونادو: العمارة الإسلامية في الأندلس -عمارة القصور- عصر الخلافة وملوك الطوائف، ترجمة علي ابراهيم المنوفي، مراجعة محمد حمزة الحداد، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2010.

87. باشا أحمد تيمور: أعلام المهندسين في الإسلام، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، مصر، (د.ط)، 2012.

88. باقر الصدر محمد: فلسفتنا، دار التعارف للمطبوعات، بيروت، لبنان، ط12، 1982.

89. بالنثيا آنخل جونثالث: تاريخ الفكر الأندلسي، ترجمة حسين مؤنس، مكتبة الثقافة الدينية، بورسعيد، (د.ط)، 1955.

90. بدوي عبد الرحمن: دراسات ونصوص في الفلسفة والعلوم عند العرب، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط1، 1981.

91. برنهارد وإلن ويشوا: اسبانيا العربية(الأندلس)، إضاءات على تاريخها وفنونها، ترجمة صفاء كنج، مراجعة وتحرير أحمد إيبش، دار الكتب الوطنية، أبو ظبي،الإمارات العربية المتحدة، ط1، 2014.

92. بروفنسال ليفي: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة ذوقان قرقوط، دار مكتبة الحياة، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت).

93. بروكلمان كارل: تاريخ الشعوب الإسلامية، نقله إلى العربية نبيه أمين فارس-منير البعلبكي، دار العلم للملايين، بيروت، ط5، 1968.

94. بن عبود أمحمد :التاريخ السياسي والاجتماعي لإشبيلية في عهد دول الطوائف، تقديم وليم مونتغمري واط، المعهد الجامعي للبحث العلمي، تطوان، (د.ط)، 1983.

بن عبود أمحمد: جوانب من الواقع الأندلسي في القرن الخامس الهجري، تقديم محمد المنوني، مطبعة النور، تطوان، المغرب، (د.ط)، 1987.

95. بن نبي مالك: القضايا الكبرى، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق سورية، ط6، 2006.

96. بن نبي مالك: مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق، سورية، ط7، 2008.

97. بوباية عبد القادر:البربر في الأندلس وموقفهم من فتنة القرن القرن الخامس الهجري (11م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2011.

98. البيلي محمد بركات:الزهاد والمتصوفة في بلاد المغرب والأندلس حتى القرن الخامس الهجري، دار النهضة العربية، القاهرة، (د.ط)، 1993.
99. تركي عبد المجيد: مناظرات في أصول الشريعة الإسلامية بين ابن حزم والباجي، ترجمة وتحقيق وتعليق عبد الصبور شاهين، مراجعة محمد عبد الحليم محمود، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1986.
100. التهامي إبراهيم: جهود علماء المغرب في الدفاع عن عقيدة أهل السنة- دراسة في الصراع العقدي في المغرب العربي من الفتح الإسلامي إلى نهاية القرن الخامس، مؤسسة الرسالة ناشرون، دمشق سوريا- بيروت، لبنان، ط1، 2005.
101. توفيق عمر إبراهيم:صورة المجتمع الأندلسي في القرن 5هـ سياسيا واجتماعيا وثقافيا، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 2011.
102. الجارم بك علي: قصة العرب في اسبانيا، مطبعة المعارف، مصر، ط1944.
103. الجبالي خالد حسن حمد: الزواج المختلط بين المسلمين والإسبان من الفتح الإسلامي للأندلس وحتى سقوط الخلافة (92-422هـ)، مكتبة الآداب، القاهرة، د.ط، 2004.
104. الجعماطي عبد السلام: دراسات في تاريخ الملاحة البحرية وعلوم البحار في الغرب الإسلامي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012.

الجعماطي عبد السلام: النقل والمواصلات بالاندلس خلال عصري الخلافة والطوائف(316-483هـ) ، دار ابن حزم، بيروت، لبنان، ط1، 2010.

105. الجوير محمد بن أحمد بن علي:جهود علماء السلف في القرن السادس الهجري في الرد على الصوفية، مكتبة الرشد ناشرون، السعودية، ط1، 2003.
106. حاجي خليفة: كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون ، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د.ط)، (د.ت)، ج1.
107. حتاملة محمد عبده: الأندلس التاريخ والحضارة والمحنة، مطابع الدستور التجارية، عمان الأردن، (د.ط)، 2000.
108. ....: ايبيريا قبل مجيء العرب المسلمين، وزارة الثقافة، الأردن، عمان، ط 1996.
109. ....: مدخل لدراسة تاريخ الأندلس، مطبعة الجامعة الاردنية، عمان، الأردن، 2010.
110. الحجي عبد الرحمن علي: التاريخ الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة، دار القلم،دمشق-بيروت، ط2، 1981.
111. حسان حسان محمد : ابن حزم الأندلسي عصره ومنهجه وفكره التربوي، دار الفكر العربي، القاهرة، (د.ط)، (د.ت).

112. حسين حمدي عبد المنعم محمد: دراسات في التاريخ الأندلسي دولة بني برزال في قرمونة (404-459هـ/ 1013-1027م)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندري، (د.ط)، 1989.

113. حمادة محمد ماهر: المكتبات في الإسلام نشأتها وتطورها ومصائرها، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط2، 1978.

114. حماده محمد ماهر: الوثائق السياسية والإدارية في الأندلس وشمال افريقية،مؤسسة الرسالة،بيروت،ط2، 1986.

115. الخالدي خالد يونس عبد العزيز: اليهود في الدولة العربية الإسلامية في الأندلس (92-897هـ/711-1492)، دار الأرقم، فلسطين، غزة، (د.ط)، 2011.

116. خالص صلاح : اشبيلية في القرن الخامس الهجري دراسة أدبية تاريخية لنشوء دولة بني عباد في اشبيلية وتطور الحياة الأدبية فيها 414-461هـ، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د.ط) ، 1965.

117. خوسي مارية مياس بييكروسا:علم الفلاحة عند المؤلفين العرب بالأندلس، تعريب عبد اللطيف الخطيب، معهد مولاي الحسن، تطوان، المغرب، (د.ط)، 1957.

118. الداية محمد رضوان: في الأدب الأندلسي، دار الفكر المعاصر، بيروت، لبنان- دار الفكر، دمشق، سورية، ط1، 2000.

119. دوزي رينهارت: المسلمون في الأندلس، ترجمة حسن حبشي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ط1995، ج2، 3.

دوزي رينهارت: ملوك الطوائف ونظرات في تاريخ الإسلام، ترجمة كامل الكيلاني، مكتبة ومطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه بمصر، القاهرة، ط1، 1933.

120. دياب حامد الشافعي: الكتب والمكتبات في الأندلس، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، ط1، 1998.

121. ديورنت ويل وإيرل: قصة الحضارة، تقديم محي الدين صابر، ترجمة زكي نجيب محمود، دار الجيل، بيروت، لبنان، ط1988، ج1، مج1.

122. ريبيرا خوليان: التربية الإسلامية في الأندلس أصولها المشرقية وتأثيراتها الغربية، ترجمة الطاهر أحمد مكي، دار المعارف، ط2، 1994.

123. الزركلي خير الدين: الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط15، 2002.

124. سالم السيد عبد العزيز : - أحمد مختار العبادي: تاريخ البحرية الإسلامية في المغرب والأندلس دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1969.

1. سالم السيد عبد العزيز: تاريخ مدينة المرية الإسلامية قاعدة أسطول الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1984.

125. ....: في تاريخ وحضارة الإسلام في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الأسكندرية، (د.ط)، 1985.

126. ....: قرطبة حاضرة الخلافة في الأندلس (دراسة تاريخية، عمرانية، أثرية في العصر الإسلامي)، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1997،ج1.

127. ....: المساجد والقصور في الأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ط1986.

128. سالم سحر السيد عبد العزيز: تاريخ بطليوس الإسلامية وغرب الأندلس في العصر الإسلامي، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، (د.ت)،ج1، التاريخ السياسي.

129. السامرائي أسامة عبد الحميد حسين: تاريخ الوزراء في الأندلس (138-897هـ/755-1492م)، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2012.

130. السامرائي خليل إبراهيم وآخرون: تاريخ العرب وحضارتهم في الأندلس، دار الكتب الوطنية، بنغازي، ليبيا، ط1، 2000.

131. السامرائي كمال: مختصر تاريخ الطب العربي، دار النضال للطباعة والنشر والتوزيع،بيروت، (د.ط)، 1985، ج2.

132. السرجاني راغب: قصة الأندلس، مؤسسة إقرأ، القاهرة، ط1، 2010.

133. سعيد أعراب: مع القاضي أبي بكر بن العربي، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1987.

134. السويدان طارق: الأندلس التاريخ المصور، شركة الإبداع الفكري، الكويت، ط1، 2005.

135. سيسالم عصام سالم: جزر الأندلس المنسية- التاريخ الإسلامي لجزر البليار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط1، 1984.

136. السيوطي خالد عبد الحليم عبد الرحيم: الجدل الديني بين المسلمين وأهل الكتاب بالأندلس (ابن حزم – الخزرجي)، دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، (د.ط)، 2001.

137. الطاهري أحمد: دراسات ومباحث في تاريخ الأندلس عصري الخلافة والطوائف، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، ط1، 1993.

138. طويل مريم قاسم: مملكة المرية في عهد المعتصم بن صمادح(443-484هـ/1051-1091م)، مكتبة الوحدة العربية، الدار البيضاء-دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

139. طويل مريم قاسم: مملكة غرناطة في عهد بني زيري البربر403-483هـ، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1994.

140. عارف نصر محمد: الحضارة والثقافة والمدنية –دراسة لسيرة المصطلح ودلالة المفهوم، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط2، 1994.
141. العامري محمد بشير: مظاهر الإبداع الحضاري في التاريخ الأندلسي، دار غيداء للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2012.
142. عبادة كحيلة: تاريخ النصارى في الأندلس، (د.ن)، (د.م)، ط1، 1993.
143. العبادي أحمد مختار: تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف والمرابطين، دار الشروق،عمان،ط1، 1997.
144. العبادي أحمد مختار: في التاريخ العباسي والأندلسي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، (د.ط)، 1972.
145. العبادي أحمد مختار: في تاريخ المغرب والأندلس، دار النهضة العربية، بيروت،(د.ط)، (د.ت).
146. عباس إحسان : تاريخ الأدب الأندلسي، عصر سيادة قرطبة ، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1969.
147. عبد الحليم رجب محمد: العلاقات بين الأندلس الإسلامية وإسبانيا النصرانية في عصر بني أمية وملوك الطوائف، دار الكتاب المصري، القاهرة، دار الكتاب اللبناني، بيروت،لبنان، (د.ط)، (د.ت).
148. عبد الحميد عيسى محمد: تاريخ التعليم في الأندلس، دار الفكر العربي، مصر،ط1، 1982.
149. عبد المجيد محمد بحر: اليهود في الأندلس، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة، ط1970.
150. عزام عبد الوهاب: المعتمد بن عباد الملك الجواد الشجاع الشاعر المرزأ، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 2010.
151. العفاني سيد بن حسين:زهرة البساتين من مواقف العلماء الربانيين، دار العفاني، القاهرة، ج4، ط1999.
152. عنان محمد عبد الله: دولة الاسلام في الأندلس عصر الطوائف منذ قيامها حتى العصر المرابطي، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط4، 1997.
153. عناني محمد زكريا: تاريخ الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية، قناة السويس، (د.ط)، 1999.
154. العويسي عبد الله بن حمد: مالك بن نبي حياته وفكره، الشبكة العربية للأبحاث والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 2012.
155. عيسى عبد العزيز محمد: الأدب العربي في الأندلس، مطبعة الاستقامة، مصر، (د.ط)، 1945.
156. الغامدي خالد بن ناصر بن سعيد: الصراع العقائدي في الأندلس، مكتبة الكوثر للنشر والتوزيع، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط1، 1429هـ.

157. غوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة عادل زعيتر، مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة، القاهرة، (د.ط)، 2013 .
158. فرخ عمر: ابن حزم الكبير، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
159. فروخ عمر : تاريخ العلوم عند العرب، دار العلم للملايين، بيروت، (د.ط)، 1970.
160. فكري أحمد: قرطبة في العصر الإسلامي تاريخ وحضارة، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1983.
161. القيسي فايز عبد النبي فلاح: أدب الرسائل في الأندلس في القرن الخامس الهجري، دار البشير، عمان، الأردن، ط1، 1989.
162. الكركجي نغم عدنان: الأزمات الاقتصادية في الأندلس من الفتح حتى سقوط غرناطه، (92-897هـ/711-1492م)، دار الكتاب الثقافي، أربد، الأردن، ط2017.
163. الكعبي علي عطية: التعايش السلمي بين الأديان السماوية في الأندلس من الفتح الإسلامي حتى نهاية دول الطوائف 92-484هـ/711-1091م، دار صفحات، سوريا، دمشق- الإمارات العربية، دبي، ط1، 2014.
164. كولان.ج.س:الأندلس، لجنة ترجمة دائرة المعارف الإسلامية إبراهيم خوشيد وآخرون، دار الكتاب اللبناني-دار الكتاب المصري، بيروت، لبنان، القاهرة، ط1، 1980.
165. كونستيبل أوليفيا ريمي: التجارة والتجار في الأندلس، تعريب فيصل عبد الله، مكتبة العبيكان، المملكة العربية السعودية، ط1، 2002.
166. لوثينا لويس سيكو دي: الحموديون سادة مالقة والجزيرة الخضراء، تحقيق عدنان محمد آل طعمة، دار مطبعة الشام، دمشق،ط1، 1992.
167. مانويل جوميث مورنيو: الفن الإسلامي في إسبانيا، ترجمة السيد عبد العزيز سالم-لطفي عبد البديع، راجعه جمال محمد محرز، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، (د.ط)، 1968.
168. مجموعة من المؤلفين: ألف اختراع واختراع التراث الإسلامي في عالمنا،تحرير سليم الحسني، مؤسسة العلوم والتكنولوجيا، المملكة المتحدة، (د.ط)، 2005.
169. مقيدش محمود: نزهة الأنظار في عجائب التواريخ والأخبار، تحقيق علي الزواري- محمد محفوظ، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، ط1، 1988.
170. مكي الطاهر أحمد: دراسات أندلسية في الأدب والتاريخ والفلسفة، دار المعارف، القاهرة، ط3، 1987.
171. ملكاوي فتحي حسن: منهجية التكامل المعرفي مقدمات في المنهجية الإسلامية، المعهد العالمي للفكر الإسلامي، هرندن، فرجينيا، الولايات المتحدة الأمريكية، ط1، 2011.

172. مؤنس حسين: تاريخ الجغرافيا والجغرافيين في الأندلس، مكتبة مدبولي، ط1، 1986.

...........: الحضارة – دراسة في أصول وعوامل قيامها وتطورها، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآدا، الكويت، ط2، 1978

173. ....: فجر الأندلس دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية، العصر الحديث-دار المناهل، بيروت، لبنان، ط1، 2002.

174. ....: المسلمون في البحر المتوسط الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، ط2، 1993.

175. ....:رحلة الأندلس حديث الفردوس الموعود، الدار السعودية للنشر والتوزيع، جدة، ط2، 1985.

176. نصر سيد حسين: العلوم في الإسلام دراسة مصورة، نقله إلى العربية مختار الجوهري، تحقيق النص العربي محمد السويسي، دار الجنوب للنشر، تونس، 1978.

177. الوافي إبراهيم: الدراسات القرآنية بالمغرب في القرن الرابع عشر الهجري، مطبعة النجاح، الدار البيضاء، ط1 ، 1999.

178. والي فاضل فتحي محمد: الفتن والنكبات وأثرها في شعر الأندلسي، دار الأندلس للنشر والتوزيع، المملكة العربية السعودية، ط1، 1996.

ثالثا: الرسائل والأطروحات الجامعية:

179. أبو حويج مروان سليم: الثقافة والتربية في الأندلس من ابن عبد ربه إلى ابن خلدون خلاصة المحتوى وتقويم المنهج، رسالة دكتوراه في الأدب العربي غير منشورة، جامعة القديس يوسف، بيروت، 1983.

180. أبو شعراية حميدة منصور حسن: التاريخ السياسي والحضاري لمملكة بني هود في سرقسطة (431-503هـ/ 1039-1110م)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة بنغازي، 2011-2012.

181. آل زيد الشريف خالد بن عبد الله بن حسن: مدينة مالقة منذ عصر الطوائف حتى سقوطها دراسة سياسية اقتصادية (422-892هـ)، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1425-1426هـ.

182. البشري سعد عبد الله: الحياة العلمية في عصر ملوك الطوائف في الأندلس (422-488هـ/ 1030-1095م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1405-1406هـ.

183. بوخاري عمر: البربرفي الأندلس في عصر الطوائف خلال القرن (5هـ/11م)، أطروحة دكتوراه في التاريخ الوسيط غير منشورة، جامعة أبي بكر بلقايد، تلمسان، 2014-2015.

184. بودالية تواتية: البيئة في بلاد الأندلس عصري الخلافة وملوك الطوائف، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط الإسلامي غير منشورة، جامعة وهران، الجزائر، 2013-2014م.

185. بوشريط أمحمد: ظاهرة البيوتات الأندلسية ودورها الثقافي 300-460هـ/912-1067م، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي غير منشورة، جامعة وهران، الجزائر، 2011-2012.

186. الجوراني آمنة حميد حمزة : الصيادلة والعشابون في الأندلس، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، بغداد، 2007.

187. الحساني فايزة بنت عبد الله: تاريخ مدينة سرقسطة منذ عصر الخلافة الأموية حتى سقوطها(316-512هـ/928-1118م) دراسة سياسية حضارية، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة أم القرة، المملكة العربية السعودية، 1429-1430هـ.

188. حميدي مليكة: الإسهامات الحضارية للمرأة الأندلسية من الفتح الإسلامي إلى سقوط غرناطة (من 92-897هـ/711- 1492م)، رسالة دكتوراه في التاريخ الوسيط غير منشورة، جامعة الجزائر2، 2013-2014.

189. حوالة يوسف أحمد: بنو عباد في اشبيلية دراسة سياسية حضارية، رسالة دكتوراه في التاريخ غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 1980.

190. الحياة الاجتماعية والثقافية للأندلس في عصر ملوك الطوائف 400- 479هـ/1009-1086م، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة الحاج لخضر، باتنة، 2006-2007.

191. رابح رمضان: النشاط التجاري بالأندلس خلال القرنين الرابع والخامس الهجريين العاشر والحادي عشر الميلاديين، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة السانية ، وهران، الجزائر، 2007-2008م.

192. الزغلول جهاد غالب مصطفى: الحرف والصناعات في الأندلس منذ الفتح الإسلامي حتى سقوط غرناطة، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1994.

193. السلمي إبراهيم بن عطية الله بن هلال: تاريخ مدينة طليطلة في العصر الإسلامي دراسة تاريخية حضارية (92-478هـ)، رسالة ماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1424-1425هـ.

194. السلمي ابراهيم: العدوة الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائف إلى سقوطها في يد الإسبان دراسة سياسية حضارية، رسالة دكتوراه في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة أم القرى، السعودية، 1430.

195. عابد فطيمة: الحياة الفكرية بسرقسطة البيضاء خلال عهد ملوك الطوائف، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة الجزائر، 2008-2009.

196. العابد وردة: القيادة العسكرية في الثغرين الأدنى والأعلى بالأندلس في القرن الخامس الهجري حتى الربع الأول من القرن السادس الهجري، رسالة ماجستير غير منشورة، جامعة منتوري، قسنطينة، 2007-2008.

197. العطار ابراهيم أحمد ابراهيم مصطفى: الجانب الرياضي في الفن الإسلامي كوسيلة لإثراء الابداع في التصوير، رسالة ماجستير في التربية الفنية غير منشورة، جامعة حلوان، مصر، 2004.

198. العلي حيدر عبد الرزاق جعفر: الاغتيالات السياسية في الأندلس حتى نهاية دولة الموحدين، رسالة مقدمة لاستكمال متطلبات درجة الماجستير في التاريخ الإسلامي غير منشورة، جامعة البصرة، 2015.

199. العمايرة محمد نايف: التاريخ السياسي لمدينة بلنسية، رسالة دكتوراه في التاريخ غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1995.

200. العمودي عدنان صالح عبد الله: التعليم في الأندلس خلال القرن الخامس الهجري، رسالة ماجستير في التربية الإسلامية غير منشورة، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية، 1431هـ.

201. عيوني محمد: دور الرقيق في الحياة السياسية والثقافية ببلاد المغرب والأندلس خلال القرنين4 و5 الهجريين، رسالة ماجستير في الحضارة الإسلامية غير منشورة، جامعة الجزائر1، 2012-2013.

202. الكحلوت يوسف شحدة: الأخلاق الإسلامية في الشعر الأندلسي عصر ملوك الطوائف، رسالة دكتوراه في الأدب والنقد غير منشورة، جامعة القرآن الكريم، السودان، 1999.

203. الكفاوين شاهر عوض: المقامات الأندلسية في عصري الطوائف والمرابطين، رسالة ماجستير في اللغة العربية غير منشورة، جامعة الملك عبد العزيز، مكة المكرمة، 1400-1401هـ.

204. محسن عائشة إبراهيم موسى سلامة : صورة المرأة في الشعر الأندلسي في عصر الطوائف وبني الأحمر، رسالة دكتوراه في الأدب غير منشورة، جامعة أم درمان، معهد بحوث ودراسات العالم الإسلامي، 2007.

205. مؤمن علي مؤمن إدريس: الحياة الاجتماعية الرومانية خلال العهد الجمهوري، رسالة ماجستير في التاريخ القديم غير منشورة، جامعة بنغازي، قسم التاريخ، 2012.

206. هياجنة محمود حسين شبيب: الوضع الزراعي في الأندلس منذ الفتح حتى سقوط دولة المرابطين، رسالة ماجستير في التاريخ غير منشورة، الجامعة الأردنية، 1989.

207. ولد أنّ محمد الأمين: النصارى واليهود من سقوط الدولة الأموية إلى نهاية المرابطين، رسالة دكتوراه في تاريخ المغرب الإسلامي غير منشورة، جامعة وهران، قسم التاريخ وعلم الآثار، 2012-2013.

208. يخلف حاج عبد القادر: الدور السياسي والإسهام الفكري لصنهاجة بالأندلس من القرن 4 الهجري إلى نهاية القرن6هـ/10-12م، رسالة دكتوراه غير منشورة، جامعة وهران1، الجزائر، 2016-2017.

رابعا: المعاجم اللغوية والموسوعات:

209. ابن فارس أبو الحسين أحمد(ت 395هـ/ 1004م): معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام هارون، دار الفكر، دمشق، سوريا، ط 1979، ج3.

210. ابن منظور الإفريقي جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم(ت 711هـ/ 1311م): لسان العرب، دار صادر، بيروت،لبنان، (د.ط)، 1300هـ، ج4، 8.

211. الأزهري أبو منصور محمد بن أحمد(ت 370هـ/ 981م): تهذيب اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط1، ج3، 15.

212. الجرجاني علي بن محمد السيد الشريف(ت 816هـ/1413م): معجم التعريفات، تحقيق ودراسة محمد صديق المنشاوي، دار الفضيلة، القاهرة، ط1، 2012.

213. حتاملة محمد عبده: موسوعة الديار الأندلسية، المكتبة الوطنية، عمان الأردن، ط1، 1999، ج1.

214. حماد نزيه: معجم المصطلحات المالية والاقتصادية في لغة الفقهاء، دار البشير، جده، السعودية، ط1، 2008.

215. زبيب نجيب: الموسوعة العامة لتاريخ المغرب ولأندلس، تقديم أحمد بن سودة، دار الأمير، بيروت، لبنان، ط1 ،1995، ج2.

216. عبد المنعم محمود عبد الرحمن: معجم المصطلحات والألفاظ الفقهية، دار الفضيلة، القاهرة، ط1999، ج1.

217. عكاوي رحاب خضر: موسوعة عباقرة الإسلام في النحو واللغة والفقه، دار الفكر العربي، بيروت، ط1، 1993، ج3.

218. عمر أحمد مختار: معجم اللغة العربية المعاصرة، عالم الكتب، القاهرة، ط1، 2008، ج1.

219. الغوري سيد عبد المجيد: معجم المصطلحات الحديثية، دار ابن كثير، دمشق- بيروت، ط1، 2007، ج1.

220. الفراهيدي أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد(ت 175هـ/ 791م):كتاب العين، ترتيب وتحقيق عبد الحميد هنداوي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003، ج1، 2، 3.

221. فرشوخ محمد أمشين: موسوعة عباقرة الإسلام في الفلك والعلوم البحرية وعلم النبات وعلم الميكانيكا، دار الفكر العبربي، بيروت، ط1، 1995، ج5.

222. فريول جيل: معجم مصطلحات علم الاجتماع، ترجمة وتقديم أنسام محمد الأسعد، مراجعة وإشراف بسام بركة، دار ومكتبة الهلال، بيروت، لبنان، ط1، 2011.

223. الفيروزآبادي مجد الدين محمد بن يعقوب(ت 817هـ/1415م): القاموس المحيط، راجعه واعتنى به أنس محمد الشامي- زكريا جابر أحمد، دار الحديث، القاهرة، ط208.

224. الفيومي أحمد بن محمد بن علي(ت770هـ/1368م): المصباح المنير، مكتبة لبنان، بيروت، ط1987.

225. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، مكتبة الشروق الدولية، مصر، ط4، 2004.

226. مجموعة من المؤلفين: الموسوعة الفقهية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، الكويت، ط2، 1983، ج1.

227. مجموعة من المؤلفين: الموسوعة الفلسفية، إشراف روزنتال يودين، ترجمة سمير كرم، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، د.ط،1967.

228. مجموعة من المؤلفين: معجم مصطلحات العلوم الشرعية، مدينة الملك عبد العزيز للعلوم والتقنية، الرياض، المملكة العربية السعودية، ط2، 2017.

229. مجموعة من المؤلفين: موسوعة الشروق مؤلفة شاملة، دار الشروق، القاهرة-بيروت، (د.ط)، 1994.

230. محمد رواس قلعه جي- حامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء، دار النفائس، بيروت، لبنان، ط2، 1988.

231. مؤنس حسين: موسوعة تاريخ الأندلس تاريخ وفكر وحضارة وتراث، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، ط1، 1996، ج1.

خامسا: المجلات والندوات والدوريات:

232. إبلاغ محمد: الرياضيات في الأندلس ما بين القرن 3و9هـ(10-15م)، ق3، ضمن الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق3، الحضارة والعمارة والفنون، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1996.

233. ابن الكردبوس أبو مروان عبد الملك التوزري (6هـ/12م): تاريخ الأندلس قطعة من كتاب الاكتفاء في أخبار الخلفاء، تحقيق أحمد مختار العبادي، صحيفة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج13، (1965-1966).

234. يحي بن عمر أبو زكريا الكناني الأندلسي (ت 289هـ/901م): نص جديد في الحسبة من كتاب أحكام السوق، تحقيق محمود علي مكي، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج4، ع1-2، 1956م.

235. ابن بصال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم الطليطلي(ت 499هـ/1106م):كتاب الفلاحة، نشر وترجمة خوسيه ماريا مياس بييكروسا، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج5، ع1-2، 1957.

236. أحمد علي: اليهود في الاندلس والمغرب خلال العصور الوسطى، مجلة آفاق الثقافة والتراث، الإمارات العربية، السنة الخامسة، ع17، 1418هـ/1997م.

237. اعديله مصطفى : الفتح المرابطي، المجلة المغربية للدراسات الإسبانية، فاس، المغرب، ع2، 1992.

238. انتونيوا فرنانديز بويرتاس: فن الخط العربي في الأندلس، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2.

239. بيير غيشار: التاريخ الاجتماعي لإسبانيا المسلمة من الفتح إلى نهاية حكم الموحدين (من بداية القرن الثامن إلى بداية القرن الثالث عشر) دراسة شاملة، تحقيق مصطفى الرقي، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2.

240. الجبير أحمد: نزعة الحرب المقدسة في الديانات السماوية، مجلة الحوار المتمدن الإلكترونية، منشور بتاريخ: 2007/6/16.

241. جحا فريد: : التراث العربي الأندلسي في ميدان علم النبات، ضمن كتاب اسهامات العرب في علم النبات، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب من 10-14 ديسمبر 1983،الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط1، 1988.

242. جيريلين دودز: فنون الأندلس، ترجمة جاسر أبو صفية، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي،مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2.

243. حسين عادل محمد علي الشيخ: النبات في اسبانيا العربية (الأندلس) ، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب المنعقدة تحت عنوان: اسهامات العرب في علم النبات، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، الكويت، ط1، 1988.

244. حسين كريم عجيل – عبد الرحمن نوفل حامد: أعلام الرياضيات والفلك في الأندلس، مجلة جامعة تكريت للعلوم الإنسانية، مج20، ع7، 2013.

245. خلاف محمد عبد الوهاب: القضاء في قرطبة الإسلامية القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي، مجلة المناهل، وزارة الشؤون الثقافية، الرباط، المغرب، العدد31، السنة الحادية عشرة، دوجنبر 1984.

246. خوان قيرنيه: العلوم الفيزيائية والطبيعية والتقنية في الأندلس، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الاندلس، سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز الراسات العربية، بيروت، ط2، 1999، ج2.

247. الديلمي خالد محمود ، عبد رحيم مهند: تزايد قوى الممالك الإسبانية وانحسار النفوذ الإسلامي في الأندلس خلال الحقبة (422-478هـ)، مجلة آداب الفراهيدي، ع18، 2014.

248. روبرت هيلنبراند: "زينة الدنيا" قرطبة القروسطية مركزا ثقافيا عالميا، ضمن كتا ب الحضارة العربية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج1.

249. ريموند شايندلين: اليهود في اسبانيا المسلمة ترجمة مريم عبد الباقي، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية ، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج1.

250. سالم السيد عبد العزيز: العمارة الإسلامية في الأندلس وتطورها، مجلة عالم الفكر، العدد الأول، أفريل ماي جويلية، 1977.

251. سالم السيد عبد العزيز: صور من المجتمع الأندلسي في عصر الخلافة الأموية وعصر دويلات الطوائف من خلال النقوش المحفورة في علب العاج، مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد، مج19، 1979.

252. سالم سحر السيد عبد العزيز: الجوانب الإيجابية والسلبية في الزواج المختلط في الأندلس، (دراسة سياسية أدبية اجتماعية)، ضمن كتاب الغرب الإسلامي والغرب المسيحي خلال القرون الوسطى (ندوة)، تنسيق محمد حمام، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، ط1، 1995.
253. سالم سحر عبد العزيز: ملابس الرجال في الأندلس،مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية، مدريد،1995، مج 27.
254. سالم محي الدين: تطور الدرس اللغوي في الأندلس، مجلة الآداب، جامعة الإخوة منتوري، قسنطينة، ع14، 2014.
255. السامرائي عبد الحميد حسين أحمد : الصناعات الدوائية الأندلسية، مجلة سر من رآى، مج4، ع11، س4، 2008.
256. شبشوب أحمد: منزلة العلم والتعليم بالأندلس من خلال رسالة مراتب العلوم لابن حزم، ضمن كتاب الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق3، الحضارة والعمارة والفنون، مكتبة الملك عبد العزيز العامة، الرياض، ط1، 1996.
257. شلبي عمر راجح: دور علماء الأندلس في الحياة السياسية في القرن الخامس الهجري، مجلة الجامعة الإسلامية، جامعة الخليل، الضفة الغربية، فلسطين، مج16، ع2، يونيه 2008.
258. شيخة جمعة: دور مدرسة الترجمة بطليطلة في نقل العلوم العربية إلى أوروبا، ضمن الأندلس قرون من التقلبات والعطاءات، ق3، الحضارة والعمارة والفنون، مطبوعات مكتبة الملك عبد العزيز العامة، ط1، 1996.
259. عباس فايزة حمزة: صور من إسهامات المرأة الأندلسية في في الحياة الثقافية في عصر الطوائف، مجلة أبحاث كلية الربية الأساسية، الموصل، مج3، ع3، 2005.
260. عبد السلام محمد النويهي: علم النبات عند العرب، ضمن موسوعة الحضارة العربية الإسلامية، تحرير عبد الرحمن بدوي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت- دار الفارس للنشر والتوزيع، عمان، ط1، 1995.
261. عبد العزيز هشام فوزي: يهود الأندلس في ظل الحكم الإسلامي، مجلة العصور، مج11، دار المريخ، لندن، يناير2001، ج1.
262. عبود أنسام غضبان: الزراعة في مملكة بلنسية خلال عصر الطوائف-دراسة تاريخية-، مجلة آداب البصرة، ع40، 2006
263. فرانشيسكو فرانكو سانشث: تطور الطب في الأندلس، تعريب جمعة شيخة والشاذلي النفطي، المجلة العربية للثقافة، مج14، ع27، سبتمبر 1994.

264. القاضي محمد: رندة الإسلامية أمنع حصون الأندلس الجنوبي، المجلة العربية، الرياض، المملكة العربية السعودية، 1433هـ.

265. لوسي بولنس: الطبيخ الأندلسي فن من فنون الحياة (القرن 5هـ/11م- 7هـ/13م)، تقديم سهام الدبابي الميساوي، مجلة دراسات أندلسية، تونس، ع6، جوان 1991.

266. مارغاريتا لوبيز غوميز: المستعربون نقلة الحضارة الاسلامية في الأندلس، ترجمة أكرم ذا النون، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999، ج1.

267. ماريا إيزابيل فييرو: الزندقة والبدع في الأندلس، ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلى خضراء الجيوسي، مطبعة مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، ط2، 1999 ، ج2.

268. ماريبيل فييرو: الجدل في كرامات الأولياء وتطور التصوف في الأندلس، تعريب مصطفى بنسباع، ضمن المغرب والأندلس دراسات وترجمات، تقديم وتنسيق مصطفى بنسباع، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تطوان، المغرب، ط1، 2010.

269. محمد البركة: ابن بصال الطليطلي (ت499هـ/1106م) حياته العلمية وآثاره التجريبية، مجلة عصور الجديدة، ع14-15، جامعة وهران، صيف-خريف أكتوبر، 1435هـ/2014.

270. المسعودي عباس فضل حسين: دولة البونت (400هـ/1009م-496هـ/1102م) دراسة في أوضاعها السياسية والفكرية، مجلة كلية التربية، ع9، (د.ت).

271. المشهداني علياء هاشم: انتقال المعرفة من بلاد الشام إلى الأندلس، مجلة التربية والعلم، مج19، ع3، الموصل، 2012.

272. مكي محمود: تاريخ الأندلس السياسي (62-897هـ/711-1492م) دراسة شاملة، منشور ضمن كتاب الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير سلمى خضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، لبنان، ط2، 1999، ج1.

273. نصار حسين: كتب النبات عند العرب، ضمن كتاب اسهامات العرب في علم النبات، الندوة العالمية الثالثة لتاريخ العلوم عند العرب من 10-14 ديسمبر 1983، الكويت، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، ط1، 1988.

274. الياسري عبد الكريم خيطان – السويعدي سعد قاسم علي: الصناعات المحلية وتطورها في مدينة طليطلة92-478هـ، مجلة الأستاذ، ع205، مج1، 2013.

سادسا: المراجع الأجنبية:

275. Carmona, D Francisco Diaz:Historia de Espana, Barcelona, 1911.
276. Chapman Charles E: A History of spain.founded on the historia de Espanay de la civiligation Espanala of Altamira U.S.A 1931
277. Dozy Rrinhart: Histoire de Musulmans d'Espagne ,Vol.II ,p422,Trad. Espagnole
278. Dufourcq C.E: la vie quotidienne dans l'Europ ,Médiévale sous Domination Arabe ,Biarritz,1981.
279. Guichard Pière:De la expansion Arabe a la reconquista, Esplendor y Fragilidad de la –Andalus (=De la expansion Arabe a la reconquista), edi.por El legado Andalusi, Granada,2002, p.131.
280. HENRI Pérés : la poésie Andalouse en arabe classiqueau au XIème siècle, 12eme édition 1953.
Jan Read: the Moors in Spaine and Portugal, , Rowman & Littlefield Pub Inc, 1st edition, ,1975, P 82 .
281. L.Garcia: de Valdeavellano,Sobre los burgos y burgueses de la Espana medieval ,Madrid, 1960.
282. Levy- provençal, E : La Description de L'Eespagne , Ahmed al Razi,Revesta les estudias Arabes de medrid Granada, XVIII,1953.
283. Lewis A-Coser, Conflict : Social Aspects, in IESS, 1968.
284. PROULEX ,jean :les Meurtiers sexuels ,Edition PUM ,2005
285. R Menedez Pidal:La Espana del Cid (Madrid,1947).
286. Robert north , conflict :The Political Aspects in IESS 1968 .

287. S.P. SCOTT : History of the Moorish Empire in Euroupe,Philadelphia-london, jb Lippincott company,1904, Vol. lll.

288. the Encyclopedia Amiricana international Edition, Danbury Connecticut, Gerolier incorporated, 1992

سابعا: المواقع الإلكترونية:

289. إيمان بديع عبد ربه: الصيدلة في التاريخ الإسلامي، من موقع www.naseemalsham.com الإلكتروني.

290. www.pinterest.com

291. www.yabeyrouth.com

الفهارس والكشافات

- كشاف الآيات القرآنية
- كشاف الأحاديث النبوية
- كشاف الأعلام
- كشاف البلدان والمدن
- فهرس المحتويات

كشاف الآيات القرآنية:

كشاف الأحاديث:

كشاف الأعـــــلام

الشين

الصاد

الطاء

الظاء

العين

النون

الهاء

الواو

الياء

كشاف البلدان والمدن

العين

الغين

الفاء

القاف

فهرس المحتويات

ملخص البحث:

في مستهل القرن الخامس الهجري الحادي عشر الميلادي انفرط عقد الخلافة الأموية بالأندلس، فاستقل الزعماء والقادة بالنواحي والأقاليم، وأنشأ كل واحد منهم دويلة تفتقر إلى مقومات الدولة الحقيقية، وسعى كل زعيم إلى توسيع رقعته على حساب جيرانه وضم المزيد من الأراضي مستعملين في ذلك العساكر والجيوش المدججة بأحدث ما توصلت إليه الصناعة الحربية من الأسلحة في عصرهم، فكثرت الغارات والحروب وعمليات الغزو، ولما كانت جيوش الكثير من ملوك الطوائف لا تكفي لإحراز الانتصارات المنشودة قاموا بإنشاء تحالفات إما مع النصارى أو مع بعضهم ضد بعضهم، فأضحى الأندلس منطقة ملتهبة.

لا شك بأن هذه الصراعات العسكرية قد تركت أثرا ما على كل شيء في الأندلس فجاءت هذه الدراسة لتقصي وتتبع آثار هذه الصراعات في الجوانب الحضارية المختلفة من أجل تحديد طبيعة هذه الآثار فتم البحث عنها في شكل الدويلات، وأنظمة حكمها، وفي العلاقات بين رجالات الدولة داخل مقرات الحكم، وفي عمليات الجهاد والاسترداد المسيحي والتحالفات العسكرية، وفي النظامين المالي والنقدي لهذه الدويلات خلال هذا القرن، كما شمل البحث البنية التحتية وقطاعات الإنتاج والحياة الاجتماعية للإنسان الأندلسي لا سيما في بعديها الأسري والصحي، وتوسعت عملية البحث لتشمل الحياة الثقافية للإنسان الأندلسي حيث تم البحث عن هذه الآثار في العلوم والمعارف والآداب والفنون وفي المذاهب والتيارات والأفكار وعمليات التفاعل بين المكونات السكانية.

الكلمات المفتاحية: الآثار؛ الحضارة، ملوك الطوائف؛ الصراع العسكري؛ القرن الخامس الهجري.

Abstract

In the beginning of the fifth century AH, and the 11th century AD, the Umayyad caliphate and dynasty in Andalusia was broken. However, the leaders and rulers took off provinces and regions. Each of them instituted a polity that lacked the basic components of a real stateseeking to expand his territory at the expense of his neighbors and annexing more and more lands by employing soldiers and army equipped with the latest military industry of weapons at that time. Therefore,many raids, wars and invasions have been escalated. As the armiesof many of the kings of the sects are not enough to win the desired victories they, subsequently, created alliances either with the Christians or with each other against others, hence, Andalusia became a burning region.As a matter of fact, these military conflicts have had an impact on everything in Andalusia. The current investigationaims at exploring and tracingthese effects in

different cultural aspects in order to determine its nature.The study also investigates the forms of states and their systems of governance, the relations between the leaders of the state within the headquarters of the government, the operations of jihad and the Christian redemption and military alliances, both financial and monetary systems of these states during this centuryas well. Furthermore, the research covered the infrastructure, production sectors and social life of Andalusian people, especially in their family and health dimensions. Nonetheless, the research was expanded to include the cultural life, where these effects were sought in science, knowledge, literature, arts, doctrines, currents, thoughts and interactions between the components of the population.

Key words: effects, Civilization, Kings of Sects; Conflict; Military; Fifth Century AH